ليو تولستوي

طريق النور

وثلاث وعشرون حكاية



(ترجمة الباز الأشهب)

مراجعة: مظهر الملوحي

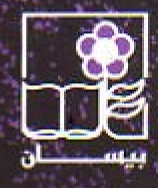


كيف لي وانا نملة ادب على هذه الارض ان اتجرأ
واقدم عملاق الادب العالمي ليو تولستوي.
باستثناء الكتاب المقدس، لم يعرف عن كاتب
ترجمت مؤلفاته الى مئات اللغات العالمية. كما عرف
الكاتب الروسي ليو تولستوي بكتابه هذا:

«طريق النور وقصص اخرى»

ينقلنا هذا الكتاب الى ابعد من دوائرنا الضيقة. الى
عالم روحي افتقدناه ومازلنا نفتقده يوماً بعد يوم. حيث اننا
نبحث عن آبار متشققة لا يتجمع فيها ما يروي عطش
الانسانية وفراغها الروحي. الأمر الذي يدفعها باتجاه
الدمار.

مظهر ملوحي



حوارٌ بين مترفهين

تمهيد للقصة التالية

بينما كان بعض الضيوف مجتمعين ذات يوم في منزل ثراء ، اتفق أنهم طفقوا يتجاذبون أطراف محادثة جدية في شؤون الحياة وشجونها . وتكلموا عن أناس حاضرين وغائبين ، لكنهم أخفقوا في العثور على شخص واحد راضٍ بحياته . ولم يقتصر الأمر على أن أيا منهم لم يستطيع أن يتباهى بالسعادة ، بل تعدى ذلك إلى ان أحداً منهم لم يعتبر انه يحيا كما ينبغي للمسيحي المؤمن . فقد أقر الجميع بأنهم يعيشون حياة دنيوية معنيين فقط بأنفسهم وبأسرهم ، وبأن لا أحد منهم كان يفكر بجيرانه ، أو بالله على الأقل .

هكذا قال جميع الضيوف ، واتفقوا جميعهم في لوم أنفسهم على عيشهم حياة عديمة التقوى وغير ملتزمة تعاليم المسيح . ثم اندفع شاب من بينهم قائلاً : "لماذا إذاً نعيش هكذا ؟ لماذا نفعل ما لا نوافق عليه نحن أنفسنا ؟ أليست لدينا قدرة على تغيير نمط حياتنا ؟ فنحن انفسنا نعترف بأننا قد فسدنا من جراء رفاهيتنا وخنوعنا وغنانا ، وأول كل شيء من جراء كبريائنا ، أي تعالينا على إخواننا البشر . ولكي نكون نبلاء وأغنياء ، ينبغي لنا أن نحرم انفسنا كل ما يؤتي الإنسان فرحاً وسروراً . فنحن نحتشد داخل المدن ، ونصير خُنُعاً ، وندمر صحتنا ، وعلى الرغم من جميع التسليات المبذولة لنا نموت من السأم ومن الندم على كون حياتنا خلاف ما ينبغي أن تكون .

"ترى ، لماذا نحيا هكذا ؟ لماذا نفسد حياتنا وجميع الخير الذي ينعم به الله علينا ؟ إنني لا اريد أن أعيش على هذا النمط القديم المعتاد! سوف اقلع عن دراستي التي باشرتها ، فهي إنما تفضي بي إلى حياة العذاب عينها هذه التي تتذمر

منها جميعنا الآن . سوف أتخلى عن أملاكي وأذهب إلى الريف وأعيش بين الفقراء . سأعمل معهم وأتعلم أن أشتغل بيدي ، وإن كان في ثقافتي أية منفعة للفقراء فسوف أشركهم فيها ، لا من طريق المؤسسات والكتب ، بل على نحو مباشر ، بأن أعيش معهم عيشة الإخلاص والمودة ." ثم أردف قائلاً : "نعم ، لقد عقدت عزمي على هذا القرار" ، وهو ينظر نظرة المستفهم إلى أبيه الذي كان حاضراً أيضاً .

فقال أبوه : "رغبتك جديرة بالاعتبار ، لكنها صادرة عن قلة تفكير وترو . إنها تبدو لك في منتهى السهولة لسبب وحيد هو انك لا تعرف الحياة حق المعرفة . ففي الحياة اشياء كثيرة تبدو صالحة في نظرنا ، ولكن تنفيذ ما هو صالح أمر معقد وصعب . إن في سلوكنا طريقاً ممهداً ما يكفي من الصعاب ، ولكن شق طريق جديد ينطوي على صعوبات أكثر . فالسبل الجديدة لا يشقها إلا الرجال الناضجون تماماً والذين أتقنوا كل ما يمكن أن يبلغه الإنسان . إنما يبدو لك أمراً سهلاً أن تشق دروباً جديدة في الحياة لأنك لا تفهم الحياة بعد . إن ذلك حصيلة انعدام في التفكير ونتيجة لكبرياء الشباب . ونحن معشر الكبار تدعو إلينا الحاجة للتلطيف من حدة تهوركم ، ولإرشادكم بخبراتنا . كما أنه ينبغي لكم ، أنتم الشباب ، أن تطيعونا حتى تستفيدوا من تلك الخبرات . إن حياتك العملية تنبسط أمامك ، وما انت إلا ناشئ نام . فأكمل تعلمك ، واطلع على الأمور اطلاعاً وافياً كافياً . قف على قدميك انت ، وكون قناعاتك الشخصية الراسخة ، ثم انطلق في حياة جديدة إذا شعرت بأن لك القوة للقيام بذلك . أما في الوقت الحاضر ، فعليك أن تطيع اولئك الذين يرشدونك لأجل خيرك ، وألاّ تحاول أن تشق دروباً جديدة في الحياة ."

إذ ذاك صمت الشاب ، وأبدى الضيوف الأكبر سناً موافقتهم على ما قاله الأب . ثم التفت كهل متزوج إلى والد الشاب وقال له : "انت على حق . صحيح أن اليافع الغر ، لقلة خبرته بالحياة ، قد يتخبط حين يتلمس طرقاً جديدة في الحياة ،

ولا يمكن أن يكون قراره قراراً ثابتاً . ولكنك تعلم أننا جميعاً اتفقنا على أن حياتنا مناقضة لضمائرنا وأنها لا تؤتينا السعادة . وعليه ، فنحن لا نستطيع إلا أن نقر بصوابية الرغبة في الإفلات من قبضتها .

"قد يكون الفتى مخطئاً في توهمه لبلوغ استنتاج منطقي ، ولكني أنا الذي لم أعد شاباً بعد أقول لك عن نفسي إنّ الفكرة عينها خطرت في بالي وأنا أصغي إلى المحادثة هذا المساء . فواضح لي جلياً أن الحياة التي أعيشها الآن لا يمكن أن تؤتيني سلام الذهن أو السعادة . ذلك ما يبرهنه لي الاختبار والعقل على السواء . إذاً ، ماذا أنتظر ؟ إننا نكافح من الصباح إلى المساء لأجل أسرنا ، ولكن ذلك يفضي بنا إلى أن نعيش وأسرنا حياة عديمة التقوى ، ونغوص في الخطايا أكثر فأكثر . فنحن نشتغل لخير عائلاتنا ، ولكن عائلاتنا ليست أحسن حالاً ، لأننا لا نقوم بما هو لخيرهم فعلاً . ولذلك أفكر غالباً أنه يكون أفضل لو غيرت نمط حياتي بكامله وفعلت تماماً ما نوى هذا الشاب أن يفعله ، بأن أكف عن الاهتمام والقلق بشأن زوجتي وأولادي وأباشر التفكير في حال نفسي . فليس عبثاً قال بولس رسول المسيح : "المتزوج يهتم كيف يرضي زوجته . أما غير المتزوج فيهتم كيف يرضي الرب" ."

ولكن قبل أن ينهي كلامه ، شرعت زوجته وجميع النساء الحاضرات في مهاجمته . فقالت امرأة كبيرة السن : "كان ينبغي لك أن تفكر في هذا قبل الآن . لقد وضعت النير على عنقك ، ولذلك ينبغي لك أن تحمل حملك . فعلى ذلك النحو ، سيقول كل واحد إنه يرغب في الانعتاق والانطلاق كي ينقذ نفسه حين يستصعب إعالة أسرته وإطعامها . إنّ ذلك زائف وخسيس . كلا! ينبغي أن يكون الرجل قادراً على أن يعيش حياة التقوى مع عائلته . طبعاً ، سيكون سهلاً للغاية أن تنقذ نفسك وحدها . ولكن مثل هذا التصرف يعني أن تجري في سبيل يناقض تعاليم المسيح . لقد أوصانا الله بأن نحب الآخرين . ولكن بتلك الطريقة تسيء إلى الآخرين باسمه تعالى . لا . . . إنّ للمتزوج واجباته المحددة ، وعليه ألا يتنصل

منها . إنما يختلف الأمر حين تكون أسرتك قادرة على الوقوف على قدميها . ولكن ليس لأحد أي حق في إرغام عائلته ."

غير أن الرجل الذي كان قد تكلم لم يوافقها على ذلك ، بل قال : "أنا لا أريد أن اتخلى عن أسرتي ، بل كل ما أقوله هو انه ينبغي الا تتربى عائلتي بطريقة دنيوية ، والا تُنشأ لكي تعيش في سبيل متعتها الذاتية ، على حد ما كنا نقول آنفاً ، ولكن ينبغي أن نربي صغارنا منذ نعومة أظفارهم بحيث يتعودون الحرمان والعمل وخدمة الآخرين ، وأول كل شيء أن يعيشوا حياة أُخوّة مع جميع الناس . ولأجل ذلك علينا أن ننبذ غنانا وامتيازاتنا ."

إذ ذاك هتفت زوجته بانفعالٍ حادّ : "لا داعي لأن تغيظ الآخرين فيما لا تعيش أنت نفسك حياة تتصف بالتقوى . فأنت بذاتك عشت في سبيل لذّاتك الذاتية لما كنت شاباً ، فلماذا إذاً تبتغي أن تعذب أولادك وعائلتك ؟ دعهم ينشأوا في هدوء ، وفي ما بعد دعهم يعملوا ما يحلو لهم دون إكراه منك!"

فلم يحر زوجها جواباً . ولكن رجلاً طاعناً في السن كان حاضراً هناك تكلم نيابةً عنه ، فقال : "لنعترف بأن المتزوج ، إذ يكون قد عود عائلته مستوى من الراحة معيناً ، لا يستطيع أن يحرمها إياه فجأة . صحيح أنه حين تبدأ تعليم أولادك يكون افضل أن تكمل تعليمهم ولا تتخلى عن كل شيء ، ولا سيما ان الأولاد حين يكبرون يختارون السبيل الذي يعتبرونه الأفضل لهم . أوافقك على أنه يصعب على رب العائلة ، بل يستحيل عليه ، أن يغير نمط حياته دون أن يأثم . ولكننا نحن معشر الكبار سناً يعنينا ما يوصي به الله . فلأقل عن نفسي إنني الآن أعيش دون اي التزام ، وكي اكون صادقاً أقول إنني إنما أعيش لأجل بطني . فأنا آكل وأشرب وأستريح ، وأنا منفّر ومقزّز حتى لنفسي . لذلك آن الأوان كي أنبذ مثل هذه العيشة ، وأتخلى عن أملاكي ، وأعيش زماناً ، على الأقل قبل أن أموت ، كما يريد الله للمسيحي المؤمن ان يحيا ."

ولكن الآخرين لم يوافقوا العجوز على رأيه . وكان بين الحضور ابنة أخيه

وابنه بالتنصير ، وقد كان هو عرّاباً أو كفيلاً لجميع أولادها ، واعتاد أن يقدم إليهم الهدايا في الأعياد . وكان ابنه أيضاً حاضراً هناك . فاعترض الرجل وابنه كلاهما ، وقال الابن : "كلا! فأنت قد عملت في زمانك ، وقد آن لك أن تستريح ولا تتعب نفسك . لقد عشت ستين سنةً على عادات معينة ، ويجب ألا تغيرها الآن ، وإلا كنت تعذب نفسك عبثاً ."

واكدت ابنة أخيه قائلةً : "نعم ، نعم! لو فعلت ذلك لعانيتَ الفاقة وانحراف المزاج ، ولكنت تدمدم وتأثم أكثر من ذي قبل . إنّ الله رحيم وسوف يغفر لجميع الآثمة ، ولا سيما لك أنت أيها العم الشيخ اللطيف."

حينئذٍ أضاف شيخ آخر من أتراب الرجل : "نعم! ولماذا ينبغي لك أن تفعل ذلك ؟ فأنت وأنا لدينا ربّما أيام قليلة نعيشها ، فلماذا ينبغي لنا إذاً أن ننطلق في طرق جديدة ؟"

إذ ذاك هتف واحدٌ من الضيوف كان قد لاذ بالصمت طوال الوقت : "يا له من أمرٍ غريب! يا له من أمرٍ عجيب! نحن جميعاً نقول إنه من الخير أن نعيش كما يوصينا الله ، وإننا نعيش حياةً سيئة ونعاني روحاً وجسداً . ولكن ما إن نصل إلى الممارسة حتى يثبت لنا أنه لا ينبغي أن نغيظ أولادنا ، وأنه يجب أن نربيهم لا على نحو يتصف بالتقوى بل على الطريقة المعهودة . فعلى الرجل المتزوج ألا يغيظ زوجته وأولاده ، وعليه ألا يعيش عيشة التقوى بل العيشة القديمة التي اعتادها . ولا داعي لأن يباشر كبار السن أي شيء جديد ، فإنهم لم يتعودوا ذلك ، ولم يبق أمامهم إلا أيامٌ معدودة يعيشونها . وهكذا يبدو أن ليس لأحدٍ منا أن يحيا الحياة الصحيحة الواجبة ، بل لنا أن نتحدث عنها فقط!"

سنة 1893

سيروا في النور
ما دام لكم النور

سيروا في النور ما دام لكم النور

قصة من أيام المسيحية الأولى

جرت أحداث هذه القصة في عهد الإمبراطور الروماني تراجان ، بعد مولد المسيح بمئة سنة ، زمان كان تلاميذ رسل المسيح ما يزالون على قيد الحياة والمسيحيون يتمسكون تمسكاً شديداً بشريعة المعلّم العظيم كما جاء عنها في كتاب أعمال الرسل من الإنجيل الشريف :

وكان لجمهور الذين آمنوا قلبٌ واحد ونفس واحدة . ولم يكن أحد يقول إنّ شيئاً من أمواله له بل كان عندهم كلّ شيء مشتركاً . وبقوة عظيمة كان الرسل يؤدون الشهادة بقيامة الرب يسوع ونعمةٌ عظيمة كانت على جميعهم . إذ لم يكن فيهم أحد محتاجاً لأن كل الذين كانوا أصحاب حقول أو بيوت كانوا يبيعونها ويأتون بأثمان المبيعات ويضعونها عند أرجل الرسُل فكان يوزّع على كلّ أحد كما يكون له احتياج .

- أعمال الرسل (4 : 32 - 34)

1

في تلك الأزمنة الباكرة عاش في مقاطعة كيليكيا ، بمدينة طرسوس ، تاجرٌ سوريّ غنيّ اسمه جوفينال ، كان يتاجر بالأحجار الكريمة . وكان ذا أصلٍ فقير ووضيع ، لكنه بالاجتهاد والمهارة في عمله حصل الغنى وحظي باحترام مواطنيه . وقد سافر كثيراً إلى بلدان أجنبية ، وبات يعرف ويفهم الكثير رغم كونه غير مثقف ، فاحترمه أهل بلده لمقدرته وأمانته . وأشهر إيمانه بالديانة الوثنية التي كان يعتنقها جميع المواطنين المحترمين في الامبراطورية الرومانية ، والتي كانت شعائرها قد فُرضت بالتشديد منذ عهد الإمبراطور أغسطس وما

زال معمولاً بها تحت رعاية الإمبراطور الحالي تراجان . كانت كيليكيا بعيدةً عن روما ، ولكنها كانت خاضعة لحكم ولاةٍ رومانيين ، حتى إنّ كل ما كان يجري في روما كان ينعكس في كيليكيا التي سار ولاتها على نهج إمبراطورهم .

تذكر جوفينال الأخبار التي سمعها في حداثته عما فعله نيرون في روما ، ثم رأى لاحقاً كيف هلك الأباطرة واحداً في إثر واحد . ولكونه رجلاً ذكياً فقد ادرك انه لم يكن في الديانة الرومانية أي شيء مقدس بل كانت بجملتها من صنع أيادٍ بشرية . ولكن لأنه كان رجلاً صافي الذهن ، فهم أنه لن يكون من الخير ان يكافح ضد نظام الأمور القائم ، وانه لأجل طمأنينته الشخصية يفضل الخضوع له . لكنه غالباً ما تحير وارتبك إزاء تفاهة الحياة حواليه ، ولا سيما إزاء ما كان يجري في روما ، حيث ذهب مراراً وتكراراً في سبيل تجارته . وقد كانت له شكوكه ، ولم يستطع أن يحيط بكل شيء ، وعزا ذلك إلى قلة ثقافته .

كان قد تزوج وأنجب أربعة أولاد ، ولكن ثلاثة منهم ماتوا صغاراً ، ولم يبق على قيد الحياة إلا ولدٌ واحدٌ هو يوليوس . فله كرس جوفينال كل محبته وعنايته . ورغب على الخصوص في تعليم ابنه حتى لا تعذبه مثل تلك الشكوك التي أقضت مضجعه هو حيال أمور الحياة . فلما أكمل يوليوس السنة الخامسة عشرة من عمره ، عهد به أبوه إلى فيلسوف كان قد استقر في مدينتهما ودأب في استقبال الفتية بغية تعليمهم . في عهدة هذا الفيلسوف وضع الأب ابنه ومعه بمفيليوس رفيقه ، وهو ابن عبدٍ سابق أعتقه جوفينال .

كان الفتيان صديقين من عمر واحد ، وكلاهما وسيم المنظر . وقد اجتهدا كلاهما في الدرس ، وكانا كلاهما حسني السلوك . وتميز يوليوس في دراسة الشعراء والرياضيات ، أما بمفيليوس ففي دراسة الفلسفة .

وقبل إنهاء دراستهما بسنة ، أعلم بمفيليوس المعلم في المدرسة ذات يوم أن والدته الأرملة ستنتقل إلى مدينة دفنه وانه مضطر إلى قطع دراسته .

تأسف المعلم لفقد تلميذ يفاخر به ويؤتيه سمعة حسنة ، وتأسف جوفينال أيضاً ، لكن الأشد أسفاً كان يوليوس . إلا أن شيئاً لم يفلح في دفع بمفيليوس إلى البقاء ، وبعد شكر أصدقائه على محبتهم وعطفهم مضى في سبيله .

ثم انقضى عامان ، وقد أنهى يوليوس دروسه ، إلا أنه لم ير صديقه ولو مرة واحدة طيلة تلك المدة كلها .

غير أنه ذات يومٍ قابله في الطريق ، فدعاه إلى منزله ، وشرع يسأله عن مكان إقامته وأحوال حياته . فأخبره بمفيليوس أنه وأمه ما زالا يقيمان في المكان عينه ، لكنه قال : "إننا لا نسكن وحدنا ، بل بين أصدقاء كثيرين ، كل شيء بينهم وبيننا مشترك ."

فاستفسر يوليوس : "وكيف يكون كل شيء بينكم مشتركاً ؟"

"بأن أي واحد منا لا يعتبر أي شيء ملكاً له ."

"ولماذا تفعلون ذلك ؟"

قال بمفيليوس : "نحن مسيحيون ."

فهتف يوليوس : "أيعقل ذلك ؟ لقد سمعت أن المسيحيين يقتلون الاولاد ويأكلونهم! فهل يمكن أن تشارك انت في ذلك ؟"

فأن يكون المرء مسيحياً في تلك الأيام كان أشبه بأن يكون فوضوياً ثائراً في أيامنا هذه . إذ حالما كان الإنسان يدان لكونه مسيحياً كان يزج في السجن ، ويعدم الحياة إن لم ينكر إيمانه علناً .

أجاب بمفيليوس : "تعال وانظر . إننا لا نأتي أمراً غريباً . فنحن نعيش حياة بسيطة محاولين ألا نفعل أي أمر رديء ."

"ولكن كيف يمكنكم أن تعيشوا إذا لم تعتبروا أي شيء ملكاً لكم ؟"

"إننا ندبر أمر معيشتنا . فإن نحن اشتغلنا لأجل إخوتنا ، يشتغلون هم لأجلنا ."

"ولكن إذا أخذ إخوتكم عملكم ولم يعطوكم عملهم ، فماذا يكون ؟"

قال بمفيليوس : "ليس من شيء مثل ذلك . فأناس من هذا النوع يعيشون حياة مرفهة ولن يأتوا إلينا . أن عيشتنا بسيطة وبعيدة عن الترفه والتنعم ."

"ولكن بين الناس كثيرين من الكسالى الذين يسرهم أن يطعمهم الآخرون ."

"هنالك أمثال هؤلاء ، ونحن نستقبلهم بطيبة خاطر . وقد قصد إلينا مؤخراً رجلٌ من هذا النوع كان عبداً هارباً . صحيح أنه كان كسولاً ويعيش حياة سوء في بادئ الأمر ، لكنه ما لبث أن غير عاداته ، وقد صار الآن أخاً صالحاً ."

"ولكن لنفرض أنه لم يتحسن ."

"بيننا مثل هذا أيضاً . ويقول شيخنا كيرلس أن علينا أن نعامل هؤلاء باعتبارهم إخوتنا الأوفر تقديراً ، ونحبهم حباً زائداً بالأحرى ."

"وكيف يمكن أن يحب المرء إنساناً عديم النفع ؟"

"لا يستطيع المرء إلا أن يحب الإنسان؟"

فاستفهم يوليوس : "ولكن كيف يمكنك أن تعطي الجميع ما يسألون ؟ أن أعطى أبي جميع الذين يسألونه فإنه لا يلبث أن يُعدَم كل شيء ."

أجابه بمفيليوس : "لا أعرف حقيقة هذا الأمر . ولكن يبقى لدينا ما يكفي لسد حاجاتنا . وإذا حدث ألاّ يكون عندنا ما نأكله أو ما نلبسه ، نطلب من الآخرين فيعطوننا . إلا أن هذا نادراً ما يحدث . وقد صدف مرة واحدة فقط أنني أويت إلى فراشي بلا عشاء ، إلا أن ذلك إنما حصل لأنني كنت متعباً ولم أرغب في الذهاب لطلب شيء ما ."

فقال يوليوس : "لست أدري كيف تدبرون أمركم . ولكن أبي يقول إنك أن لم توفر ما عندك بل أعطيت كل من يسألك فسوف تموت أنت نفسك من الجوع ."

"ها نحن لا نموت! تعال وانظر . فإننا نعيش ، وليس فقط لا نحتاج ، بل أيضاً يبقى عندنا كثير نذخره ."

"وكيف ذلك ؟"

"لا تعجب ، فالأمور تجري على النحو التالي . إننا جميعاً نعترف بالإيمان الواحد نفسه ، ولكن قوة العمل به تختلف عند كل منا . فمنا من يملك مزيداً من هذه القوة ، ومنا من يملك قليلاً منها . وواحد تقدم كثيراً في سبيل الحياة الحقيقي ، فيما آخر ما يزال في أول الطريق فحسب . إنما نصب أعيننا جميعاً مثال المسيح بحياته الكاملة ، ونحن كلنا نحاول أن نقتدي به ، ونرى خيرنا في ذلك وحده . بعض منا ، كالشيخ كيرلس وزوجته بيلاجيا ، قادة متقدمون ، وبعض يقفون وراءهم ، وآخرون أيضاً يسيرون في المؤخرة . ولكننا جميعاً نسلك الطريق عينه . أما الذين في المقدمة فيقاربون إتمام العمل بشريعة المسيح المتمثلة في نكران الذات والاستعداد لخسارة حياتهم في سبيل إنقاذها . هؤلاء لا يرغبون في شيء . إنهم لا يوفرون حتى أنفسهم ، ووفاقاً لشريعة المسيح هم مستعدون لإعطاء من يسألونهم آخر ما يملكون . وآخرون أضعف من هؤلاء ، فهم يخورون ويندمون آسفين على أنفسهم حين يعوزهم اللباس والطعام المعتادان ، ولا يبذلون كل ما عندهم . على أن هنالك بعد من هم أضعف من أولئك ، كالذين باشروا سلوك الطريق منذ مدة وجيزة فقط . فهؤلاء ما يزالون يعيشون على الطريقة القديمة ، محتفظين لأنفسهم بالكثير ، غير معطين إلا ما يفضل عنهم . وهؤلاء القوم الذين في آخر الموكب هم الذين يقدمون أكبر معونة مادية لأولئك الذين في الطليعة . أضف إلى هذا أننا جميعاً مرتبطون بالوثنيين بوشائج القربى . فأب واحد من الرجال وثني صاحب أملاك ، وهو يُعطي ابنه . والابن يعطي من يطلبون منه ، لكن أباه يعود فيعطيه . ولآخر أم وثنية تشفق على ابنها وتعينه . وبيننا امرأة عندها أولاد وثنيون

يعتنون بها ويعطونها أشياء يرجون منها الآ توزعها ، وهي تأخذ ما يعطونها إياه بدافع حبها لهم ، لكنها أيضاً تعطي الآخرين . ولرجل آخر زوجة وثنية ، ولامْرأةٍ أخرى زوجٌ وثنيٌ . وهكذا نحن جميعاً ذوو ارتباط ، إلا أن المتقدمين فينا والذين من شأنهم أن يعطوا الآخرين بطيبة خاطر كل ما يكون لديهم ، لا يقدرون أن يفعلوا ذلك . ولذلك لا يتبين أن حياتنا صعبة جداً على الضعفاء في الإيمان ، ويحصل أن يكون لنا كثيرٌ من الفضالة والفيض ."

إزاء هذا قال يوليوس : "ولكن إن كانت هذه حالكم ، فأنتم إذا تخفقون في مراعاة تعليم المسيح ، وتتظاهرون فقط بالعمل به . وإذا كنتم لا تتخلون عن كل شيء ، فلا فرق بينكم وبيننا . فعقلي يقول لي إنه إن كان المرء مسيحياً فعليه أن يعمل تماماً بشريعة المسيح كاملةً ، فيتخلى عن كل شيء ويصير فقيراً يعوله الناس ."

فقال بمفيليوس : "من شأن ذلك أن يكون أفضل شيء . فلماذا لا تفعله أنت ؟"

"سأفعل ذلك حين أراك أنت تفعله ."

"نحن لا نفعل اي شيء تظاهراً . ولست أنصحك أن تأتي إلينا وتهجر نمط حياتك الحالي حباً بالمظاهر . فنحن لا نتصرف بهذه الطريقة في سبيل المظاهر ، بل بمقتضى إيماننا ."

"وما معنى قولك "بمقتضى إيماننا " ؟"

"معناه أن النجاة من شرور العالم ، من الموت ، إنما تكمن فقط في حياةٍ معيشة حسب تعليم المسيح . لا يهمنا ما يقوله الناس عنا . إنما نتصرف على هذا النحو لا طلباً لرضى الناس بل لأننا في هذا وحده نرى الحياة والخير حقاً ."

أجاب يوليوس : "يستحيل ألا يعيش المرء لنفسه . فالالهة أنفسها غرست فينا أن نحب أنفسنا أكثر من الآخرين ونلتمس البهجة والمسرة

لأنفسنا . وأنت تفعل الأمر عينه . فأنت نفسك قلت إنّ بينكم بعضاً يشفقون على أنفسهم . فهؤلاء سوف يلتمسون المسرات لأنفسهم أكثر فأكثر ، وسوف يتخلون شيئاً فشيئاً عن إيمانكم ويتصرفون تماماً مثلما نتصرف نحن" .

فقال بمفيليوس : "كلا! فإن إخوتنا يسلكون سبيلاً آخر ، ولن يضعفوا ، بل سيزدادون قوة ، تماماً كما لا تخمد النار أبداً حين يُلقى فيها مزيد من الحطب . ذلك هو إيماننا".

"لست أفهم ما هو إيمانكم هذا!"

"إن قوام إيماننا هو هذا : أننا نفهم الحياة كما قد فسرها لنا المسيح ".

"وكيف ذاك ؟"

"مرة ضرب المسيح هذا المثل . كان بعض الناس قيّمين على كرم عنب ، وكان عليهم أن يدفعوا لصاحبه بدل الإيجار . ذلك أننا نحن البشر الذين نعيش في هذا العالم يجب علينا أن نؤدي لله بدل الإيجار بأن نعمل مشيئته . ولكن أولئك القوم ، بحسب معتقدهم الدنيوي ، عدّوا الكرم ملكاً لهم وأنهم غير ملزمين أن يدفعوا أجرة نظيره ، وما عليهم إلا أن يتمتعوا بثمره . وأرسل صاحب الكرم رسولاً إليهم ليقبض الأجرة . غير أنهم طردوه خارجاً . ثم بعث المالك ابنه ، لكنهم قتلوه ظناً منهم بأنه بعد ذلك لن يزعجهم أحد . ذلك هو إيمان العالم الذي بموجبه يعيش جميع الناس الدنيويين الذين لا يعترفون بأن الحياة إنما أُعطيت لنا لكي نخدم الله . ولكن المسيح قد علّمنا أن هذا المعتقد الدنيوي زائف إذ يزعم أنه خير للإنسان أن يطرد الرسول ويقتل ابن المالك الوحيد ويتفادى من تأدية الإيجار . فلا محيد من هذه الحقيقة : أن علينا إما أن ندفع الأجرة وإما أن نُطرد من الكرم . وقد علمنا المسيح أن ما ندعوه مسرات ، من أكلٍ وشربٍ ومرَح ، لا يمكن أن يكون مسراتٍ إن كرسنا نفوسنا له ، إلا أنها تكون مسرات فقط حين نكون ساعين إلى شيء آخر : أن نعيش

حياةً منسجمة مع مشيئة الله . عندئذٍ فقط تأتي هذه المسرّات في أعقاب ذلك كمكافأة طبيعية على إتمام مشيئته تعالى . أما الرغبة في انتهاب المسرات من دون عناء العمل بمشيئة الله ، وذلك بسلخ المسرّات عن الواجبات ، فمثلها مثل انتزاع وردة وغرسها ثانية بغير جذورها . بهذا نؤمن ، ولذلك لا يمكننا اتباع الضلال حين نرى الحق . ففي إيماننا أن خير الحياة ليس في مسراتها بل في إتمام مشيئة الله ، دون أدنى تفكير في المسرّات الحاضرة أو المقبلة . وكلما طال بنا العمر زدنا إدراكاً لكون المسرّات والخير تأتي في أعقاب العمل تماماً بمشيئة الله ، كما تتبع العجلة محركها . ولقد قال معلمنا العظيم : "تعالوا إليّ يا جميع المتعبين والثقيلي الأحمال ، وأنا أريحكم . إحملوا نيري عليكم وتعلّموا منّي ، لأنّي وديع ومتواضع القلب ، فتجدوا راحةً لنفوسكم ؛ لأنّ نيري هيّن وحملي خفيف" .

هكذا تكلم بمفيليوس ، وقد أصغى إليه يوليوس ومس الكلام شغاف قلبه ، ولكن ما قاله بمفيليوس لم يكن واضحاً في نظره . بدا له أول وهلة أن بمفيليوس يخادعه ، ثم حدق إلى عيني صديقه الوادعتين وتذكر طيبته ، فخيل إليه أن بمفيليوس إنما كان يخدع نفسه .

ودعا بمفيليوس يوليوس كي يذهب ويرى طريقه حياتهم ، ويمكث معهم إذا سره ذلك . فوعده يوليوس خيراً ، ولكنه لم يفِ بوعده ، وإذ انهمك في شؤونه الخاصة نسي صديقه .

2

كان والد يوليوس غنياً . ولأنه كان يحب ابنه ويفتخر به ، لم يضن عليه بماله . فعاش يوليوس الحياة المعتادة التي يعيشها شابٌ غنيّ ، منغمساً في التبطل والترفه والتسليات المسرفة ، تلك المباهج التي كانت وما تزال هي إياها : الخمر والقمار والنساء الفواجر .

ولكن الملذات التي أغرق فيها يوليوس نفسه تطلبت أكثر فأكثر من المال ، فبدأ يتبين له أن ليس لديه ما يكفي . وذات مرة سأل أباه أكثر مما كان يعطيه عادةً ، فأعطاه أبوه ما طلب ، لكنه أنبه . وإذ شعر يوليوس أنه يستحق اللوم ، ولكنه أبى أن يقرّ بذلك ، استشاط على أبيه ، كما يفعل دائماً أولئك الذين يعلمون أنهم ملومون ولكنهم لا يرغبون في الاعتراف بالحقيقة .

وما لبث يوليوس أن أنفق كل ما أعطاه أبوه من المال . واتفق آنذاك أنه تورط وصاحباً له سكراناً في شجار وقتلا رجلاً . وسمع حاكم المدينة بالحادثة ، وكاد يأمر باعتقاله ، ولكن أباه تدخل وحصّل له عفواً . وظل يوليوس يحتاج إلى مالٍ زائد للإنفاق في ملذاته ، فما كان منه هذه المرة إلا أن استدان مالاً من أحد أصحابه ، متعهداً وفاءه . ثم إنّ خليلته طلبت هدية . فقد كانت تحلم بالحصول على عقد لؤلؤ ، وتأكد له أنه إن لم يلبِ طلبها فستهجره وترتبط برجل غني طالما حاول أن يستميلها .

فقصد يوليوس إلى أُمه وأطلعها على احتياجه إلى بعض المال ، زاعماً أنه سينتحر إن لم يحصل على مراده . وعزا الملامة على تورطه في هذا الوضع لا إلى نفسه بل إلى أبيه ، قائلاً : "لقد عودني أبي حياة ترف وتنعم ثم شرع يضن عليّ بماله . فلو أعطاني في البداية ، ودون منة ولا تعيير ، ما أعطاني لاحقاً ، لكنت أحسنت ترتيب حياتي وما تورطت في مثل هذه المصاعب . ولكن لأنه لم يعطني قط ما يكفي ، اضطررت لأن أذهب إلى الدائنين ، وهؤلاء ابتزوا مني كل شيء ، ولم يبقَ بيدي ما يكفيني كي أعيش الحياة الطبيعية بالنسبة إليّ أنا الشاب الغنيّ ، وقد حملني ذلك على الشعور بالخجل بين أصحابي . غير أن أبي لا يريد أن يستوعب أي شيء من هذا كله . إنه ناسٍ أنه هو نفسه كان شاباً في ما مضى . فهو أوصلني إلى هذه الحال ، والآن إن لم يعطني ما أطلب فسأقتل نفسي".

فما كان من الأمّ ، وقد أفسدت ابنها بالتدليل ، إلا أن توجهت إلى أبيه ، فاستدعى جوفينال ابنه وطفق يعنفه هو وامه معاً . ورد يوليوس على ابيه بفظاظة ، فضربه جوفينال . وأمسك يوليوس بذراع والده ، فبادر جوفينال إلى مناداة عبيده وأمرهم بتقييد ابنه وحبسه .

تُرك يوليوس وحيداً ، فلعن اباه وعيشته . وخيل إليه أن سبيل النجاة الوحيد من وضعه الحاليّ هو بموته أو بموت أبيه .

وكانت معاناة أم يوليوس أشدّ من معاناته هو . فلم تحاول أن تفهم على من يقع اللوم في ذلك كله . لكنها إنما أشفقت على ابنها الأثير ورثت لحاله . وذهبت ثانية إلى زوجها لتستعطفه كي يسامح الشاب ، لكنه لم يرد أن يسمع لها ، ووبخها على إفسادها ابنهما بالدلال . وهي بدورها أنبته ، فآل ذلك إلى ضرب جوفينال لزوجته . على أنها غضت النظر عن ذلك ، وذهبت إلى ابنها وأقنعته بالتماس المغفرة من أبيه وبالإذعان لرغباته ، واعدةً في مقابل ذلك بأن تأخذ ما يحتاج إليه من المال خلسةً من ابيه وتعطيه إيّاه . وقبل يوليوس ذلك ، ثم مضت أمه إلى جوفينال وتوسلت إليه أن يغفر لابنه . فوبخ جوفينال زوجته وابنه طويلاً ، لكنه أخيراً قرّر أن يغفر ليوليوس ، شريطة أن يقلع عن حياته الفاسقة ويقترن بابنة تاجر غني في زواج طالما تاق جوفينال إلى ترتيبه .

وقال جوفينال : "سيحصل مني على مال ، ويكون له أيضاً مهر عروسه ، وليستقر إذ ذاك في حياة شريفة . فإن وعد بإطاعة رغباتي ، أغفر له . لكنني لن أعطيه شيئاً قبل ذاك ، وأول مرةٍ يتعدى ويأثم أسلمه إلى الحاكم ."

اذعن يوليوس لشروط ابيه ، فأطلق سراحه . ووعد بأن يتزوج ويقلع عن حياته الفاسدة . لكنه لم يكن ينوي الوفاء بوعده .

آنذاك غدت الحياة في البيت جحيماً مقيماً . فأبوه لم يكالمه ، وكان يخاصم أمه بسببه ، وبكت الأم كثيراً .

وذات يومٍ استدعته أمه إلى مخدعها ، وناولته حجراً كريماً كانت قد أخذته من غرفة زوجها . وقالت : "خذ هذا وبعه ، لا في هذه المدينة ، بل في مكانٍ آخر ، ثم افعل ما ينبغي لك أن تفعله . سأتمكن حالياً من أن أدبر كتم فقدانه ، وإذا ما انكشف الأمر أنحي باللائمة على واحدٍ من العبيد ."

وخزت كلمات الأم قلب يوليوس . فقد هاله ما فعلت ، وبغير أن يأخذ الحجر الكريم غادر المنزل .

هام على وجهه وهو لا يدري مقصده ولا هدفه . ومشى مبتعداً عن المدينة باطّراد ، شاعراً بأنه في حاجة إلى الاختلاء ، مفكراً في كل ما جرى له وما ينتظره . وإذ توغل مبتعداً عن المدينة ، وصل إلى بستان الإلاهة ديانا المقدس . ثم انتحى جانباً في بقعة منعزلة ومضى يفكر . فكان أول فكر خطر في باله التماس معونة تلك الإلاهة . ولكنه كان قد أقلع عن الإيمان بالآلهة ، فتأكد له أنه لا يستطيع أن يرجو منها عوناً – وإن لم يكن منها ، فَمِمَن ؟

بدا له في غاية الغرابة أن ينظر في وضعه بعقله . فقد غمر نفسه الظلام والارتباك . ولكن لم يكن أمامه شيء آخر يفعله . وكان عليه أن يصغي إلى ضميره ، فشرع يتفكر في حياته وسلوكه في صونه . وبدا له كلاهما سيئاً ، وفي المقام الأول تافهاً . فلماذا عذب نفسه هكذا ؟ لماذا دمر حياة شبابه بهذه الطريقة ؟ لقد آتته قليلاً من السعادة وكثيراً من الحزن والشقاء . ولكن طغى عليه الشعور بالوحدة . فقد كان له سابقاً أم يحبها وأب وأصدقاء . أما الآن ، فليس من أحد بقربه ، ولا أحد يحبه! إنه عبء عليهم جميعاً . ولطالما كان سبب معاناة لكل من يعرفونه . فبالنسبة إلى والدته كان هو سبب خلافها مع أبيه . وبالنسبة إلى أبيه ، كان مبذر الثروة التي جمعها بعمرٍ من الكدّ والتعب . وبالنسبة إلى أصدقائه ، كان نداً خطراً ومنفراً . فلا شك في أنهم جميعاً راغبون في موته .

وإذ استعرض حياته مراجعاً ، تذكر بمفيليوس ولقاءه الأخير معه ، وكيف دعاه بمفيليوس للذهاب إلى هناك ، إلى الجماعة المسيحية . وعنّت له فكرة عدم العودة إلى البيت ، بل الانطلاق مباشرة إلى حيث المسيحيون ، والمكوث معهم .

ولكن أيعقل أن يكون وضعه مونساً إلى هذا الحد ؟ عن هذا تساءل . ومن جديد استعاد التفكير في كل ما حدث له . ومرة أخرى هالته فكرة أن أحداً لا يحبّه وأنه هو لا يحب أحداً . فأمه وأبوه وأصدقاؤه لم يكترثوا لأمره ، ولا بد أنهم يتمنون لو يموت . ولكن هل يحب هو نفسه أحداً ؟ أصدقاءه ؟ لقد أحسّ أنه لا يحب أيا منهم ، فقد كانوا جميعهم أنداداً له ، ومن شأنهم ألا يشفقوا عليه الآن في ضيقه . أويحبّ أباه ؟ استولى عليه الرعب لما ساءل نفسه عن ذلك . فقد نظر إلى قلبه فتبين له ليس فقط أنه لا يحب أباه بل أيضاً يبغضه من أجل الحبس والإهانة اللذين سامه إياهما . بلى ، كان يبغض أباه ، وفوق ذلك رأى جلياً أن موت أبيه ضروري لسعادته هو .

وقال لنفسه : "أجل ، إن علمتَ أن أحداً لن يرى ذلك ولن يلاحظه البتة ، فماذا أفعل لو تسنى لي حالاً ، وبضربة واحدة ، أن أعدمه الحياة وأحرر نفسي ؟"

ثم أجاب بنفسه عن سؤاله : "عليّ أن أقتله!" ولكن ارتعب من جوابه .

"وأمّي ؟ إنني آسف عليها ، ولكنني لا أحبها ، ولا يهمني مهما جرى لها . فكل ما احتاج إليه هو معونتها . . . انا حيوان ، حيوان بئس تعس واقع في حبالة صيّاد . إنما الفرق الوحيد بيني وبين الحيوان هو أنني أستطيع بإرادتي أن اتخلص من هذه الحياة الزائفة الرديئة . ففي وسعي أن أفعل ما يعجز عنه الحيوان ، في وسعي أن اقتل نفسي . إني اكره أبي . وليس لي من أحبه . . . لا أمي ولا أصدقائي . . . ربما عدا بمفيليوس وحده!"

ومن جديد فكر في بمفيليوس . واستعاد ذكرى لقائهما الأخير ومحادثتهما ، وما قاله بمفيليوس من أنه حسب تعليمهم قال المسيح : "تعالوا إليّ يا جميع المتعبين والثقيلي الأحمال ، وأنا أريحكم ." أيمكن أن يكون هذا صحيحاً ؟

ثم أمعن في التفكير ، وإذ تذكر وجه بمفيليوس اللطيف الجريء السعيد ، تمنى لو يصدق ما قد قاله .

وقال لنفسه : "ما أنا بالحقيقة ؟ من أنا ؟ إنسان يبحث عن السعادة . لقد سعيت وراءها في شهواتي فما وجدتها . وجميع الذين يعيشون كما عشت يخفقون في العثور عليها . إنهم جميعاً أشرار وأردياء يقاسون الأمرّين . ولكن هنالك إنساناً يغمره الفرح دائماً لأنه لا يطلب شيئاً . وهو يقول إن كثيرين مثله ، وإنّ جميع الناس يصيرون هكذا إن هم عملوا بتعليم معلّمهم وسيّدهم . فماذا لو كان ذلك صحيحاً ؟ أصحيحاً كان أم لا ، فإنه يجذبني ، وسأذهب إلى هنالك ."

هكذا قال بمفيليوس لنفسه ، ثمّ غادر البستان ، وقد عقد العزم على عدم الرجوع إلى البيت ، بل على الذهاب إلى القرية التي كان المسيحيون يعيشون فيها .

3

مضى يوليوس في سبيله بخفة وفرح ، وكلما تقدم في الطريق زاد جلاء تصوره لحياة المسيحيين ، متذكراً كل ما قاله بمفيليوس ، وازداد شعوره بالسعادة . وكانت الشمس قد بدأت تميل نحو الغروب ، فرغب في الاستراحة ، وإذا به يصادف رجلاً قاعداً إلى جانب الطريق يتناول طعامه . كان رجلاً في منتصف العمر ، ذا وجه نيّر ينم على ذكاء ، وقد قعد هنالك يأكل زيتوناً ورغيف خبز .

وما إن لمح يوليوس حتى تبسم له وقال :

"السلام عليك أيها الشاب! ما زالت الطريق طويلة . فاقعد واسترح ."

فشكره يوليوس وقعد .

وسأله الغريب : "أين تقصد ؟"

فقال يوليوس : "إلى المسيحيين" ، ثم سرد للغريب بالتدريج وقائع حياته ، وأطلعه على ما عزم عليه .

أصغى الغريب بانتباه ، وسأل عن بعض التفاصيل ، دون أن يعبّر هو عن رأي . ولكن لما فرغ يوليوس ، طوى ما بقي من زاده في جرابه ، وسوّى ثيابه ، ومضى يقول :

"أيها الشاب ، لا تسع وراء مطلبك . وإلا كنت مخطئاً . انا أعرف الحياة ، أما أنت فلا . وأعرف المسيحيين ، أما أنت فلا تعرفهم . إسمع! سأستعرض حياتك وأفكارك ، وبعد أن تسمعها مني تقرّر القرار الذي يبدو أكثر حكمة في نظرك . أنت شابٌ وغني ووسيم وقوي ، والأهواء تغلي في عروقك . وانت ترغب في العثور على ملجإ هادئ حيث لا تقض الأهواء مضجعك ولا تعاني مرارة عواقبها . ويخيل إليك انك تستطيع أن تجد مثل هذا الملجأ بين المسيحيين .

"لا ملجأ من هذا النوع ، أيها الشاب العزيز ، لأن ما يزعجك لا يقيم في كيليكيا ، ولا في روما ، بل في قرارة نفسك . ففي عزلة القرية الهادئة سوف تعذبك الاهواء عينها ، ولكن اقوى بمئة ضعف . إنّ انخداع المسيحيين ، أو توهمهم – لأني لا أريد أن أحكم عليهم – كامن في عدم رغبتهم في اعتبار الطبيعة البشرية . فلا يستطيع أن يعمل بتعاليمهم إلى التمام إلا الشيخ الذي سلم بعد فناء أهوائه كلها . ولكن رجلاً في زهو الشباب ، أو في ريعان الشباب مثلك ، ما اختبر الحياة وجربها بنفسه بعد ، لا يستطيع أن يخضع لشريعتهم ،

لأنها ليست مؤسسة على الطبيعة البشرية بل على التخمينات الباطلة . فإن ذهبت إليهم فستقاسي من جراء ما يضنيك الآن ، إنما إلى حد أبعد بكثير . إنّ أهواءك الآن تفضي بك إلى مسالك خاطئة ، ولكنك بعدما اخطأت السبيل مرة تستطيع أن تصلحه . والآن على كل حال لك الرضى الناجم عن تحقيق الرغبات - تلك هي الحياة . ولكنك بين المسيحيين ، إذ تكبح جماح أهوائك قسراً ، تزداد زيغاناً بعد وبطريقة مماثلة ، وفضلاً عن هذه المعاناة ستُضنيك دائماً معاناة عدم إشباع الرغبات . أطلق المياه من السد فتروي الأرض والمروج وتوفر مشرباً للحيوانات ، ولكن احصرها فتنفجر خارج ضفافها وتتدفق بعيداً جارفة الوحول . هكذا حالك مع الأهواء والشهوات . إنّ تعليم المسيحيين (فضلاً عن إيمانهم بحياةٍ أخرى بها يعزّون نفوسهم ، وعنها لن أتكلم) - إنّ تعليمهم العملي هو هذا : أنهم لا يوافقون على العنف ، ولا يعترفون بالحروب ، أو المحاكم ، أو المِلكية ، أو العلوم والفنون ، ولا بأي شيء مما يجعل الحياة سهلة وسارّة .

"ولو كان جميع الناس على غرار ما يصف المسيحيون معلمهم بأنه كان عليه ، لكانت طريقتهم حسنة بما يكفي . ولكن الحال ليست على هذا المنوال ولن تكون . فالبشر أشرار وعرضة للأهواء . وحركة الأهواء هذه ، مع النزاعات الناجمة عنها ، هي ما يبقي الناس في الحالة الاجتماعية التي يعيشون فيها . فالهمجيون لا يعرفون ضابطاً ، ومن شأن الواحد منهم أن يدمّر المعمورة كلها في سبيل إشباع رغباته لو خضع جميع الناس خضوع المسيحيين . وإن كانت الآلهة قد غرزت في البشر مشاعر الغضب والثأر ، بل الانتقام من الأشرار ، فإنما فعلت ذلك لأن تلك المشاعر ضرورية في سبيل الحياة البشرية . ويعلم المسيحيون أن هذه المشاعر رديئة ، وأن الناس من دونها يكونون سعداء ، ولا تقع حوادث قتل وإعدام وحروب . ذلك صحيح ، ولكنه أشبه بافتراضنا أن الناس يكونون سعداء إن لم يأكلوا طعاماً . إذ ذاك لا يكون بالفعل جشع أو جوع ،

ولا أية مصيبةٍ مما ينجم عنهما . ولكن ليس من شأن ذلك الافتراض أن يغير الطبيعة البشرية . وإن آمن بهذا بضع عشراتٍ من الناس ، وانقطعوا فعلاً عن الطعام حتى ماتوا جوعاً ، فلن يغير ذلك طبيعة البشر أيضاً . ويصدق الأمر عينه على أهواء الإنسان الأخرى ، كالغضب والسخط والثأر ، بل حب النساء أيضاً ، وحب الترفّه والتعظم والتجبر والتكبر ، مما تتصف به آلهة الوثنيين ويشكل تالياً خصائص متأصلة في البشر أيضاً . فاقطع عن الإنسان غذاءه ، يهلك ويفنَ . وبالمثل ، اقضِ على أهواء الإنسان الطبيعية ، يتعذر على البشرية أن تظل في الوجود . كذلك أيضاً حال الملكية التي يفترض أن ينبذها المسيحيون . فتطلع حواليك تجد أن كل كرم ، وكل حقل مسيج ، وكل بيت ، وكل دابة ، قد تعهدها الإنسان تحت شروط الملكية . فإذا نبذت حقوق الملكية ، فلن يحرث حقل ولن يُربّى حيوان ويعتنى به . ويقول المسيحيون إنهم لا يحوزون حقلاً ، ولكنهم يتمتعون بمحصوله . ويقولون إنّ كل شيء مشترك عندهم ، وإنهم يضعون كل شيء في صندوق مشترك . ولكن ما يأتون به ، يكونون قد تلقوه من أناسٍ ذوي أملاك . فهم إنما يخدعون الآخرين ، وفي أحسن حالٍ يخدعون أنفسهم . تقول إنهم هم أنفسهم يعملون لإعالة أنفسهم ، ولكن ما يحصلونه بالعمل ما كان ليعيلهم لو لم يفيدوا مما أنتجه الذين يعترفون بالملكية . حتى لو استطاعوا أن يعولوا أنفسهم ، لكان ذلك مجرد بقاء على قيد الحياة ، وما كان بينهم مكان للعلوم ولا للفنون . بل إنهم لا يقرون باستخدام علومنا وفنوننا . ولا يمكن أن يكون الأمر خلاف هذا . فإن مجمل تعليمهم يميل إلى تقليص حالهم إلى وضع وحشي بدائي ، إلى وجود حيواني .

"إنهم لا يستطيعون خدمة البشرية بفنوننا وعلومنا ، ولكونهم يجهلونها فهم يشجبونها . كذلك لا يستطيعون أيضاً خدمة البشرية بأي من الطرق التي هي قوام تميّز الإنسان ومناصرته للآلهة . فليس عندهم هياكل ولا تماثيل ولا

مسارح ولا متاحف . ويقولون إنهم لا يحتاجون إلى هذه الأشياء . فأيسر طريقة لتجنّب المرء الخجل بانحطاطه هي الازدراء بما هو رفيع الشأن . وذلك هو ما يفعلونه . إنهم مُنكِرون لآلهتنا ، ولا يعترفون بها وبمشاركتها في شؤون البشر ، بل يؤمنون بالمعلم نفسه الذي يعتقدون انه كشف لهم جميع أسرار الحياة . وعقيدتهم خداع يرثى له! فتأمل فقط هذا الأمر . إنّ ديننا يقول إنّ العالم يتعلق بالالهة ، والآلهة تحمي البشر ، وعلى الناس أن يحترموا الآلهة كي يحيوا حياة حسنة ، كما أن عليهم أن يبحثوا ويفكروا هم أنفسهم . على هذا النحو تسير حياتنا على هدي مشيئة الآلهة من جهة ، ومن جهة أخرى بحكمة البشرية الجامعة . فنحن نعيش ونفكر ونبحث ، وهكذا نتقدم نحو الحقيقة .

"ولكن هؤلاء المسيحيين ليس لديهم الآلهة ، ولا إرادتهم الخاصة ، ولا حكمة البشرية . إنما لديهم فقط إيمان أعمى بمعلمهم المصلوب وبكل ما قاله لهم . فالآن فكر في أيّ الأمرين هو الهادي الثقة : مشيئة الآلهة والنشاط الحر المنوط بحكمة البشر الجامعة ، أو الإيمان الأعمى الإلزامي بكلام إنسانٍ واحد ؟"

صُعق يوليوس بما قاله الغريب ، ولا سيما كلماته الأخيرة . ولم يقتصر الأمر على زعزعة عزمه على الذهاب إلى المسيحيين ، بل أيضاً بدا له آنذاك مستغرَباً أن يعقد عزمه من الأساس على مثل هذه الحماقة القصوى بتأثير من بلاياه المنكودة . ولكن ظل ماثلاً أمامه السؤال عما ينبغي له أن يفعل الآن ، وأيّ مناص يكون له من الظروف الصعبة التي تورط فيها . وعليه ، فبعد أن فسر وضعه ، التمس نصيحة الغريب ، فأجابه قائلاً :

"عن هذه المسألة تماماً كنت أنوي أن أتكلم إليك الآن . ماذا ينبغي لك أن تفعل ؟ إنّ سبيلك واضح ، بمقدار ما يتاح لي الوقوف عليه من الحكمة البشرية . فجميع بلاياك نجمت عن الأهواء الطبيعية بالنسبة إلى البشر . لقد

أغوتك الأهواء وطوّحتك حتى عانيت ما عانيته . هكذا هي الدروس المعتادة المستفادة من الحياة . وعلينا أن ننتفع بها . لقد تعلمت الكثير ، وأنت تعرف ما هو مر وما هو حلو ، فلا تستطيع الآن تكرار تلك الأخطاء . إستفد من خبرتك . إنّ ما يضايقك اكثر من كل شيء هو عداوتك نحو أبيك . وهذه العداوة ناجمة عن وضعك السيّىء . فاختر وضعاً آخر ، تبطل العداوة ، أو على الأقل لا تظهر على هذا النحو المؤلم . إنّ جميع بلاياك ناتجة من شذوذية وضعك . فأنت انغمست في مسرات الشباب ، وقد كان ذلك طبيعياً ، ومن ثم صالحاً . لكنه كان صالحاً فقط ما دام مناسباً لعمرك . فذلك الزمان قد مضى ، ومع أنك قد بلغت مبلغ الرجال فما زلت منغمساً في أمور الشباب الطائشة ، وقد كان ذلك رديئاً . لقد بلغت عمراً ينبغي لك فيه أن تدرك أنك رجل ، أنك مواطن ، وينبغي لك فيه أن تخدم الدولة وتعمل لمصلحتها . إنّ أباك يرغب في تزويجك . وهذه نصيحة حكيمة منه . لقد مررت سالماً من إحدى مراحل حياتك ، أي شبابك ، وبلغت مرحلة أخرى . وجميع مشاكلك مؤشرات تدل على فترة انتقالية . فاعترف بأن شبابك قد ولى ، وتخلّ بجرأة عن كل ما كان طبيعياً بالنسبة إليه لكنه ليس طبيعياً بالنسبة إلى من بلغ مبلغ الرجال ، ثم انطلق في مسلك جديد . تزوج ، وانبذ تسليات الشباب ، واشتغل في التجارة والشؤون العامة والعلوم والفنون ، فتتصالح مع أبيك وأصدقائك ، كما تجد أنت نفسك السلام والسعادة . لقد بلغت طور الرجولة ، وعليك أن تتزوج وتكون زوجاً صالحاً . وعليه ، فإن نصيحتي الرئيسة هي هذه : اذعن لرغبة أبيك وتزوج . فإذا كنت منجذباً بالعزلة التي ظننت أنك واجدها بين المسيحيين ، وإذا كنت ميالاً إلى الفلسفة لا إلى حياة العمل ، فيمكنك أن تكرس نفسك لذلك بامتياز فقط بعد أن تكون قد اختبرت معنى الحياة الحقيقي . ولكنك سوف تختبر ذلك فقط بوصفك مواطناً مستقلاً ورب عائلة . وإن شعرت بعد ذلك بأنك ما تزال منجذباً نحو

العزلة ، فاستسلم لذلك الشعور . فعندئذ تكون رغبتك حقيقية ، لا مجرد ومضة غيظٍ كما هي الآن . وإذ ذاك اذهب!"

هذه الكلمات الأخيرة أقنعت يوليوس اكثر مما اقنعه اي شيء آخر ، فشكر الغريب وقفل عائداً إلى البيت .

استقبلته أمّه ورحبت به مبتهجة . وإذ سمع ابوه أيضاً بعزمه على الإذعان لمشيئته وتزوّجه بالفتاة التي اختارها له ، تصالح معه .

4

وبعد ثلاثة اشهر تم الاحتفال بزواج يوليوس بيولمبيا الجميلة . واقام العروسان الشابان في منزل مستقل يملكه يوليوس ، وتولى إدارة فرع جديد من مصلحة ابيه حوّله إليه . فقد غيّر الآن نمط حياته كلياً .

وذات يومٍ ذهب في سفرة عمل إلى مدينة مجاورة . وبينما كان جالساً هناك في دكان ، راى بمفيليوس ماراً ومعه فتاة لم يعرفها . وكان كلاهما يحمل سلاً من العنب ثقيلاً معروضاً للبيع . فما إن راى يوليوس صديقه حتى طلب إليه أن يدخل الدكان كي يتحادثا .

وإذ رات الفتاة أن بمفيليوس راغب في الذهاب مع صديقه لكنه متردد في تركها وحدها ، سارعت إلى طمانته بأنها لا تحتاج إلى مساعدته ، بل تستطيع أن تقعد ومعها العنب بانتظار الزبَن . فشكرها بمفيليوس ، ودلف إلى الدكان هو وصديقه يوليوس .

طلب يوليوس إلى صاحب الدكان ، وكان من معارفه ، أن يسمح له باصطحاب صديقه إلى غرفة خاصة خلف الدكان ، فأذن له ، فدخلا .

سأل الصديقان أحدهما الآخر عن أحواله . كان بمفيليوس ما يزال عائشاً كالسابق في الجماعة المسيحية ولمّا يتزوج ، واكد لصديقه أن حياته ما برحت تزداد سعادةً سنة بعد أخرى ، بل يوماً بعد يوم ، وساعةً بعد ساعة .

وأطلع يوليوس صديقه على ما قد جرى له ، وكيف كان فعلاً على وشك الالتحاق بالمسيحيين حين كشف له لقاؤه غريباً أخطاء المسيحيين وبيّن له ما ينبغي أن يفعل ، وكيف عمل بتلك النصيحة وتزوج .

فاستفهم بمفيليوس : "أفأنت سعيدٌ الآن ؟ هل وجدت في الزواج ما وعدك به الغريب ؟"

قال يوليوس : "سعيد ؟ وما السعادة ؟ إن كنت تعني الإشباع الكامل لرغباتي ، فأنا بالطبع غير سعيد . أنا الآن اتولى عملي بنجاح ، وقد بدأ الناس يحترمونني ، وفي هذين الأمرين كليهما أجد شيئاً من الرضى . ولئن كنت أرى رجالاً كثيرين أغنى مني وأكثر اعتباراً واحتراماً ، فإنّي أتشوق إلى إمكانية مساواتهم ، بل التفوق عليهم أيضاً . هذا الجانب من حياتي مرضٍ ، ولكن الزواج ، أقول بصراحة ، لا يرضيني . أضف إلى هذا أنني أشعر أن زواجي بالذات قد أخفق ، مع أنه كان ينبغي أن يؤتيني السعادة . فالفرح الذي اختبرته في البداية تناقص تدريجياً حتى تلاشى أخيراً ، وبدلاً من السعادة جاء الحزن . إنّ زوجتي جميلة وذكية ومثقفة ولطيفة . وفي أول الأمر كنت سعيداً أكمل سعادة . أما الآن فتنشب خلافات . وانت لم تختبر هذا طبعاً لأن ليس لك زوجة . وسبب ذلك أحياناً أنها ترغب في إيلائها اهتمامي حين أكون غير مبالٍ بها ، وأحياناً يكون السبب عكس هذا . ثم إنّ الناحية العاطفية في الزواج تستوجب الجدِة . فالمرأة التي تقل جاذبية عن زوجتي تجذبني أكثر منها حين أتعرف بها في البداية ، ولكن بعد مدة تصير هي أيضاً أقل جاذبية من زوجتي . لقد اختبرت ذلك بنفسي . لا ، لم أجد في الزواج رضى مشبعاً!"

ثم خلص يوليوس إلى القول : "بلى يا صديقي . إن الفلاسفة على حق . فالحياة لا تقدم لنا ما تشتهيه النفس . وأنا الآن اختبرت ذلك في الزواج ." لكنه أردف : "على أن حقيقة كون الحياة لا تؤتينا السعادة التي ترغب فيها النفس لا

تثبت أن خدعتكم قادرة على الإتيان بها ."

فسأله بمفيليوس : "فيمَ ترى خدعتنا ؟"

"تكمن خدعتكم في هذا : أنكم في سبيل إنقاذ الإنسان من الشرور المنوطة بالحياة ترفضون كل حياة ، بل تنبذون الحياة ذاتها . فتجنباً لفك السحر ، ترفضون السحر . ذلك بأنكم ترفضون الزواج بحد ذاته ."

فقال بمفيليوس : "نحن لا نرفض الزواج ."

"حسناً ، ما دمتم لا ترفضون الزواج فأنتم ترفضون الحب على كل حال ."

"على العكس ، فنحن نرفض كل شيء ما عدا الحب . فهو عندنا أساس كل شيء ."

قال يوليوس : "لست أفهم ما تقول . فبحسبما سمعته من الآخرين ومنك أنت ، وعلى أساس كونك لم تتزوج بعد مع أنك مَجايلي ، أستنتج أن قومك لا يتزوجون . فالذين سبق أن تزوجوا يبقون على حالهم . أما الآخرون فلا يقيمون زيجات جديدة . أنتم لا تُعنَون باستمرار الجنس البشري ." ثم ختم قائلاً ، معيداً ما سمعه يقال كثيراً : "ولو كنتم أنتم الشعب الوحيد ، لكان الجنس البشري قد تلاشى منذ زمن بعيد ."

فأجاب بمفيليوس : "هذا ظلم . إنما صحيح أننا لا ننصب لأنفسنا هدف استمرار الجنس البشري ، ولا نجعل ذلك همنا على النحو الذي كثيراً ما سمعت فلاسفتكم يتحدثون عنه . فنحن نعتقد أن أبانا السماوي قد سبق فدبر هذا الأمر . وهدفنا إنما هو أن نعيش وفقاً لمشيئته . فإن كانت مشيئته تبتغي باستمرار الجنس البشري ، فإنه سوف يستمر ، وإلا فلا . ليس هذا شأننا ، ولا هو همنا . فنحن إنما نهتم بأن نعيش وفقاً لمشيئته تعالى . ومشيئته معبّر عنها في عقيدتنا وفي كتابنا ، حيث نقرأ أن على الزوج أن يلازم زوجته وأن الاثنين يصيران جسداً واحداً .

"وليس الزواج بيننا غير محرم فقط ، بل إن شيوخنا ومعلمينا يشجعون عليه أيضاً . والفرق بين الزواج عندنا والزواج عندكم إنما يكمن في حقيقة كون شريعتَ تعلن لنا أن كل نظرة شهوانية إلى المرأة هي خطيئة . وهكذا فإننا نحن ونساءنا ، بدلاً من التزين لإثارة الشهوة ، نحاول تجنّب ذلك حتى يغدو شعور الحب بيننا ، كما بين الإخوة والأخوات ، أقوى من عاطفة اشتهاء المرأة تلك التي تدعونها حباً ."

فقال يوليوس : "ولكنكم مع ذلك لا تقدرون أن تكبتوا الإعجاب بالجمال . فأنا على ثقة مثلاً بأن الفتاة الجميلة التي كنت تحمل العنب وإياها تثير فيك الشعور بالرغبة ، رغم الثوب الذي يخفي مفاتنها ."

فقال بمفيليوس وقد تورد خداه : " لست أدري بعد . ما فكرت في جمالها . أنت أول من يحدثني عنه . إنها في نظري أخت لي . ولكن دعني اكمل ما كنت أقوله عن الفرق في الزواج بيننا وبينكم . فذلك الفرق ناجمٌ عن حقيقة كون الشهوة بينكم ، باسم الجمال والحب وعبادة الإلاهة فينوس ، تثار وتتفاقم في الناس . أما عندنا فعلى العكس ، لا تعتبر الشهوة شراً ، لأن الله لم يخلق الشرّ ، بل خيراً يولّد شراً حين تكون في غير موضعها . أي تجربة أو غواية كما ندعوها . ونحن نحاول بكل وسيلة أن نتجنّبها . ولهذا السبب ما تزوجت أنا بعد ، وإن كان ممكناً جداً أن أتزوج غداً ."

"ولكن ماذا يقرر هذا ؟"

"مشيئة الله ."

"وكيف لك أن تعرفها ؟"

"إن كنت لا تلتمس علاماتها البتة فلن تميزها أبداً ، ولكن إذا التمستها دائماً تتضح لك جيداً على غرار ما تفعلون أنتم حين تتكهنون مستخدمين الذبائح أو الطير . فكما أن عندكم حكماءكم الذين يفسرون لكم مشيئة آلهتكم ، بحكمتهم وبالنظر في أحشاء الأضاحي المذبوحة أو طيران طائر

يطلقونه ، فكذلك نحن أيضاً عندنا حكماؤنا الذين يفسرون لنا مشيئة الله أبينا بحسب وحي المسيح ، وما تدلّهم عليه قلوبهم ، وأفكار الآخرين ، وحب البشر أساساً ."

فرد يوليوس : "ولكن هذا كله غير محدد للغاية . فمن يشير عليك مثلاً متى تتزوج وبمن ؟ لمّا أوشكت أنا على الزواج ، كان علي أن أختار واحدة من ثلاث فتيات . وقد اختيرت هؤلاء الثلاث من بين كثيرات لأنهن كن جميلات وغنيات ، وكان أبي موافقاً على تزوّجي بأية واحدة منهن . ومن بين الثلاث اخترت يولمبيا لأنها كانت أوفرهن جمالاً وأكثرهن جاذبية . هذا أمرٌ يسهل فهمه . ولكن بم تستهدي أنت في خيارك ؟"

فقال بمفيليوس : "جواباً لك ، ينبغي لي أولاً أن أقول إنّ جميع البشر في عقيدتنا متساوون في نظر الله أبينا ، وتالياً هم متساوون في نظرنا سواءٌ في موقعهم أو في صفاتهم الروحية والبدنية ، وعليه فإن خيارنا (كي أستخدم كلمة نعتبرها عديمة المعنى) لا يمكن بأية حال أن يكون محدوداً . فأي رجل في العالم يمكن أن يكون زوجاً للمسيحية ، وأية امرأة في العالم يمكن أن تكون زوجة للمسيحي ."

قال يوليوس : "وهذا يجعل الأمر بعد أكثر استحالة على التقرير ."

"سأقول لك ما قاله لي شيخنا عن الفرق بين زواج المسيحي وزواج الوثني . فإن الوثني ، مثلك أنت ، يختار الزوجة التي بحسب رأيه سوف تؤتيه أكبر قدر من المتعة الشخصية . وفي مثل هذه الأحوال تزوغ العين ويصعب التقرير ، ولا سيما لأن المتعة سوف تكون في المستقبل . ولكن المسيحي لا يضطر إلى مثل هذا الخيار ، أو بالحري عندما يختار لا تشغل متعته الشخصية المكانة الأولى بل الثانوية . فالمسألة عند المسيحي هي كيف لا يخالف مشيئة الله بزواجه ."

"ولكن بأية طريقة يمكن أن تحصل مخالفة لمشيئة الله بالزواج ؟"

"لعلي نسيت الإلياذة التي كنا نقرأها وندرسها معاً ، ولكنك أنت العائش بين الحكماء والشعراء لا يعقل أن تكون قد نسيتها . فما هي الإلياذة بمجملها ؟ إنها قصة عن مخالفة مشيئة الله في ما يتعلق بالزواج : مينيلاوس وبارس وهيلانة ، أخيل وأغاممنون وخرايسيس . إنها كلها وصف للشرور الرهيبة التي نجمت وما تزال تنجم عن مخالفات كهذه ."

"ولكن اين تكمن المخالفة ؟"

"في هذا : أن الرجل يحب المرأة لأجل المتعة التي يمكنه أن يحصل عليها من جراء الاتصال بها ، وليس لكونها كائناً بشرياً مثله على السواء . فهو يتزوجها فقط لأجل متعته الشخصية . إنما يكون الزواج المسيحي ممكناً فقط حين يحب الإنسان إخوته البشر ، وحين يكون غرض حبه الجسدي في المقام الأول غرضاً لحبه الأخوي . وكما أن المنزل لا يمكن أن يُبنى بناء معقولاً وثابتاً إلا حيث أساس ، والصورة لا يمكن أن تُرسم إلا حيث يكون قد أُعد ما تُرسم عليه ، هكذا الحب الجسدي لا يكون مشروعاً ومعقولاً ومستمراً إلا حيث يؤسس على الاحترام والحب من قبل كائن بشري لكائن بشري ثانٍ من الجنس الآخر . على هذا الأساس وحده يمكن أن ترسخ حياةُ عائلية مسيحية معقولة ."

فقال يوليوس : "ولكني ما زلت لا أفهم لماذا يقصي مثل هذا الزواج المسيحي ، كما تدعوه ، ذلك النوع من حب المرأة الذي اختبره بارس . . ."

"لست أقول إنّ الزواج المسيحي لا يعترف باي شعور خاص مقصورٍ على امرأة واحدة ، بل على العكس ، فعندئذٍ فقط يكون ذلك الشعور عاقلاً ومقدساً . ولكن الحب المانع المقصور على امرأة واحدة لا يمكن أن ينشأ إلا عندما لا ينتهك الحب الموجود سابقاً لجميع البشر .

"فالحب الحصري المقصور على امرأة واحدة ، والذي يتغنى به الشعراء

معتبرين أنه صالح في حد ذاته بغير أن يكون مؤسساً على حب البشر عموماً ، لا يستحق أن يسمى حباً . إنه شهوة حيوانية ، وكثيراً جداً ما يستحيل بغضاً . وأفضل أمثلة على كيفية تحول ما يدعى حباً (وهو في الواقع هوى وشبق) إلى شهوة بهيمية حين لا يكون مؤسساً على الحب الأخوي لجميع البشر حالاتٌ مثل هذه : المرأة التي يفترض أن يحبها الرجل ينتهك هو نفسه حرمتها ، فيسبب لها المعاناة ويدمر حياتها . وفي عنفٍ من هذا النوع واضحٌ أن الحب الأخوي معدوم ، لأن الرجل يعذب المرأة التي يحب . وغالباً ما يكون في الزواج غير المسيحي ظلمٌ مكتوم ، كما يحصل حين يتزوج الرجل فتاةً لا تحبه ، أو تحب رجلاً آخر ، فيضطرها إلى المعاناة ولا يحنو عليها ، فيستخدمها فقط لإشباع "حبه" ."

قال يوليوس : "لنسلم جدلاً بأن هذا صحيح ، ولكن إذا كانت المرأة تحبه فلا يكون في الأمر ظلم ، ولست أرى حقيقة الفرق بين الزواج المسيحي والزواج الوثني ."

فأجابه بمفيليوس : "لست مطلعاً على تفاصيل زواجك ، ولكني أعلم أن كل زواج مؤسس على السعادة الشخصية دون سواها لا يمكن إلا أن يفضي إلى الخلاف ، كما هي الحال بين الحيوانات ، أو البشر الذين قلما يختلفون عن الحيوانات ، حيث مجرد تناول الطعام لا يمكن حصوله دون خصام وقتال . فكلٌ يريد أفضل لقمة . ولما كانت اللقم الفضلى لا تكفي للجميع ، ينتج الخلاف . ولئن لم يعبّر عنه علناً ، فإنه ما يزال هناك في السر . والرجل الضعيف يرغب في لقمة لذيذة ، لكنه يعلم أن الرجل القوي لن يعطيه إياها ، ومع أنه يعلم أنه يستحيل عليه أن ينتزعها مباشرة من يد القوي ، فإنه يراقبه بمكرٍ خفي يمازجه الحسد ، وينتهز أول فرصة ليأخذ اللقمة منه بالغش . فالأمر عينه يصدق على الزواج الوثني ، ولكن الحال هناك مضاعفة السوء لأن غرض الشهوة هو كائن بشري ، وهكذا يستحكم العداء بين الزوج والزوجة ."

"ولكن كيف يمكن أن يحب الزوجان أحدهما الآخر في الواقع ؟ فسيكون هنالك دائماً رجلٌ أو امرأة يحبان أحد الزوجين ، وعندئذٍ يكون الزواج ، حسب رأيك ، مستحيلاً . وهكذا تتبين لي صحة ما يقال عنكم من رفضكم للزواج . ولهذا السبب لم تتزوج أنت ، ويحتمل ألا تتزوج أبداً . فليس ممكناً للرجل أن يتزوج امرأة دون أن يكون قد أثار شعور الحب قطعاً لدى امرأة أخرى ، كما لا يمكن الفتاة أن تبلغ مبلغ النساء الناضجات دون أن تكون قد أثارت شعور أي رجل تجاهها . فماذا كان ينبغي لهيلانة مثلاً أن تفعل ؟"

"إليك ما يقوله شيخنا كيرلس في هذا الموضوع : إنّ الرجال في العالم الوثني ، دون التفكير بمحبة إخوانهم ، ودون تعهد هذه المودة ، يفكرون فقط في أن يضرموا داخل أنفسهم عاطفة الهوى تجاه امرأة من النساء ، وهم يغذون هذا الهوى في دواخلهم . وهكذا ففي عالمهم تثير هيلانة ، وكل امرأة مثلها ، حب رجال كثيرين . إذ ذاك يتقاتل المتنافسون ويسعى كل منهم جاهداً للتفوق على أنداده ، على حد ما تفعل ذكور الحيوان لامتلاك الأنثى . فيكون زواجهم ، إلى حد أكبر أو أصغر ، فعلاً من أفعال العنف . أما في جماعتنا فلا يقتصر الأمر على عدم التفكير في المتعة الشخصية التي قد يوفرها جمال المرأة ، بل نتجنب كل غواية تفضي إلى ذلك ، الأمر الذي يُعَدّ في العالم الوثني فضيلةً وغرضاً للعبادة . لكننا نحن ، على خلاف هذا ، نفكر في واجبات الاحترام ومحبة القريب ، تلك الواجبات التي نشعر بها تجاه جميع الناس ، وتجاه الجمال الأعظم والقبح الأشنع على السواء ، ونحن نتعهد تلك الواجبات بكل ما أوتينا من قوة ، وهكذا يتفوق شعور الحب الأخوي على إغراء الجمال ، ويتغلب عليه ، ويتخلص من كل نشاز ينجم عن المواقعة الجنسية . فالمسيحي لا يتزوج إلا متى علم أن اتحاده بالمرأة لن يسبب الألم لأي شخص كان ."

فرد يوليوس قائلاً : "ولكن أهذا ممكن ؟ هل يستطيع الرجال أن يسيطروا على أهوائهم ؟"

"إن ذلك غير ممكن إن اتيح لهم أن يتصرفوا كما يحلو لهم ، ولكننا نستطيع أن نحول دون إيقاظ الأهواء وإثارة الشهوات . خذ مثلاً علائق أب بابنته ، وأم بابنها ، وإخوة بأخواتهم . فمهما كانت الأم جميلة ، تبقى في نظر ابنها غرضاً للحب الطاهر ، لا للمتعة الشخصية . كذلك قل في علاقة البنت بأبيها ، والأخت بأخيها . فإن مشاعر الرغبة لا توقظ . ومن شأنها أن تستيقظ فقط إذا علم الأب ان التي كان يعتبرها ابنته ليست ابنة له . ويصدق ذلك بالمثل على العلاقة بين الأم وابنها ، كما بين الأخ واخته . ولكن حتى حينئذٍ يكون الإحساس واهياً جداً ، ويسهل كبته ، ويكون في طاقة الرجل أن يكبح جماحه . ويكون الشعور بالرغبة ضعيفاً إذ تكمن في أساسه عاطفة الحب الأمومي أو الأبوي أو الأخوي . ترى ، لماذا تأبى أن تصدق ان مثل هذا الشعور تجاه جميع النساء ، كأمهات واخوات وبنات ، يمكن تعهده وتوطيده في الرجال ، وان شعور الحب الزواجي يمكن أن ينمو على أساس ذلك الشعور ؟ وكما لا يسمح الأخ بأن يثور في داخله شعور الحب تجاه أخته المفترضة ، من حيث هي امرأة ، إلا إذا علم أنها ليست أخته فعلاً ، فكذلك أيضاً لا يسمح المسيحي لهذا الشعور بأن يثور في نفسه إلا متى شعر ان حبه لن يسبب الألم لاي شخص كان ."

"ولكن لنفرض أن رجلين يحبان الفتاة عينها ؟"

"عندئذٍ يُضحّي أحدهما بسعادته في سبيل سعادة الآخر ."

"وماذا لو كانت هي تحب أحدهما ؟"

"عندئذٍ يضحي الذي تحبه أقل بشعوره في سبيل سعادتها ."

"وإذا كانت تحبّهما كليهما ، وضحى كلاهما بمصلحته ، أفلا تتزوج البتة ؟"

"لا ، ففي هذه الحال ينظر الشيوخ في القضية ويقدمون النصيحة التي

من شأنها أن تفضي إلى الإتيان بالخير الأقصى للجميع مع ضمان المقدار الأكبر من الحب ."

"ولكنك تعلم أن ذلك منافٍ للعرف والذوق! إنه غير لائق لأنه يكون معاكساً للطبيعة البشرية ."

"يكون معاكساً للطبيعة البشرية ؟ لأية طبيعةٍ بشرية ؟ فالإنسان كائن بشري فضلاً عن كونه حيواناً . ولئن كان صحيحاً أن علاقة كهذه بامرأة ما لا توافق طبيعة الرجل الحيوانية ، فإنها موافقة لطبيعته العقلية . وحين يستعمل الإنسان عقله لخدمة طبيعته الحيوانية يصير أسوأ من الحيوان ، وينحط إلى ممارسة العنف وسفاح القربى ، بل إلى امور لا يفعلها اي حيوان . ولكن حين يستعمل عقله لكبح طبيعته الحيوانية ، فحينئذٍ تخدم طبيعته الحيوانية عقله ، وحينئذٍ فقط يبلغ سعادةً ترضيه حق الإرضاء ."

5

قال يوليوس : "ولكن اخبرني عن أحوالك الشخصية . لقد رأيتك بصحبة تلك الفتاة الفاتنة ، ويبدو لي أنك تقيم بقربها وتساعدها . فهل يعقل الا تتمنى لو تصير زوجاً لها ؟"

فأجاب بمفيليوس : "لا أفكر في هذا الأمر . فهي ابنة أرملة مسيحية . وأنا أخدمهما كما يخدمهما سواي . إنك تسألني هل أحبها بحيث أرغب في توحيد حياتي بحياتها ؟ هذا سؤال يصعب عليّ الجواب عنه ، ولكنني سأجيب بكل صراحة . لقد خطرت لي مثل هذه الفكرة ، ولكني لا أجرؤ حتى الآن على النظر فيها ، لأن شاباً آخر يحبها . هذا الشاب مسيحي ويحبنا كلينا ، ولذا لا أستطيع الإقدام على أمرٍ يؤلمه . وهكذا أعيش دون التفكير في ذلك . إنما أسعى إلى غرض واحد فقط ، الا وهو أن أعمل تماماً بشريعة محبة الإنسان . ذلك هو الأمر الوحيد المطلوب . وسوف أتزوج عندما ارى أن الضرورة تدعوني إلى الزواج ."

"ولكن لن يكون الحصول على صهر مجتهد وصالح أمراً لا يعني أمها في شيء . فمن شأنها أن تريدك انت دون سواك ."

"طبعاً ، الأمر لا يعنيها خصوصاً ، ما دامت تعلم اننا جميعاً مستعدون لخدمتها وانني لن اخدمها اكثر او اقل ، سواء صرت صهرها أم لم أصر . وإذا حدث انني تزوجت ابنتها ، فسأقبل ذلك بطيبة خاطر ، كما اقبل زواجها من اي شاب آخر ."

فهتف يوليوس : "ذلك مستحيل! إنّ ما يهولني جداً بشأنكم انكم تخدعون أنفسكم والآخرين معاً . فما قاله لي ذلك الغريب عنكم كان صحيحاً . فحين اصغي إليك يأسرني على الرغم مني جمال العيشة التي تصفها ، ولكن حين أعمِل فكري ارى أن الأمر بمجمله خدعة تفضي إلى التوحش ، إلى خشونة في الحياة تشبه ما لدى الحيوان ."

"فيمَ ترى هذا التوحش ؟"

"في هذا الأمر : أنكم حين تعولون أنفسكم بالعمل الشاق ، لا يبقى لديكم فراغ ولا فرصة للاشتغال بالعلوم والفنون . فها انت تكتسي الخِرَق ، وتبدو الخشونة على يديك وقدميك ، وها هي رفيقتك التي من شأنها أن تكون إلاهة جمال أشبه بالأمة . وليس عندكم أغانٍ لأبولو ، ولا هياكل ، ولا رياضة ، ولا شيء ، مما وهبته الآلهة لتزيين حياة الإنسان . أفليس العمل الشاق ، كما يعمل العبيد او الثيران ، نكراناً زهدياً متعمداً وغير ورع لإرادة الإنسان الحرة وللطبيعة البشرية ؟"

فقال بمفيليوس : "الطبيعة البشرية ، مرة أخرى! ولكن ما قوام هذه الطبيعة ؟ أتعذيب العبيد كي يعملوا فوق طاقتهم ، أقتل الإنسان لإخوانه واستعبادهم ، امعاملة النساء كأنهن ادوات لذة ؟ فهذا كله لا بد منه لجمال الحياة التي تعتبرونها طبيعية للكائنات البشرية . افتلك هي طبيعة الإنسان ؟ أم

هي أن يعيش المرء حياة المحبة والوئام مع جميع البشر ، وهو يشعر بنفسه أنه عضوٌ في أخوية شاملة ؟

"وأنتم تخطئون كثيراً أيضاً إذا ظننتم اننا لا نعترف بالفنون والعلوم . فنحن نقدر اسمى تقدير جميع الملكات التي وَهبَتها الطبيعة البشرية ، غير اننا نعدّ جميع القدرات الفطرية لدى الإنسان كوسيلة لبلوغ الغاية الواحدة بعينها ، والتي لأجلها نكرس حياتنا ، إلا وهي إتمام مشيئة الله . نحن لا نعتبر الفن والعلم تسلية لا تنفع إلا في تقطيع وقت المتبطلين . بل إننا نتوخى من كل علم وفن ، كما من جميع الصنائع البشرية ، أن يتحقق فيها ذلك النشاط المنكب على محبة الله ومحبة الإنسان والذي ينبغي أن يكون هدف كل نشاط مسيحي . ولا نعدّ علماً حقاً إلا المعرفة التي تعيننا على أن نحيا حياة أفضل ، كما لا نقدّر تقديرنا للفن إلا كل ما ينقي أفكارنا ويرفع نفوسنا ويعزز القوى التي نحتاج إليها في سبيل حياة عامرة بالمحبة والعمل . معرفة من هذا النوع لا نتوانى عن تعهدها في نفوسنا وفي أولادنا ، ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً ، وفن من هذا الصنف نخصص له أوقات فراغنا راغبين . فنحن نقرأ ونتدبر الآثار التي تركتها لنا حكمة الذين عاشوا قبلنا . ونحن ننشد الاناشيد ونرسم اللوحات ، وأناشيدنا ورسومنا تنعش أرواحنا وتعزينا في أوقات الحزن . لذلك لا يسعنا أن نوافق على الاستعمالات التي توظفون فيها الفنون والعلوم . فالرجال المثقفون عندكم يستثمرون قدراتهم الفكرية لابتكار سبل جديدة لإيذاء الناس . إنهم يطورون أساليب الحرب ، أي القتل ، ويخترعون أساليب جديدة للربح ، فيغتنون على حساب الآخرين . أما فنكم فيُستخدم كي تقيموا وتزينوا المعابد إكراماً لآلهتكم التي كف الأكثر علماً بينكم عن الإيمان بها منذ زمن طويل ، ولكنكم تشجعون الآخرين على الإيمان بها ، لكي يتسنى لكم بمثل هذا الخداع أن تبقوهم تحت سلطتكم على النحو الأفضل . وأنتم تقيمون التماثيل إكراماً

لأقوى الطغاة وأعتاهم عندكم ، أولئك الذين لا يحترمهم أحد بل يخافهم الجميع . وفي مسارحكم تُقدم العروض التي تمجد الحب الآثم . وتُستخدم الموسيقى لإبهاج أغنيائكم الذين يقبلون بنهم على ما لذ من طعام وساغ من شراب في ولائمهم الباذخة . كما تُوظف الرسوم في بيوت الفسق لتصوير مشاهد لا يستطيع أن ينظر إليها دون حياءٍ أي رجل عاقل ، أو أي رجل لم تخدره الأهواء البهيمية . كلا ، ليس لمثل هذه الغايات وَهِبَ الإنسان مثل هذه القدرات العليا التي تميزه عن الحيوان . فلا ينبغي أن تُوظف هذه الصنائع في سبيل إشباع الجسد . ونحن إذ نكرس حياتنا كلها للعمل بمشيئة الله إلى التمام ، نوظف ملكاتنا العليا خصوصاً لخدمة هذا الغرض ."

فقال يوليوس : "نعم ، كان من شأن هذا كله أن يكون ممتازاً . لو كانت الحياة ممكنة في ظل ظروفٍ كهذه ، ولكن الإنسان لا يستطيع أن يعيش هكذا . إنكم تخدعون أنفسكم . فأنتم تدينون قوانيننا ومؤسساتنا وجيوشنا ، ولا تعترفون بالحماية التي نوفرها . فلولا الجيش الروماني ما استطعتم أن تعيشوا في سلام . إنكم تفيدون من حماية الدولة دون أن تعترفوا بها . حتى إنّ بعضاً من جماعتكم ، كما قلت لي أنت نفسك ، قد دافعوا عن أنفسهم . وبينما لا تقرون بحق الملكية الشخصية ، تستخدمونه وتنتفعون به . فقومنا يملكون هذا الحق ، وهم ينفعونكم به . وأنت بالذات لا توزع العنب مجاناً ، بل تبيعه وتشتري أشياء أخرى . فالأمر كله إنما هو انخداع وخداع! ولو كنتم تفعلون ما تقولون لكنتم على صواب . لكنكم والحالة هذه تخدعون أنفسكم والآخرين! "

هكذا تكلم يوليوس بحماسة ، وقال كل ما جال في فكره . ولبث بمفيليوس صامتاً ، حتى إذا فرغ يوليوس ، قال :

"أنت مخطئ في ظنك أننا نستفيد من حمايتكم ولا نعترف بفضلها . إنما يكمن خيرنا في عدم طلبنا الحماية ، الأمر الذي لا يستطيع أحدٌ أن ينتزعه

منّا . حتى لو تناقلت أيدينا الأمور المادية التي تكوّن ملكية في نظركم ، لما اعتبرناها ملكاً لنا ، ونحن نقدمها لمن يحتاج إليها لمعيشته . فنحن نبيع العنب ممن يرغب في شرائه ، لا في سبيل الربح الشخصي ، بل حتى نشتري الضروريات لمن يحتاجون إليها فحسب . وإذا رغب احدٌ في أخذ ذلك العنب منا نعطيه إياه دون مقاومة . للسبب عينه لا نخشى غزوة من قبل الهمجيّين . فإذا طفقوا يسلبوننا جنى تعبنا ، ينبغي لنا أن ندعهم يأخذونه ، وإن طلبوا منا أن نشتغل لهم ، ينبغي لنا أيضاً أن نفعل ذلك بكل سرور . وعندئذٍ لا يَعدَمون اي داع لقتلنا فحسب ، بل يكون قتلنا معارضاً لمصالحهم . ولسرعان ما يدركون حقيقة الأمر ويتعلمون أن يحبونا! عندئذٍ تكون معاناتنا على ايديهم أخف وطأة من معاناتنا على ايدي المتمدنين الذين يحيطون بنا الآن ويضطهدوننا .

"تقول إن الأمور التي لا بد منها لوجود البشر وبقائهم لا يمكن إنتاجها إلا في ظل نظامٍ قائم على الملكية الخاصة . ولكن تأمل من ينتج ضروريات الحياة حقاً . لعمل من نحن مدينون بالفضل عن جميع الثروات التي تفاخرون بها ؟ هل انتجها اولئك الذين أصدروا الأوامر لعبيدهم وعمالهم بغير أن يحركوا هم إصبعاً ، والذين الآن يحوزون الأملاك كلها ؟ أم هل انتجها العبيد الفقراء الذين نفذوا أوامر سادتهم لقاء قوتهم اليومي ، والذين ليس في حوزتهم الآن اي ملك ، ولا يكادون يمتلكون ما يسد حاجاتهم اليومية ؟ أوتفترض أن هؤلاء العبيد الذين ينفقون كل طاقتهم في تنفيذ اوامر غالباً ما تكون فوق قدرتهم ما كانوا ليعملوا في سبيل انفسهم ، وفي سبيل أولئك الذين يحبونهم هم ويعنون بأمرهم ، لو سُمح لهم بأن يفعلوا ذلك ، أعني لو قُدّر لهم أن يعملوا لأجل غاياتٍ يفهمونها حق الفهم ويوافقون عليها بالفعل ؟

"وتتهموننا بعدم تحقيقنا تماماً ما نجاهد لأجله ، وباستغلالنا العنف والملكية مع اننا لا نعترف بهما . فإن كنا غشاشين ، فلا نفع من التكلم إلينا ،

ونكون مستحقين لا الغضب ولا الفضح بل الازدراء فحسب . ونحن نقبل ازدراءكم بطيبة خاطر ، لأن واحداً من مبادئنا الخلقية هو الإقرار بعدم أهميتنا الذاتية . ولكن إن كنا نسعى مخلصين نحو ما نعترف به ، فعندئذٍ يكون اتهامكم لنا بالدجل والغش ظالماً . وإذا كنا نكافح ، كما نفعل أنا واخوتي ، للعمل تماماً بشريعة سيدنا ومعلمنا ، وللعيش بلا عنف ولا ملكية خاصة ليست إلا نتيجة للعنف ، فنحن لا نقوم بذلك في سبيل غاياتٍ ظاهرية أو غنى أو كرامة نحسبها كلّها كلاشيء ، بل في سبيل أمر آخر . إننا ننشد السعادة نشدانكم أنتم لها ، غير أن لدينا مفهوماً مغايراً بالنسبة إلى ماهيتها . فأنتم لا تعتقدون أن السعادة تكمن في الغنى والكرامات ، أما نحن فنعتقد أنها موجودة في شيء آخر . ذلك أن إيماننا يبين لنا أن السعادة تكمن ليس في العنف بل في الخضوع ، وليس في الغنى بل في التخلي عن كل شيء . ومثلنا مثل نباتاتٍ تسعى نحو النور ، لا نملك إلا أن نمضي قدماً في اتجاه سعادتنا . نحن لا ننجز كل ما نرغب فيه لأجل مصلحتنا الخاصة . هذا صحيح! ولكن هل يمكن أن يكون الأمر خلاف هذا ؟ فأنت مثلاً تكافح كي تظفر بأجمل زوجة وأوفر ثروة . ولكن هل تمكنت أنت ، أو أي شخص سواك ، من الحصول عليهما ؟ وإذا لم يتمكن الرامي من إصابة الهدف ، فهل يكف عن التصويب نحوه لأنه كثيراً ما يَخفق ؟ كذلك حالنا نحن . فإن سعادتنا ، حسب تعليم المسيح ، تكمن في المحبة . بلى ، إننا نسعى إلى سعادتنا ، ولكننا نبلغها على نحوٍ بعيدٍ عن الكمال ، وكل منا ينشدها بطريقته الخاصة ."

"أجل ، ولكن لماذا لا تؤمنون بكل حكمة بشرية ؟ لمَ تحولتم عنها بعيداً ؟ لماذا تؤمنون فقط بسيدكم ومعلمكم المصلوب ؟ فما ينفرني منكم هو خضوعكم له خضوع العبيد ."

"في هذا أيضاً أنت مخطئ ، شأنك شأن أي من يظن أننا متمسكون

بعقيدتنا لأن الرجل الذي نؤمن به يأمرنا بهذا . بل على العكس ، فأولئك الذين بكل نفوسهم يطلبون معرفة الحق والشركة مع الآب السماوي ، جميع أولئك الذين يطلبون الخير ، يقبلون لاإرادياً إلى السبيل الذي سلكه المسيح ، ولا يسعهم تالياً إلا أن يروه نصب أعينهم ويتبعوه! فجميع الذين يحبون الله يتلاقون على ذلك السبيل ، ولكم انتم أيضاً أن تقبلوا إليه . إن معلمنا وسيدنا هو ابن الله ، من ذات طبيعته ، والوسيط بين الله والناس . ليس لأن أحداً ما قال ذلك ونحن نسير وراءه على نحو أعمى ، بل لأن جميع الذين يطلبون الله يجدون ابنه من قبلهم في ذلك السبيل ، وبغير تعمّد منهم يصلون إلى حيث يفهمون ويدركون ويعرفون الله ، بوساطة ابنه فقط ."

إزاء هذا لم يحر يوليوس جواباً ، وظلا كلاهما صامتين وقتاً طويلاً . ثم سأل يوليوس صديقه : "أسعيد انت ؟"

"لست اتمنى أفضل مما أنا فيه . أضف أنني بوجه عام أختبر شعوراً بالحيرة ، وأعي نوعاً من الظلم ، بحيث أجدني سعيداً إلى أقصى حد ."هكذا قال بمفيليوس باسماً . فأجاب يوليوس :

"بلى ، لعلي كنت في الواقع أسعد حالاً لو لم التقِ ذلك الغريب واقبلت إلى جماعتكم ."

"ما دام هذا اعتقادك ، فماذا يؤخرك ؟"

"وما قولك في زوجتي ؟"

"تقول إنها ميالة نحو المسيحية ، فعسى ان تصحبك ."

"نعم ، ولكننا قد باشرنا من قبل نوعاً من الحياة مختلفاً . فكيف يمكننا أن نقلع عنه ؟ ما دام قد بدأ فعلينا أن نعيشه ." قال يوليوس هذا ، متصوراً عدم رضى ابيه ، وامه ، واصدقائه ، وقبل كل شيء الجهد الذي ينبغي بذله لإحداث التغيير .

إذ ذاك وقفت بالباب الفتاة التي رافقها بمفيليوس ، يصحبها شاب . فخرج بمفيليوس إليهما ، وبحضور يوليوس أفاد الشاب أن كيرلس أرسله لشراء بعض الجلود . وكان العنب قد بيع واشتري بعض القمح . فاقترح بمفيليوس أن يصحب الشاب مجدلين عائداً بالقمح ، فميا يشتري هو الجلود ويعود بها ، وأردف قائلاً : "هذا يكون أفضل لك ."

فقال الشاب : "لا ، أفضل أن تذهب مجدلين معك" ، ثم مضى في سبيله .

وعندئذٍ أدخل يوليوس بمفيليوس إلى دكان تاجر يعرفه ، حيث أفرغ بمفيليوس القمح في أكياس ، ثم أعطى مجدلين حصة يسيرة لتحملها ، وحمل هو حمله الثقيل ، وودع يوليوس ، وغادر المدينة مع الفتاة . وعند منعطف الشارع ، استدار وانحنى ليوليوس مبتسماً ابتسامة رقيقة . ثم بابتسامة أكثر ابتهاجاً ، قال لمجدلين شيئاً وتوارى كلاهما عن الأنظار .

ففكر يوليوس : "نعم ، لو ذهبت إليهم لكانت حالي أحسن ."وفي ذهنه تراوحت صورتان : وجهان مشرقان لطيفان ، هما وجه بمفيليوس المفعم بالحيوية ، ووجه الصبية الطويلة القوية ، وهما يحملان السلّين على رأسيهما ، ثم البيت الأليف الذي انطلق هو منه ذلك الصباح وإليه سيعود سريعاً ، حيث زوجته الجميلة ، لكن المدللة والمُمِلّة ، والتي كان قد بدأ ينفر منها ، تتكئ على المطارف والوسائد متحلية بالأساور والثياب الفاخرة .

ولكن لم يكن لدى يوليوس متسع من الوقت للتفكير في ذلك . فقد أقبل عليه بعض أصحابه التجار ، وشرعوا ينجزون أشغالهم المعتادة ، ثم انتهوا إلى الطعام والشراب ، وقضاء الليل مع النساء .

6

مرت عشر سنين ، ولم يلتق يوليوس بمفيليوس ثانيةً ، وقد بارح ذاكرته لقاؤهما الأخير شيئاً فشيئاً ، وتلاشى لديه الانطباع الحسن عنه وعن الحياة المسيحية .

سارت حياة يوليوس مسيرها الطبيعي . وفي أثناء تلك السنين العشر ، مات أبوه وتولى هو إدارة مصلحته بكاملها ، وقد كانت معقدة . فهناك الزبَن الدائمون ، والباعة في افريقيا ، والكتّاب ، والديون تُحصّل او تُدفع ، وقد ألفى يوليوس نفسه منهمكاً على رغمه في ذلك كله ، وكرس له كامل وقته . فضلاً عن ذلك ، برزت هموم جديدة . فقد انتُخِب لمنصب عام ، وجذبته تلك الوظيفة التي اشبعت غروره . وإلى جانب أمور عمله ، بات الآن معنياً بالشؤون العامة ، ولكونه كفوءاً وبارعاً في الكلام ، بدأ يتميز بين اقرانه ، وبدا مرجّحاً له أن يبلغ أرفع المناصب العامة . أما في حياته العائلية فقد حصل تغيير كبير وبغيض في أثناء تلك السنين العشر . إذ أنجب ثلاثة أولاد ، مما باعده عن زوجته . كانت ، في المقام الأول ، قد فقدت كثيراً من جمالها ونضارتها ؛ وفي المقام الثاني ، قل اهتمامها بزوجها . فإنها كرست كل حنانها وملاطفاتها لأولادها . ومع أن العادة لدى الوثنيين درجت على وضع الأولاد في عهدة المرضعات والمرافقات ، فغالباً ما كان يوليوس يجد أولاده بصحبة أمهم ، أو يجدها معهم بدل أن تكون في أخدارها . وهكذا كان يوليوس في أغلب الأحوال يعتبر الأولاد عبئاً عليه ، إذ وفروا له الإزعاج اكثر من الإبهاج .

وإذ انهمك في العمل والشؤون العامة ، أقلع عن عيشته الخليعة السابقة ، لكنه اعتبر أنه في حاجة إلى بعض الترفيه الصافي بعد الفراغ من أعماله . على أنه لم يجد ذلك في صحبة زوجته ، ولا سيما لأنها في تلك الآونة وطّدت أواصر معرفتها لفتاة مسيحية مستعبدة عندها ، وباتت منجذبة اكثر فاكثر نحو العقيدة

الجديدة ، وقد نبذت من حياتها جميع الأمور الوثنية الخارجية التي كان من شأنها أن تستهوي يوليوس . ولما لم يجد لدى زوجته ما كان يبتغيه ، أنشأ علاقة حميمة بامرأةٍ مستهترة ، وكان يمضي معها أوقات الفراغ التي تتبقى لديه بعد عمله .

ولو سئل أكان سعيداً أم تعساً في أثناء تلك السنين ، لما كان يحير جواباً .

وكم كان مشغولاً! فمن علاقة غرام أو لذة عابرة انتقل إلى علاقةٍ أو لذة أخرى ، ولكن لم تكن أية واحدة منها مرضية تماماً بحيث تشبعه أو تحمله على الرغبة في استمرارها . وقد كان كل ما فعله ذا طبيعة جعلته يشعر برضى أفضل كلما أسرع في التحرر منه ، كما كانت جميع مسراته مسمومة على نحو ما ، أو مشوبة بسآمة التخمة .

وقد كان ذلك نمط عيشته لمّا حدث شيء كاد يغير طريقة حياته بمجملها . ذلك أنه اشترك في سباق العربات ضمن الألعاب الأولمبية ، وبينما هو يقود عربته بنجاح إلى نهاية الشوط إذ اصطدم بعربة أخرى كانت تلحق به ، فانخلع دولاب عربته ، وانقذف هو منها وسقط أرضاً فكسر ذراعه واثنتين من أضلاعه . وقد كانت إصابته بالغة ، مع أنها لم تعرض حياته للخطر ، فحمل إلى منزله واضطر إلى لزوم فراشه ثلاثة أشهر .

في أثناء تلك الأشهر الثلاثة عانى آلاماً جسمية مبرحة ، ولكن عقله ظل ناشطاً ، وكانت له فرصة للتفكير في حياته كما لو كانت حياة شخص سواه . ولاحت له حياته في ظل ضوءٍ كنيب ، ولا سيما إذ جرت آنذاك ثلاث حوادث محزنة ضايقته كثيراً .

كانت أول حادثة أن عبداً ، طالما كان خادم أبيه المأمون ، ارتحل فجأة حاملاً بعض الجواهر الثمينة التي تسلمها في أفريقيا ، وبذلك سبب خسارة فادحة واضطراباً في شؤون العمل .

أما الثانية ، فهجران خليلته له وعثورها على حامٍ آخر .

وأما الحادثة الثالثة ، والأكثر إحزاناً له ، فكانت حصول انتخاب في أثناء مرضه ، وفوز خصمه بالمنصب الذي كان هو يطمح إليه .

وقد بدا ليوليوس أن ذلك كله حصل لأن عجلة عربته انحرفت إلى اليسار قيد أنملة .

وبينما هو مستلقٍ وحده على أريكته ، شرع يفكر لاإرادياً في كون سعادته ترتكز على تلك الأحداث التافهة ، وقد حملته تلك الأفكار إلى سواها ، وإلى تذكّر بلاياه السابقة ، ومحاولته الذهاب إلى المسيحيين ، وبمفيليوس الذي ما رآه طوال عشر سنين . هذه الذكريات عززتها أحاديث مع زوجته التي كثيراً ما مكثت معه في أثناء مرضه ، وخبّرته كل ما تعلمته عن المسيحية من أمتها الفتيّة .

هذه الأمة كانت حيناً في الجماعة عينها مع بمفيليوس ، وكانت تعرفه . وقد رغب يوليوس في مقابلتها ، فلما مثلت بقرب أريكته استفسرها عن كل شيء بالتفصيل ، ولا سيما عن بمفيليوس .

وقد قالت الأمة الشابة إنّ بمفيليوس كان واحداً من خيرة الأخوة ، يحبونه جميعاً ويقدرونه ، وإنه تزوج بمجدلين نفسها التي سبق أن رآها يوليوس منذ عشرة أعوام ، ورزقا بضعة أولاد . ثم ختمت قائلةً : "بلى ، إنّ أي شخص لا يؤمن بأن الله قد خلق البشر للسعادة ينبغي أن يذهب ويرى حياتهم ."

ثم أذن يوليوس للفتاة بالانصراف ، وبقي وحده ، مفكراً في ما سمعه تواً ، وقد ثار حسده إذ قارن حياة بمفيليوس بحياته ، فلم يرغب أن يفكر في ذلك .

وإذا أراد أن يتلهى ، تناول مخطوطة يونانية كانت زوجته قد تركتها على

مقربة من أريكته ، وشرع يقرأ ما يلي(*) :

ثمة طريقان ، أحدهما طريق الحياة ، والآخر طريق الموت . وهذا هو طريق الحياة ، أولاً ، أن تحب الله الذي خلقك ، وثانياً ، أن تحب قريبك كنفسك . وألا تفعل لأحدٍ ما لا تريد أن يفعله لك .

والآن هذا هو معنى هذه الكلمات : باركوا لاعنيكم . صلوا لأجل أعدائكم ولأجل مضطهديكم . فأي فضل لكم أن أحببتم فقط أولئك الذين يحبونكم ؟ أما يفعل ذلك الوثنيّون أيضاً ؟ أحبوا من يبغضونكم . فلا يكون لديكم أعداء . طرحوا عنكم جميع الرغبات الجسدية والدنيوية . إذا لطمك أحد على خدك الأيمن ، فحول له الخد الآخر أيضاً ، فتكون كاملاً . وإذا أجبرك أحدٌ على السير معه ميلاً واحداً ، فسر معه ميلين . وإذا أخذ منك ما هو لك ، فلا تطالبه به ، فهذا أمر يجب ألا تفعله . وإن سلبك رداءك ، فاترك له قميصك أيضاً . أعطِ كل من يطلب منك ، ولا تطالب باسترداد شيء ، لأن الآب السماوي يشاء أن يتلقى الجميع خيراته . مُبارَك من يعطي حسب الوصية!

أما الوصية الثانية من التعليم فهي هذه : لا تقتل ، لا تزن ، لا تكن خليعاً ، لا تدس السم لأحد ، لا تشته أملاك قريبك . لا تحلف يميناً ، ولا تؤد شهادة زور ، ولا تتكلم بالسوء ، ولا تذكر الإساءات . انبذ النفاق من أفكارك ، ولا تكن ذا لسانين . لا يكن كلامك زائفاً ولا باطلاً ، بل موافقاً لأفعالك . لا تكن مشتهياً ، ولا مخادعاً ، ولا حاد الطبع ، ولا متكبراً . لا تضمر نية سوء على قريبك . لا تراع حقداً على أحد ، بل ازجر بعضاً وصل لأجل الآخرين ، وأحبب بعضاً أكثر من نفسك .

بني! اجتنب الشر ، وكل ما يشبه الشر . لا تغضب ، لأن الغضب يفضي إلى القتل . لا تكن غيوراً ، ولا مخاصماً ، ولا انفعالياً ، لأنه من هذه جميعها يأتي القتل .

بني! لا تكن شهوانياً ، لأن الشهوة تفضي إلى الخلاعة ، ولا تكن بذيء

(*) النص التالي . في جوهره . إعادة للجزء الأول من تعليم الرسل الاثني عشر (الديداكي) . وهي مخطوطة مسيحية باكرة جداً اكتشفت في القسطنطينية سنة 1875 ، الأمر الذي عني به تولستوي كثيراً .

اللسان ، لأن من هذه يأتي الزنى .

بني! لا تكن كذاباً ، لأن الكذب يفضي إلى السرقة ، ولا تكن مولعاً بالمال ، ولا متعالياً ، لأن من هذه كلها تاتي السرقة أيضاً .

بني! لا تكن متشكياً ، فذاك يؤدي إلى الكفر ، ولا تكن متكبراً ولا متفكراً بالشر ، فهذان أيضاً يؤديان إلى الكفر . كن متواضعاً ، فإن الودعاء سوف يرثون الأرض . وكن طويل الأناة ، رحيماً ، معطاء ، متضعاً ، لطيفاً ، والقِ بالك إلى الكلمات التي تسمعها . لا تعظم ذاتك ، ولا تسلم نفسك للعجرفة ، ولا تسمح نفسك بأن تلازم المتعجرفين ، بل عاشر المتضعين والمستقيمين . تقبل كل ما يجري لك ، عالماً أن لا شيء يحدث بغير مشيئة الله . . .

بني! لا تبذر الشقاق ، بل صالح المتخاصمين . لا تمد يدك للأخذ ، ولا تردها عن العطاء . لا تكن مبطئاً في العطاء ، ولا تتعال حين تعطي ، فتعرف المكافئ العلي الصالح . لا تحول وجهك عن المحتاجين ، بل في كل شيء شارك أخاك ، ولا تدع شيئاً ملكاً لك ، فإن كنتم شركاء في الأمور غير الفانية ، فكم بالحري في الأمور الفانية . علم أولادك مخافة الله الذي هو فوقكما كليكما ، فإنه تعالى لا يحابي أحداً بل يدعو جميع من أعدّهم روحه .

ولكن هذا طريق الموت ؛ إنه فعلاً محفوف بالغضب وحافل باللعنات . فها هنا القتل والزنى والشهوة ، والخلاعة والسرقة وعبادة الاوثان ، والسحر والتسميم والسلب والنهب ، وشهادة الزور والنفاق والخداع والغدر والخبث ، والعجرفة والجشع والفحش ، والحسد والإهانة والوقاحة والكبرياء . ها هنا مضطهدو الأبرار ، ومبغضو الحق ، ومحبو الباطل ، أولئك الذين لا يعترفون بمكافأة الأبرار ولا يلتزمون ما هو صالح ، ولا الاحكام العادلة ، من هم متيقّظون لا في سبيل الخير بل في سبيل الشر ، ومن نأت عنهم بعيداً كل وداعة وحلم وصبر . ههنا اولئك الذين يحبون البَطل ، ويسعون وراء المكاسب ، ولا يشفقون على إخوانهم ، ولا يعملون لخير المظلومين ، ولا يعرفون خالقهم . ها هنا قتلة الأطفال ، ومفسدو صورة الله في الإنسان ، من يديرون ظهورهم للمعوزين . ها هنا ظالمو المظلومين ، وحماة الأغنياء ، وقضاة الفقراء الجائرون ، الحطاة الأثمة في كل شيء . فحذار ، يا بني ، هؤلاء أجمعين وكل ما يفعلون!

قبلما فرغ يوليوس من قراءة هذه المخطوطة بوقتٍ طويل ، كان قد دخل

بكامل نفسه في شركة مع الذين ألهموها ، كما يحصل غالباً لمن يقرأون كتاباً (أي افكار شخص آخر) برغبة صادقة في تمييز الحق . وقد تابع القراءة وهو يحزر مسبقاً ما سيلي ، حتى إنه لم يكتفِ بالموافقة على الأفكار المعبّر عنها في الرقعة ، بل بدا انه يتوقعها بنفسه .

وقد اختبر تلك الظاهرة المألوفة ، لكن الغامضة والمهمّة ، والتي لا يلاحظها الكثيرون ، وهي حين يصير الإنسان ، المفترض انه حيّ ، حيّاً بالفعل إذ يدخل في شركة وجدانية مع أولئك المعتبرين أمواتاً ، فيتّحد بهم ويعيش معهم حياةً واحدة .

لقد اتحدت نفس يوليوس بمن كتب تلك الأفكار وألهمها ، وفي ضوء تلك المشاركة تأمل نفسه وحياته . فبدا له ان حياته كانت غلطة رهيبة . ذلك انه لم يحيَ حقاً ، بل إنما دمر في نفسه إمكانية العيش ، بهموم الحياة واغواءاتها جميعاً .

وقال لنفسه : "لست أرغب في تدمير حياتي ، بل اريد أن أعيش واسلك سبيل الحياة!"

وتذكر كل ما قاله بمفيليوس له في لقائهما الأخير . وقد بدا ذلك الحديث الآن واضحاً جداً وغير قابل للنقاش ، حتى إنه تعجب من إصغائه لنصيحة الغريب وعدم بقائه على نيّة الذهاب إلى المسيحيين . وتذكر أيضاً أن الغريب قال له : "إذهب بعد أن تكون قد اختبرت الحياة حقاً! "

وقال لنفسه : "لا! لقد ضللت وأخطأت وعانيت ما يكفي! سأتخلى عن كل شيء ، وأذهب إليهم وأعيش كما هو مكتوب في هذه الرقعة!"

ثم أطلع زوجته على خطته ، فابتهجت بها . لقد كانت مستعدة لكل شيء . إنما كانت الصعوبة الوحيدة في عقد العزم على الكيفية المؤاتية لتنفيذ تلك الخطة . وماذا ينبغي أن يفعلا بالأولاد ؟ أيصحبانهم أم يتركانهم مع

جدتهم ؟ وكيف يمكن أن يأخذاهم معها ؟ فبعد نشأتهم المرفّهة ، كيف يعرضانهم لحياة خشنة حافلة بالمصاعب ؟ وعرضت الأمَة الشابة أن تذهب معهم ، لكن الأم خافت على الأولاد ، وارتأت انه يكون أفضل لو تُرِكوا مع جدتهم وذهبا هما وحدهما ، فاتفقا على ذلك .

هكذا تقرر كل شيء . لكنما مرض يوليوس فقط أجّل تنفيذ الخطة .

7

غطغط النوم على يوليوس وهو في تلك الحالة الذهنية . وفي الصباح قيل له إن طبيباً بارعاً قد جاء يزور المدينة ، وإنه يرغب في أن يعوده ، واعداً بشفائه العاجل . فوافق يوليوس طوعاً على مقابلته ، وإذا بالطبيب لم يكن إلا الغريب الذي صادفه يوم كان منطلقاً للانضمام إلى المسيحيين . وبعدما فحص الطبيب إصابته وصف له جرعاتٍ من مغليّ بعض الأعشاب لتقويته .

واستفهم يوليوس الطبيب : "هل أتمكن من العمل بيدي ؟"

"طبعاً ، ستغدو قادراً على الكتابة وقيادة العربة! "

"وماذا عن العمل اليدوي ، كنقب الأرض مثلاً ؟"

قال الطبيب : "لم اكن افكر في ذلك ، لأنه لا يمكن أن يكون ضرورياً لرجل في مركزك ."

فأجاب يوليوس : "بل على العكس ، فهو تماماً الأمر المرغوب فيه ."وقال للطبيب إنه منذ رآه آخر مرة ما زال عاملاً بنصيحته ، وإنه قد اختبر الحياة ، ولكن الحياة لم تؤتِه ما وعدته به ، بل على نقيض ذلك حررته

من الوهم ، حتى بات الآن راغباً في تنفيذ النية التي تحدث عنها آنذاك .

"من الجلي انهم قد استخدموا جميع مخادعاتهم وقد فتنوك ، حتى إنك على الرغم من منصبك والمسؤوليات الملقاة على عاتقك ، ولا سيما نحو اولادك ، ما زلت غير منتبه إلى ضلالهم ."

"إقرأ هذه الرقعة!" ذلك كان كل ما قاله يوليوس جواباً ، دافعاً إليه المخطوطة التي كان يقرأها .

فتناول الطبيب المخطوطة ، ونظر إليها ، ثم قال :

"اعرف هذه المخادعة ، وإنّي لأعجب من ان يقع رجل مثلك في فخّ كهذا ."

"لست افهم ما تقول . أين الفخّ ؟"

"إنّ الحياة خير محك لهذا كله! هؤلاء السوفسطائيون والمتمردون على البشر والآلهة يقترحون نمط حياة يسعد فيه جميع الناس ، ولا تقع حروبٌ ولا إعدامات ، وينتفي الفقر والحرمان ، والنزاع والغضب . وهم يؤكدون أن هذه الحالة آتية لا محالة عندما يعمل جميع الناس تماماً بشريعة المسيح ، حيث يبطل الخصام والاستسلام للشهوة والقَسَمَ والعنف والتسلح ضد أمةٍ أخرى . لكنهم يخدعون أنفسهم والآخرين بحسبانهم الغاية وسيلة .

"فإن هدفهم هو ألا يتخاصموا ، وألا يلزموا أنفسهم قسماً ، وألا يعيشوا عيشة الخلاعة ، وهكذا دواليك . وهذا الهدف لا يمكن بلوغه إلا بواسطة الحياة الاجتماعية . ولكن ما يقولونه يشبه ما يقوله افتراضاً معلم الرماية : "إنك ستصيب الهدف حين يبلغه سهمك في خط مستقيم ." إنما المسألة كيف تجعل السهم ينطلق في خط مستقيم . وهذه النتيجة يحققها الرامي حين يكون وتر قوسه شديداً ، وقوسه مرنة ، وسهمه مستقيماً . هكذا الحال في الحياة . فالحياة الفضلى التي ليس فيها ما يدعو الناس إلى الخصام والخلاعة والقتل إنما تتحقق بالحصول على وتر قوس شديد (الحكام) ، وقوسٍ مرنة (سلطة الحكومة) ، وسهم مستقيم (عدالة القانون) . غير أن أولئك القوم ، بذريعة عيش حياة أفضل ، يدمرون كل ما حسن هذه الحياة أو يحسّنها . فهم لا يعترفون بالحكومة ، ولا بالسلطات ، ولا بالقوانين ."

"ولكنهم يقولون إنه إذا عمل الناس تماماً بشريعة المسيح ، تصير الحياة أفضل ، بلا حكام ولا سلطات ولا قوانين ."

"أجل ، ولكن ماذا يضمن أن يعمل الناس تماماً بها ؟ لا شيء! إنهم يقولون : "لقد اختبرتم الحياة في ظل الحكام والقوانين ، ولم تصر الحياة كاملة . فجربوها الآن بلا حكام وقوانين ، فتصير كاملة . وليس في وسعكم إنكار هذا لانكم لم تجربوه ." ولكن هنا تكمن السفسطة الواضحة لدى هؤلاء الكفرة . أفليس قولهم ذلك في الواقع شبيهاً بما قد يقوله امرؤ للفلاح : "إنك تزرع بذارك في التربة وتغطيه ، ومع ذلك فالمحصول ليس كما تتمنى . أنصحك بأن تزرع في البحر . إن الحال ستكون أفضل إذ ذاك ، وليس في وسعك أن ترفض اقتراحي ، لأنك لم تجربه" ؟"

"نعم ، هذا صحيح" ، قالها يوليوس ، وكان قد بدأ يتزعزع .

فتابع الطبيب : "ولكن ليس هذا كل شيء . فلنفترض ما هو مناف للعقل وغير ممكن . لنفترض أن مبادئ تعليم المسيحيين يمكن أن تسكب داخل الناس كالدواء ، وأن جميع الناس بدأوا فجأة يعملون تماماً بتعليم المسيح ، فيحبون الله وإخوانهم البشر ، ويعملون بالوصايا الإلهية . حتى لو فرضنا أن ذلك تم ، لظل سبيل الحياة المنغرس فيهم غير قادر على الصمود عند الامتحان . فالحياة إذ ذاك تنتهي ، والجنس البشري يفنى . لقد كان معلمهم شاباً متشرداً ، وهكذا سيكون اتباعه . وبحسب افتراضنا ، هكذا يصير العالم كله لو اتبع تعليمه . فالأحياء يدومون مدّتهم ، ولكن أولادهم لا يظلون على قيد الحياة ، أو لا يكاد واحدٌ من عشرةٍ يبقى . وبموجب تعليمهم ، ينبغي أن يكون الأولاد سواسية في نظر كل أمٍ وكل أب ، سواء كانوا أولادهما فعلاً أم لم يكونوا . فكيف يتم الاعتناء بهؤلاء الأولاد ، حين نرى أن كل ما غرس في الأمهات من تفانٍ ومحبة لا يكاد يحمي أولادهنّ من الهلاك ؟ ماذا يحصل إذا حل محل هذا

التفاني عطف يتشارك فيه جميع الاولاد على السواء ؟ أي ولد يؤخذ ويحفظ ؟ وأية امرأة تسهر ليلاً على ولد مريض (وكريه الرائحة) إلا أمّه دون سواها ؟ لقد وفرت الطبيعة للولد حماية في محبة أمه . ولكن المسيحيين يريدون حرمان الولد هذه الحماية ، ولا يقدمون شيئاً في المقابل! ومن ذا يؤدب ابناً ويدربه ، نافذاً إلى قرارة نفسه ، مثلما يفعل أبوه ؟ من يحميه من الأخطار ؟ هذا كله يرفضونه! وهكذا يدمرون كل حياة ، أعني بقاء الجنس البشري ."

فقال يوليوس : "وهذا أيضاً صحيح! "وقد طوّحته بلاغة الطبيب .

"بلى ، يا صديقي ، كف عن ذلك الهذيان . عش عيشة يقرها عقلك ، ولا سيما لأنك الآن تضطلع بمسؤوليات ضخمة وجدية وضاغطة . وقيامك بها على أكمل وجه إنما هو قضية شرف وكرامة . لقد وصلت إلى المرحلة الثانية من شكوكك ، ولكن تابع سيرك تضمحل شكوكك . فواجبك الأول والبديهي إنما هو تربية أولادك وتعليمهم ، الأمر الذي قد أهملته . ينبغي لك أن تؤدبهم وتدربهم حتّى يغدوا خداماً لبلدهم ذوي كفاءة ومكانة . فالبنية السياسية القائمة قد أمدتك بكل ما لديك ، وعليك انت أن تخدمها بنفسك وتقدم لها خداماً كفاة في أشخاص بنيك ، أو كل من تنفعهم أي نفع بتلك الوسيلة عينها . وعليك واجب آخر متمثل في خدمة مجتمعك . فأنت قد خزيت وخارت عزيمتك من جراء الإخفاق العرضي والوقتي . ولكن لا شيء يُنجز دون جهد وجهاد ، ولا تعظم فرحة الانتصار إلا متى كُسِب النصر بالعناء والمشقة . دع زوجتك تتسلّ بثرثرة الكتبة المسيحيين . فعليك أنت أن تكون رجلاً ، وتربي أولادك كي يغدوا رجالاً . باشر العيش بوعي للواجب ، فتتهاوى شكوكك تلقائياً . إنها ناشئة من مرضك . فتمم واجبك تجاه الدولة بخدمتها ، وبإعداد أولادك لخدمتها . أوقفهم على أرجلهم ، حتى يصيروا قادرين على الحلول محلك ، ثم انسحب بسلام لتعيش الحياة التي تستهويك . فحتى ذلك الحين لا يحق لك أن تفعل ذلك الأمر . وإن عجلت في فعله ، فلن تلاقي إلا المعاناة!"

8

سـواء كان بفضل الأعشاب الطبية او النصيحة التي قدمها الطبيب إلى يوليوس ، فقد أبل من مرضه سريعاً ، وآنذاك بدت له خطته لانتهاج عيشة مسيحية أشبه بالهذيان .

وبعدما لبث الطبيب بالمدينة بضعة أيام ، غادرها . بُعيد ذلك نهض يوليوس من فراش المرض ، وباشر حياة جديدة حسب النصيحة التي تلقاها . فوظف معلمين لتعليم اولاده ، وأشرف هو نفسه على دروسهم . وامضى وقته الخاص في الشؤون العامة ، وسرعان ما أحرز نفوذاً واسعاً في المدينة .

وهكذا انقضى عام ويوليوس لا يفكر بالمسيحيين ولو مرة واحدة . وعند تمام العام بعث الإمبراطور الروماني موفداً رسمياً إلى كيليكا لقمع الحركة المسيحية ، ورتِّبت جلسة محاكمة تجري في طرسوس . وسمع يوليوس بالإجراءات الجاري اتخاذها ضد المسيحيين ، لكنه لم يلقِ إليها بالاً ، إذ لم يعتقد أن تلك الإجراءات تمس الجماعة التي كان بمفيليوس يعيش فيها . ولكن بينما كان ذات يوم ماشياً في الساحة العامة للقيام بواجبات منصبه ، إذ دنا منه كهلٌ رث الثياب لم يعرفه أول الأمر . كان ذلك بمفيليوس ، وقد أقبل على يوليوس ممسكاً بيده ولداً ، وقال :

"سلاماً يا صديق! عندي معروف كبير أطلبه إليك ، ولكن لأن المسيحيين الآن يقاسون الاضطهاد فلا أدري هل ترغب في الاعتراف بي صديقاً لك ، أو أنك لا تخشى فقدان منصبك إن كانت لك بي علاقة ما ."

أجاب يوليوس : "أنا لا أخشى أحداً ، وإثباتاً لهذا أدعوك لمرافقتي إلى بيتي . حتى إنني سأرجئ عملي في المنتدى لأحادثك وأساعدك . فتعال معي . ابن من هذا ؟"

"إنه ابني ."

"ما كان ينبغي لي أن أسألك . فأنا أرى ملامحك فيه ، كما يلفتني فيه عيناه الزرقاوان الصافيتان ، فلا أضطر لأن أسألك مَن زوجتك . أليست هي تلك الفتاة الفاتنة التي رأيتك بصحبتها منذ أعوام ؟"

فأجابه بمفيليوس : "بلى ، صدق ظنك . فقد صارت لي زوجة بعيد لقائنا ."

وما إن وصلا إلى المنزل ، حتى دعا يوليوس زوجته وسلمها الصبي ، ثم اصطحب بمفيليوس إلى غرفته الخاصة الفخمة . وقال له :

"يمكنك الآن أن تتكلم بحرية . فلا أحد يسمعنا هنا ."

أجاب بمفيليوس : "لست أخشى أن يسمعني أحد . فلا أطلب ألا يُحكم على المسيحيين المعتقلين ويُعدَموا ، بل أن يسمح لهم فقط بأن يعترفوا بإيمانهم علناً ."

ثم أخبره بمفيليوس كيف نجح المسيحيون الذين اعتقلتهم السلطات في إنفاذ خبر من سجنهم يطلع الجماعة على أحوالهم . ولما كان كيرلس الشيخ على علم بعلاقة بمفيليوس بيوليوس ، فقد أرسله كي يتشفع في المسيحيين . إنهم لم يطلبوا الرحمة . فقد اعتبروا أن دعوتهم هي أن يشهدوا لحق تعليم المسيح ، وفي وسعهم أن يفعلوا ذلك حسناً ، سواءٌ بمقاساة الاستشهاد أو بحياة تطول ثمانين سنة . وهم على استعداد لتقبل أيّ هذين المصيرين بلامبالاة متساوية . ثم إنّ الموت الجسدي الذي لا بد أن يأتي عليهم حتماً مرحب به وخلوٌ من الرعب الآن ، كما سيكون بعد خمسين سنة منذ الآن . ولكنهم راغبون في أن يخدموا إخوانهم البشر باستشهادهم . ولذلك أرسل بمفيليوس ليلتمس أن تكون محاكمتهم وإعدامهم في العلن .

ولئن تعجب يوليوس مندهشاً حيال طلبة بمفيليوس ، فقد وعده بأن يفعل كل ما يسعه لمساعدته . ثم قال :

"لقد وعدت بأن أساعدك ، بدافع من الصداقة ، وبسبب من الشعور بالعطف الذي أثرته لديّ دائماً ، ولكن ينبغي لي أن أقول إنني أعتبر تعليمكم عديم المعنى وضاراً . وفي وسعي أن أحكم بهذا لأنه منذ مدة يسيرة ، لما كنت مريضاً وخائباً ومكتئباً ، أنا نفسي شاركتك مرة أخرى في الرأي ، وكدت أتخلى عن كل شيء والتحق بجماعتكم . فأنا الآن أعرف أساس ضلالكم ، لأني اختبرته بنفسي . ذلك أن قوامه حب الذات ، وضعف الروح ، ووهن المرض . وهو عقيدة تصلح للنساء ، وليس للرجال ."

"ولكن لماذا ؟"

"لأنكم ، بينما تقرون بحقيقة كمون التنافر في طبيعة الإنسان ونشوء النزاع من هناك ، لا ترغبون في المشاركة بذلك النزاع ، ولا في تعليم الآخرين ضرورة المشاركة . وبغير أن تحملوا حصتكم من الحمل ، تستفيدون من المؤسسات الدنيوية القائمة على أساس العنف . أفهذا عدلٌ وإنصاف ؟ إنّ عالمنا مدين بفضل وجوده لحقيقة وجود الحكام في كل زمان . وقد تحمل هؤلاء الحكام العناء والمسؤولية كلها لحمايتنا من الأعداء الخارجيّين والداخليين ، وفي مقابل ذلك خضعنا نحن الرعايا لهم وأدينا لهم الإكرام ، أو ساعدناهم بخدمة الدولة . أما أنتم ، بدافع من الكبرياء ، فبدلاً من المشاركة في شؤون الدولة والارتفاع أعلى فأعلى في نظر الناس ، بفضل أتعابكم وحسب أهليتكم ، تبادرون في كبريائكم حالاً إلى إعلان المساواة بين جميع البشر ، في سبيل ألا تعتبروا أي إنسان أرفع منكم مقاماً ، بل أن تحسبوا أنفسكم مساوين للقيصرَ . ذلك هو ما تعتقده أنت نفسك ، وتُعلّم الآخرين أن يعتقدوه . وفي ذلك للضعفاء والكسالى إغراء عظيم! فكل عبد ، بدل المواظبة على العمل ، يعدّ نفسه في الحال نِدّاً للقيصر . ولكنكم تتعدّون ذلك في ما تعملون : فأنتم ترفضون الضرائب والعبودية والمحاكم والإعدام والحرب ، أي كل ما يُبقي الناس

متماسكين . ولو أصغى الناس إليكم ، لتصدع المجتمع وتداعى ، ولعدنا إلى حالة التوحش البدائية .

"انتم تعيشون في ظل حكومة ، وتنادون بإبادة الحكومة . ولكن حتى وجودكم بالذات متوقف على تلك الحكومة . فلولاها ما كنتم توجدون ، ولكنتم كلكم عبيداً للمتوحشين الهمجيين أو السكيثيّين ، وهم أول قومٍ اتفق أن سمعوا بوجودكم . إنكم أشبه بورم يدمر جسم الإنسان ولا يمكن أن يغتذي إلا من جسم الإنسان . ولكن الجسم الحي يقاوم ذلك الورم ويقهره! ذلك ما نفعله نحن بكم ، ولا يمكننا إلا أن نفعله . وعلى الرغم من وعدي بأن أساعدك كي تُمنح طلبك ، فإني أنظر إلى تعليمكم باعتباره بالغ الأذى والخسة ، وهو جدير بالازدراء لأني أعتبر من قبيل الإهانة والجور أن ينهش الإنسان الثدي الذي أرضعه ، أن تستفيدوا من حسنات النظام الحكومي وتقوضوا ذلك النظام الذي يضمن بقاء الدولة ، بعدم مشاركتكم فيه! "

فأجاب بمفيليوس : "لو كنا نعيش حقاً كما تفترض ، لكان في ما تقوله كثيرٌ من العدل . ولكنك لا تعرف عيشتنا على حقيقتها ، وقد كونت عنها مفهوماً زائفاً . فإن وسائل البقاء التي نستفيد منها يمكن الحصول عليها دون استخدام العنف . ويصعب عليك ، مع عوائدك المترفة ، أن تدرك كم من القليل يمكن أن يعيش الإنسان عليه بغير حرمان . فالرجل السليم البنية يستطيع أن ينتج بيديه اكثر بكثير مما يحتاج إليه لبقائه . وإذ نعيش نحن في جماعةٍ مشتركة ، نستطيع بعملنا العمومي دون صعوبةٍ أن نطعم أولادنا وشيوخنا وعجائزنا ، والمرضى والضعفاء بيننا . وأنت تقول عن الحكام إنهم يحمون الناس من أعداء الخارج والداخل ، غير أننا نحن نحب أعداءنا . وهكذا لا يكون لنا عدو . وتذهب إلى أننا نحن المسيحيين نثير لدى العبد رغبةً في أن يكون قيصراً . ولكن على عكس ذلك ، فبالقول والفعل نحن نعترف بأمرٍ واحدٍ

متمثل في الاتضاع المقرون بالصبر وفي العمل الكادح ، أوضع أنواع العمل ، عمل الفلاح والأجير . ثم إننا لا نعلم ولا نفهم شيئاً مما يتعلق بشؤون السياسة . إنما نعلم أمراً واحداً ، ونعلمه علم اليقين ، ألا وهو أن مصلحتنا تكمن فقط في خير الآخرين ، ونحن نلتمس هذا الخير . فمصلحة جميع البشر تكمن في اتحادهم بعضهم ببعض ، وهذا الاتحاد لا يُحرَز بالعنف بل بالحب . فعنف قاطع الطريق يَعنَي به المسافر ، يعادل فظاعةً في نظرنا عنف جيش يسام به أسراه ، أو عنف قاضٍ ينزل بمن يعدمون ، وليس في وسعنا أن نشارك متعمدين في أي من ذلك . كما لا يسعنا أيضاً أن ننتفع بأتعاب غيرنا إذا فُرضت بالعنف . ولئن كان العنف يرتد علينا ، فإن نصيبنا منه ليس في إنزاله بالآخرين ، بل في تحمل وقوعه علينا خاضعين ."

فقال يوليوس : "نعم ، إنكم تنادون بالمحبة ، ولكن حين يتأمل المرء النتائج يجدها أمراً مغايراً تماماً . فإنها تفضي إلى الهمجية ، والعودة إلى التوحش ، والقتل والسرقة والعنف ، هذه التي بمقتضى عقيدتكم يجب ألا تُكبَح بأية حال ."

أجاب بمفيليوس : "لا ، ليس هذا واقع الحال . فإن أنعمت النظر فعلاً في نتائج تعليمنا وحياتنا ، ودون تحيز ، ترى أنها ليس فقط لا تفضي إلى القتل والسرقة والعنف ، بل على العكس ، أن هذه الجرائم لا يمكن أن تعارضها إلا الوسيلة التي نمارسها . ذلك أن القتل والسرقة ، وجميع الشرور ، وُجِدت قبل المسيحية بزمانٍ طويل ، ولطالما كافحها البشر لكنهم لم يفلحوا ، لأنهم استخدموا وسيلة نأسى لها ، إذ واجهوا العنف بالعنف . وهذا ما كان ليلجم الجريمة قطعاً ، بل على العكس يوقظها بزرع البغض والغضب والحقد .

"انظر الإمبراطورية الرومانية الجبارة . فلا يُبذَل في أي مكان آخر مثل الاعتناء الذي يُولَى القوانين في روما . ودراسة القوانين وتحسينها يشكلان هنا

علماً قائماً بذاته . كما يجري تعليم القوانين في المدارس ، ومناقشتها في مجلس الشيوخ ، وإصلاحها وتطبيقها من قبل اكثر المواطنين علماً وثقافة . وتُعتَبر عدالة القضاء أسمى فضيلة ، ويحظى منصب القاضي باحترام خاص . ولكن على الرغم من ذلك كله معلومٌ أن ليس في العالم كله الآن مدينة غائصة في الجريمة والفساد مثل روما . أما تذكر التاريخ الروماني ؟ ففي الازمنة القديمة حين كانت القوانين بدائية جداً ، كان الشعب الروماني يمتلك فضائل كثيرة . أما في أيامنا ، فعلى الرغم من تطوير القوانين وتطبيقها تزداد أخلاق المواطنين سوءاً . وعدد الجرائم ما انفك يتضاعف ، وهي تصير اكثر تنوعاً وتفنّناً كل يوم .

"ولا يمكن أن تكون الحال على غير هذا المنوال . فالجريمة والشر لا يمكن أن يكافحا بنجاح إلا بأسلوب المحبة المسيحي ، لا بالأساليب الوثنية المرتكزة على الثأر والعقاب والعنف . وأنا على ثقة بأنك تود لو يمتنع الناس عن الشر إرادياً ، لا خوفاً من العقاب . فأنت لا تريد للناس أن يكونوا مثل السجناء الذين يمسكون عن الجريمة لأنهم تحت أنظار سجّانيهم . ولكن ما من قوانين ، ولا قيود ولا عقوبات ، تجعل الناس كارهين فعل الشر أو راغبين في فعل الخير . فذلك لا يمكن بلوغه إلا باقتلاع الشر من جذوره ، وهي متأصلة في قلب الإنسان . وذلك هو ما نهدف إليه نحن ، فيما تحاولون أنتم فقط أن تكبحوا تجلّيات الشر الخارجية . إنكم لا تبحثون عن مصدر الشر ، ولا تعرفون أين هو ، ولذلك لا يمكنكم العثور عليه البتة .

"إن أوسع الجرائم انتشاراً ، أي القتل والسرقة والاحتيال ، هي نتيجة لرغبة الناس في مضاعفة ممتلكاتهم ، أو في الحصول على ضروريات الحياة التي لم يتمكنوا من الحصول عليها بأية طريقة أخرى . بعض هذه الجرائم يعاقب عليها القانون ، ولكن الأكثر فدحاً والأبعد مدى في عواقبها تُرتَكب تحت جناح

القانون ، كالاحتيالات التجارية الضخمة مثلاً والطرق الكثيرة جداً التي بها يسلب الأغنياء الفقراء . فتلك الجرائم التي يعاقب عليها القانون قد تُكبَح فعلاً إلى حد ما ، أو يصير تنفيذها أصعب ، وخوفاً من العقاب يصير المجرمون أكثر حنكة ودهاء فيخترعون ضروباً من الجريمة جديدةً لا يعاقب عليها القانون . ولكن الإنسان ، إذا عاش حياةً مسيحية ، يحفظ نفسه من هذه الجرائم كلها ، علماً بأنها تنجم من جهةٍ عن الكفاح في سبيل المال والأملاك ، ومن جهةٍ أخرى عن عدم التكافؤ في تركّز الثروات بأيدي قِلّةٍ من الناس . أما طريقتنا الوحيدة في كبح السرقة والقتل فهي أن نحتفظ لأنفسنا فقط بما لا بد منه لأجل العيش ، وان نعطي الآخرين جميع حواصل أتعابنا الفائضة . ونحن المسيحيين لا نسبب للناس الإغراء بمرآى الثروة المكدسة ، لأننا قلما نملك أكثر مما يكفي لقوتنا اليومي . فالجائع اليائس المستعد لارتكاب جريمة في سبيل الحصول على كسرة خبز ، إذا جاء إلينا يجد كل ما يحتاج إليه دون ارتكاب أية جريمة ، لأن ذلك هو ما نعيش لأجله : أن نتشارك في كل ما عندنا مع المقرورين والجياع . ونتيجة ذلك أن نوعاً من فَعَلة الشر يجتنبنا ، فيما يتحول الآخرون إلينا ، ويَقلِعون عن حياتهم الإجرامية ، ويُنقَذون ، ويصيرون بالتدريج عمالاً يكدّون لأجل خير الجميع .

"وثمة جرائم أخرى تدفع إليها عواطف الحسد والثأر والحب الجسدي والغضب والحقد . فهذه الجرائم لا يمكن أن يقمعها القانون . والإنسان الذي يرتكبها يكون في حالةٍ وحشية من الأهواء الجامحة ، فهو لا يقوى على تدبّر عواقب أفعاله ، والمقاومة إنما تسخطه . فيكون القانون إذاً عاجزاً عن قمع هذه الجرائم . على أننا نعتقد أنّ الإنسان لا يستطيع أن ينال الرضى ويعرف معنى الحياة إلاّ في الروح فقط ، وأنه ما دام يخدم أهواءه فلن يختبر السعادة بتةً . فنحن نكبح أهواءنا بحياةٍ قوامها الحب والعمل ، ونعزز في نفوسنا قوة الروح ،

وكلما زاد إيماننا انتشاراً على نحوٍ أعمق وأوسع قلت الجريمة حتماً ."

ثم أردف بمفيليوس : "وتنشأ فئة ثالثة من الجريمة عن رغبةٍ في مساعدة الناس . فبعض الرجال ، أي المتآمرون الثائرون ، تواقون إلى تخفيف معاناة الناس ، ولذلك يقتلون الطغاة ، متصورين أنهم بذلك يفعلون الخير لسواد الناس . وفي أصل جرائم كهذه الاعتقاد أن المرء يمكن أن يفعل الخير بارتكاب الشر . فهذه الجرائم التي تحفز عليها فكرة وجيهة ، لا تستحقها العقوبات القانونية ، بل على العكس تلهبها وتوقظها . وأولئك الذين يرتكبون هذه الجرائم ، على الرغم من أخطائهم ، ينطلقون من دافعٍ شريف متمثل بالرغبة في خدمة البشرية . إنهم صادقون مخلصون ، يضحون بأنفسهم عن طيب خاطر ، ولا ينفرون من الخطر . وهكذا ، فإن الخوف من العقاب لا يثنيهم عن عزمهم . إنما على العكس ، فالخطر يحفزهم ، والمعانيات والإعدامات ترفعهم إلى مصف الأبطال المرموقين وتكسب لهم العطف ، وتحث الآخرين على أن يحذوا حذوهم . هذا الأمر نراه في تاريخ الأمم جميعاً . أما نحن المسيحيين فنعتقد أن الشر سيضمحل فقط حين يدرك الناس الشقاء الناجم عنه ، سواء لهم أو لسواهم . ونحن نعلم أن الإخاء لا يمكن بلوغه إلا إذا كنا جميعنا إخواناً ، أي أن الإخاء بلا إخوة أمر مستحيل .

"ولئن كنا ندرك أخطاء المتآمرين الثائرين ، فإننا نقدر إخلاصهم وغيريّتهم ، ويجتذبنا ما فيهم من خير .

"فأيّنا إذاً أنجح في مكافحة الجريمة وأكثر عملاً على قمع الشرّ : أنحن المسيحيين الذين نبرهن بحياتنا سعادة الوجود الروحي الذي لا ينجم عنه أي شر ، وليس لنا من وسيلة تأثير سوى القدوة والمحبة ، أم أنتم الذين يُصدر حكّامكم وقضاتكم الأحكام بمقتضى حرفية الشريعة العقيمة ، ويَهلِكون ضحاياهم ، ويدفعونهم إلى أقصى حدود اليأس ؟"

فقال يوليوس : "حين يصغي المرء إليك ، يكاد يشرع في الظن بأنك على حق . ولكن قل لي ، يا بمفيليوس ، لماذا يعاديكم الناس ؟ لماذا يضطهدونكم ويطاردونكم ويقتلونكم ؟ لماذا يدفع تعليم المحبة الذي تنادون به إلى النفور ؟"

"إن سبب ذلك ليس فينا بل هو بعيد عنا . ما برحت حتى الآن أتكلم عن الجرائم المعتبرة هكذا لدى الدولة وعندنا معاً . فهذه الجرائم تكون شكلاً من العنف ينتهك القوانين الوقتية لدى اية دولة . ولكن إزاء هذه القوانين نواميس مغروزة في الإنسان : قوانين داخلية مشتركة عند جميع البشر ، مكتوبة في قلوبهم . ونحن المسيحيين نطيع هذه القوانين الإلهية الشاملة ، ونجد تحقيقها الأتم والأوضح والأكمل في كلام معلمنا العظيم وسيرة حياته ، ونعدّ من قبيل الجريمة أيّ عنف يتعدى وصايا المسيح ، لأن هذه تعبر عن شريعة الله . ونعدّ من واجبنا أيضاً ، تجنباً للخلاف ، أن نطيع قوانين الدولة في البلد الذي نقيم فيه . غير أننا نعتبر ان شريعة الله ، التي تهيمن على ضمائرنا وعقولنا ، هي العليا ، فلا يمكننا أن نطيع من القوانين إلا تلك التي لا تخالف الشريعة الإلهية ."أعطوا القيصر ما للقيصر ، والله ما لله ." من هنا كان كفاحنا ضد الجريمة أبعد غوراً وأوسع مدى من كفاح الدولة ، لأننا بينما نتحامى انتهاك قوانين البلد الذي يتفق أن نعيش فيه ، نسعى قبل كل شيء إلى عدم مخالفة مشيئة الله ، هذه الشريعة المشتركة للبشر جميعاً . وما دمنا نعتبر أن شريعة الله هي القانون الأسمى ، يكرهنا الناس ويخافون منا ، إذ يعتبرون بعض القوانين عليا ، كتشريعات بلدهم مثلاً ، أو في أغلب الأحيان عادة خاصة من عوائدهم . فهم لا يقدرون أن يصيروا ، او قل : لا يرغبون أن يصيروا ، كائنات بشرية حقيقية ، بمعنى ما قاله المسيح : "الحق يحرركم ." إنهم راضون بمركزهم كرعايا في هذه الدولة أو تلك ، او كأعضاء في المجتمع ، وهكذا يشعرون على نحو طبيعي بالعداوة تجاه أولئك الذين يعون ويعلنون مصير

الإنسان الأسمى . وإذ يعجزون ، أو يأبون ، أن يفهموا هذا المصير الأسمى لنفوسهم ، يرفضون الإقرار به للآخرين . في مثل هؤلاء قال المسيح : "ويل لكم أيها الفريسيون! فقد خطفتم مفتاح المعرفة ، فلا أنتم تدخلون ، والداخلين تمنعون ."وهم منشنو هذه الاضطهادات التي تثير في ذهنك الشكوك .

"ونحن لا نضمر عداءً تجاه أي إنسان ، ولا تجاه الذين يضطهدوننا ، وحياتنا لا تجلب الضرر والأذى على أيِ إنسان . وإذا كان الناس ساخطين علينا ، فسبب ذلك أن حياتنا شوكة في خواصرهم ، إذ تدين دائماً حياتهم المؤسسة على العنف . ونحن لا نقوى على منع هذه العداوة تجاهنا ، ما دامت لا تنبع منا ، إذ لا يمكننا أن ننسى الحق الذي أدركناه ، ولا نستطيع أن نباشر عيشة تعارض ضمائرنا وقولنا . عن هذه العداوة التي تثيرها عقيدتنا لدى الآخرين ، قال معلمنا الكريم : "لا تظنوا أني جئت لأُحِلَ السلام على الأرض . فما جئت لالقي سلاماً ، بل سيفاً!" وقد خبر المسيح نفسه هذه العداوة ، وحذرنا نحن تلاميذه منها مراراً وتكراراً . إذ قال : "العالم يبغضكم ، لأن افعاله شريرة . لو كنتم من العالم ، لكان العالم يحبكم . ولكن لأنكم لستم من العالم ، وأنا قد أنقذتكم من العالم فلذلك يبغضكم العالم . سوف يأتي وقت فيه يظن من يقتلكم أنه يؤدي خدمة لله ."

"غير أننا ، مثل المسيح ، لا نخاف من الذين يقتلون الجسد ثم لا يقدرون أن يفعلوا بنا اكثر من ذلك . إنّ الآلام وموت الجسد لن تعفي أي إنسان ، ولكننا نحيا في النور ، ولذلك لا تتكل حياتنا على الجسد . فليس نحن مَن يعاني من جراء الهجمات التي تستهدفنا ، بل مضطهدونا وأعداؤنا ، إذ يعانون شعور العداء والحقد الذي يضمرونه كمن يربي أفعى في صدره ."وهذه هي الدينونة : أن النور قد جاء إلى العالم ، وأحب الناس الظلمة أكثر من النور ، لأن أعمالهم كانت شريرة ."ولا داعي إلى الاضطراب بشأن هذا ، لأن الحق

سوف يستظهر . إنّ الخراف تسمع صوت الراعي وتتبعه ، لأنها تعرف صوته . ولن يهلك قطيع المسيح البتة ، بل سيتكاثر ، مجتذباً إليه خرافاً جديدة من بلدان الارض كلها ، لأن الروح يهب حيث يشاء ، وأنت تسمع صوته ، ولكنك لا تدري من أين ياتي ولا إلى أين يمضي ."

فقاطعه يوليوس قائلاً : "نعم ، ولكن أبينكم كثيرون من الصادقين المخلصين ؟ فإنكم غالباً ما تُتهمون بكونكم تتظاهرون فقط بأنكم شهداء ويسرّكم أن تموتوا في سبيل الحق ، غير أن الحق ليس في جانبكم . أنتم مختلون متكبرون ، تقوّضون جميع أسس الحياة الاجتماعية؟"

فلم يردّ بمفيليوس جواباً ونظر إلى يوليوس بأسف وأسى .

9

حينئذٍ دخل الغرفة راكضاً ابن بمفيليوس الصغير والتزق بجنب أبيه .

فعلى الرغم من ملاطفة زوجة يوليوس له ، هرب منها ليجد أباه . وتنهد بمفيليوس ، وقبّل الصبي ، ونهض ليمضي ، ولكن يوليوس استمهله واستبقاه لتناول الطعام ومتابعة الحديث . ثم قال :

"يدهشني أن أراك متزوجاً وذا أولاد . فلست افهم كيف يمكنكم ، انتم المسيحيين ، أن تربوا أسرة وليس لكم ما تملكون . كيف تستطيع الأمهات بينكم أن يعشن في سلام وهن يعلمن أن ليس لديهن ما يعلن به أولادهن ؟"

"ولماذا يحظى صغارنا بإعالة أقل من نصيب اولادكم ؟"

"لأن ليس لديكم عبيد ولا أملاك . إنّ زوجتي ميالة جداً إلى المسيحيّة . حتى إنها حيناً رغبت في التخلي عن نمط حياتنا ، وعزمتُ انا على مرافقتها . ولكنها خشيت عدم الأمان والفقر اللذين توقعتهما للأولاد ، ولا أملك انا إلا ان اوافقها . كان ذلك في ايام مرضي . فإن طريقة حياتي بمجملها كانت منفرة لي آنذاك ، وتمنيت لو اغيرها ، ولكن مخاوف زوجتي ، والتفسير الذي قدمه إليّ

الطبيب الذي كان يعالجني ، اقنعتني بأن عيشة مسيحية كالتي تعيشونها ، وان كانت صائبة وممكنة لمن لا عائلة لديه ، فهي مستحيلة على ذوي العيال ، أو على الأمهات ذوات الأولاد ، وبأن من شأن الحياة أن تعدَم الوجود ، والجنس البشري أن يزول ، إذا تبنى الجميع وجهة نظركم حيال الحياة . ويبدو لي أنّ هذا صحيح تماماً . ولذا أدهشني كثيراً أن أراك ومعك ابن يلازمك ."

"لا ابن واحد ، فعندنا آخر رضيع وابنة عمرها ثلاث ، وقد بقيا في البيت!"

"ولكني لا أفهم الأمر! فمنذ زمن غير بعيد كنت على استعداد للتخلي عن كل شيء والانخراط في صفوفكم . ولكنّ عندي أولاداً . وقد اتضح لي أن ليس من حقي أن أضحي بأولادي ، مهما كانت طريقة حياتكم صالحةً لي . ولذلك بقيت هنا لأجلهم ، عائشاً كالسابق ، حتى يتربوا في الظروف التي نشأت أنا فيها وعشت ."

فقال بمفيليوس : "غريب كيف ننظر إلى الأمور بطريقة مختلفة . إذ نقول إن الراشدين قد يُعذَرون إذا عاشوا عيشة دنيوية ، لأن التدليل قد أفسدهم ، ولكن ذلك رهيب بالنسبة إلى الأولاد . فكيف يُربَون بطريقة دنيوية ويُعرَضون للإغراءات! "الويل للعالم من العثرات ، إذ لا بد أن تأتي العثرات ، لكن الويل لمن تأتي على يده! "هكذا قال معلمنا ، وأنا أعيد هذا على سمعك لا في سبيل التكرار ، بل لأنه حق . فالضرورة الرئيسة التي تحملنا على أن نعيش عيشتنا إنما تنشأ من حقيقة وجود أولاد في ما بيننا ، هؤلاء الأولاد الذين قيل في شأنهم : "إن لم تعودوا كالأولاد الصغار ، لا يمكن أن تدخلوا مملكة السماء" ."

"ولكن كيف تستطيع العائلة المسيحية أن تعيش حيث تُعدَم وسائل العيش ؟"

"ليس إلا وسيلة واحدة حسب عقيدتنا ، الا وهي العمل المقرون بالمحبة لأجل الناس . اما أسلوبكم فهو العنف . ولكن هذا الاسلوب عرضةٌ للإخفاق والزوال حين يزول الغنى ، وعندئذٍ يبقى العمل وحب البشر وحدهما ، ونحن نعدّ المحبة أساساً لكل شيء ، وينبغي أن نتشبث بها بإحكام ونعمل على مضاعفتها . وحيت تكون الحال على هذا المنوال ، تعيش العائلات وتزدهر . لا! فإذا شككت في صحة تعليم المسيح ، أو ترددت في اتباعه ، فإن شكوكي وترددي تتلاشى حين أفكر بمصير الأولاد الذين يترعرعون بين الوثنيين ، في الظروف التي نشأت أنت فيها وينشأ فيها أولادك . ومهما مضى بعض الناس في ترتيب شؤون حياتهم ، مستخدمين القصور والعبيد والسلع المجلوبة من بلدانٍ أخرى ، فإن حياة سواد الناس ستبقى كما ينبغي . وسيكون ضمان تلك الحياة هو إياه دائماً ، أي الحب الأخوي والعمل . وإذ نرغب في إعفاء انفسنا وأولادنا من هذه الظروف ، وجعل الناس يشتغلون لنا بطريقة العنف لا الحب ، نستغرب أن نقول إننا كلما ضاعفنا ضمان نفوسنا بذلك نحرم أنفسنا اكثر فأكثر تلك الضمانة المأمونة والحقيقية والطبيعية ، إلا وهي المحبة . وكلما تعاظمت قوة الحاكم ، قل حب الناس له . هكذا حال ضماننا الآخر ، أي العمل . فكلما أمعن الإنسان في تحرير نفسه من العمل وتعويدها الرخاء والرفاهية ، قلّت قدرته على العمل وزاد حرمانه نفسه الضمانة الحقيقيّة الموثوق بها . ومع ذلك ، فحين يضع الناس أولادهم في هذه الظروف ، يقولون إنهم دبروا أمور معيشتهم! خذ ابنك وابني ، وارسلهما كليهما ليهتديا إلى طريقهما في اي مكان ، أو لتبليغ تعليمات ما ، أو للقيام بأمر من الأمور الضرورية ، فترى أيّهما يقبل قبولاً سريعاً . كلا! لا تصرح ذلك التصريح الفظيع بأن الحياة المسيحية غير ممكنة إلا لمن كان بلا أولاد . فعلى نقيض ذلك يمكن أن يقال إن الحياة الوثنية يمكن اغتفارها فقط للذين ليس لهم أولاد . "ولكن الويل لمن يجعل أحد هؤلاء الصغار يتعثّر"!"

فلم يُحرِ يوليوس جواباً إلى حين ، ثم قال :

"نعم ، لعلك على حق . ولكن تعليم أولادي قد بوشر ، ولديهم خيرة المعلمين . فليتعلموا كل ما نعرفه ، فلا يمكن أن يكون في ذلك ضرر . والوقت متسع بما يكفي أمامي وأمامهم . وفي وسعهم أن يذهبوا إليكم عندما يكبرون إذا وجدوا ذلك ضرورياً . وفي وسعي أنا أن أفعل ذلك بعد أن أوقفهم على أرجلهم وأُنهي شوطي ."

فقال بمفيليوس : "اعرفوا الحق ، والحق يحرركم . إن المسيح يعطيك حرية كاملة في الحال . أما تعليم العالم فلن يعطيك إياها البتة . وداعاً[٦] ثم دعا ابنه ، ومضى في سبيله .

بعد ذلك حُكم على المسيحيين وأُعدموا علناً . وشاهد يوليوس بمفيليوس وغيره من المسيحيين يخلون الساحة من جثث الشهداء . ومع أنه رآه ، فخوفاً من السلطات العليا لم يدنُ إليه ، ولا دعاه إلى منزله .

10

مرت عشرون سنة أخرى ، وماتت زوجة يوليوس . وانصب مجرى حياته على الشأن العام وجهود كسب النفوذ ، الأمر الذي بدا أحياناً في متناوله وراوغه أحياناً . وقد بات غناه عظيماً وظل يتزايد .

كان بنوه قد كبروا ، وشرع الثاني خصوصاً يحيا حياة تبذير وإسراف . لقد أحدث ثقوباً في قعر الكيس الذي يحتوي على ثروة أبيه ، وبنسبة ازدياد تلك الثروة زاد تسربها من خلال تلك الثقوب . وعندئذٍ قام بين يوليوس وبنيه نزاع كالذي كان بينه وبين أبيه ، قوامه الغضب والبغض والغيرة .

في تلك الأثناء عُيّن حاكم جديد حجب عن يوليوس حظوته . فهجره متملقوه القدامى ، وبات عرضة للعزل . وقصد إلى روما لجلاء الأمور ، فلم يُستقبَل بل أُمِر بالعودة .

ولدى وصوله وجد ابنه يلهو ويعربد في عشرة رفقاء السوء . وكانت قد سرت في كيليكيا إشاعة موت يوليوس ، فإذا الابن يحتفل بموت أبيه احتفالاً صاخباً! ففقد يوليوس السيطرة على نفسه ، وطرح ابنه أرضاً ، ثم انكفأ إلى أخدار زوجته . وهنالك عثر على نسخة من الإنجيل الشريف ، قرأ فيها :

"تعالوا إلي يا جميع المتعبين والثقيلي الأحمال ، وأنا أريحكم . إحملوا نيري عليكم ، وتعلموا مني ، لأني وديع ومتواضع القلب ، فتجدوا راحة لنفوسكم . لأن نيري هيِّن وهملي خفيف ."

ففكر : "نعم ، لطالما كان يدعوني . ولكني لم أومن به بل كنت معانداً وشريراً ، وكم كان نيري ثقيلاً وحملي مرهقاً!"

قعد هناك طويلاً والإنجيل مفتوح على ركبتيه ، يستعرض ماضي حياته مفكراً ، ومتذكراً كل ما قاله بمفيليوس في أوقاتٍ شتى . وأخيراً نهض وذهب إلى ابنه . ولشد ما أدهشه أن رآه واقفاً على قدميه ، ففرح فرحاً لا يعبّر عنه إذ وجد انه لم يُصَب بأذى .

وبغير أن يقول يوليوس كلمة لابنه ، خرج إلى الشارع ، وانطلق نحو قرية المسيحيين . مشى طول النهار ، وفي المساء توقف ليبيت ليلة عند فلاّح . وكان مستلقياً في الغرفة التي دخلها رجلٌ نهض حالما سمع وقع خطاه ، فإذا به صاحبه الطبيب .

إذ ذاك قال يوليوس هاتفاً : "لا ، هذه المرة لن تثنيني عن عزمي! هذه ثالث مرة أشرع بالذهاب إلى هناك ، والآن أعلم انه هناك فقط سوف أجد سلام الذهن ."

فسأله الطبيب : "أين ؟"

"بين المسيحيِّين ."

"نعم ، لعلك تجد سلام الذهن ، ولكنك لا تكون قد تممت واجبك . إنك تفتقر إلى الرجولة ، وقد سحقت البلايا روحك . ما هكذا يتصرف الفلاسفة الحقيقيون! إنما البلايا ليست إلا النيران التي بها يُمتحن الذهب . وأنت قد اجتزت امتحاناً . ولآن تهرب حين تدعو إليك الحاجة! لكن الآن هو الوقت الذي فيه تمتحن الناس ونفسك . لقد اكتسبت الحكمة الحقيقية ، وينبغي لك أن توظفها لخير بلدك . فماذا يجري للشعب إن كان جميع الذين قد تعلموا معرفة الناس وأهوائهم ، وأحوال الحياة ، يدفنون معرفتهم واختبارهم في نشدانهم سلام الذهن ، بدلاً من إشراك الآخرين فيهما لمصلحة المجتمع ؟ فإنك قد اكتسبت خبرتك بالحياة بين الناس ، وينبغي لك أن تستخدمها لأجل خيرهم ."

"ولكن ليس لي حكمة على الإطلاق! إنني غائص في الضلال بجملتي! وأخطائي لم تصر حكمة لأنها قديمة العهد ، كما لا تصير المياه خمراً لأنها راكدة وفاسدة ."

ثم تناول يوليوس عباءته وغادر البيت ، وانطلق متابعاً سيره بغير أن يتريث كي يستريح . وعند نهاية النهار التالي وصل إلى قرية المسيحيين .

استقبلوه بسرور ، مع أنهم لم يعرفوا أنه كان صديقاً لبمفيليوس ، وكانوا جميعهم يحبونه ويحترمونه . وفي حجرة الطعام ، ما إن رأى بمفيليوس صديقه حتى أسرع إليه فَرِحاً وقبله مُرحّباً .

قال يوليوس : "ها قد جئت أخيراً . قل لي ماذا افعل وسأطيعك ."

فقال بمفيليوس : "لا تقلق بشأن هذا . تعال معي ."ثم اقتاده إلى بيت الضيوف ، وأراه سريراً ، وقال :

"بعد أن يتاح لك وقت لمراقبة حياتك ، ستدرك بنفسك كيف يمكنك أن تكون نافعاً أفضل نفع للبشر . ولكني أريك شيئاً تفعله غداً وتشغل به وقتك

حالياً . إننا نقطف العنب في كرومنا ، فاذهب إلى هناك وساعدنا . سترى بنفسك ما يمكنك أن تفعل ."

وفي الصباح التالي مضى يوليوس إلى الكروم . كان أول كرم مليئاً بالكرمات الفتيّة المثقلة بعناقيد العنب . وكان شباب وصبايا يقطفون العنب ويجمعونه . فإذا بجميع الأماكن مشغولة ، حتى إن يوليوس لم يجد لنفسه مكاناً بعد أن جال بعض الوقت . ثم مضى أبعد ، فوصل إلى كرم أعتق يحمل ثمراً اقل . ولكن هناك أيضاً لم يكن من شيء يمكن أن يفعله ، فقد كان القاطفون يعملون زوجين زوجين ، ولم يكن له مكان . ومضى أبعد أيضاً ، فدخل كرماً عتيقاً جداً ومهجوراً . كانت أغصان الكرمات كثيرة العقد والالتواء ، ولم يستطيع يوليوس أن يرى اي عنب .

فقال لنفسه : "تلك هي حياتي هناك! لو جئت اول مرة ، لكانت أشبه بالثمر الذي يحمله الكرم الأول . ولو جئت لما انطلقت ثاني مرة ، لكانت مثل ثمر الكرم الثاني . ولكن ها هي حياتي الآن ، اشبه بهذه الكرمات المعمرة العديمة النفع والتي لا تصلح إلا وقوداً!" وهاله ما قد فعل ، مرتعباً من العقاب الذي ينتظره لتضييعه حياته باطلاً ، فحزن وقال بصوت عالٍ :

"لم أعد نافعاً لشيء ، ولا أستطيع أن افعل اي شيء الآن!" ثم قعد وبكى لأنه ضيع ما لا يستطيع استعادته البتة . وفجأة سمع صوت شيخ يناديه قائلاً :

"إعمل أيها الأخ!"

وتطلع يوليوس حواليه فراى شيخاً أشيب قد حنى الدهر ظهره فبات لا يكاد يقوى على جر قدميه . وكان واقفاً بقرب جفنةٍ يجمع بعض العناقيد الحلوة التي بقيت هنا وهناك . فتوجه يوليوس إليه .

وقال الشيخ أيضاً : "إعمل أيها الأخ العزيز! العمل مبهج!" ثم أراه أين

يبحث عما تبقى من عناقيد العنب . وبدأ يوليوس يبحث عنها ، فوجد بعضاً ، وأتى ووضعها في سلة الشيخ . ثم قال له الشيخ :

"انظر ، من أية جهة هذه العناقيد أسوأ من تلك التي يجمعونها في الكروم الأخرى ؟ أوليست مثلها ؟ لقد قال معلمنا الكريم : "سيروا ما دام لكم النور . إنّ مشيئة الذي أرسلني هي أن كل من يرى الابن ويؤمن به يُعطى الحياة الأبدية : وأنا أقيمه حياً في اليوم الأخير . فإن الله لم يرسل ابنه إلى العالم ليدين العالم ، بل كي يُنقَذ العالم به . من يؤمن به لا يُدَن . أما الذي لا يؤمن به فقد دين : لأنه لم يؤمن بالابن الذي له طبيعة الله بالذات . وهذه هي الدينونة : أن النور قد جاء إلى العالم ، ولكن الناس أحبوا الظلمة أكثر من النور ، لأنّ أعمالهم كانت شريرة ، لأن كل من يفعل السيئات يبغض النور ، ولا يَقبل إلى النور حتى لا تُفضَح أعماله . وأما من يفعل الحق فيَقبِل إلى النور ، لكي تظهر أعماله أنها بالله معمولة ."

"بني ، لا تبتئس! فنحن جميعاً أبناء الله وخدامه! نحن كلنا جيش واحد! أفتظن أن ليس عنده خدام غيرك ، وأنك لو كرست نفسك لخدمته بكامل قوتك لاستطعت القيام بكل ما يحتاج إليه ، أي كل ما تدعو إليه الحاجة لتوطيد مملكته الإلهية ؟ تقول إنك كنت فعلت ضعفَي ما فعلته ، أو عشرة أضعاف ، أو مئة ضعف . ولكن لو فعلت عشرة آلاف مرة مضروبة بعشرة آلاف ضعفٍ من كل ما فعله البشر كلهم ، فماذا يكون ذلك في عمل الله ؟ مجرّد لا شيء! فإن عمل الله ، شأنه شأن الله نفسه ، غير محدود . وعمل الله هو أنت . فأقبِل إليه ولا تكن عاملاً بل ابناً ، فيصير لك نصيب في الله غير المحدود وفي عالمه . ليس في نظر الله صغيرٌ ولا كبير ، بل هنالك فقط ما هو مستقيم وما هو معوّج . فادخل طريق الحياة المستقيم ، تكن مع الله ، ويكن عملك لا صغيراً ولا كبيراً ،

بل عمل الله . وتذكر أن في السماء فرحاً بخاطئ واحد يتوب أكثر من الفرح بمئة بارّ . فإنّ عمل العالم - كل ما قد أهملت فعله - إنما أظهر لك خطيئتك ، وأنت قد تُبتَ . ولما تُبتَ ، وجدت الطريق المستقيم . فامضِ قدماً وسر فيه ، ولا تفكر في الماضي ، ولا في ما هو عظيم أو حقير . إنّ جميع البشر متساوون في نظر الله! فثمة إله واحد ، وحياة واحدة!"

عندئذٍ تعزّى يوليوس وانتعشت روحه . ومنذ ذلك اليوم عاش وعمل لأجل الإخوة بحسب قدرته . وهكذا عاش فَرِحاً عشرين سنة أخرى ، ولم يلاحظ كيف أخذ الموت جسده .

سنة 1893

ثلاث وعشرون حكاية

القسم الأول

حكايات للصغار

1

الله يرى الحقيقة ولكن يتأنى

عاش في مدينة فلاديمير تاجر شاب اسمه إيفان دميتريتش اكسيونوف ، وكان يملك دكانين ومنزلاً .

كان اكسيونوف وسيما أشقر الشعر جعده ، كثير المرح ، مولعاً بالغناء . ولما بلغ مبلغ الشباب أدمن الخمر . وكان يعربد إذا اكثر منها ، لكنه بعد زواجه اقلع عن شربها إلا لماماً .

وذات صيفٍ كان اكسيونوف على أهبة الذهاب إلى سوق نجني ، وما إن ودع عائلته حتى قالت له زوجته : "إيفان دميتريتش ، لا تنطلق اليوم ، لقد حلمت حلماً سيئاً بشأنك!"

فضحك اكسيونوف وقال : "إنك تخشين أن أسرف في الشرب عندما أصل إلى السوق ."

أجابته : "لست أدري مما أنا خائفة . كل ما أعرفه أنني حلمت حلماً سيئاً . فقد حلمت أنك رجعت من المدينة ، ولما خلعت قبعتك رأيت شعرك شائباً كله ."

فضحك أكسيونوف قائلاً : "تلك علامة فألٍ حسن . وسترين إن كنت لا أبيع بضاعتي كلها وأعود إليك ببعض الهدايا من السوق ."

وهكذا ودّع عائلته ومضى في سبيله .

ولما قطع نصف الطريق ، التقى تاجراً من معارفه ، ونزلا كلاهما ليبيتا في خانٍ واحد . وبعدما شربا شيئاً من الشاي معاً ، أوى كلاهما إلى فراشه ، كلٌ في غرفةٍ ملاصقة للأخرى .

لم يكن من عادة اكسيونوف أن يتأخر في نومه ، وإذ رغب في استئناف السفر والجو باردٌ بعد أيقظ سائق عربته قبل الفجر وطلب منه أن يشد حصانيه .

ثم عبر إلى صاحب الخان ، حيث كان يقيم في كوخٍ وراءه ، ودفع إليه الأجرة ، ومضى قدماً في سفرته .

ولما قطع نحو أربعين كيلومتراً ، توقف لإطعام الحصانين . واستراح قليلاً في رواق الخان ، ثم دلف إلى البهو ، حيث طلب تسخين إبريق شاي ، وأخرج غيتاره وأخذ يعزف .

وفجأةً أقبلت نحو الخان عربةٌ يجرها ثلاثة أحصنةٍ متراصة ذات أجراسٍ مجلجلة ، ثم ترجل منها ضابط وتبعه عسكريان . وتوجه الضابط إلى أكسيونوف وأخذ يسأله من هو ومن أين جاء .

أجابه اكسيونوف عن كل ما سأل ، ثم قال : "ألا تتناولون بعض الشاي معي ؟" ولكن الضابط استأنف استجوابه وسأله : "أين بت ليلتك ؟ أكنت وحدك أم بصحبة تاجر آخر ؟ وهل رأيت التاجر الآخر هذا الصباح ؟ ولماذا غادرت الخان قبل الفجر ؟"

ساءل اكسيونوف نفسه عن سبب طرح هذه الأسئلة عليه ، ولكنه وصف كل ما حدث ، ثم قال : "لماذا تستجوبني كما لو كنت لصاً أو سارقاً ؟ أنا مسافر في عمل أقوم به ، ولا داعي لاستجوابي ."

عندئذٍ دعا الضابط العسكريين وقال : "أنا ضابط الشرطة في هذه المنطقة ، وأنا أستجوبك لأن التاجر الذي قضيت معه الليل في خانٍ واحد وُجِد مقتولاً وقد حُزّ عنقه ، ينبغي أن نفتش أشياءك ."

ثم دخلوا النزل . وفك العسكريان والضابط أمتعة اكسيونوف وفتشوها . وفجأة سحب الضابط حقيبة وصرخ : "سكين من هذه ؟"

ونظر أكسيونوف فإذا سكين ملطخة بالدم وقد أُخرِجت من حقيبته فارتعب .

"من أين جاء الدم على هذه السكين ؟"

حاول أكسيونوف أن يجيب ، ولكنه لم يكد ينبس ببنت شفة ، بل قال متلعثماً : "أنا - لست أعرف - ليست لي ."

ثم قال ضابط الشرطة : "هذا الصباح وُجِد التاجر في سريره وعنقه محزوز . أنت الشخص الوحيد الذي يمكن أن يكون قد فعل ذلك . كان النزل مقفلاً من الداخل ، ولم يكن هناك شخص آخر سواك . وهوذا هذه السكين الملطخة بالدم هنا في حقيبتك . كما أن وجهك وتصرفك ينمان عليك! قل لي كيف قتلته وكم من المال سلبته ؟"

أقسم أكسيونوف أنه لم يفعل شيئاً ، وأنه لم يرَ التاجر بعدما تناولا الشاي معاً ، وأن ليس معه من المال سوى ثمانية آلاف روبل هي له ، وأن السكين ليست له . لكن صوته كان متهدَجاً ، ووجهه شاحباً ؛ وكانت فرائصه ترتعد خوفاً كما لو كان هو الجاني .

ثم أمر الضابط العسكريين بتقييد أكسيونوف وإصعاده إلى العربة . وإذ ربطا رجليه معاً وطرحاه إلى داخل العربة ، رسم إشارة الصليب على وجهه وبكى . وقد صودر منه ماله وبضاعته وسيق مخفوراً إلى المدينة القُربى ، حيث أُودِع السجن . وأجريت تحقيقات في مدينة فلاديمير تناولت أخلاقه . وقال تجار المدينة وأهلها إنه في ما مضى كان يسرف في الشرب وتضييع الوقت ، ولكنه غدا مواطناً صالحاً . وبعد ذلك جرت محاكمته ، واتُّهم بقتل تاجرٍ من ريازان وسلبه عشرين ألف روبل .

إستبد اليأس بزوجته ، ولم تدرِ ماذا تصدق . كان جميع أولادها صغاراً ، وأحدهم طفلٌ رضيع . فاصطحبتهم وقصدت إلى المدينة التي كان زوجها مسجوناً

فيها . ولم يُسمَح لها بمقابلته اول الأمر ، ولكن بعد استعطافٍ واسترحام ، أذن لها المسؤولون بأن تراه ، وأُخِذت إليه . ولما رات زوجها في لباس السجن ، راسفاً في القيود ، محبوساً بين اللصوص والمجرمين ، غشي عليها وسقطت أرضاً ، ولم تعد إلى رشدها إلا بعد وقت طويل . ثم جذبت أولادها إليها ، وقعدت قرب زوجها . واخبرته بالأحوال في البيت ، وسألته عما حصل له . فأخبرها ، وسألت : "ماذا يمكن ان نفعل ؟"

"علينا أن نسترحم القيصر حتى لا يسمح بهلاك بريء ."

فقالت له زوجته إنها بعثت باسترحام إلى القيصر ، ولكنه لم يلقَ لديه قبولاً . ولم يَحِر اكسيونوف جواباً ، بل أطرق مكتئباً .

ثم قالت زوجته : "لم يكن عن عبث أنني حلمت بشعرك شائباً . أتذكر ذلك ؟ كان ينبغي ألا تنطلق في تلك السفرة المشؤومة ." وأمرّت أصابع يدها في شعره ، ثم قالت : "يا عزيزي الغالي ، قل الحق لزوجتك : أأنت من فعل ذلك ؟" فقال اكسيونوف : "أنت أيضاً تشكين فيّ!" ثم أخفى وجهه في راحتين وراح يبكي . عندئذ اقبل عسكري وقال إنّ على الزوجة والأولاد أن يغادروا ، فودع اكسيونوف عائلته آخِر وداع .

ولما ذهبوا ، استذكر اكسيونوف كل ما قيل ، وإذ تذكر أن زوجته أيضاً قد شكّت فيه ، قال لنفسه : "الظاهر أن الله وحده يقدر أن يعرف الحقيقة ، وإليه وحده ينبغي أن نرفع دعوانا ، ومنه وحده ينبغي أن نرجو الرحمة! "

ولم يعد اكسيونوف يكتب أية استرحامات ، بل قطع كل أمل ، وعكف على الصلاة والدعاء إلى الله وحده .

ثم حكِم على اكسيونوف بأن يُجلَد ويُرسَلَ إلى العمل في المناجم . فجلد بسوط المجرمين ، ولما التأمت الجراح التي أحدثها السوط ، سيق إلى سيبيريا مع غيره من المحكوم عليهم .

وعلى مدى ست وعشرين سنة عاش اكسيونوف محكوماً في سيبيريا . وصار شعر رأسه أبيض كالثلج ، وطال شعر لحيته واستدق وشاب . وفارقه كل مرحه ، وانحنى ظهره ، وتثاقلت خطواته ، وقلّت كلماته ، ولم يعد يضحك ، بل عكف على الصلاة .

وفي السجن تعلم أكسيونوف صنع الأحذية ، وكسب مالاً قليلاً اشترى به كتاب "سِيَر القديسين" . فكان يقرأ في ذلك الكتاب كلما توفر الضوء الكافي داخل السجن . وكان في أيّام الأحد ، في مُصلّى السجن ، يتلو القراءات المعيّنة من الكتاب المقدس ، وينشد التراتيل ، إذ كان صوته ما يزال حسناً .

أحب القيّمون على السجن اكسيونوف لوداعته ، واحترمه زملاؤه السجناء ، فكانوا يلقبونه باسم "الجدّ" و "القدّيس" . حتى إذا ارادوا مرةً أن يستعطفوا مسؤولي السجن في شيء ، كانوا يكلفونه النطق باسمهم . وإذا حدثت منازعات بين السجناء ، يأتون إليه لتسوية الأمور والحكم في المسألة .

ولم تبلغه أنباء من بيته ، حتى إنه لم يعلم هل كانت زوجته وأولاده على قيد الحياة .

وذات يومٍ وفدت إلى السجن عصابةٌ جديدة من المحكومين . وعند المساء تحلّق السجناء القدامى حول نزلائهم الجدد ، وسألوهم عن المدن والقرى التي هم منها ، وعن أسباب الحكم عليهم . وجلس اكسيونوف ، بين الباقين ، قرب الوافدين ، مصغياً باكتئاب إلى ما قالوه .

وكان بين المحكومين رجل طويل قوي في الستين ، ذو لحية قصيرة مسوّاة ، وقد جعل يخبر الحضور بسبب اعتقاله ، فقال :

"طيب ، يا أصحاب . أنا إنما أخذت حصاناً كان مربوطاً بمزلجة ، فاعتُقِلت واتّهمت بالسرقة . فقلت إنني أخذته فقط كي أصل إلى بيتي بسرعة اكبر ، ثم افلتّه . أضف أن سائقه كان صديقاً شخصياً لي . لذلك قلت : "لا

باس؟" فقالوا : "لا ، بل إنك سرقته ." لكنهم لم يستطيعوا أن يحددوا كيف سرقته وأين . وفي الواقع انني ذات مرة ارتكبت فعلاً خاطئاً ، وكان حقاً ان آتي إلى هنا منذ زمن بعيد . ولكن تلك المرة لم يعثروا علي . وها انا الآن أُرسل إلى هنا بلا سبب يذكر . هيه! أنا أكذب عليكم . فقد جئت إلى سيبيريا من قبل ، ولكن لم امكث طويلاً ."

فسأله أحدهم : "من أين انت ؟"

"من فلاديمير . عائلتي من هناك . واسمي مكار ، ولكن يقال لي سيميونتش ."

فرفع اكسيونوف رأسه وقال : "قل لي يا سيميونتش ، هل تعرف شيئاً عن آل أكسيونوف التجار من فلاديمير ؟ أما زالوا على قيد الحياة ؟"

"هل اعرفهم ؟ بالطبع أعرفهم . فآل اكسيونوف أغنياء ، مع أن اباهم هو في سيبيريا ، وهو على ما يبدو مجرمٌ مثلنا! وأنت أيها الجدّ ، كيف اتيت إلى هنا ؟"

لم يشأ اكسيونوف ان يتحدث عن بليته ، بل تنهد فقط وقال : "من أجل خطاياي انا في السجن هذه السنين الست والثلاثين! "

فسأله سيميونتش : "أية خطايا ؟"

ولكن اكسيونوف اكتفى بالقول : "حسناً ، لا بد من أنني استحققت هذا!" وكان ممكناً أن ينتهي الامر عند هذا الحد ، لولا ان زملاءه أخبروا الوافد الجديد كيف وصل إلى سيبيريا ، إذ قتل أحدهم تاجراً ودس بين اشياء اكسيونوف سكيناً ، فحكم عليه ظلماً .

ما إن سمع مكار سيميونتش ذلك ، حتى نظر إلى اكسيونوف وصفع ركبته هو ، وهتف قائلاً : "حسناً ، هذه أمر رائع! حقاً رائع! ولكن كم بلغت من العمر يا جد ؟"

فسأله الآخرون لماذا تعجب هكذا ، وأين رأى أكسيونوف من قبل . ولكنه لم يجب بشيء ، بل اكتفى بالقول : "عجيب أن نتلاقى هنا يا رجال!"

هذه الكلمات حملت أكسيونوف على مساءلة نفسه هل يعرف هذا الرجل مَن قتل التاجر ، فقال : "لعلك يا سيميونتش سمعت بهذه الحادثة أو رأيتني من قبل ؟"

"وكيف لا أسمع ؟ إنّ العالم مليء بالشائعات . ولكن كان ذلك من زمن بعيد ، وقد نسيت ما سمعت ."

فسأله أكسيونوف : "لعلك سمعت مَن قتل ذلك التاجر ؟"

فضحك مكار سيميونتش وأجاب : "لا بد أنه مَن وجِدت السكين في حقيبته! وإن كان شخص آخر قد خبأ السكين هناك ، فإنه "ليس لصاً حتى يقبض عليه" ، كما يقول المثل . كيف كان ممكناً أن يدس أي إنسان سكيناً في حقيبتك وهي تحت رأسك ؟ لقد كان من شأن ذلك أن يوقظك حتماً".

ما إن سمع أكسيونوف هذا الكلام ، حتى تأكد له أن هذا الرجل هو الذي قتل التاجر . فنهض ومضى . وطيلة تلك الليلة لم يغمض له جفن . وقد شعر بشقائه على نحو رهيب ، وخطرت في باله أفكار وتصورات شتى ، بينها صورة زوجته كما كانت لما فارقها ذاهباً إلى السوق . وقد رآها كما لو كانت حاضرة ، ومثلت أمام ناظريه بوجهها وعينيها ، وسمعها تتكلم وتضحك . ثم رأى أولاده الناعمي الأظفار ، كما كانوا آنذاك : أحدهم يلبس عباءة صغيرة ، وآخر على صدر أمه . ثم تذكر نفسه كما كان في ما مضى ، شاباً مملوءاً حيوية ومرحاً . وتذكر كيف جلس يعزف الغيتار في رواق الخان ، حيث اعتقِل ، وكيف كان خالياً من الهموم قبل ذلك . ورأى بمخيلته المكان الذي جلِد فيه والجلاد والواقفين هناك ، والقيود والمحكومين ، وكل سنيه الست والعشرين في السجن ، وشيخوخته السابقة لأوانها . وقد كانت هذه الذكريات كلها دافعاً جعله يحس بؤسه وتعسه حتى كاد أن ينتحر .

وجال في خاطره أن ذلك كله من جراء فعلة ذاك الشقي الوغد . وأخذ فيه الغضب على مكار سيميونتش كل مأخذ حتى تلهف إلى الانتقام ، ولو هلك هو نفسه دون ذلك . لكنه ظل يتلو الصلوات طوال الليل ، دون أن ينعم بالسلام . وفي النهار التالي لم يقترب من مكار سيميونتش ، ولا نظر إليه مجرد نظر .

ثم مرّ أسبوعان على هذه الحال ، واكسيونوف لا يستطيع النوم ليلاً ، وقد بلغ منه الشقاء حداً جعله لا يدري ما يفعل .

وذات ليلة ، بينما كان يجول في السجن ، لاحظ بعض التراب ينهال من تحت أحد الرفوف العريضة التي كان السجناء ينامون عليها . وتوقف كي يرى ما الأمر . وإذا مكار سيميونتش يزحف خارجاً من تحت الرف ، وينظر إلى اكسيونوف بوجه هَلِع . وحاول اكسيونوف مجاوزة مكار دون النظر إليه ، إلا ان هذا أمسك بيده وأطلعه على انه نقب حفرة تحت الحائط ، متخلَصاً من التراب بوضعه داخل جزمته ، ثم رميه خارجاً كل يوم فيما السجناء يُساقون إلى العمل . ثم أردف :

"ما عليك إلا الصمت أيها العجوز ، وسيتاح لك أيضاً أن تفر . فإن أفشيت سري يجلدونني حتى الموت ، ولكن سأقتلك قبل ذلك! "

ارتجف اكسيونوف غضباً وهو يحدق إلى خصمه . ثم سحب يده بعيداً وقال : "لا رغبة لي بالفرار ، ولا حاجة بك لأن تقتلني ، فقد قتلتني منذ زمن طويل! امّا إفشاء أمرك ، فقد أقوم به أو لا أقوم ، كما يهديني الله ."

وفي اليوم التالي ، بينما المحكومون يساقون إلى العمل خارجاً ، لاحظ الخفراء أن واحداً او آخر من السجناء فرّغ بعض التراب من حذائه . ثم فُتّش السجن ، وكُشِف النفق . وجاء الحاكم ، واستجوب جميع السجناء ليعرف من نقب تحت الحائط ، فأنكر الجميع أي علم لهم بالأمر ، إذ إنّ العارفين ما كانوا ليفشوا أمر مكار سيميونتش لئلا يجلد حتى يكاد يموت .

أخيراً التفت الحاكم إلى أكسيونوف ، وكان يعرف أنه رجل صادق ، فسأله :

"أنت شيخ شريف ، فقل لي في حضرة الله من أحدث ذلك النفق ."

وقف مكار سيميونتش هنالك وكأن الأمر لا يعنيه ، ناظراً إلى الحاكم ، ولكن غير ناظرٍ كذاك إلى أكسيونوف . أما أكسيونوف فقد ارتجفت شفتاه ويداه ، ولم ينبس ببنت شفة وقتاً طويلاً . وراح يفكر : "لِمَ أستر أمر مَن دمر حياتي ؟ فليدفع ثمن ما عانيته! ولكن إذا أفشيت سره ، فربما يجلدونه حتى يموت . وقد يكون شكّي فيه غير موضعه . وبعد ، فأي خير يكون لي في ذلك ؟"

وكرر الحاكم طلبه قائلاً : "حسناً أيها الشيخ ، قل لنا الحق : من كان يحفر تحت الحائط ؟"

فرمق أكسيونوف مكار سيميونتش وقال :"لا يمكنني أن أقول يا سعادة الحاكم . إن الله لا يشاء لي أن أقول! فافعل بي ما يحسن عندك ، ها أنا بين يديك! "

ولئن بذل الحاكم كل جهد ، فإن أكسيونوف لم يقبل أن يزيد كلمةً على ما قال . وعليه ، انبغى صرف النظر عن المسألة .

وفي تلك الليلة ، بينا أكسيونوف مستلق على سريره وقد بدأ النوم يغطغط عليه ، إذ تقدم إليه شخص وقعد على حافة سريره . وحدق أكسيونوف وسط الظلام ، فميز ملامح مكار .

فسأله أكسيونوف : "ماذا تريد مني بعد ؟ لماذا جئت إلى هنا ؟"

ولاذ سيميونتش بالصمت ، فجلس أكسيونوف وقال : "ماذا تريد ؟ إليك عني ، وإلا دعوت الحارس! "

فانحنى مكار سيميونتش فوق أكسيونوف عن كثب ، وهمس في أذنه : "إيفان دمتريتش ، اغفر لي! "

وسأله اكسيونوف : "علامَ ؟"

"أنا من قتلت ذلك التاجر وخبأت السكين بين أمتعتك . وقد كنت ناوياً أن أقتلك أنت أيضاً ، ولكنني سمعت ضجة في الخارج ، فدسست السكين في حقيبتك وهربت خارجاً من النافذة ."

لبث اكسيونوف صامتاً ، لا يحير كلاماً . وانزلق سيميونتش عن حافة السرير ثم جثا على الأرض قائلاً :

"إيفان دميتريتش ، إغفر لي! محبة بالله ، اغفر لي! سأعترف بأنني أنا من قتل التاجر ، وسوف يطلق سراحك ويتاح لك أن تذهب إلى بيتك ."

فقال اكسييونوف : "سهلٌ عليك أن تتكلم ، ولكني قد قاسيت عوضاً عنك طوال هذه السنين الست والعشرين . أين أستطيع أن أذهب الآن ؟ . . . لقد ماتت زوجتي ، وأولادي نسوني . ليس لي مكان أذهب إليه . . ."

لم ينهض مكار سيميونتش ، بل ضرب الأرض برأسه . ومضى يصرخ : "إيفان دمتريتش ، إغفر لي! لقد كان جَلدي بسوط المجرمين أخف وطأة علي من رؤيتك الآن . . . ومع ذلك أشفقت عليَ ولم تفش سري . حباً بالمسيح سامحني ، ويلاه ما أشقاني!" ثم أخذ ينتحب .

ولما سمع اكسيونوف بكاءه ، شرع هو أيضاً يبكي . ثم قال :

"الله يغفر لك! فربما كنت أنا أسوأ منك مئة مرة ."

وما إن قال هذه الكلمات ، حتى غمر السرور قلبه ، وفارقه الحنين إلى المنزل . لم تعد لديه أية رغبة في مغادرة السجن ، بل ود لو تاتي ساعته الأخيرة .

وعلى الرغم مما قاله اكسيونوف ، اعترف مكار سيميونتش بجريمته . ولكن لما صدر الأمر باطلاق سراح اكسيونوف ، كان قد تُوفّي!

سنة 1872

2

أسير في القوقاز

1

كان ضابط اسمه جيلين يؤدي خدمته العسكرية في بلاد القوقاز . وذات يوم تلقى رسالة من الوطن . كانت الرسالة من امه ، وقد كتبت فيها :

"إنني أتقدم في السن ، وأود لو أرى ابني الوحيد قبل وفاتي . فتعال وودعني ، ثم ادفنّي . وبعد ذلك ، إن شاء الله ، تعود إلى الخدمة وبركتي تصحبك . ولكن قد وجدت لك صبيةً عاقلة وصالحة وعندها ملك ما . فإن استطعت أن تحبها ، فقد تتزوج بها وتبقى في الوطن ."

فكر جيلين في الأمر ملياً ، فوجده صحيحاً . فالسيدة العجوز تذوي بسرعة ، وقد يُحرَم فرصةً أخرى لرؤيتها حية . ولذلك ، فمن الأفضل أن يذهب ، وإذا كانت الفتاة حسنةً فلماذا لا يتزوجها ؟

ومن ثم قصد إلى الزعيم المسؤول عنه ، وحصل على إذن بالتغيب ، ثم ودع رفقاءه ، وقدم للعسكريين ملء أربعة أسطال من الفودكا في حفلةٍ وداعية ، وتأهب للذهاب .

وقد كان ذلك زمن حرب في القوقاز . ولم تكن الطرق آمنة ليلاً ونهاراً . فإذا حدث أن روسيًا تجاسر على الابتعاد عن حصنه ، راكباً أو ماشياً ، كان التتر يعمدون إلى قتله أو جره إلى التلال . وهكذا ترتّب أن تزحف مجموعة من الجنود ، مرتين كل أسبوع ، من حصن إلى تاليه لخفارة المسافرين من نقطة إلى أخرى .

كان الزمن صيفاً . وعند الفجر تأهبت قافلة الأمتعة في حمى الحصن ،

وتقدم الجند ، ثم انطلق الجميع في الطريق . كان جيلين يمتطي حصاناً ، وقد انطلقت مع القافلة عربةُ محملة بأمتعته . وكان عليهم أن يقطعوا مسافة تبلغ خمسة وعشرين كيلومتراً . وقد تحركت قافلة الامتعة ببطء ، إذ كان الجنود يتوقفون أحياناً ، أو تنفلت عجلة من إحدى العربات ، أو يحرن حصان ، فكان على الجميع أن ينتظروا .

ولما جاوزت الشمس الظهر ، لم يكونوا قد قطعوا نصف الطريق . وكان الغبار ثائراً ، والطقس حاراً ، والشمس سافعة ، ولا ملجأ ، إذ ترامى حواليهم سهل منبسط ، بلا شجرة ولا شجيرة إلى جانب الطريق .

سبق جيلين الركب ، ثم ترجل ينتظر أن تدركه الأمتعة . ثم سمع بوق الإنذار يُنفخ خلفه ، فإن الموكب قد توقف . إذ ذاك شرع يفكر : "أليس أفضل أن امضي وحدي ؟ إن حصاني جيد ، فإذا هاجمني التتر ، أفر به . ولكن ربما كان أحكم أن انتظر؟"

وبينما هو جالس يفكر ، تقدم اليه راكباً ضابط يحمل بندقية ، اسمه كوستيلين ، وبادره قائلا :

"هيا ، يا جيلين ، نذهب وحدنا . إن الامر رهيب ، فانا جائع جداً ، والحر لهاب ، وقميصي يعصر عرقاً ."

كان كوستيلين رجلاً بديناً وثقيلاً ، وقد تصبب وجهه الأحمر عرقاً .

ففكر جيلين قليلاً ثم سأله :

"أبندقيتك محشوة ؟"

"نعم!"

"إذاً هيا بنا ، ولكن بشرط أن نظل مترافقين!"

وهكذا ركبا متقدمين على الطريق عبر السهل وهما يتحدثان ، لكن أعينهما كانت على كلا الجانبين احتراساً . وكان في وسعهما أن يريا ما

حواليهما حتى البعيد . ولكن بعد عبور السهل انحدرت الطريق عبر وادٍ بين تلّين ، فقال جيلين : "يستحسن أن نتسلق ذلك التل ونستشرف ما حولنا ، وإلا أطبق علينا التتر قبل أن ندري ."

إلا أن كوستلين قال : "وما المنفعة ؟ لنتابع سيرنا! "

ولكن جيلين ما كان ليقبل ، بل قال :

"لا ، يمكنك أن تلبث هنا إذا شئت ، ولكنني سأصعد وأستشرف ."ثم عطف حصانه إلى اليسار ، وصعد إلى التل . كان حصانه فرس صيد ، فارتقى به التل وكأن له جناحين . (وقد سبق أن اشتراه مهراً بمئة روبل ، فانتقاه من سرب ، ثم روّضه بنفسه) . وما كاد يبلغ قمة التل حتى رأى نحو ثلاثين تترياً لا يبعدون عنه أكثر من مئة متر . فما إن لمحهم حتى استدار ، ولكنهم كانوا هم أيضاً قد رأوه ، فعدَوا بأحصنتهم خلفه مسرعين ، وهم يشهرون بندقياتهم إبان ذلك . وانحدر جيلين بأسرع ما تستطيع أرجل حصانه أن تعدو ، صائحاً بكوستيلين : "هيّء بندقيتك! "

وفي فكره قال لحصانه : "أنقذني من هذه الورطة ، يا جوادي المطيع! لا تتعثر ، وإلا انتهى أمري . فحالما تصل يدي إلى البندقية ، يتعذر عليهم أسري ."

ولكن كوستيلين ، بدل أن ينتظر جيلين ، ما إن رأى التتر حتى استدار منطلقاً نحو الحصن بأقصى سرعة حصانه ، وهو يضربه بالسوط على كلا جنبيه ، حتى لم يُرَ منه وسط الغبار إلا ذيله المترجرج .

أدرك جيلين أنه في مأزق ، فالبندقية ذهبت ، وماذا يستطيع أن يفعل بسيفه وحده ؟ ثم عطف حصانه نحو الحامية مفكراً بالفرار ، ولكن ستة من التتر اندفعوا ليقطعوا عليه الطريق . كان حصانه جيداً ، ولكن أحصنتهم كانت أجود ، ثم إنهم اعترضوا في سبيله . وحاول أن يشد زمام حصانه لينعطف في طريقٍ

آخر ، ولكن الحصان كان يعدو أسرع من أن يوقف ، حتى توجه به نحو التتر رأساً . وإذا به يرى تترياً ذا لحية حمراء يمتطي حصاناً رمادياً ، وبندقيته ممدودة ، وقد أقبل عليه زاعقاً ومكشراً عن أسنانه .

وفكر جيلين : "آه ، أنا أعرفكم أيها العفاريت! إن أخذتموني حياً ، فسوف تضعونني في هوة وتجلدونني ، لن أؤخذ حياً!"

كان جيلين ، رغم كونه ضنيل الجسم ، شجاعاً . فشهر سيفه وهجم على التتري الأحمر اللحية وهو يفكر قائلاً لنفسه : "إما أطرحه عن جواده ، وإما أعيقه بسيفي!"

وإذ كان ما يزال يبعد عنه نحو مترين ، أُطلقت عليه النار من خلف ، فأصيب حصانه ، وهوى به إلى الأرض حيث سمره تحت ثقله .

وحاول أن ينهض ، إلا أن تتريين نَتِنَي الرائحة كانا قد قعدا على جسمه وراحا يقيدان يديه وراء ظهره . فبذل جهداً وطرحهما عنه ، لكن ثلاثة آخرين قفزوا عن أحصنتهم وجعلوا يضربون رأسه بأعقاب بندقياتهم ، فغامت عيناه وخر على ظهره . إذ ذاك قبض عليه التتريون ، وأخذوا أحزمة إضافية من سروجهم وفتلوا ذراعيه خلف ظهره وربطوهما ربطة تترية محكمة . ثم نزعوا عنه قبعته ، وجردوا قدميه من حذائه ، وفتشوه تفتيشاً دقيقاً ، ومزقوا ثيابه ، وأخذوا ماله وساعته .

ونظر جيلين إلى حصانه ، فإذا بهذا المسكين منطرح حيث سقط وأرجله في الهواء ، يجاهد للنهوض ولا يستطيع أن يلامس الأرض . بدا في رأسه ثقب ، والدم الأسود يتدفق منه فيحيل التراب وحلاً حواليه نحو قدمين .

ثم تقدم أحد التتريين إلى الحصان ، وشرع يحل سرجه ، لكنه كان ما يزال يرفس ، فأخرج التتري خنجراً وحز عنقه ، فندّ من حنجرته صفير وحشرجة ، ثم شخر شخرة أخيرة ، ونفق .

أخذ التتر السرج وجُله المزركش . ثم اعتلى التتري ذو اللحية الحمراء حصانه ، ورفع الباقون جيلين وأردفوه خلفه . وكي يحولوا دون سقوطه ، حزموه

بمنطقة التتري ، ومضوا جميعاً راكبين بعيداً صوب التلال .

وإذا جيلين خلف التتري على ظهر الحصان ، يترجح من جنب إلى جنب ، ورأسه يرتطم بظهر التتري النتن ، وهو لا يستطيع أن يرى شيئاً سوى ذلك الظهر الكثير العضل والعنق المشدود ذي القذال الحليق المائل نحو الزرقة .

كان رأس جيلين قد جُرح ، والدم قد جف فوق عينيه ، لكنه لم يستطع أن يعدل وضعته على السرج أو أن يمسح الدم عن جبينه . فقد كانت يداه مربوطتين بإحكامٍ شديد حتى آلمته عظام رقبته .

ومضوا يصعدون تلاً ويهبطون آخر في طريق طويلة ، حتى وصلوا إلى نهرٍ فخاضوه ، وبلغوا درباً صلباً يخترق وادياً .

حاول جيلين ان يرى إلى أين يأخذونه ، ولكن اجفانه كانت ملتصقة من جراء الدم الجاف ، ولم يكن يستطيع الالتفات .

وكان الشفق قد بدأ ينتشر ، فعبروا نهراً آخر ثم صعدوا منحدر تل صخرياً . وإذا برائحة دخان من هنا ، وكلاب تنبح من هناك . لقد وصلوا أولة (قرية تترية) . فترجل التتريون عن أحصنتهم ، واقبل الأولاد وتحلقوا حول جيلين ، هاتفين فرحاً وهم يرجمونه بالحجارة .

زجر التتري الأولاد ، ثم أنزل جيلين عن الحصان ، ونادى خادمه . فإذا رجل نوغي ضليع ، عظام خديه بارزة وعالية ، يَقبِل وليس عليه سوى قميص ، وقد كان هذا ممزقاً حتى كان صدره كله عارياً . وأصدر التترى إليه امراً ، فذهب وأحضر صفاداً ، قوامه قطعتان من خشب السنديان موصولٌ بهما حلقتان من حديد ، وقد ثبت مشبك وقفل في إحدى الحلقتين .

ثم حلّ الرجلان ذراعي جيلين ، وشدا الصفاد على ساقه ، وجراه إلى زريبة دفعاه إليها ثم أقفلا بابها .

سقط جيلين على كومة زبل ، ولبث بلا حراك حيناً ، ثم تلمس طريقه حتى وجد مكاناً ليناً فرقد فيه .

2

لم يكد جيلين ينام تلك الليلة . وفي ذلك الزمن من السنة كانت الليالي قصاراً ، فبرز نور النهار سريعاً من خلال شق في الحائط . وعندئذ نهض جيلين وحفر بأظفاره لتوسيع الشق ، ووصوص منه .

ورأى عبر الشق درباً منحدرة على سفح التل . وكان إلى اليمين كوخ تتري بقربة شجرتان ، وقد تمدد عند العتبة كلب أسود ، فيما طافت عنزة مع جدانها بأذنابها المرتعشة . ثم رأى امرأة تترية شابة في رداء سابغ فضفاض زاهي الألوان ، وقد بدا من تحته سروال وحذاء ذو ساق وكان على رأسها ثوب ملفوف حملت عليه جرة معدنية مملوءة ماء . وقد كانت ممسكة بيدها صبياً تترياً حليق الرأس ليس عليه سوى قميص ، وعضل ظهرها يهتز فيما تسير محافظةً على توازنها . ثم رأى تلك المرأة تُدخِل الماء إلى الكوخ ، وبعيد ذلك خرج تتري الأمس الأحمر اللحية مرتدياً رداء من حرير ، وقد تدلى عن جنبه خنجر فضي المقبض ، وفي قدميه العاريتين خُفّان ، وعلى مؤخر رأسه قبعة سوداء طويلة من جلد الخراف . وقد خرج الرجل من الكوخ ، وتمطّى ، وربّت لحيته الحمراء . ثم وقف هنيهة ، وأصدر إلى خادمه أمراً ، ومضى في سبيله .

بعد ذلك رجع غلامان يمتطيان حصانين بعدما سقياهما ، وما يزال خطما الحصانين مبلّلين . وركض بعض الصبية الآخرين الحلقى الرؤوس ، اللابسين قمصاناً بلا بنطلونات . ثم احتشد الجميع ، وأقبلوا إلى الزريبة ، والتقطوا غُصَيناً ، وجعلوا يدفعونه داخل الشق . فأطلق جيلين صرخة جعلتهم ينكمشون ويتفرقون راكضين وسيقانه الصغيرة العارية تبصّ وهم مبتعدون .

كان جيلين عطشاناً جداً ، وقد جف حلقه ، ففكر : "لو يأتون فقط ويلقون علي نظرة واحدة!"

ثم سمع أحدهم يفتح قفل الزريبة . ودخل التتري الأحمر اللحية ، ومعه رجل آخر أصغر منه ، قاتم البشرة ، ذو عينين سوداوين براقتين وخدين أحمرين ولحية قصيرة . كان وجهه مرحاً ، وهو دائم الضحك . حتى إنّ ثيابه كانت أفخر من ثياب الآخر . إذ ارتدى عباءة حريرية زرقاء ذات حواش ذهبية ، وشك في حزامه خنجراً فضياً كبيراً ، واحتذى خفين من جلد الماعز الفاخر المشغول بخيوط الفضة فوقهما حذاء صفيق ، واعتمر قبعة من جلد الخراف الأبيض .

دخل التتري الأحمر اللحية ، وتمتم بشيء كما لو كان منزعجاً ، ووقف مستنداً إلى قائمة الباب ، يلعب بخنجره ويحدق إلى جيلين تحديق ذئب . أما الرجل القاتم البشرة ، فاتجه رأساً إلى جيلين ، مسرعاً ونشيطاً كأنه على نوابض ، وقعد القرفصاء قبالته ، ثم صفعه على كتفه ، وشرع يتكلم كلاماً سريعاً جداً بلغته الخاصة . وقد برزت أسنانه ، وظلت عيناه تطرفان ، ولسانه يطقطق ، فيما كرر العبارة عينها : "روسي طيب ، روسي طيب"

غير ذلك لم يفهم جيلين كلمة واحدة ، ولكنه قال : "اسقوني! أعطوني ماء لأشرب! "

فما كان من الرجل القاتم البشرة إلا أن ضحك ، وقال : "روسي جيد! "ثم مضى يتكلم بلغته الخاصة .

وأومأ جيلين بيديه وشفتيه ، تعبيراً عن رغبته في أن يشرب .

إذ ذاك فهم الرجل القاتم البشرة ، وضحك . ثم تطلع خارج الباب ، ونادى : "دينا! "وإذا بفتاة صغيرة تدخل راكضة . كانت في نحو الثالثة عشرة ، ضئيلة خفيفة ، ذات وجه يشبه وجه ذلك التتري الأسمر . فبدا واضحاً أنها ابنته . وكانت هي أيضاً ذات عينين سوداوين صافيتين ، ووجه جميل المنظر . وقد كانت ترتدي ثوباً سابغاً أزرق واسع الكمين ، بلا حزام . وكانت حواشي

ثوبها وصدره وكماه ملونة الأحمر . كما كانت تلبس سروالاً وخفين فوقهما حذاء أمتن عالي الكعبين ، وحول عنقها قلادة مصنوعة من نقود روسية فضية . ولم يكن على رأسها شيء ، بل كان شعرها الأسود مربوطاً بعصابة ومزيناً بضفائر ذهبية ونقود فضية .

أصدر إليها والدها أمراً ، فانطلقت راكضة ثم عادت حاملة إبريقاً معدنياً . وناولت جيلين الماء ثم قعدت القرفصاء حتى وازت ركبتاها رأسها ، تحدق بعينيها الواسعتين إلى جيلين وهو يشرب ، وكأنه كان حيواناً برياً .

وما إن أعاد جيلين الإبريق الفارغ إليها ، حتى هبت واقفة بقفزة مرتدة وكأنها عنز برية ، الأمر الذي أضحك أباها . ثم أرسلها في أمرٍ آخر ، فأخذت الإبريق وخرجت راكضة ، ثم عادت بشيء من الخبز الفطير على لوح مستدير . ومرة أخرى قعدت القرفصاء ، تحدق بعينين محملقتين .

ثم مضى التتريان ، واقفلا الباب من جديد .

وبعد قليل جاء الخادم النوغي وقال : "آيدا ، السيد ، آيدا ."

فهو أيضاً لم يكن يعرف الروسية . وكل ما استطاع جيلين أن يحزره هو أنه يؤمر بالذهاب إلى مكان ما .

سار جيلين وراء الخادم ، ولكنه كان يعرج ، لأن الصفاد ضيق على قدميه حتى كاد يمنعه أن يخطو خطوةً واحدة . وحالما خرج من الزريبة شاهد قرية تترية قوامها نحو عشرة بيوت ، وكنيسة تترية ذات برج صغير ، وكان أمام أحد البيوت ثلاثة أحصنة مسرجة ، وقد أمسك بأزمتها صبية صغار . من ذلك البيت خرج التتري الأسمر ، وأومأ إلى جيلين بيده كي يتبعه . ثم ضحك وقال شيئاً بلغة قومه ، وبعد ذلك عاد إلى داخل البيت .

ودخل جيلين وراءه . كانت الغرفة جيدة ، ذات حيطان مملطة بالطين المملس ، وبقرب الحائط الأمامي كدس من الفُرش الزاهية الألوان المحشوة ريشاً ، والحيطان الجانبية مغطاة بالسجاد الفاخر المستعمل كمشاجب ، وفوقه

عُلّقت بندقيات ومسدسات وسيوف مطعمة كلها بالفضة . وبلزق أحد الحيطان موقد صغير على مستوى الأرضية الترابية . أما الأرضية نفسها فكانت نظيفة نظافة البيدر الذي تدرس عليه الحنطة . وقد فُرِشت مساحة واسعة في إحدى الزوايا باللبّاد ، ووُضِعت فوقه بسط عليها وسائد محشوة ريشاً . على تلك الوسائد جلس خمسة تتريين : القاتم البشرة والأحمر وثلاثة ضيوف . كانت في أرجل هؤلاء أخفافهم المنزلية ، وخلف ظهر كل منهم مسند . وقد وُضِعت قدامهم أرغفة دُخن محلاة على لوح مستدير ، وزبدة مذابة في قصعة ، وإبريق من البوزا ، أو البيرة التترية . وكانوا يأكلون الخبز والزبدة معاً بأيديهم .

هب الرجل القاتم البشرة واقفاً ، وأمر جيلين أن يقعد جانباً ، لا على السجادة بل على الأرضية العارية ، ثم عاد هو فقعد على السجادة ، وقدم لضيوفه كعك الدُخن والبوزا . وأقعد الخادم جيلين ، ثم خلع هو حذاءه الخارجي ووضعه قرب الباب حيث كانت الأحذية الأخرى موضوعة ، وقعد على اللباد على مقربة من سادته ، يراقبهم وهم يأكلون ، لاحساً شفتيه .

أكل التتريون بقدر ما شاؤوا . ثم أقبلت امرأة مرتدية مثل لباس الفتاة - ثوباً سابغاً وسروالاً وعلى رأسها منديل - ورفعت ما بقي ، ثم أحضرت طستاً جميلاً وكوزاً ذا بلبل طويل ضيّق . فغسل التتريون أيديهم ، وطووها ، ثم جثوا على ركبهم ، وتلفتوا إلى الجهات الأربع متنهدين ، ثم تلوا صلواتهم . وبعدما تحدثوا هنيهة ، التفت أحد الضيوف إلى جيلين ، وبدأ يتكلم بالروسية ، فقال مشيراً إلى التتري ذي اللحية الحمراء :

" لقد أسرك قاضي محمد . وقاضي محمد أعطاك لعبد المراد . وعبد المراد هو سيدك الآن" ، ثم أشار إلى الرجل القاتم البشرة .

وظل جيلين صامتاً . ثم شرع عبد المراد يتكلم ضاحكاً ومشيراً إلى جيلين ، مكرراً : "عسكري روسي ، روسي طيب!"

عندئذٍ قال المترجم : "إنّه يأمرك بأن تكتب رسالة إلى أهلك في الوطن ، طالباً إليهم أن يرسلوا فدية . وحالما يصل المال ، يطلق سراحك ."

وفكر جيلين لحظات ثم قال : ما مقدار الفدية الي يريدها ؟"

فتحدث التتر هنيهة ، ثم أخبروا المترجم فقال : "ثلاثة آلاف روبل ." فقال جيلين : "لا! لا يمكنني دفع هذا المبلغ!"

فهب عبد المراد واقفاً ، ولوح بذراعيه ، وكلم جيلين ظناً منه كالسابق أنه سيفهم . ولكن المترجم قال : "كم تدفع ؟"

وفكر جيلين هنيهةً ثم قال : "خمس مئة روبل ."

إذ ذاك طفق التتر يتكلمون مسرعين جداً ، كلهم في وقت واحد . وبدأ عبد المراد يصرخ على ذي اللحية الحمراء ، ويبربر على عجل حتى أخذ الرذاذ يتطاير من فمه . أما الأحمر اللحية ، فاكتفى بإغماض عينيه نصف إغماضة ، وبطقطقة لسانه .

وبعد قليل هدأوا فقال المترجم : "خمس مئة روبل لا تكفي السيّد . فهو نفسه قد دفع خمس مئة فيك . وكان قاضي محمد مديوناً له ، فأخذك وفاءً للدين . ثلاثة آلاف روبل! ولا نفع في اقل من ذلك ، وإن رفضت كتابة الرسالة ، فإنك ستوضع داخل هوّة وتجلد بالسوط!"

وفكر جيلين : "هيه! كلما زاد خوف المرء منهم ، ساءت الحال أكثر!" ثم هب واقفاً ، وقال : "قل لذلك الكلب إنه إن حاول إخافتي فلن اكتب ، ولن يحصل على شيء . ما خفت منكم يوماً يا كلاب ، ولن أخاف!"

وترجم المترجم ، فعادوا يتكلمون جميعاً في وقت واحد .

ظلوا يبربرون طويلاً ، ثم هب الأسمر واقفاً ، وتقدم إلى جيلين وقال : "روسي زيكيت ، روسي زيكيت! "("وزيكيت" في لغتهم معناها "شجاع") . ثم ضحك وقال للمترجم شيئاً ، فقال هذا : "ألف روبل تكفيه ."

ولكن جيلين ظل عند كلمته ، فقال : "لن أدفع أكثر من خمس مئة . وإن قتلتني ، فلن تحصل على شيء البتة ."

وعاد التتر يتكلمون لحظاتٍ ، ثم أرسلوا الخادم إلى الخارج لإحضار شيءٍ ما ، وأعينهم حيناً على الباب وحيناً على جيلين . وإذا بالخادم يعود ووراءه رجلٌ ضليعٌ حافٍ رث اللباس ، ورجلاه في صفادٍ أيضاً .

إذ ذاك لهث جيلين مبغوتاً . فقد كان ذاك كوستيلين ، وهو أيضاً وقع في الأسر . ووُضِعا جنباً إلى جنب ، فبدآ يخبران أحدهما الآخر بما جرى . وبينما كانا يتحدثان ، راقبهما التتر صامتين . فروى جيلين ما جرى له ، وأخبره كوستيلين كيف توقف حصانه ، وأخطأت بندقيته الهدف ، واستظهر عليه عبد المراد نفسه وأسره .

وهب عبد المراد واقفاً ، ثم أشار إلى كوستيلين وقال شيئاً . فأفادهما المترجم أنهما الآن يخصان سيداً واحداً ، وأن الذي يدفع الفدية أولاً يطلق سراحه أولاً .

وقال لجيلين : "ها أنت قد غضبت ، ولكن رفيقك هذا لطيف . فقد كتب إلى أهله ، وسيرسلون خمسة آلاف روبل . لذا سيُطعَم طعاماً حسناً ، ويُعامَل معاملة حسنة ."

فأجاب جيلين : "لرفيقي أن يفعل ما يشاء . ربما هو غني ، أما أنا فلا . يجب أن يكون كما قلت . وإن شئت فاقتلني ، فلن يفيدك هذا في شيء . ولكن لن أكتب طالباً أكثر من خمس مئة روبل ."

وبعدما ساد الصمت حيناً ، هب عبد المراد فجأة ، وأحضر علبة صغيرة أخرج منها قلماً وحبراً وقصاصة ورق ، ودفعها جميعاً إلى جيلين ، وصفعه على كتفه ، وأومأ إليه أن اكتب . لقد وافق على أن يأخذ خمس مئة روبل فقط .

إذ ذاك قال جيلين للمترجم : "مهلاً! قل له إنّ عليه أن يحسن إطعامنا ،

ويعطينا ثياباً وحذاءين لائقة ، ويبقينا مترافقين . فمن شأن هذا أن يكون أكثر إبهاجاً لنا . وعليه أن ينزع هذين الصفادين من أقدامنا ."ونظر جيلين إلى سيده ضاحكاً .

كذلك ضحك السيد ، واستمع إلى المترجم ، وقال : "سأعطيهما أحسن الثياب : عباءة وحذاء تليق بعريس! وسأطعمهما كأنهما أميران . وإن شاءا يستطيعان أن يقيما معاً في الزريبة . ولكن لن أنزع الصفاد ، وإلا هربا . لكنه سيُنزع عنهما ليلاً! "ثم قفز وصفع جيلين على كتفه ، هاتفاً : "أنت طيب ، أنا طيب! "

وكتب جيلين الرسالة ، لكنه وجهها إلى عنوان مغلوط ، بحيث لا تبلغ مقصدها ، مفكراً داخل كيانه أنه سيهرب ، لا محالة!

ثم أعيد جيلين مع كوستيلين إلى الزريبة ، حيث أعطيا بعض قش الذرة ، وإبريق ماء ، وشيئاً من الخبز ، وعباءتين عتيقتين ، وبعض الأحذية العسكرية البالية ، المأخوذة حسب الظاهر من جثث جنود روس . وفي الليل كان الصفادان يُنزعان عن أرجلهما ، ويُقفل عليهما داخل الزريبة .

3

قضى جيلين ورفيقه شهراً كاملاً على هذا المنوال . وكان السيد يضحك دائماً ويقول : "أنت إيفان طيب ، أنا عبد المراد طيب! "لكنه أساء إطعامهما إذ لم يقدم إليهما إلا خبزاً فطيراً من دقيق الدُخن مخبوزاً أقراصاً ، أو عجيناً غير مخبوز بعض الأحيان .

وكتب كوستيلين إلى أهله ثانية ، ولم يفعل شيئاً سوى الاستغراق في أفكاره الكئيبة بانتظار وصول الفدية . فكان من شأنه أن يقعد أياماً بطولها في الزريبة نائماً أو عاداً الأيام حتى تأتي رسالة .

أما جيلين فقد علم أن رسالته لن تصل أحداً ، ولم يكتب غيرها . وخالجته

أفكار : "من أين لأمي المال حتى تفتديني ؟ أما تعيش أصلاً بما أرسله إليها ؟ ولو قدر لها أن تجمع خمس مئة روبل لهلكت . فبمعونة الله سأدبر فراري! "

ومن ثم ظل متيقظاً يخطط كيف يهرب .

فكان يطوف في أنحاء الأولة صافراً ، أو يقعد مشتغلاً ، مشكّلاً دمى من طين ، أو حائكاً سلاتٍ من قضبان ، إذ إنه كان صناع اليدين .

ومرةً شكّل دميةً ذات أنف ويدين ورجلين ، مرتديةً ثوباً تترياً ، ونصبها على السطح . ولما جاءت النسوة التتريات يستقين الماء ، رأتها ابنة السيد ، دينا ، فنادت النسوة ، فأنزلن جرارهن ووقفن يتفرجن بها ويضحكن . وأنزل جيلين الدمية وناولهن إياها ، فتضاحكن ولكنهن لم يجرون على أخذها . فوضعها على الأرض ودخل الزريبة ، منتظراً ما يكون .

إذ ذاك ركضت دينا إلى الدمية ، وتلفتت حواليها ، ثم أمسكت بها وحملتها وفرت تعدو .

وفي الصباح التالي ، عند بزوغ الفجر ، رفع نظره فإذا دينا قد خرجت من البيت وجلست على العتبة حاملة الدمية ، وقد ألبستها خرقاً حمراء ، وأخذت تهدهدها كطفلة ، وتغني لها تهويدة تترية . فخرجت عجوز ووبختها ، ثم انتزعت منها الدمية وحطمتها قطعاً ، وأرسلت الفتاة للقيام ببعض شؤونها .

ولكن جيلين صنع دمية أخرى ، أفضل من الأولى ، وقدمها إلى دينا . ومرة أحضرت دينا إبريقاً صغيراً ، فوضعته على الأرض ، وتقرفصت تحدق إلى جيلين ، ثم أشارت إلى الإبريق ضاحكةً .

سأل جيلين نفسه : "ترى ما الذي يسرها هكذا ؟" وتناول الإبريق وهو يظن أن فيه ماء ، ولكن تبين أنه يحتوي على لبنٍ حليب . فشرب الحليب وقال : "إنه طيب! "

ولكم سُرّت دينا! وقالت : "طيب ، إيفان ، طيب! "ثم هبت واقفة

وصفقت بيديها . وبعد ذلك أمسكت بالإبريق ، ومضت تعدو . ومن ثم أخذت تحضر إليه خلسةً شيئاً من الحليب كل يوم .

يصنع التتر نوعاً من الجبن يتخذونه من لبن المعزى ، يجففونه على سطوح منازلهم . وقد عمدت دينا بعض الأحيان إلى إحضار شيء من هذا الجبن إلى جيلين سراً . ومرةً ذبح عبد المراد خروفاً ، فأحضرت دينا إلى جيلين قطعةً من لحمه في كمها . وكانت تكتفي بأن تضع ما تأتي به على الأرض ثم تمضي راكضةً .

وذات يومٍ هبت عاصفة هوجاء ، ثم هطل المطر وتدفقت السيول ساعةً بكاملها . فاعتكرت السواقي وتوحلت ، وارتفع الماء في المخاضة نحو مترين ، واشتد التيار حتى جرف الأحجار ، وسالت الجداول في كل مكان ، وما توقف هزيم الرعد فوق التلال . حتى إذا هدأت العاصفة ، غدا شارع القرية طافحاً بالماء كأنه نهر . فاستعار جيلين من سيده سكيناً ، وصنع بها أسطوانة صغيرة ، ثم قطع بعض الألواح الرقيقة ، وصنع دولاباً ثبت عليه دميتين ، واحدة من هنا وواحدة من هناك . وجلبت له البنات الصغيرات خرقاً ، فألبس الدميتين لباس فلاح وفلاحة . ثم مكنهما ، وضبط الدولاب بحيث يديره تيار الساقية . فما إن بدأ الدولاب يدور ، حتى أخذت الدميتان ترقصان .

تجمعت القرية كلها : الصبيان والبنات الصغار ، الرجال والنساء التتر ، كلهم جاؤوا يتفرجون ويقرقعون بألسنتهم .

"آ ، الروسي! أو ، إيفان! "

وكان لدى عبد المراد ساعة حائط روسية خَرِبة . فدعا جيلين وأراه إياها ، مطقطقاً بلسانه .

فقال جيلين : "أعطنيها ، أصلحها لك! "

وفككها بالسكين ، وسوى قطعها ، ثم جمعها ، فعادت تدور مضبوطة .

سرّ السيد ، وأهدى إلى جيلين واحدةً من عباءاته العتيقة منخّرة بالثقوب ، فكان على جيلين أن يقبلها ، إذ يستطيع على كل حال أن يتغطى بها ليلاً .

بعد ذلك طارت شهرة جيلين ، فقصد إليه التتر من قرى بعيدة ومعهم إما مكنة بندقية أو مسدس وإما ساعة ، أو نحوها ، حتى يصلح أعطالها . وقد أعطاه سيده بعض الأدوات : كماشةً ومثقاباً ومبرداً .

ويوماً مرض تتري ، فجاؤوا إلى جيلين قائلين : "تعال واشفه!"

وما كان جيلين يعلم شيئاً عن الطب ، لكنه ذهب لإلقاء نظرة ، مفكراً برأسه : "عسى أن يصح على أية حال!"

ورجع إلى الزريبة ، حيث خلط بعض الماء بالرمل ، وحمله في إناء ، ثم بمشهد من التتريين تمتم ببعض الكلمات عليه ، وقدّمه إلى المريض فشربه . ومن سعده ، شفي التتري!

وبدأ جيلين يتلقّط شيئاً من لغتهم ، وأنس إليه بعض التتر . وعندما كانوا يحتاجون إليه ، كانوا ينادونه : "إيفان ، إيفان!" على أن آخرين ظلوا يرمقونه شزراً وكأنه حيوانٌ بري .

وكان التتري الأحمر اللحية يكره جيلين . فكلما رآه عبس وقطّب وحول عنه نظره ، أو شتمه وسبّه . وكان هنالك أيضاً رجلٌ طاعن في السن لا يقيم في الأولة ، بل يصعد إليها أحياناً من سفح التل . وكان جيلين يراه فقط حين يجاوزه في طريقه إلى المسجد . كان قصير القامة ، يعتمر عمامة بيضاء ، ولحيته وشارباه مقصوصة وبيضاء كالثلج ، ووجهه مجعد وأحمر كالقرميد . أما أنفه فمعقوف كمنقار الصقر ، وعيناه الرماديتان تبدوان حادتين قاسيتين ، وليس له من الأسنان سوى نابين . وكان يمر وعمامته على رأسه ، متوكئاً على عصاه ، محدقاً حواليه كالذئب . فإذا شاهد جيلين ، يشخر غضباً ويتحول عنه .

وذات مرة هبط جيلين التل ليرى أين يقيم ذلك الشيخ . فنزل على الدرب

حتى وصل إلى بستان صغير مسوّر بحائط من حجر ، وخلف الحائط رأى شجر كرز ومشمش ، وكوخاً ذا سطح مستوٍ . وإذ اقترب بعد ، شاهد خلايا مصنوعة من القش المجدول ، والنحل حولها يحوم ويطن .

كان الشيخ جاثياً قرب إحدى خلايا النحل ، يفعل شيئاً ما . فاشرأب جيلين ليتحقق ، وإذا بصفاده يخشخش . إذ ذاك استدار الرجل وزعق فيما استل مسدساً من حزامه وأطلق النار على جيلين ، فتفادى من الإصابة مختبئاً خلف الحائط الحجري .

ثم قصد الشيخ إلى سيد جيلين شاكياً . فاستدعى السيد جيلين وسأله ضاحكاً : "لماذا ذهبت إلى بيت الشيخ ؟"

فأجاب جيلين : "ما آذيته قط . فقد أردت فقط أن أرى كيف يعيش ."

وأعاد السيد ما قاله جيلين .

إلا أن الشيخ كان في سورة غضب ، فظل يهذرم ويهسهس ، مكشراً عن نابيه ، وهازاً قبضته في وجه جيلين .

لم يفهم جيلين كل شيء ولكنه ألمّ بأنّ الشيخ كان يقول لعبد المراد إنه يجب عليه ألا يبقي جيلين في الأولة ، بل ينبغي أن يقتله ورفيقه الروسي . وأخيراً مضى الشيخ .

وسأل جيلين سيده عمن هو ذلك الشيخ ، فأجابه :

"إنه رجل عظيم! لقد كان أشجع رجل عندنا ، وقتل كثيرين من الروس ، وكان في ما مضى غنياً جداً . وقد كان له ثلاث زوجات وثمانية أبناء ، يقيمون جميعاً في قرية واحدة . ثم جاء الروس وهدموا القرية ، وقتلوا سبعة من بنيه . لم يبق منهم إلا ابن واحد استسلم للروس . والشيخ نفسه أيضاً استسلم للروس وعاش بينهم ثلاثة أشهر . وفي نهاية تلك المدة عثر على ابنه ، وقتله بيده ، ثم فر . وبعد ذلك أقلع عن القتال ، وذهب إلى مكة ليصلي إلى الله . ومن ذهب إلى

مكة يدعى حاجاً ، ويعتمر عمامة . إنه لا يحبكم أنتم الروس . وهو يطلب مني أن أقتلكما . ولكنني لا أستطيع أن أقتلكما ، فقد دفعت فيكما مالاً . ثم إني اوذك يا إيفان . فحاشا لي أن أقتلك ، بل إني ما كنت لأطلق سراحك لو لم أعدك بذلك ."ثم ضحك وقال بالروسية : "أنت إيفان طيب ، انا عبد المراد طيب!"

4

عاش جيلين شهراً على هذا المنوال . فكان في النهار يطوف في الأولة متمهّلاً ، أو يشغل نفسه بشيء يصنعه بيده . ولكن في الليل ، حين يسود السكون القرية كلها ، كان ينقب أرض الزريبة . ولم يكن النقب مهمة سهلة ، لكثرة الحجارة . لكنه كان يهوي عليها بمبرده ، حتى احدث في الأخير نفقاً تحت الحائط يتسع للخروج عبره .

وفكر : "لو استطيع فقط أن أعرف طبيعة الأرض هنا ، وأي طريق أسلك! ولكن أحداً من التتر لن يطلعني على هذا ."

وهكذا اختار يوماً لم يكن فيه السيد في البيت ، وانطلق بعد الغداء متسلقاً التل خارج القرية في سبيل الاستشراف . ولكن كان من عادة السيد دائماً قبل مغادرة البيت أن يوصي ابنه بمراقبة جيلين وإبقاء عينه عليه . فركض الصبي وراء جيلين صائحاً : "لا تذهب! أبي لا يسمح بهذا . سأنادي الجيران إن لم ترجع ."

فحاول جيلين إقناعه وقال : "لن أذهب بعيداً . أريد فقط أن أتسلق ذلك التل . فبودي أن أجد عشبةً لشفاء المرضى . تعال معي إذا شئت . كيف يمكنني أن أهرب بهذا الصفاد ؟ غداً أصنع لك قوساً وسهاماً ."

وهكذا أقنع الصبي ، وذهبا . كان مجرد النظر إلى التل يوهمه بأن قمتها قريبة ، ولكن صعودها والصفاد في رجليه كان صعباً . ولئن أغذ في السير ، فقد

بذل قصاراه لوصول القمة . وهنالك قعد يتأمل تضاريس الأرض . فإلى الجنوب ، وراء الزريبة ، وادٍ يرعى فيه سربٌ من الأحصنة ، وفي قعر الوادي تبين أولة أخرى ، خلفها أيضاً تل أشد انحداراً ، ووراءه تل آخر . وما بين التلال ، في الافق الأزرق ، غابات وراءها في البعيد جبال ترتفع أعلى فأعلى . والأعلى في تلك الجبال مغطى بالثلج الأبيض كالسكر ، وإحدى القمم المكسوّة ثلجاً ترتفع كبرج بين الأُخَر . وإلى الشرق والغرب أيضاً مثل تلك التلال ، وهنا وهنالك دخان يرتفع من الأولات في الوهاد . فقال في نفسه : "آه ، تلك كلها قرى تترية!" ثم التفت صوب الناحية الروسية . فرأى عند قدميه نهراً ، والأولة التي يعيش هو فيها ، تحيط بها البساتين الصغيرة . واستطاع أن يتبين نساءً كالدمى الصغيرة جالساتٍ عند النهر يغسلن الثياب . وكان وراء الأولة تل بعيد أدنى من ذاك الذي في الجنوب ، ووراءه تلآن آخران كثيفا الشجر ، بينهما سهل أزرق منبسط ، وفي البعيد البعيد عبر السهل شيء بدا كأنه سحابة من دخان . وحاول أن يتذكر أين كانت الشمس تشرق وتغيب لما كان يقيم في الحصن ، وتأكد له أن ليس من خطأ : فالحصن الروسي لا بد أن يكون في ذلك السهل . فما بين ذينك التلّين يجب أن يشق طريقه عند فراره .

كانت الشمس قد بدأت تغيب ، وإذا الجبال البيضاء المغطاة بالثلج حمراء ، والتلال القاتمة أشد قتاماً . وقد تصاعدت سحب الضباب من الوهدة . أما الوادي البعيد الذي افترض وجود الحصن الروسي فيه فقد بدا شفقه متوهجاً وكأنه يشتعل . وإذ دقّق جيلين وحدّق ، بدا له شيء يتعالى في الوادي كدخان موقد ، فاطمأن إلى أن الحصن الروسي هناك حتماً .

كان النهار قد أمسى ، وسَمع أذان المؤذن ، وسيقت القطعان إلى المبيت ، وعلا خوار البقر ، فظل الصبي يقول : "هيا إلى البيت!" ولكن جيلين لم يشعر بميلٍ إلى الانصراف .

على أنهما أخيراً عادا ، وجيلين يفكر : "أما وقد عرفت الطريق حان وقت الفرار!" وفكر في الفرار تلك اليلة . فالليالي شديدة الظلام لأن القمر قد دخل في المحاق . ولكن من سوء حظه أن التتر عادوا إلى البيت ذلك المساء . كان من عادتهم أن يعودوا فرحين مرحين يسوقون الماشية قدامهم . لكنهم هذه المرة عادوا بلا ماشية . وكل ما جاؤوا به إلى القرية كان جثة تتري قتيل هو أخو الأحمر الشعر . وقد عادوا واجمعين حزناً . واجتمع رجال القرية كلهم لدفن الميت . وخرج جيلين أيضاً لينظر .

كفنوا الجثة بلفافةٍ من كتان ، وحملوها إلى خارج القرية بلا نعش ، حيث وضعوها على العشب تحت بعض أشجار الدلب . ثم أقبل الإمام والشيوخ ، ولفوا قماشاً حول قبعاتهم ، وخلعوا أحذيتهم ، وأقعوا على أعقابهم جنباً إلى جنب قرب الجثمان .

تقدم الإمام الجميع ، واصطف خلفه ثلاثة شيوخ متعمِّمين ، ووراءهم التتر الآخرون . كان الجميع مطرقين واجمين . واستمر ذلك طويلاً حتى رفع الإمام رأسه وقال : "الله!" ما قال غير هذه الكلمة . ثم أطرق الجميع من جديد وظلوا صامتين طويلاً . وقد لبثوا هكذا بلا حراك ولا كلام .

ومرة ثانية رفع الإمام رأسه وقال "الله" فردوا جميعاً : "الله! الله!" ثم عادوا إلى صمتهم .

كان الميت ممدداً أمامهم على العشب ، وهم قعدوا لا يتحركون وكأنهم هم أيضاً أموات . لم يحرّك أحد منهم ساكناً . وما كان من صوتٍ سوى حفيف أوراق الدلب إذ تحركها النسمات . ثم تلا الإمام صلاة ، فقاموا كلهم . ورفعوا الجثة وحملوها على أذرعهم إلى حفرة في الأرض . لم تكن حفرة عادية ، بل كانت منقورة كأنها سرداب . وقد حملوا الجثمان من تحت الذراعين ومن الرجلين ، وأنزلوه برفق ، دافعين إياه تحت التراب في وضعة جلوس ، ويداه مطويتان من قدام .

ثم أتى النوغي ببعض الأسل الأخضر ، فسدّوا به السرداب وهالوا عليه التراب مسرعين ، ثم سوّوا التربة ، ونصبوا حجراً قائماً عند رأس القبر . وبعد ذلك داسوا التراب ، وعادوا فقعدوا مصطفين عند القبر ، صامتين طويلاً .

وأخيراً نهضوا ، وقالوا : "الله! الله! الله!" وتنهّدوا .

أما التتري الأحمر اللحية فقد أعطى الشيوخ مالاً . ثم نهض هو أيضاً ، وتناول سوطاً ، وضرب به نفسه ثلاث مرات على مقدم رأسه ، ومضى إلى بيته .

وفي الصباح التالي شاهد جيلين التتري الأحمر ، يتبعه ثلاثة آخرون ، يسوق فرساً إلى ظاهر القرية . ولما جاوزوا القرية ، خلع التتري الأحمر رداءه وشمر عن ساعديه ، فبدأت ذراعاه المفتولتان . ثم استل خنجراً وسنه على حجر شحذ . ورفع التتريون الآخرون رأس الفرس ، فحز هو عنقها ، وطرحها أرضاً ، وبدأ يسلخها شاداً إهابها بيديه الكبيرتين . ثم اقبلت النساء والبنات وأخذن يغسلن الأمعاء والأحشاء ، وقُطّعت الفرس إرباً إرباً ، وحملت القطع إلى داخل كوخ التتري الأحمر ، حيث احتشدت القرية كلها لتناول الوضيمة . وقد ظل اهل القرية ثلاثة أيام يأكلون لحم الفرس ويشربون البوزا ويُصلّون لأجل الميت . وكان التتر جميعهم في القرية . وفي اليوم الرابع ، عند وقت الغداء ، رآهم جيلين يتأهبون للذهاب . فقد أُحضرت الأحصنة ، وأعدّوا أنفسهم ، وامتطوا الأحصنة ، ومضوا . وقد كانوا نحو عشرة رجال ، بينهم الأحمر . اما عبد المراد فقد بقي في القرية ، وكان الهلال قد هلّ ، وما يزال ظلام الليالي حالكاً .

إذ ذاك فكر جيلين : "آ! الليلة وقت الفرار ." ثم اخبر كوستيلين ، ولكن فؤاد كوستيلين خذله .

وسأله كوستيلين : "كيف يمكننا أن نهرب ؟ إننا لا نعرف حتى الطريق!"

فقال : "أنا أعرف الطريق ."

واجاب كوستيلين : "حتى لو كنت تعرف الطريق ، فلن نستطيع بلوغ الحصن في ليل واحد!"

فقال جيلين : "إذا لم نستطع ، ننام في الغابة . انظر ، لقد خبأت بعض الجبن . ما نفع القعود هنا والاسترسال في الحزن والرثاء ؟ إن أرسلوا إليك الفدية ، فخير وبركة . ولكن هبهم لم يدبروا جمعها . . . ؟ إن التتريين الآن غضاب لأن الروس قتلوا واحداً من رجالهم ، وهم يتحدثون عن قتلنا ."

فتفكّر كوستيلين في الأمر وتدبر . ثم قال : "طيب ، فلنذهب!"

5

زحف جيلين إلى داخل النفق ، ووسّعه كي يتمكن كوستيلين أيضاً من المرور عبره . ثم لبدا كلاهما ينتظران هدوء الحركة في الأولة .

وما إن ساد الهدوء ، حتى زحف جيلين من تحت الحائط وخرج خارجاً ، ثم همس لكوستيلين : "تعال!"

وزحف كوستيلين ، إلا أن قدمه علقت بحجر فأصدر ضجة . وكان عند السيد كلب حراسةٍ شرس جداً ، مرقّط ، يسمى أولياشين ، وقد حرص جيلين على إطعامه حيناً قبلئذ . فسمع أولياشين الضجة وجعل ينبح ويقفز ، وفعلت فعله الكلاب الأخرى . فصفر جيلين صفرة خفيفة ، والقمه قطعة جبن . وكان أولياشين يعرف جيلين ، فبصبص بذنبه ، وكف عن النباح .

ولكن السيد كان قد سمع الكلب ، فصرخ عليه في كوخه : "هيت ، هيت ، أولياشين!"

غير أن جيلين حك أولياشين وراء اذنيه ، فسكت وراح يتمسّح برجلي جيلين مبصبصاً .

اختبأ الرجلان خلف زاويةٍ بعض الوقت . ثم عاد السكون فساد ، إلا خروفاً عطس داخل حظيرة ، والماء يخر على الحصى في الوادي . كان الظلام

شديداً ، والنجوم بعيدة ، والهلال أحمر إذ طلع من وراء التلال . أما ضباب الأودية فكان أبيض كاللبن .

ثم نهض جيلين وقال لرفيقه : "هيا يا صاح ، تعال!"

وطفقا يمشيان . ولكن ما أن خطوا بضع خطوات حتى سَمِعَ إمام المسجد يؤذن من على السطح : "الله اكبر! باسم الله الرحمان الرحيم! حي على الصلاة!" فعلما ان القوم سيؤمّون المسجد للصلاة . فلبدا ثانيةً مختبئين خلف حائط ، وانتظرا طويلاً حتى اجتاز المصلون . واخيراً ساد السكون من جديد .

"هيا الآن ، وليكن الله معنا!" فصلّبا على وجهيهما ، وانطلقا ثانيةً . وعبرا ساحةً ، ثم هبطا منحدر التل صوب النهر فقطعاه وسارا بمحاذاة الوادي .

كان الضباب كثيفاً ، إنما قرب الأرض فقط ، إذ كانت النجوم مشعة تماماً فوق رأسيهما . واهتدى جيلين إلى الطريق بالنجوم . كان الهواء بارداً وسط الضباب ، والمشي سهلاً ، إلا أن حذائيهما ضايقاهما ، إذ كانا باليين ورقيقي النعل . فخلع جيلين حذاءه ، ورماه عنه ، ومضى حافياً وقافزاً من حجر إلى حجر ، مستهدياً بالنجوم . وأخذ كوستيلين يخمع خلفه .

وقال : "لنمش أبطأ! فهذا الحذاء الضيق قد قرح قدمي ."

فأجابه جيلين : "اخلعه! فالمشي من دونه أسهل ."

ومشى كوستيلين حافياً ، ولكن حاله زادت سوءاً . فقد جُرِحت الحجارة قدميه ، وظل يخمع متأخراً . وقال له جيلين : "إذا جرحت قدماك فإنهما تشفيان . ولكن إن قبض علينا التتر وقتلونا ، يكون الأسوأ! "

لم يجب كوستيلين بشيء ، بل تابع السير ، وهو يئن بلا انقطاع .

وظلاّ يسيران في الوادي طويلاً . ثم سمعا نباح كلاب عن يمينهما . فتوقف جيلين ، وتطلع حواليه ، وبدأ يتسلق التل متلمساً طريقه بيديه .

ثم قال : "آه ، لقد أخطأنا السبيل ، وتوغلنا كثيراً إلى اليمين . فها هنا

اولة أخرى سبق أن رأيتها من على التل . علينا أن نستدير ، ونصعد ذلك التل إلى الشمال . فينبغي أن نجد غابة هناك ."

ولكن كوستيلين قال : "أمهلني دقيقة واحدة ، ريثما ألتقط أنفاسي . لقد تقرحت قدماي كلهما وأخذتا تنزفان ."

"لا عليك يا صاحب! سوف تشفيان . يجب عليك أن تقفز قفزاً ، هكذا!" ثم عاد جيلين راكضاً ، وانعطف صاعداً التل نحو الغابة .

أما كوستيلين فظل يخمع خلفه ويئن . ولم يقل جيلين له سوى : "صه!" فيما مضى مصعّداً .

ولما تسلّقا التل وجدا غابةً ، كما قال جيلين . فدخلاها وشقّا طريقهما بين العلّيق ، فتمزقت ثيابهما . أخيراً وصلا إلى ممر وسارا فيه .

"قف!" سمعا وقع حوافر على الممر ، فأصاخا يتسمّعان . وبدا كأنه عدو فرس ، ثم انقطع . وتابعا سيرهما ، فسمعا وقع الحوافر ثانيةً . ولما توقفا ، انقطع الصوت أيضاً . فزحف جيلين مقترباً نحو المصدر ، فرأى شيئاً ما قائماً في الممر حيث لم يكن الظلام شديداً . بدا ذلك الشيء أشبه بحصان ، ومع ذلك مختلفاً عنه ، وقد كان عليه شيء غريب ، ولم يكن يشبه الإنسان . وسمعه جيلين يشخر . "ترى ، ماذا يمكن أن يكون ذلك ؟" وما إن صفر جيلين صفرة صغيرة خفيفة ، حتى فر الحيوان من الممر ودخل الدغل مسرعاً ، فعلا في الغابة ضجيج وقرقعة ، وكأن إعصاراً يهب ، وسَمِع تحطّم اغصان .

خاف كوستيلين وذعر حتى هوى أرضاً . ولكن جيلين ضحك وقال له : "إنه أيل . الا تسمعه يكسر الاغصان بقرونه ؟ نحن خائفان منه ، وهو خائف منا!"

ثم تابعا سيرهما ، وكان الدب الاكبر قد بدأ يختفي ، والصبح يكاد ينفجر ، وهما لا يعلمان هل يسيران في الطريق الصحيح . وقد خُيّل إلى جيلين

أنه الطريق الذي منه أتى التتر به ، وأن نحو عشرة كيلومترات بعد تفصلهما عن الحصن الروسي . ولكن لم يكن له ما يستهدي به يقيناً ؛ وفي الليل يسهل أن يخطئ المرء السبيل .

وبعد حين بلغا أرضاً مقطوعة الشجر ، فقعد كوستيلين وقال : "افعل ما يحلو لك ، لا أستطيع قطع مترٍ واحدٍ بعد! إن قدميّ لا تقويان على حملي!"

حاول جيلين إقناعه ولكنه قال :

"لا ، لن أصل إلى هناك البتة ، لا أستطيع!"

فغضب جيلين عليه وكلمه بخشونة :

"حسناً ، إذاً فسأذهب وحدي . وداعاً! "

إذ ذاك هب كوستيلين واقفاً ، وسار وراءه . فقطعا خمسة كيلومترات أخرى . وكان الضباب في الغابة قد ازداد كثافة ، فلم يستطيعا أن يريا مسافة مترٍ واحدٍ أمامهما ، وقد أظلمت النجوم .

وفجأة سمعا وقع حوافر حصان أمامهما ، وكانت نعاله تضرب الحجارة . فانبطح جيلين أرضاً ، وأصاخ بأذنه ملصقاً إياها بالتراب . ثم قال :

"بلى ، هكذا! إنّ خيّالاً مقبل علينا ."

تنكّبا عن الممر مسرعين ، ولبدا بين شجيرات الدغل ينتظران . ثم زحف جيلين إلى الدرب ، واستشرف فرأى تترياً على متن حصانه يسوق بقرة وهو يدندن . وكان التتري قد جاوزهما ، فرجع جيلين إلى كوستيلين .

"لقد أضله الله عنا . فانهض نمضِ! "

وحاول كوستيلين أن ينهض ، لكنه عاد فهوى أرضاً .

"لا أستطيع . قسماً بشرفي ، لا أستطيع . لم تبق لي قوة!"

كان كوستيلين بديناً وثقيلاً ، وقد تصبب منه العرق غزيراً . وإذ أبرده رذاذ الضباب ، وسالت الدماء من قدميه كلتيهما ، غدا أعرج كلياً .

وحاول جيلين أن يقيمه ، لكنه صرخ فجأة : "آه ، كم هذا مؤلم!"

إذ ذاك سقط قلب جيلين ، وقال : "لمَ تصرخ ؟ ما زال التتري قريباً . لا بد أن يكون قد سمعك!" ثم فكر برأسه : "إنه تالف حقاً . فماذا أفعل به ؟ لا نفع في التخلي عن رفيق!"

"حسناً ، إذاً هيا اركب على ظهري . سأحملك إن كنت لا تستطيع المشي حقاً ." ثم ساعده وأصعده على ظهره ، ووضع ذراعيه تحت فخذيه ، وخرج إلى الممر وهو يحمله . وقال له :

"إنما كرامة حُب السماء لا تخنقني بيديك! تمسك بكتفي ."

ألفى جيلين حمله ثقيلاً ، وكانت قدماه هو أيضاً تنزفان . وكان يتوقف بين الفينة والفينة ليعدل توازن كوستيلين ، دافعاً إياه إلى أعلى لتسوية جلسته ، ثم يتابع سيره .

ولكن لا بد أن يكون التتري قد سمع كوستيلين يصرخ . فقد سمع جيلين فجأة شخصاً يعدو وراءه على ظهر حصان صائحاً باللسان التتري . وقد مرق الخيّال كالسهم بين الشجيرات ، ورفع بندقيته وأطلق النار ، إلا أنه لم يصبهما ، فظل يصيح بلغته ويعدو بحصانه على الطريق .

فقال جيلين : "ها قد ضللنا الطريق يا صاحب . وسيجمع ذلك الوغد التتريين كي يطاردونا ويتصيدونا . أن لم نتمكن من الابتعاد نحو ميلين نهلك حتماً!" ثم فكر برأسه : "تباً للشيطان! لماذا أسرجت نفسي بهذا الحمل الثقيل ؟ لو كنت وحدي لفررت من زمان!"

وقال كوستيلين : "امضِ وحدك! لماذا تهلك بسببي ؟"

"الآن لن أمضي! لا نفع في التخلي عن رفيق ."

ثم أردف كوستيلين على ظهره ، ومضى يسير مترنحاً . وقطعا من ذلك الطريق نحو كيلومتر واحد . كانا ما يزالان في الغابة ، ولم يقدرا أن يريا

آخرها . ولكن الضباب كان قد بدأ ينقشع ، وبدت السحب تتجمع ، ولم تعد النجوم تُرى . وكان جيلين قد تلف فعلاً . ووصلا إلى نبع ماء حوله حائط من الحجارة ، إلى جانب الممر . فتوقف جيلين ، وأنزل كوستيلين . وقال : "لأسترح قليلاً وأشرب ، ولنأكل بعض الجبن . ليست المسافة طويلة بعد!" ولكن ما كاد ينحني ليشرب حتى سمع وقع حوافر خلفه . فاندفعا ثانية إلى اليمين ، وتمدّدا تحت منحدر منزلق .

سمعا أصوات تتر . فقد توقف التتر في البقعة التي منها تحوّلا عن الممر . وتحدث التتر قليلاً ، ثم بدا أنهم أطلقوا كلباً يتشمّم رائحتهما . ثم سُمع صوت قضبان تتكسر ، وظهر كلب غريب خلف الشجيرات ، حيث توقف وبدأ ينبح .

ثم هبط التتريون ، وهم غرباء أيضاً ، وقبضوا على جيلين وكوستيلين وقيدوهما ووضعوهما على حصانين ، ثم مضوا بهما راكبين .

ولما ساروا بهم نحو ثلاثة كيلومترات ، التقوا عبد المراد مالكهما ، يتبعه تتريان آخران . فبعدما كلم الغرباء ، وضع جيلين وكوستيلين على اثنين من أحصنته وعاد بهما إلى الأولة .

لم يضحك عبد المراد آنذاك ، ولم يقل لهما كلمة واحدة .

وعند طلوع الصباح بلغوا الأولة ثانية ، فأُقعِدا في الشارع . وتوافد الأولاد فاحتشدوا حولهما ، وراحوا يرجمونهما بالحجارة ويصرخون عليهما ويضربونهما بالسياط .

تجمّع التتر في حلقة ، وكان بينهم أيضاً الرجل الطاعن في السن ، الساكن عند سفح التل . وبدأوا يتباحثون ، فسمعهم جيلين ينظرون في ما ينبغي أن يفعلوا به وبكوستيلين ، وقال بعضهم إنه ينبغي أن يُرسلا إلى الجبال البعيدة ، ولكن ذلك الشيخ قال : "يجب أن يُقتلا!"

لكن عبد المراد جادله قائلاً : "لقد دفعت فيهما مالاً ، وينبغي أن أحصل على فديتهما!" ولكن العجوز قال : "لن يدفعا لك شيئاً ، بل سيجلبان البلايا فقط . حرامٌ إطعام الروس . اقتلهما واحسم الأمر!"

ثم تفرقوا ، فجاء السيد إلى جيلين وقال : "إن لم يُبعَث بمال الفدية في أسبوعين فسوف أجلدكما . وإن حاولتما الهرب ثانية ، أقتلكما قتل الكلاب : فاكتبا رسالة ، اكتباها صحيحةً!"

وجيءَ إليهما بورق ، فكتبا رسالتين . ووُضع الصفادان في أرجلهما من جديد ، وأُخِذا إلى هُوّة عميقة وراء الجامع مساحتها أربعة أمتار مربعة ، ودُلّيا فيها .

6

باتت الحياة آنذاك صعبة جداً عليهما . فلم يُنزع صفاداهما عنهما قط ، ولم يُسمح لهما بالخروج إلى الهواء الطلق . وكان يُرمى إليهما بالعجين غير المخبوز كأنهما كلبان ، ويُدلّى إليهما بالماء في علبة معدنية .

وكانت الهوّة رطبة وحبيسة الهواء ، وذات رائحة نتنة . وغدا كوستيلين مريضاً جداً ، فتورم جسمه وآلمه كله ، وأكثر من الأنين أو النوم كل حين . كذلك استبدت الكآبة بجيلين . فقد رأى أنهما في مأزق سيّىء جداً ، ولم يتأتَ له أن يفكر في طريقة للهرب .

وحاول أن يحفر نفقاً ، ولكن لم يكن مكان يضع فيه التراب . وقد تنبه سيده إلى الأمر ، فهدّده بالقتل .

وبينما هو ذات يوم جالس على أرضية الهوة ، يفكر في الحرية مكتئبَ القلب جداً ، إذا بكعكة تسقط في حضنه ، وبأخرى تليها ، ثم تبعهما وابل من الكرز . ورفع نظره ، فإذا دينا هناك! وقد نظرت إليه وضحكت ، ثم راحت تعدو مبتعدة . ففكر : "لعل دينا تساعدني!"

ثم نظف مكاناً صغيراً في الهوة ، واحتفر بعض الطين ، واخذ يشكل دمى . فصنع رجالاً ونساء واحصنة وكلاباً ، قائلاً في نفسه : "حين تاتي دينا ، ارميهن إليها ."

ولكن دينا لم تأتِ ثاني يوم . ثم سمع جيلين وقع حوافر ، وجاوزهما بعض الخيّالة ، واجتمع التتريون قرب الجامع للتشاور ، حيث تجادلوا وتصايحوا ، وتكررت الكلمة "روس" بضع مرات . وقد ميز صوت الشيخ ذي العمامة . ولئن لم يستطيع فهم كل ما قيل فقد حزر أن الجيش الروسي كان على مقربةٍ منهم ، وانهم لا يدرون ماذا يفعلون بالأسيرين ، إذ خافوا أن يدخل الروس القرية .

وبعدما تحادثوا حيناً مضوا في سبيلهم . وفجأة سمع جيلين خشخشة فوق رأسه ، ورأى دينا قاعدة القرفصاء عند حافة الهوة وركبتاها أعلى من رأسها ، وقد انحنت حتى تدلّت قطع النقد المعدنية من جدائلها فوق الهوّة .

وتألّقت عيناها كأنهما نجمتان . ثم سحبت قطعتي جبن من كمّها ورمتهما إليه ، فالتقطهما وقال : "لماذا لم تاتي قبلاً ؟ لقد صنعت بعض الدمى . هيا التقطيها!" وأخذ يرمي الدمى إلى الأعلى ، واحدة واحدة .

ولكن دينا هزت رأسها ، ولم تنظر إلى الدمى . وقالت : "لا أريد أياً منها ." ولبثت صامتة هنيهة ، ثم أردفت : "إيفان ، إنهم يريدون أن يقتلوك!" ثم اومأت إلى نحرها .

"من يريد أن يقتلني ؟"

"أبي . الرجال الكبار يقولون إنه يجب أن يقتلك . ولكني متأسفة عليك!"

فأجابها جيلين : "حسناً ، إن كنت متأسفة علي ، فأحضري لي عموداً طويلاً ."

فهزت رأسها وكأنها تقول : "لا أستطيع!"

لكنه شبك يديه وتوسل إليها قائلاً : "دينا ، رجاءً! رجاءً يا دينا العزيزة!"

فقالت : "لا أستطيع! سيرونني أجرّه . الجميع في البيت ." ثم مضت .

ولما حلّ المساء كان جيلين ما يزال قاعداً يتطلع إلى عل بين الفينة والفينة ، مسائلاً نفسه عما قد يجري . كانت النجوم طالعة ، ولكن القمر لما يطلع . وسمع صوت الإمام مؤذناً ، ثم ساد الصمت . وكان النوم قد بدأ يغطغط على جيلين ، وفي خاطره أن الفتاة ستخاف من تلبية طلبه .

وفجأة أحس الطين ينهال عليه ، وتطلع وإذا عمودٌ طويل يكز جانب الهوّة المقابل ، وظل يكز هنا وهناك حيناً ، ثم نزل منزلقاً في الهوّة . فسُرّ جيلين اي سرور! وامسك بالعمود وانزله . وقد كان عموداً متيناً سبق له ان رآه على سطح كوخ سيده .

ورفع نظره ، فإذا النجوم تشع في أعلى الفضاء ، وفويق الهوة عينا دينا تتألقان في الظلام كعيني هرة . وقد انحنت ووجهها يلزق حافة الهوة ، وهمست : "إيفان ، إيفان!" ملوحة بيدها أمام وجهها لتفهمه بأن عليه أن يتكلم بصوتٍ خافت .

فسألها : "ماذا ؟"

"الجميع ذهبوا ما عدا اثنين ."

عندئذٍ قال جيلين : "حسناً يا كوستيلين ، تعال! لنحاول محاولة أخيرة . سأساعدك على الصعود! "

ولكن كوستيلين لم يشأ أن يسمع له ، بل قال :

"لا! واضح أنني لن أستطيع الذهاب من هنا . فكيف أقوى على الفرار وانا لا أكاد استطيع الالتفات ؟"

"طيب ، إذاً وداعاً! لا تفكر فيّ بالسوء!" ثم قبل أحدهما الآخر . وامسك جيلين بالعمود ، وطلب من دينا أن تسنده ، وبدأ يتسلق . وانزلق مرة أو

مرتين ، إذ أعاقه الصفاد . وساعده كوستيلين ، فاستطاع الوصول إلى الأعلى ، حيث سحبته دينا بيديها الرقيقتين من قميصه ، باذلة كل ما لديها من قوة وهي تضحك .

ثم جذب جيلين العمود وقال : "أرجعيه إلى مكانه يا دينا ، وإلا عرفوا وضربوك ."

فجرّت العمود مبتعدة ، وهبط جيلين التل . ولما عبر المنحدر الشديد ، تناول حجراً حاداً ، وحاول أن يفك القفل عن الصفاد . غير انه كان قفلاً قوياً ، ولم يقو على كسره ، كما أنه كان صعباً الوصول إليه . ثم سمع حسّ أحد يهبط التل راكضاً وقافزاً بخفة ، ففكر : "لا شك انها دينا أيضاً!"

ووصلت دينا ، فتناولت حجراً ، وقالت : "دعني أحاول!"

ثم جثت وحاولت فك القفل ، ولكن يديها الصغيرتين كانتا رقيقتين كأملودين طريين ، ولم يكن لديها قوة كافية . فرمت الحجر بعيداً ، وطفقت تبكي . وعندئذٍ حاول جيلين معالجة القفل من جديد ، فيما تقرفصت دينا إلى جنبه ويدها على كتفه .

أستشرف جيلين فرأى ضوءاً أحمر إلى اليسار خلف التل . وكان القمر يطل من توّه ، ففكر برأسه : "آه ، قبل طلوع القمر ينبغي أن أقطع الوادي وأبلغ الغابة!" وهكذا نهض ورمى الحجر . إنّ عليه أن يمضي ، بالصفاد أو بغيره!

وقال : "وداعاً يا دينا العزيزة! لن أنساك البتة!"

فأمسكت به دينا وتلمست بيديها أين تضع بعض الجبن الذي أحضرته ، فأخذ الجبن منها ، وقال :

"شكراً لك يا صغيرتي! من سيصنع لك الدمى بعد ذهابي ؟" ثم ربّت شعرها .

انفجرت دينا باكية ، مخفية وجهها بيديها . ثم ركضت صاعدة التل كعنزٍ برية فتية ، وقطع النقد في ضفائرها تخشخش على ظهرها .

رسم جيلين إشارة الصليب على صدره ، وحمل بيده قفل صفاده ليحول دون صلصلته ، ومشى في الطريق يجرّ رجله المصفدة ، ناظراً صوب المكان الذي فيه يوشك أن يطلع القمر . إنه الآن يعرف طريقه . فإن مضى مستقيماً فعليه أن يمشي نحو عشرة كيلومترات . لو يستطيع فقط أن يبلغ الغابة قبل طلوع القمر تماماً! وعبر النهر . فإذا الضوء خلف التل يغدو أكثر بياضاً . فشخص إليه ومشى بمحاذاة الوادي ، ولم يكن القمر ظاهراً بعد . وغدا الضوء أكثر إشراقاً ، فبات جانب من الوادي أوفر نوراً بازدياد ، وصارت الظلال تترامى صوب منحدر التل ، زاحفة نحو جيلين أقرب فأقرب .

واصل جيلين سيره في الظل . كان يغذ السير ، ولكن القمر كان يتحرك أسرع منه بعد ، حتى أضاء رؤوس التلال . وصار الليل مضاء كأنه نهار ، حتى بات المرء يستطيع أن يرى كل ورقة على الشجر . وقد غمر الضوء التل ولكن ساده السكون أيضاً ، وكأن لا حياة فيه . ولم يسمَع أي صوت ما خلا خرير النهر في القعر .

وبلغ جيلين الغابة دون أن يلتقيه أحد ، فانتقى بقعة مظلمة ، وقعد يستريح ، وفي أثناء ذلك أكل قطعة من الجبن . ثم وجد حجراً وأخذ يعالج قفل الصفاد من جديد لعله يفكّه . وتقرحت يداه ، لكنه لم يستطع كسر القفل . فنهض وسار على الطريق . وبعدما مشى أكثر من نصف كيلومتر نهكه التعب وآلمته قدماه جداً ، فكان عليه أن يتوقف كل عشر خطوات .

ودار في فكره : "لا بديل لديّ! عليّ أن أجر قدمي ما بقيت في قوة . فإن قعدت ، يتعذر عليّ النهوض . لن أستطيع بلوغ الحصن . ولكن عند طلوع الصباح أستلقي في الغابة ، وأبقى هنالك طول النهار ، ثم أستأنف سيري ليلاً ."

ثم مضى سائراً طوال الليل . وجاوزه تتريان راكبان حصانين . إلا أنه سمعهما من بعيد فاختبأ خلف شجرة .

وبدأ القمر يشحب ، والندى يتساقط ، وكاد الفجر يبزغ ولما يبلغ جيلين آخر الغابة . ففكر : "حسنا ، سأمشي ثلاثين خطوة بعد ، ثم أتوارى بين الشجر وأستريح ."

ومشى ثلاثين خطوة أُخرى ، فتبين له أنه بلغ آخر الغابة ، فسار إلى حافتها ، وكان النور قد بان تماماً ، فإذا أمامه السهل والحصن! وإلى اليسار ، على مقربةٍ من سفح المنحدر تماماً ، نار تخمد ودخانها ينتشر حواليها ، وقد تحلّق حولها بعض الرجال .

وأحدّ نظره ، فشاهد بندقيات تبرق . إنهم جنود ، قوزاقيون!

فغمر الفرح قلبه . واستجمع ما بقي له من قوة ، وانطلق هابطاً التل وهو يقول لنفسه : "لا سمح الله بأن يراني أي تتري على حصانه في العراء! فمع أني قريب جداً ، لا يمكنني الوصول في الوقت المناسب ."

وما كاد يقول ذلك ، حتى رأى على بعد أقل من منتي متر ، فوق أكمة ، ثلاثة تتريين .

وقد رأوه هم أيضاً ، فأغاروا . وسقط قلبه ، فراح يلوّح بيديه ويصيح بكل قوته : "يا إخوان ، يا إخوان ، النجدة!"

وسمعه القوزاقيون ، فهب بعضهم على جيادهم ليقطعوا الطريق على التتر . وقد كان القوزاقيون بعيدين والتتريون قريبين ، إلا أن جيلين أيضاً بذل جهداً أخيراً ، فرفع الصفاد بيديه وركض نحو القوزاقيين ، وهو لا يكاد يدري بما يفعله ، مصلّباً وصائحاً : "يا إخوان ، يا إخوان ، يا إخوان!"

كان عدد القوزاقيين نحو خمسة عشر . فذُعِر التتريون وكفوا عنه قبل الوصول إليه ، وترنّح هو سائراً نحو القوزاقيين .

ثم أحاطوا به وبدأوا يسألونه : "من أنت ؟ ما أنت ؟ من أين أنت ؟"

ولكن جيلين كان خارجاً عن طوره تماماً ، فلم يستطع إلا أن يبكي ويردد : "يا إخوان ، يا إخوان!"

بعدئذ تقاطر العسكريون واحتشدوا حول جيلين : هذا يعطيه خبزاً ، وذاك فريكاً ، وذلك فودكا ، وواحد يلفه بمعطف ، وآخر يفك صفاده .

وعرفه الضباط ، وركبوا معه إلى الحصن . ففرح الجنود برؤيته من جديد ، وتحلق حوله رفقاؤه كلهم .

وأخبرهم جيلين بكل ما جرى له . ثم قال :

"بهذه الطريقة ذهبت إلى بلدي وتزوجت! لا ، يبدو واضحاً أن قدَري كان مُعاكسي!"

وهكذا مضى يخدم في القوقاز . وانقضى شهر قبل إطلاق سراح كوستيلين ، بعد دفعه فدية قدرها خمسة آلاف روبل . وكاد أن يكون ميتاً لمّا أعادوه .

سنة 1870

3

اصطياد الدب

المغامرة الموصوفة في ما يلي جرت لتولستوي نفسه عام 1858 . وبعد أكثر من عشرين سنة اقلع عن الصيد لأسباب إنسانية خيّرة

خرجنا في رحلة لاصطياد الدببة . وكان رفيقي الصياد قد أطلق النار على دب ، لكنه جرحه في لحمه فقط . وظهرت على الثلج آثار دم ، ولكن الدب قد فر بعيداً .

اجتمعنا كلنا في مكان من الغابة لنقرر : أنستأنف مطاردة الدب في الحال ، أم ننتظر يومين أو ثلاثة حتى يستقر من جديد ؟ وسألنا حوّاشي الدببة من الفلاّحين عن إمكانية تطويق الدبّ في ذلك اليوم عينه . فقال عجوزٌ من حواشي الدببة : "لا ليس ذلك ممكناً . يجب أن تمهلا الدب حتى يهدأ . وفي غضون خمسة أيام يمكن تطويقه . أما مطاردته الآن ، فمن شأنها فقط أن تُخوّفه بحيث لا يقر له قرار ."

ولكن حوّاش دببة شاباً خالف العجوز في الرأي قائلاً إنه من الممكن أن يحاصر الدب آنذاك . ثم أردف :

"لن يبتعد الدب كثيراً في مثل هذا الثلج ، ولا سيما لأنه دب ضخم الجثة . فلا بد أن يستقر قبل المساء . وإلا ، ففي وسعي إدراكه على قبقاب الثلج ."

أما الرفيق الذي صحبتُه فقد كان ضد تعقب الدب حالاً ، ونصح بالانتظار . فقلت له :

"لا حاجة بنا إلى الجدال! إفعل أنت ما شئت ، ولكنني أنا سأتعقب الدب بصحبة داميان . فإن أطبقنا على الدب ، كان خير . وإلا ، فلن نخسر شيئاً . ما

زال الوقت مبكراً ، وليس لنا اليوم شيء آخر نفعله ."

وهكذا تقرر أن نفعل . فرجع الآخرون إلى زلآجاتهم ، وعادوا إلى القرية ، فيما تزودنا أنا ودامیان ببعض الخبز ، ولبثنا في الغابة .

ولما مضوا ، تفحصنا بندقياتنا ، ثم مضينا نتعقب آثار الدب ، وقد دس كلانا اطراف معطفه المبطن بالفرو تحت حزامه ، حتى لا تتعوق .

كان الطقس حسناً ، جليدياً ساكن الريح . ولكن خوض الثلج كان صعباً . إذ إنه كان عميقاً وليناً ، ولم يكن قد تماسك بفعل الصقيع في أي مكان من الغابة ، وقد سقط ثلج جديد يوم أمس ، حتى غاصت قباقيب الثلج خمسة عشر سنتيمتراً ، بل اكثر من ذلك أحياناً .

استطعنا ان نرى آثار الدب من بعيد ، ونتبين الطريق التي سلكها ، وكيف غاص أحياناً حتى بطنه ثم تخلص فالحاً الثلج . وإذ مشينا أولاً تحت الأشجار الضخمة ، بقيت آثاره ظاهرة للعيان . ولكن لما دلت الآثار على دخوله حرجة تنوب ضنيل ، توقف دامیان قائلاً :

"علينا أن نكف الآن عن تعقبه . فلعله استقر في مكان ما هنا . والثلج ينبئنا أنه أقعى هنا مرات . فلنبتعد عن الآثار ، ونتعطف حولها . إنما ينبغي أن نسير على مهل ، بلا صراخ ولا سعال ، وإلا أخفناه وحملناه على الفرار ."

وهكذا ابتعدنا عن آثار الدب ، وتحولنا نحو اليسار . ولكن ما إن قطعنا نحو أربع مئة متر ، حتى بدت آثاره أمامنا رأساً . فتتبعناها ، وإذا بها تعود بنا إلى الطريق . وتوقفنا لنتحقق اي سبيل سلك ، فإذا على الثلج هنا وهناك آثار مخالب الدب كلها ، وهنا وهناك آثار خُفي فلاح . لقد اتضح لنا أن الدب مضى صوب القرية .

وبينما نحن نوالي اقتفاء الآثار ، إذ قال دامیان :

"لا نفع في تفحص الطريق الآن . فلنتبين اين مال الدب يساراً أو يميناً

من الآثار الظاهرة على الثلج اللين إلى جانبي الطريق . لا بد من انه تنكب عن الطريق في مكان ما ، إذ لا يعقل أن يكون قد دخل القرية ."

سرنا الطريق الطريق قرابة ميل واحد ، ثم رأينا قُدّامنا آثار الدب وقد تحولت عن الطريق . ودققنا النظر ، فاستغربنا الأمر : آثار دب لا شك فيها ، ولكنها لا تتجه من الطريق نحو الغابة ، بل العكس ، من الغابة نحو الطريق! إنّ براثنه متجهة صوب الطريق!

قلت : "لا شك في أن هذا دب آخر!"

وتفحص داميان الآثار ، ثم قال بعدما فكر هنيهة :

"لا! إنه الدب عينه ، وقد مشى إلى الخلف عندما غادر الطريق كي يحتال على حوّاشيه!"

وإذ تتبعنا الآثار الجديدة ، وجدنا ذلك صحيحاً! فإن الدب سار إلى الخلف نحو عشر خطوات ، ثم استدار خلف شجرة تنوب ، ومضى قدماً على خط مستقيم . وتوقف داميان قائلاً :

"الآن سنطبق عليه حتماً . أمامنا مستنقع ، ولا بد أن يكون قد استقر هنا . فلندر حوله ."

وهكذا شرعنا نشق طريقنا حول المستنقع ، مجتازين دغل تنوب كثيفاً . وكان التعب قد هدني آنذاك ، فصار التقدم أصعب . فتارة انزلق إلى شجيرة عرعر فيعلق قبقابي بها ، وطوراً أجد بين قدميّ شجيرة تنوب ضئيلة .أو يفلت قبقاب الثلج من قدمي لقلة الممارسة ، أو أصدم رجلي بجذع مقطوع أو ارومة شجرة يخفيها الثلج . حتى نهكني التعب ، وتصبب مني العرق غزيراً ، فخلعت معطفي الوثير . وهوذا داميان أمامي دائماً ، يتقدم كما لو كان مبحراً ، وكأن قبقاب الثلج الذي ينتعله يسير من تلقاء ذاته ، فلا يصدم بشيء ولا يفلت من قدميه . حتى إنه أخذ معطفي والقاه على كتفه ، ومضى يحثني بلا هوادة .

وتابعنا سيرنا نحو ميلين آخرين ، فخرجنا من الدغل عند حافة المستنقع المقابلة . كنت متخلفاً عن داميان ، وقبقابي ينفلت من قدمي تكراراً ، ورجلاي تتعثّران . وإذا بداميان المتقدم عليّ يقف ويلوّح بذراعه . ولما لحقت به ، انحنى مشيراً بيده وهمس :

"أترى ذلك العقعق الذي ينعب فوق تلك الشجيرة ؟ إنه يشتمّ رائحة الدب من بعيد . فإنما هناك ينبغي ان يكون الدب! "

فملنا وسرنا نحو كيلومتر آخر ، وفي الحال عثرنا على الآثار القديمة ثانية . وهكذا غدونا وراء الدب الذي كان آنئذ في حدود الآثار التي غادرناها . فتوقفنا ، ونزعت قبعتي ، وحللت ثيابي . كنت ساخناً كأنني في حمّام بخار ، ومبلّلاً بالعرق كفأر غريق! وقد احمرّت أيضاً وجنتا داميان ، وجعل يمسح بكمّه وجهه المحرور . وقال لي :

"حسناً يا سيدي! لقد أنجزنا المهمة ، وعلينا الآن أن نستريح قليلاً ."

كان شفق الغروب قد بدأ يتوهج من خلال أشجار الغابة . فخلع كلانا قبقابه الثلجي وجلس عليه ، وأخرج من زاده بعض الخبز والملح . أكلت أولاً بعض الثلج ، ثم بعض الخبز ، وما كان أطيبه! حتى إنني ظننت أني لم أذق يوماً أطيب منه . وقعدنا نستريح هناك ، حتى بدأ الظلام يرخي سدوله ، وعندئذ سألت داميان كم تبعد عنا القرية . فقال :

"لا بد أنها على بعد اثني عشر كيلومتراً تقريباً . سوف نبلغها الليلة ، ولكن علينا الآن أن نستريح . هلا ترتدي معطفك يا سيدي ، وإلا أصابك الزكام!"

مهّد داميان الثلج ، ثم كسّر بعض أغصان التنوب ، وصنع منها سريراً . فاستلقينا أحدنا جنب الآخر ، مسندين رأسينا على أذرعنا . ولا أذكر كيف نمت . على أني استيقظت بعد ساعتين إذ سمعت شيئاً يتقصّف .

كنت قد استغرقت في النوم حتى لم أعد أعرف اين كنت . ونظرت حوالي . فكم كان المنظر خلاباً! رايتني في ما يشبه بهو قصر مرفوعاً على أعمدة بيض متألقة متوهجة . ولما رفعت نظري ، لاحت لي عبر الزخارف المنمقة البيضاء قبة سوداء مرصعة بأنوار ملونة معلقة . وبعدما أنعمت النظر ، تذكرت أننا كنا في الغابة ، وأن ما حسبته بهواً وأعمدة ما كان إلا الأشجار المغطاة بالثلج والصقيع ، كما لم تكن الأنوار الملونة سوى النجوم المتلألئة في الفضاء من بين الأغصان .

كان الصقيع قد تكثف ليلاً ، وتثقلت به الغصون ، وقد تغطى به داميان ، وغطى معطفي الوثير ، وتقطر من الشجر . فأيقظت داميان ، وانتعلنا قبقابينا ، وانطلقنا . كان كل شيء في الغابة ساكناً . لم يُسمع صوت سوى صرير قبقابينا على الثلج الرخو ، وتردد اصداء بعيدة من أشجار يقصفها الجليد بين الفينة والفينة . مرة واحدة سمعنا حس مخلوق حي . فقد خشخش شيء ما على مقربة منا ، ثم فر مبتعداً . وما شككت في أنه الدب . ولكن لما دنونا من مصدر الصوت ، وجدنا آثار أرانب ، ورأينا بعض أشجار الحور الفتية التي قُرضت جذوعها . فنحن قد أجفلنا بعض الأرانب إذ كانت ترتعي .

ثم خرجنا إلى الطريق ، وسرنا فيه ، ونحن نجر قبقابي الثلج وراءنا . غدا السير أسهل الآن ، فيما راح القبقابان ينزلقان خلفنا من جهة إلى أخرى على الدرب المطروق جيداً . كان القبقابان يقرقعان ، والثلج يخشخش تحت جزمتينا ، والصقيع البارد يتجمد على وجهينا كالزغب . وبدت لنا النجوم من خلال الأغصان كأنها تركض لملاقاتنا ، فتأتلق حيناً وتخبو حيناً ، وكأنما الفضاء كله كان يتحرك .

ألفيت رفيقي الصياد نائماً ، فأيقظته ، وأخبرته كيف درنا حول الدب . وبعدما طلبنا إلى مضيفنا الفلاّح جمع حواشي الصيد للانطلاق صباح الغد ، تعشينا وأخلدنا إلى النوم .

كنت مرهقاً جداً بحيث كان ممكناً أن أظل نائماً حتى الظهر ، لو لم يوقظني رفيقي . ولما هببت واقفاً ، كان قد لبس ثيابه وأخذ يعالج بندقيته . فسألته :

"أين داميان ؟"

"ذهب إلى الغابة منذ وقت طويل . لقد اطّلع على الآثار التي خلفتماها ، وعاد إلى هنا ، ثم مضى للاهتمام بأمر الحواشين ."

اغتسلت ولبست ثيابي ، وحشوت بندقيتي . ثم ركبنا في زلاّجة وانطلقنا . كان الصقيع الحاد ما زال ينتشر ، وكل شيء هادئاً . ولم نستطع رؤية الشمس بسبب الضباب الكثيف ، فيما الصقيع يغطي كل شيء .

ولما قطعنا نحو ثلاثة كيلومترات من الطريق ، واقتربنا من الغابة ، رأينا سحابة دخان تتصاعد من قعرِ وادٍ ، ثم وصلنا إلى جماعةٍ من الفلاحين والفلاحات مسلحين بالهراوات .

فترجلنا وقصدنا إليهم ، فإذا الرجال قاعدون يشوون البطاطا ويتضاحكون مثرثرين مع النساء .

وكان داميان أيضاً هناك . فلما وصلنا ، نهض الجميع ، وعيّن لهم داميان مواقع على الدائرة التي قطعناها البارحة . كانوا ثلاثين شخصاً ، بين رجل وامرأة ، وساروا في رتَل واحد . وكان الثلج كثيفاً جداً بحيث لم نر منهم إلا ما فوق خصورهم . وقد انعطفوا داخلين الغابة ، وسرت ورفيقي في أعقابهم .

ولئن شقوا لنا الطريق ، فقد شق علينا المسير . ومع ذلك كان يستحيل السقوط ، إذ كنا كمن يسير بين جدارين من ثلج .

قطعنا نحو كيلومتر على هذا المنوال . وإذا بنا نرى داميان قادماً من جهة أخرى ، راكضاً نحونا على قبقابه الثلجي ، ومشيراً إلينا بأن نلحق به . فمضينا إليه . وعيّن لنا موقعينا .

كنت في موقعي ، وتطلعت حواليّ . عن شمالي غابة من التنوب الباسق ، ومن بين جذوعها يمتد نظري بعيداً ، فأرى ما يشبه بقعة سوداء خلف الأشجار . إنه أحد الحواشين . وأمامي حرجة من التنوب الفتيّ الذي يرتفع علواً يعادل قامة الإنسان تقريباً ، مثقل الأغصان بالثلج ومتلاصقاً بعضه ببعض . هذا الدغل يخترقه ممر مغطى بالثلج الكثيف ، يفضي إلى حيث كنت تماماً . وعن يميني دغل آخر من التنوب الكثيف ، عند نهايته فسحة صغيرة ، حيث أرى داميان يَعيّن مكمناً لرفيقي .

تفحصت بندقيتيّ كلتيهما ، وساءلت نفسي عن أفضل مكان أقف فيه . وكان على بعد ثلاث خطوات خلفي شجرة تنوب باسقة ، فقلت في نفسي :

"هناك سأقف ، حيث يمكنني إسناد بندقيتي الأخرى إلى جذع الشجرة ."

ثم توجهت نحو الشجرة ، وأنا أغوص في الثلج حتى الركبتين عند كل خطوة . ومهدت الثلج لأعد فسحة لا تتعدى مساحتها متراً مربعاً ، كي أقف عليها . وقد حملت إحدى البندقيتين بيدي ، وأسندت الأخرى إلى جذع الشجرة وديكها مَصليّ أيضاً . ثم سحبت خنجري من غمده وأعدته إليه ، لأتيقن بأني قادر على استلاله بيسر إذا دعت الحاجة .

وما كدت أفرغ من الاستعداد ، حتى سمعت داميان صارخاً في الغابة :

"لقد طلع! لقد طلع!"

وحالما صرخ داميان ، جاوبه الفلاحون من الدائرة بأصواتهم المختلفة :

"طلع! طلع! أو ، أو!" ورددت الفلاحات بنبراتهن الحادة : "آي ، آي ، آي! "

هوذا الدب داخل الدائرة ، وفيما داميان يطارده ، ظل الحواشون المتحلّقون يرددون صيحاتهم . أما أنا وصديقي ، فوحدنا وقفنا بلا حراك ، صامتين ومنتظرين قدوم الدب نحونا . وبينا كنت واقفاً أحملق وأتنصت ، إذ خفق قلبي بشدة ، وسرت في أوصالي رعشة وأنا حامل بندقيتي المَصليّة .

وفكرت : "الآن الآن سيخرج علي فجأة ، فأصوب عليه ، وأطلق النار ، فيخر صريعاً! "

وفجأة سمعت إلى يساري ، إنما من بعد ، صوت شيء يسقط على الثلج . ونظرت من بين التنوبات الباسقة ، فإذا على نحو خمسين خطوة مني ، بين الجذوع ، كتلة كبيرة سوداء . فسددت بندقيتي ، وانتظرت مفكراً : "ألن يقترب مني بعد ؟"

وبينما كنت أنتظر ، رأيته يحرك أذنيه ويستدير ، ويرتد ، فلمحته كله إذ عرض لي جانبه . كان حيواناً ضخماً جداً . وفي غمرة انفعالي أطلقت النار ، وسمعت رصاصتي تصدم جذع شجرة . "أفلوب! "ثم تطلعت ، فإذا بي أرى من خلل الدخان دبّي يعدو فاراً إلى داخل الدائرة ثم متوارياً بين الأشجار .

وفكرت بذهني : "ها قد ضاعت فرصتي! لن يعود إليّ بعد . فإما يرميه رفيقي ، وإما يفر عبر خط الحواشين . وعلى كل حال ، فهو لن يتيح لي فرصة أخرى ."

على أنني حشوت بندقيتي من جديد ، ووقفت أصغي . كانت هتافات الفلاحين تتعالى حوالي . ثم سمعت ، على مقربة من موقع رفيقي ، امرأة تصرخ بصوت مذعور : "ها هو! ها هو! هيا! هيا! أو! أو! آي ، آي!"

الظاهر أن هذه المرأة قد شاهدت الدب . وكنت أنا قد تخليت عن انتظار قدومه إليّ ، فرحت أنظر إلى اليمين ، حيث رفيقي . وإذا بي أرى داميان حالاً وفي يده عصا ، وبلا قبقاب ثلجي ، يركض نحو صديقي على ممر طرقته الأقدام . ثم تقرفص قرب رفيقي ، وصوب عصاه كأنما يستهدف شيئاً . وبعدئذٍ رأيت رفيقي يرفع بندقيته ويصوب في الاتجاه عينه ، ثم . . . "طق" انطلقت الرصاصة !

وفكرت : "ها قد قتله!"

غير اني لم ار رفيقي يركض نحو الدب . يبدو جلياً أنه لم يصبه ، أو أن الطلقة لم تؤثر فيه تماماً . وقلت في نفسي : "سوف يهرب الدب . إنه سيعود ، لكنه لن يتوجه نحوي ثانية . ولكن . . . رباه! ما هذا ؟"

كان مقبلاً نحوي شيء كالإعصار ، شاخراً اي شخير ، ورأيت الثلج يتطاير على مقربة مني تماماً . وحدقت قدامي مباشرة ، فإذا بالدب يهجم نحوي على الممر وسط الدغل وقد ذُعر وخرج عن طوره كما يبدو . لم يكن يبعد عني أكثر من ست خطوات ، واستطعت أن أراه كله ، بصدره الاسود ورأسه الهائل المبقع بالاحمر . كان منقضاً عليَ راساً ، وهو ينثر الثلج في هجومه . وتسنى لي أن أرى من عينيه أنه لم يكن يراني ، ولكن إذ جن جنونه من فرط الخوف ، هجم علي دون أن يبصر شيئاً ، وقد افضى به هجومه رأساً إلى الشجرة التي كنت واقفاً تحتها . إذ ذاك رفعت بندقيتي ، وأطلقت النار . كاد أن يكون فوقي الآن ، وتبين لي أنني أخطأته . فقد جاوزَته رصاصتي ، وهو لم يسمع حتى إطلاقي النار ، بل ظل هاجماً نحوي مباشرة . ثم خفضت بندقيتي ، وأطلقت النار ثانية ، والبندقية تكاد تلامس رأسه بفوهتها . "طق!" لقد أصبته الآن . ولكن لم اقتله!

ثم رفع الدب رأسه ، وخفض أذنيه ، وأقبل علي مكشراً عن أنيابه . فمددت يدي إلى البندقية الأخرى ، وقُبيل أن أمسك بها ، انقض علي وطرحني على الثلج ومر عليَ . فقلت في سري : "الحمد لله! لقد تركني" .

وحاولت أن انهض ، إلا ان شيئاً ضغطني نحو الأسفل وحال دون نهوضي . فإن هجمة الدب جعلته يجاوزني ، ولكنه ارتد عليَ وسقط فوقي بكل ثقله .

وشعرت بثقلٍ ثقيلٍ يكبس علي ، وبشيء ساخن على وجهي ، فأدركت أنه كان يشد وجهي كله إلى فمه . كان أنفي داخل شدقيه ، وأحسست بالحرارة ، وشممت رائحة الدم . وقد ضغط كتفي بقوائمه ، فلم أستطع أن

اتحرك ، بل كل ما استطعته اني رددت رأسي إلى صدري بعيداً عن شدقيه ، محاولاً تحرير أنفي وعيني فيما سعى هو إلى غرز أسنانه فيها . ثم شعرت أنه غرز أسنانه السفلى في جبهتي تحت منبت الشعر تماماً ، كما هوى بأسنانه العليا على وجنتيَ تحت العينين ، وأطبق فكيه ، فكأنما جرحت السكاكين وجهي . وجاهدت للإفلات ، فيما عجّل بإطباق فكيه ككلبٍ ينهش . واستطعت إبعاد وجهي هنيهةً ، لكنه راح يسحبه ثانية إلى داخل فمه . إذ ذاك قلت في نفسي : "الآن دنت نهايتي!"

ثم شعرت بالثقل ينزاح ، ونظرت فإذا الدب ليس هناك ، لقد قفز من فوقي وهرب!

لما رآني رفيقي وداميان ممدداً على الأرض تحت الدب وهو ينهال عليَ عضاً وتهشيماً ، هرعا كي ينقذاني . ولكن رفيقي تسرّع وتعثّر ، وبدل أن يسلك الممر المطروق ، غاص في الثلج الرخو وسقط . وبينما هو يحاول جاهداً أن يخرج من الثلج ، كان الدب ينهشني . وأما داميان ، كما كان ، وليس بيده بندقية بل مجرد عصا ، فقد ركض على الممر صائحاً : "إنه يأكل المعلم ، إنه يفترس سيدي!"

وفي ركضه كان يزجر الدب شاتماً : "أيها الأحمق! ماذا تفعل ؟ إليك عنه! إليك عنه!"

فأطاعه الدب ، وتركني ، وفر هارباً . حتى إذا نهضت ، كان على الثلج دم كثير وكأن خروفاً قد ذبح . وقد تدلى اللحم الممزق من تحت عيني ، وإن كنت لا أحس ألما من فرط الذهول .

إذ ذاك تحلّق حولي رفيقي والحواشون جميعاً ، فتفحصوا جروحي ، ووضعوا عليها ثلجاً . أما أنا ، فنسيت جراحي ، ورحت أسأل : "أين الدب ؟ في اي طريق ذهب ؟"

وتواً سمعت صراخاً : "ها هو! ها هو!"

ثم رأينا الدب من جديد هاجماً علينا . فأمسكنا ببندقياتنا ، ولكن قبل أن يتسنى لأي منا إطلاق النار كان الدب قد جاوزنا . كان قد جن جنونه ، وأراد أن ينهشني مجدداً ، ولكن كثرة الناس رعبته . وتبين لنا من آثاره أن الدم كان ينزف من رأسه ، وكنا نود لو نقتفي أثره بعد . ولكن إذ آلمتني جراحي كثيراً ، قصدنا بالأحرى إلى المدينة طلباً لطبيب .

خاط لي الطبيب الجراح بخيط من حرير ، فالتأمت سريعاً .

وبعد شهر ذهبنا مرةً أخرى لاصطياد ذلك الدب عينه ، ولكن لم تسنح لي فرصة الإجهاز عليه . فإنه لم يخرج من الدائرة ، بل طاف هنا وهناك يخرخر ويشخر بأصواتٍ راعبة .

وتمكن داميان منه فقتله . وإذا فكه الأسفل مكسور ، وقد خلعت رصاصتي إحدى أسنانه .

كان مخلوقاً ضخماً ، ذا فرو أسود فاخر . فطلبت إرسال إهابه للدبغ ، وهو الآن ممدد في غرفتي . أما جروح جبهتي فقد شفيت تماماً ، حتى إنّ ندوبها لا تكاد ترى!

سنة 1872

القسم الثاني

قصص شعبية

4

بِمَ يحيا الإنسان؟

نحن نعلم أننا قد انتقلنا من الموت إلى الحياة لأننا نحب الإخوة . من لا يحب أخاه ، يبق في الموت .

- رسالة يوحنا الاولى 3 ، 14

وأما من كان له معيشة العالم ، ونظر أخاه محتاجاً ، وأغلق أحشاءه عنه ، فكيف تثبت محبة الله فيه ؟ يا أولادي ، لا نحب بالكلام ولا باللسان ، بل بالعمل والحق .

- الآيتان 17و18

أيها الأحباء ، لنحب بعضنا بعضاً ، لأن المحبة هي من الله ، وكل من يحب فقد ولد من الله ، ويعرف الله . ومن لا يحب ، لم يعرف الله ، لأن الله محبة .

- 4 ، 7 و8

الله لم ينظره أحدٌ قط . إن أحب بعضنا بعضاً ، فالله يثبت فينا ، ومحبته قد تكملت فينا .

- الآية 12

الله محبة ، ومن يثبت في المحبة ، يثبت في الله ، والله فيه .

- الآية 16

إن قال أحد : "إني أحب الله ،" وأبغض أخاه ، فهو كاذب ، لأن من لا يحب أخاه الذي أبصره ، كيف يقدر أن يحب الله الذي لم يبصره ؟

- الآية 20

1

كان سكّاف اسمه سيمون ، ليس له منزل ولا أرض خاصة ، يعيش مع زوجته وأولاده في كوخ فلاّح ، ويكسب معيشته بعمل يديه . وكان أجر العمل زهيداً ، أما الخبز فعزيز . فكان سيمون ينفق كل ما يكسبه على الطعام . ولم يكن له ولزوجته إلا معطف واحد من جلد الغنم يتشاركان فيه لدرء برد الشتاء ، ولكن حتى هذا المعطف كان قد تهلهل . وكانت تلك هي ثاني سنة يحاول السكّاف فيها أن يشتري جلد غنم لمعطف جديد . وقبل حلول الشتاء ، وفر سيمون بعض المال : ففي صندوق زوجته ورقة ثلاثة روبلات ، وله في ذمة الزّبَن في القرية خمسة روبلات وعشرون كوبيكاً .

وذات صباحٍ تأهب سيمون كي يذهب إلى القرية لشراء جلد الغنم . فلبس فوق قميصه سترة زوجته المبطنة بالقطن ، وارتدى فوقها معطفه المصنوع من الجوخ ، ودس في جيبه ورقة الثلاثة روبلات ، وقطع من شجرة عصا يتوكأ عليها ، ثم انطلق بعد الفطور . وقد فكر قائلاً لنفسه : "سأستوفي الروبلات الخمسة التي لي عند الزّبَن ، ثم أضيف الثلاثة التي معي ، فيصير لدي ما يكفي لشراء جلد غنم أصنع منه معطفاً للشتاء؟"

ولما وصل إلى القرية ، قصد بيت فلاح ، ولكن الرجل لم يكن في البيت . فوعدته زوجة الفلاح بدفع ما عليهما في الأسبوع التالي ، ولكنها لم تدفع هي المبلغ الواجب .

ثم قصد سيمون بيت فلاح آخر . ولكن هذا أقسم بأنه لا يملك مالاً ، ولن يدفع إلا عشرين كوبيكاً عن حذاء أصلحه سيمون على سبيل الدين . وحاول سيمون أن يشتري جلد الغنم بالدين ، لكن التاجر لم يستأمنه ، بل قال : "أحضر المال ، وعندئذٍ تختار ما تشاء من الجلد . فنحن نعرف عناء تحصيل الدين ."

وهكذا كان كل ما أنجزه السكّاف من عمل تحصيله للعشرين كوبيكاً عن الحذاء الذي أصلحه ، وحصوله على حذاء لبّاد ليضع له نعلاً .

استولت الكآبة على سيمون ، فصرف العشرين كوبيكاً في شرب الفودكا ، وانطلق عائداً إلى البيت صفر اليدين من جلد الغنم . كان في الصباح قد أحس البرد ، لكنه الآن شعر بالدفء بعدما شرب الفودكا ، مع انه بلا معطف جلدي . ومشى متثاقلاً ، يضرب بعصاه الأرض المتجلّدة بإحدى يديه ، ويرجّح حذاء اللباد باليد الأخرى ، فيما يحدّث نفسه قائلاً :

"إنني أشعر بالدفء مع أني لا أملك معطفاً من جلد الغنم . لقد تناولت كأساً فسرت في جميع عروقي . لا حاجة بي إلى معطف من الفرو . ها أنا أعيش حياتي خلواً من الهموم . فأنا رجل من هذا النوع! ما همني ؟ أستطيع أن أعيش بلا معطف جلدي . لست في حاجة إليه . سوف ترغي زوجتي وتزبد حقاً . وفي الواقع أن هذا عيب ، فأنا أعمل طول النهار ثم لا أُحصّل أجرتي! مهلاً! إن كنت لا تأتيني بذلك المبلغ فسأسلخ جلدك ، وتكون محظوظاً إن لم أفعل . كيف يعقل ذلك ؟ يدفع عشرين كوبيكاً فقط قسطاً واحداً! وماذا ينفعني العشرون كوبيكاً ؟ أنفقها كلها على الشراب . . . وذلك كل ما أستطيعه! الحال ضيقة ، هكذا يقول! قد يكون هذا هو الواقع ، ولكن ما شأني أنا ؟ أنت عندك منزل وماشية وكل شيء . أما أنا فليس عندي إلا ما علي . أنت عندك حقل يدر عليك حنطة ، وأنا أشتري كل حبة . ومهما فعلت ، فعلي إنفاق ثلاثة روبلات كل أسبوع على الخبز وحده . أصل إلى بيتي فأجد الخبز قد نفد وعليّ أن أدفع أيضاً روبلاً ونصفاً . إذاً ، أعطني الدين الذي لي عليك ، وكف عن الهُراء!"

آنذاك كان سيمون قد وصل تقريباً إلى مزار على منعطف الطريق . وتطلع فرأى خلف المزار شيئاً أبيض . كان النهار قد بدأ يميل ، فحدق السكّاف إلى ذلك الشيء ولم يحزر ما هو . "لم يكن هنالك حجر أبيض! أهو ثور! إنه لا يشبه

الثور! إنّ له رأساً كرأس الإنسان ، غير أنه شديد البياض . وماذا يعقل أن يفعل إنسان هناك ؟"

ثم اقترب ، فاستطاع أن يرى بوضوح . ولشدّ ما أدهشه أنه كان إنساناً بالفعل ، حيّاً أو ميتاً ، يقعد عارياً متكئاً إلى حائط المزار بلا حراك .

فاستبد الذعر بالسكّاف ، وراح يفكر : "لا بد أن أحداً قتله وعرّاه وطرحه هناك . فإن تطفلت ، اتورط في مأزق!"

وهكذا مضى سيمون في طريقه ، ومر أمام المزار حتى لم يعد يرى الرجل . ولما قطع مسافة ، التفت فإذا بالرجل تنحّى عن الحائط وكان يتحرك كما لو أنه يتطلع إليه .

فارتعب السكّاف بعد ، وفكر : "أأعود إليه أم أكمل طريقي ؟ إن دنوت إليه فقد يقع أمر مروع . مَن يدري مَن هذا الرجل ؟ إنه لم يأتِ إلى هنا لأي خير . فإن اقتربت إليه فقد يهب واقفاً ويأخذ بخناقي ، فلن يكون مفر . وإلا يكن عليّ عبئاً ثقيلاً . فما عسى أن أفعل برجل عارٍ ؟ لا أستطيع أن أعطيه آخر ثيابي . فلتساعدني السماء وحدها على الفرار!"

ومن ثم أسرع سيمون في المشي ، وجاوز المزار ، فإذا بضميره يؤنّبه ، حتى وقف وسط الطريق يقول لنفسه : "ماذا أنت فاعل يا سيمون ؟ ربما يكون هذا الإنسان على شفير الموت من الفاقة ، وأنت تجاوزه خائفاً! هل صرت غنيّاً جداً حتى بتّ تخاف من اللصوص ؟ آه ، يا سيمون ، عيب عليك!"

إذ ذاك عاد أدراجه ، وصعد إلى الرجل .

2

دنا سيمون من الغريب ، وتفحصه ، فرآه شاباً قوياً ، ليس على جسمه كدمات أو ندوب ، بل يبدو فقط مرتعداً من الصقيع ومرتعباً ، وكان قاعداً هناك بلزق الحائط لا يرفع نظره نحو سيمون ، وكأنه لا يقوى على ذلك . وتقدم

سيمون بعد ، فبدا أن الرجل يستفيق . فقد أدار رأسه ، وفتح عينيه ، وحدق إلى وجه سيمون . وتلك النظرة الواحدة كانت كافية كي يرق قلب سيمون للرجل . فما كان منه إلا أن رمى حذاء اللبّاد أرضاً ، وحل حزامه ، وطرحه فوق الحذاء ، ثم نزع معطفه الجوخي وقال :

"ليس الآن وقت كلام . هيا ، البس هذا المعطف حالاً!"

وأمسك سيمون بالرجل من كوعيه ، وساعده على النهوض . وما إن وقف حتى ألفى سيمون جسمه نظيفاً وسليماً ، ويديه ورجليه صحيحة ، ووجهه جميلاً ولطيفاً . ثمّ ألقى سيمون معطفه على كتفَي الرجل ، لكنّ هذا لم يستطع العثور على الكمين ، فساعده سيمون على إدخال ذراعيه ، ثم شد المعطف وزرّره جيداً ، وربط له الحزام على وسطه .

بل إن سيمون أيضاً نزع قبعته الممزقة ليضعها على راس الرجل ، لكنه أحس أن رأسه هو قد برد ، ففكر : "أنا أصلع تماماً ، أما شعره هو فطويل وجعد ." فأعاد قبعته إلى رأسه وفكر : "يكون أفضل لو أعطيه شيئاً لقدميه!" ثم طلب إليه أن يقعد ، وساعده على انتعال حذاء اللباد ، قائلاً له : "هيا يا صاح ، تحرك وتدفأ . يمكننا أن نسوّي الأمور الأخرى لاحقاً . أتستطيع أن تمشي ؟"

هب الرجل واقفاً ، ونظر إلى سيمون بلطف ، ولكنه لم ينبس ببنت شفة . فسأله سيمون : "لماذا لا تتكلم ؟ البرد أشد من أن يسمح لنا بالبقاء هنا . ينبغي أن نذهب إلى البيت . هاك عصاي ، توكأ عليها إن كنت تشعر بالضعف . هيا بنا!"

وبدأ الرجل يمشي فيتحرك بيسر ولا يتوانى . وبينما هما يسيران ، سأله سيمون : "من أين أنت ؟"

"لست من هذه المنطقة ."

"لقد حزرت ذلك . فأنا أعرف أهل المنطقة . ولكن كيف وصلت إلى ذلك المكان قرب المزار ؟"

"لا أستطيع أن أقول ."

"هل أساء أحد معاملتك ؟"

"لا ، ما أساء إلي أحد ، بل إنّ الله عاقبني ."

"طبعاً ، فالله يهيمن على كل شيء . إلا أنك في حاجةٍ إلى العثور على مكان تأكل فيه وتبيت . فإلى أين تريد أن تمضي ؟"

"لا فرق عندي! "

لقد تحير سيمون . فلم يبد أن الرجل متشرّد ، وكان يتكلم بلطف ، غير أنه لم يوضح شيئاً من حقيقته . ومع ذلك ظل سيمون يفكر : "من يدري ماذا حصل ؟" ثم قال للغريب : "طيب! تعال معي إلى البيت ، واستدفئ قليلاً على الأقل!"

وهكذا سار سيمون نحو بيته ، والغريب يسير إلى جنبه . وكانت الريح قد هبت ، فأحس سيمون البرد تحت قميصه . ها إنّ سَكرَةَ يتلاشى ، وشعوره بالبرد يزداد ، فإذا به يمضي مرتجفاً ، فيشد على جسمه سترة زوجته ، ويفكر برأسه : "يا ويلاه! ماذا فعل بي طلبي لجلد الغنم ؟ ها أنا عائد إلى بيتي وليس عليَ حتى معطف أرتديه . ثم إني آتٍ برجلٍ عارٍ معي . لن تكون متريونا مسرورة!"

وحالما فكر سيمون بزوجته استولى عليه الحزن . ولكن لما نظر إلى الغريب وتذكر كيف نظر إليه قرب المزار ، غمرت البهجة قلبه .

3

فرغت زوجة سيمون من عملها المنزلي باكراً في ذلك اليوم . فقد شققت الحطب ، واستقت الماء ، وأطعمت الأولاد وأكلت هي ، ثم قعدت تفكر . وساءلت نفسها هل تخبز اليوم أو غداً ، فقد بقي لديها رغيف كبير .

وفكرت : "إن كان سيمون قد تغدى في القرية ، ولا يأكل كثيراً على

العشاء ، يكفينا الخبز يوماً آخر ." ثم وازنت رغيف الخبز الكبير بيدها مراراً وتكراراً ، وقالت لنفسها : "لن أخبز اليوم . لم يبق عندنا من الطحين غير ما يكفي خبزة واحدة . ففي وسعنا أن ندبّر أمرنا بهذا حتى يوم الجمعة ."

وأعادت الرغيف إلى المعجن ، ثم قعدت إزاء الطاولة لترقع قميص زوجها . وبينما هي تعمل ، كانت تتصور كيف يشتري زوجها جلداً للمعطف الشتوي .

ليت البائع لا يغشه! إنّ زوجي الطيب ساذج جداً . إنه لا يغش أحداً ، ولكن طفلاً قد يخدعه! ثمانية روبلات مبلغ كبير ، فينبغي أن يشتري بهذا المبلغ معطفاً جيداً ، ليس من الجلد المدبوغ طبعاً ، لكنه معطف شتوي لائق رغم ذلك . كم كان الشتاء الفائت قاسياً بلا معطف دافئ! كان يتعذر علي الذهاب إلى النهر أو التوجه إلى أي مكان آخر . عندما خرج زوجي ، لبس كل ما عندنا ، وما بقي لي شيء . لم ينطلق باكراً اليوم ، ولكن حان وقت رجوعه . إنما أرجو الاّ يكون قد أسرف في الشراب!"

وما كادت متريونا تفكر بهذا ، حتى سمعت حس خطوات عند العتبة ، ودخل أحدهم . فغرزت متريونا إبرتها في القميص ، وخرجت إلى المدخل ، فرأت رجلين : سيمون ، ومعه رجل بلا قبعة منتعل حذاء لبّاد .

انتبهت متريونا حالاً إلى رائحة الكحول تفوح من زوجها ، فقالت في نفسها : "إذاً لقد كان يشرب كما حزرت ." ولما رأته بلا معطف ، وليس عليه إلا سترتها ، ولا رزمة بيده ، واقفاً هناك ساكناً وخجلاً كما يبدو ، كاد قلبها ينفطر من فرط الخيبة . وفكرت : "لقد سكر بالمال ، وأسرف في الشرب مع هذا النديم العديم النفع الذي أتى به إلى البيت!"

تركتهما متريونا يدخلان الكوخ ، ثم لحقت بهما ، فتبين لها أن الغريب كان شاباً نحيفاً يرتدي معطف زوجها بحيث لا يبدو من تحته قميص ، وليس

على رأسه قبعة . وإذ دخل وقف بلا حراك ولم يرفع عينيه ، ففكرت متريونا : "لا بد أنه رجل سيّئ ، فهو خائف ."

عبست متريونا وقطّبت ، ولبثت واقفة قرب الموقد تنظر لترى ماذا يفعلان .

ورفع سيمون قبعته ، ثم قعد على الدّكّة وكأن كل شيء على ما يرام ، وقال : "هيا يا متريونا ، إن كان العشاء حاضراً فقدمي لنا شيئاً!"

تمتمت متريونا ودمدمت ولم تحرك ساكناً ، بل تسمرت في مكانها بقرب الموقد ، وراحت تنظر تارة إلى هذا وطوراً إلى ذلك ، وهي تهز رأسها فقط . وأدرك سيمون أن زوجته منزعجة ، لكنه حاول تجاهل الأمر . وإذ تظاهر بأنه لم يلاحظ شيئاً ، أمسك بذراع الغريب ، وقال :

"اقعد يا صاح ، ولنأكل شيئاً ما ."

فقعد الغريب على الدكّة . وسأل سيمون زوجته :

"ألم تطبخي لنا شيئاً ؟"

فانفجرت متريونا غضباً ، ومضت تقول : "طبخت ، ولكن ليس لك . يبدو لي أنك شربت وضيعت عقلك . ذهبت لتشتري جلد غنم لمعطف ، لكنك عدت إلى البيت وليس لك إلا المعطف الذي كان عليك ، وقد اصطحبت متشرداً عارياً . لا عشاء عندي لسكير مثلك!"

"يكفي يا متريونا! لا تحركي لسانك بالهذر دون تفكير! أما كان عليك أن تسأليني أي رجل هذا ؟"

"وأنت قل لي : ماذا فعلت بالمال ؟"

فدس سيمون يده في جيب السترة ، وأطلع ورقة الثلاثة روبلات المطوية ونشرها .

"هاك المال! لم يدفع تريفونوف ، لكنه وعدني أن يدفع قريباً ."

ولكن غضب متريونا زاد احتداماً : فهو لم يعد بجلد الغنم ، بل ألبس

رجلاًعارياً معطفه الوحيد ، بل إنه أيضاً اصطحبه إلى البيت . وخطفت ورقة النقد عن الطاولة ، وأخذتها لتحفظها في مأمن ، ثم قالت :

"ليس عندي عشاء لكما . لا نستطيع أن نطعم جميع سكّيري العالم العراة!"

"مهلاً يا متريونا ، اضبطي لسانك قليلاً ، واسمعي أولاً ما يريد رجلك أن يقول!"

"وما الحكمة التي آخذها من فم سكران غبي ؟ كنتُ على حق لما صدفتُ عن الزواج منك يا سكير! البياضات التي جهزتني بها أمي شربتَ بها ، والآن ذهبت لتشتري معطفاً ، فشربت به أيضاً!"

وحاول سيمون إفهام زوجته أنه أنفق على الشراب عشرين كوبيكاً فقط ، كما حاول إخبارها كيف عثر على الرجل الغريب . ولكنها لم تدعه يبلّغها كلمةً واحدة . فظلت تبربر وتتحدث وتنبش ما قد جرى منذ عشر سنين . ومضت تتكلم بلا انقطاع ، ثم هبت إلى سيمون وأمسكت بكمه قائلةً :

"رد لي سترتي! إنها كل ما عندي . وقد اضطُررتَ إلى انتزاعها مني كي ترتديها أنت . أعدها إليّ ، يا كلباً حقيراً ، وليخطف إبليس روحك!"

بدأ سيمون يخلع السترة ، فقلب أحد كمّيها على قفاه ، وشدتها متريونا ، فتفتقت خيوطها . ثم انتزعتها ، وألقتها على رأسها ، واتجهت نحو الباب . كانت ناويةً أن تخرج ، لكنها وقفت مترددةً . . . لقد أرادت أن تصرف غضبها ، لكنها رغبت أيضاً في معرفة أيّ رجلٍ كان ذلك الغريب .

4

وقفت متريونا بالباب وقالت : "لو كان رجلاً صالحاً ، ما كان عارياً . ها إنه لا يلبس ولو قميصاً . لو أنه كان شريفاً لقلتَ لي أين عثرت عليه!"

فقال سيمون : "ذلك تماماً هو ما أحاول قوله لك . فإذ وصلت قرب

المزار ، وجدته قاعداً هناك ، عارياً ومتجمداً . والطقس لا يسمح بتفضّل المرء من ثيابه! لقد أرسلني الله إليه ، وإلا كان قد هلك . ماذا كان ينبغي لي أن أفعل ؟ ومن يُدرينا ماذا كان سيجري له ؟ لذلك أقمته وألبسته ، واصطحبته إلى هنا . لا تغضبي هكذا ، يا متريونا ، فهذه خطيئة! تذكري أننا جميعاً لا بد أن نموت يوماً ."

همت كلمات الغضب بأن تندّ من شفتي متريونا ، لكنها ما إن حدقت إلى الغريب حتى صمتت . فقد كان قاعداً على حافة الدكّة بلا حراك ، ويداه مطويتان على ركبتيه ، ورأسه مُنكّس على صدره ، وعيناه مغمضتان ، وجبينه مقطّب كما لو كان يتألم . فخانت الكلمات متريونا ، ولكن سيمون قال : "متريونا ، أليست فيك محبة الله ؟"

"ما إن سمعت متريونا ذلك حتى نظرت إلى الغريب ، وإذا بقلبها يرق له حالاً . فرجعت من عند الباب ، وتوجهت نحو الموقد تحضر العشاء . وضعت طاساً على الطاولة ، وصبت شيئاً من جعة الكفاس ، ثم أحضرت آخر رغيف من الخبز ، وسكيناً وملعقتين .

وقالت : "هيا ، كلا إن شئتما!"

فشد سيمون بالرجل الغريب نحو الطاولة وقال : "تفضل أيها الشاب!"

ثم قطّع سيمون الخبز وفتّه في المرق ، وشرعا يأكلان . وقعدت متريونا عند زاوية الطاولة ، مسندة ذقنها براحتها ، وراحت تتأمل الغريب .

مست الشفقة على الغريب قلب متريونا ، وبدأت تشعر بالمودة من نحوه . وفي الحال انفرجت أساريره ، وفارق التقطيب حاجبيه ، فرفع عينيه ، وابتسم لها .

ولما فرغا من العشاء ، رفعت المرأة السفرة ، وشرعت تستجوب الغريب ، فقالت :

"من أين أنت ؟"

"لست من هذه المنطقة ."

"ولكن كيف وصلت إلى جانب الطريق ؟"

"لا يمكنني أن أقول ."

"هل سلبك أحد ؟"

"لقد عاقبني الله!"

"وهل كنت منطرحاً هناك عارياً ؟"

"نعم ، عارياً ومتجمّداً . وقد رآني سيمون وأشفق عليّ ، فخلع معطفه والبسني إياه ، وأتى بي إلى هنا . وأنتِ قد أطعمتِني وسقيتني ، وعطفت عليّ . سوف يكافئكما الله!"

ثم نهضت متريونا ، وأحضرت من النافذة قميص سيمون العتيق الذي كانت ترقعه ، ودفعته إلى يد الغريب ، وكذلك أيضاً أحضرت له بنطلوناً .

"هاك! أرى أنك بلا قميص . فالبس هذا ، وارقد حيث تشاء ، على المصطبة أو قرب الموقد ."

فخلع الغريب المعطف ، وارتدى القميص والبنطلون ، واستلقى على المصطبة . وأطفأت متريونا القنديل ، وأخذت المعطف ، وصعدت إلى حيث كان زوجها قرب الموقد .

تغطّت متريونا بالمعطف ، ورقدت ، لكنها لم تستطع أن تنام ، إذ لم يمكنها أن تحول أفكارها عن الغريب .

ولما تذكرت انه اكل آخرة كسرة خبز عندهم ، وأنه لم يبق شيء للغد ، وفكرت في القميص والبنطلون اللذين تخلّت عنهما ، غمرها الحزن . ولكن ما إن تذكرت كيف تبسّم لها الغريب حتى غمر الفرح قلبها .

طال سهر متريونا ، ولاحظت أيضاً أن سيمون سهران ، وقد سحب المعطف نحوه ، فقالت :

"سيمون!"

"ماذا ؟"

"لقد اكلتما كل ما بقي من الخبز ، ولم أعجن شيئاً حتى يختمر . لست ادري ماذا نفعل غداً . ربما استقرض بعض الخبز من جارتنا مرتا ."

"إن عشنا نجد ما نأكله ."

وصمتت المرأة هنيهةً ثم قالت : "يبدو رجلاً صالحاً ، ولكن لماذا لا يقول لنا من هو ؟"

"أعتقد ان لديه أسباباً تمنعه ."

"سيمون!"

"ماذا ؟"

"ها نحن نعطي ، ولكن لماذا لا يعطينا أحدُ شيئاً ؟"

لم يَحرِ سيمون جواباً ، وما كان منه إلا أن قال : "لنكفَ عن الكلام!" ثم استدار ونام .

5

استيقظ سيمون صباحاً ، والأولاد ما يزالون نياماً . وكانت زوجته قد مضت إلى جارتها لتستقرض خبزاً . أما الغريب فكان وحده قاعداً على الدكّة ، مرتدياً القميص والبنطلون العتيقين ، يتطلع نحو العلاء . وقد كان وجهه اكثر إشراقاً منه البارحة .

فقال له سيمون : "هيا ، يا صاح! المعدة تطلب خبزاً ، والجسم العاري لباساً . فعلى المرء ان يكسب معيشته بعمل يده . أيَ عملٍ تتقن ؟"

"لا أتقن أي عمل ."

أدهش ذلك سيمون ، لكنه قال : "الذين يريدون أن يتعلموا ، يستطيعون أن يتعلموا أي عمل ."

"الناس يعملون ، وأنا أيضاً سأعمل ."

"ما اسمك ؟"

"مخايل ."

"حسنا يا مخايل! إن كنت لا ترغب في التحدث عن نفسك . فذلك شأنك الخاص . ولكن ينبغي أن تكسب معيشتك بنفسك . فإن عملت كما أقول لك ، اطعمتك وآويتك ."

"ليكافئك الله! سأتعلم . أرني ما افعل ."

فتناول سيمون خيطاً ، ووضعه حول إبهامه ، ثم بدأ يلفه .

"هذا عمل سهل جداً . . . انظر!"

وراقبه مخايل ، ثم لف خيطاً على إبهامه هو بالطريقة عينها ، وقد فعل ذلك بمهارة .

ثم علّمه سيمون كيف يشمّع الخيط ، فأتقن ذلك أيضاً . وبعد ذلك علّمه كيف يستعمل المخرز لخصف النعل ، وكيف يخيط . وهذا أيضاً تعلمه مخايل في الحال .

ومهما علمه سيمون كان يفهمه حالاً . حتى إنه بعد ثلاثة أيام بات يعمل بإتقان كما لو كان يخيط الأحذية طوال حياته . وصار يعمل بلا انقطاع ، ويأكل قليلاً . وحين يفرغ من عمله ، يقعد صامتاً ينظر إلى العلاء . ولم يكد يخرج إلى الشارع ، بل كان يتكلم عند الضرورة فقط ، وما كان يمزح ولا يضحك . ولم يره الزوجان يبتسم قط ، ما خلا ابتسامة ذلك المساء الأول ، حين قدمت إليه متريونا العشاء .

6

مضى العام يوماً بعد يوم ، وأسبوعاً بعد إسبوع ، ومخايل مقيم عند سيمون وعامل معه . وقد ذاع صيته حتى قال الناس إنه لم يكن أحد يخيط

الأحذية بمتانةٍ وإتقان مثل مخايل ، عامل سيمون . وتقاطر الناس من جميع أنحاء المنطقة والجوار ليصنع لهم سيمون أحذية أو يصلحها ، حتى تيسّرت حاله .

وذات يومٍ من أيام الشتاء ، بينما سيمون ومخايل قاعدان يعملان ، إذ اقبلت نحو الكوخ عربةٌ بمزالج تجرّها ثلاثة أحصنة . وتطلعا من النافذة ، فإذا بالعربة قد وقفت أمام بابهما ، وقفز من العربة خادم أنيق ، ثم فتح بابها ، فترجّل منها سيد يرتدي معطف فرو ، واتجه نحو كوخ سيمون . فهبت متريونا واقفةً ، وفتحت الباب على مصراعيه . وقد اضطر السيد إلى الانحناء كي يدخل الكوخ ، ثم مد قامته من جديد فكاد راسه يلامس السقف ، وبدا أنه سد فضاء الغرفة حيث كان واقفاً .

ثم هب سيمون واقفاً ، وانحنى للرجل ، وحدق إليه مدهوشاً . لم يكن قد رأى رجلاً مثله قط . فسيمون نفسه كان ضنيلاً ، ومخايل كان نحيلاً ، أما متريونا فكانت جلداً وعظماً . ولكن ذلك الرجل بدا كشخص آتٍ من عالم آخر ، أحمر الوجه ، ضخم الجثة ، له عنق كعنق الثور ، وكأنه تمثال من حديد .

نفث ذلك السيد نفثة قوية ، وطرح عنه معطف الفرو ، ثم جلس على المقعد ، وقال : "أيكما السكّاف المعلّم ؟"

فتقدّم منه سيمون وقال : "أنا في خدمة سعادتك!"

إذ ذاك نادى السيد خادمه قائلاً : "هاي ، فدكا ، هات الجلد!"

فأسرع الخادم بالدخول وهو يحمل رزمة . وأخذ السيد الرزمة ووضعها على المنضدة ، وقال : "حل هذه الرزمة!" فحلّها الخادم .

وأشار السيد إلى الجلد قائلاً : "أنظر ، يا سكّاف ، هل ترى هذا الجلد ."

"نعم يا صاحب السعادة!"

"ولكن هل تعرف أيّ نوع من الجلد هو ؟"

فجس سيمون الجلد ، وقال : "إنه جلد جيد ."

"نعم ، هو جلد جيد حقاً . يا غبي ، لم تر مثله قط في حياتك . إنه جلد ألماني ، وقد كلفني عشرين روبلاً!"

فارتعب سيمون وقال : "وأين يمكنني أن أرى جلداً كهذا ؟"

"حقاً! والآن ، هل تستطيع أن تصنع منه حذاء لي ؟"

"نعم ، أستطيع ، يا صاحب السعادة!"

ثم صرخ عليه السيد : "تستطيع! هل تستطيع ؟ طيب ، تذكر لمن ستصنع الحذاء ، وأيّ جلد هذا . عليك أن تصنع لي حذاء أنتعله سنةً كاملة دون أن يتغير شكله أو تتلف قُطَبه . إن كان ذلك في وسعك ، فخذ الجلد وفصّله ، وإن لم يكن فقل لي . إني أحذرك الآن : إذا تغير الحذاء أو فسدت خياطته في غضون سنة ، فسوف أسجنك . وإذا بقي الحذاء سليماً وعلى حاله سنة واحدة أدفع لك عشرة روبلات ثمناً له ."

ارتاع سيمون وارتاب ، ولم يدر ماذا يقول . فنظر إلى مخايل ، ووكزه بمرفقه هامساً : "هل أقبل هذا العمل ؟"

فأومأ إليه مخايل برأسه أن اقبل .

وعمل سيمون بنصيحة مخايل ، فتعهد بأن يصنع حذاء لا يتغير شكله ولا يتمزق سنة كاملة .

ثم نادى السيد خادمه ، وطلب منه أن ينزع فردة الحذاء اليسرى ، فيما مد رجله قائلاً :

"هيا ، خذ قياس قدمي!"

فتناول سيمون ورقة قياس طولها أربعون سنتيمتراً ، ومهّدها ، وجثا ، ومسح يديه بوزرته لئلا يوسخ جورب السيد ، وبدأ يقيس . فقاس النعل ومشط القدم ، وبدأ يقيس بطة الساق ، لكن الورقة كانت قصيرة عليها ، إذ إن ربلة الساق كانت ثخينة كعارضة من خشب .

"حذار أن تجعل الحذاء ضيقاً على الساق!"

فأضاف سيمون قطعة ورق أخرى ، وراح السيد يحرك أصابع قدمه داخل جوربه ، مجيلاً بصره على الذين في الكوخ ، فإذا به يرى مخايل ، فيسأل :

"من عندك هناك ؟"

"هذا عاملي ، وهو سيخيط لك الحذاء ."

فخاطب السيد مخايل ، قائلاً له : "انتبه! اصنع لي حذاء يدوم سنة بكاملها ."

وتطلع سيمون صوب مخايل ، فلاحظ أنه لم يكن ينظر إلى السيد ، بل كان يحدق إلى الزاوية خلفه ، كما لو كان قد رأى أحداً هناك . وحدق مخايل وحملق ، ثم ابتسم فجأة ، وغدا وجهه أكثر إشراقاً . فأرعد السيد قائلاً : "علام تضحك ، أيها الغبي ؟ أحسَن لك أن تُعنى بإنجاز الحذاء في حينه ."

أجابه مخايل : "سيكون الحذاء ناجزاً في وقته ."

فقال السيد "تولّ ذلك حسناً!" ثم انتعل حذاءه ، وارتدى معطفه ، وتلفّع به ، وتوجه نحو الباب ولكن فاته أن ينحني فصدم رأسه بالعتبة العليا .

فراح يشتم ويلعن ويفرك رأسه . ثم شغل مقعده في العربة ومضى . وبعد ذهابه ، قال سيمون : "يا له من رجل عملاق! ما أصعب أن تقتله بالميتدة أو المهدّة! لقد كاد يكسر الأسكفة ، لكنها لم تكد تؤذيه!"

أما متريونا فقالت : "ما دام يعيش عيشته الباذخة ، فكيف لا يغدو قويا ؟ حتى الموت لا يقوى على مس صخرة مثله!"

7

عندئذٍ قال سيمون لمخايل : "ها قد قبلنا هذا العمل ، ولكن علينا أن نتنبه حتى لا يسبب لنا متاعب . الجلد غالٍ والسيد حاد الطبع . فعلينا ألا نرتكب أي خطأ . هيا ، إن نظرك أجلى من نظري ، ويديك أثبت من يدي ، فهاك القياس ، وفصّل الحذاء . وأنا أنهي خياطة الفرعة ."

ففعل مخايل كما قال له سيمون . تناول الجلد ، وبسطه على المنضدة ، وطواه طيّة واحدة ، وأمسك بسكين ، وشرع يفصّل .

وأقبلت متريونا تراقب ما يفعل ، فأدهشها أن ترى عمله . لقد كانت معتادة أن ترى تفصيل الأحذية ، وتطلّعت فإذا مخايل لا يفصل الجلد حذاء ، بل يقطعه مستديراً .

وهمّت بان تتكلم ، إلا أنها فكرت : "لعلي لم افهم كيف تصنع أحذية السادة . اعتقد أن مخايل يعرف عمله خيراً مما أعرفه أنا . لذلك لن أتدخل ."

وما إن فرغ مخايل من تفصيل الجلد ، حتى تناول خيطاً وشرع يخيطه من جهة واحدة كما تُخاط الأخفاف ، لا من جهتين كما تخاط الأحذية .

ومرة أخرى ساءلت متريونا نفسها ، إلا أنها أيضاً لم تتدخل . وظل مخايل يخيط دائباً حتى الظّهر . عندئذ نهض سيمون لتناول الغداء ، وتطلع ، فإذا بمخايل قد صنع من جلد السيد خفّاً ، لا حذاء!

فإنّ سيمون وفكر : "أواه! كيف يعقل أن مخايل الذي هو معي منذ سنة كاملة ولم يخطئ قط يفعل هذه الفعلة الرهيبة ؟ لقد أوصى السيد بصنع حذاء عالي الساقين بفرعة ذات مقدم كامل ، وها إنّ مخايل قد صنع خفّاً ليناً ذا نعل واحدة ، فأتلف الجلد! ماذا أقول للسيد ؟ لا أستطيع أبداً أن أستبدل بهذا الجلد مثله! "

ثم قال لمخايل : "ماذا تفعل يا صاح ؟ لقد خربت بيتي! أنت تعلم أن السيد طلب صنع حذاء عال ، ولكن انظر ماذا صنعت؟"

وما كاد يشرع في تأنيب مخايل ، حتى سَمع على الباب قرع شديد بحلقة الحديد . ونظرا خارج النافذة ، وإذا رجل قد أقبل على حصانٍ وكان يربطه . وحالما فتحا الباب ، دخل الخادم الذي كان مع السيد ، وقال :

"طاب يومكم؟"

فرد سيمون : "طاب يومك! بماذا نخدمك ؟"

"لقد أرسلتني سيدتي بشأن الحذاء!"

"وماذا عن الحذاء ؟"

"ما عاد سيدي بحاجة إلى الحذاء . لقد توفاه الله!"

"أمعقول هذا ؟"

"لم يصل إلى البيت بعدما غادركم ، بل مات في العربة على الطريق . ولما وصلنا إلى البيت ، وأقبل الخدم لمساعدته على الترجّل ، انقلب ككيس من الخيش . كان قد مات وتيبس ، حتى إننا لم نستطع إخراجه من العربة إلاّ بعد جهد جهيد . وقد أرسلتني سيدتي إلى هنا قائلة : "قل للسكّاف إنّ السيد الذي أوصاه بأن يصنع له حذاء وترك الجلد لديه ما عاد في حاجة إلى حذاء ، وإن عليه بالأحرى أن يصنع له خُفّ ميت" . وطلبت مني أن أنتظر حتى ينجز الخف وآخذه معي . ولهذا جئت ."

فجمع مخايل ما بقي من الجلد ولفه ، وتناول الخفّ الليّن الذي كان قد صنعه ، وضم فردتيه معاً ، ومسحهما بوزرته ، ثم سلّمهما مع حزمة الجلد للخادم ، فأخذ الخادم الجميع وقال : "وداعاً يا سيدي ، طاب يومكما!"

8

مرت سنة ثم أخرى ، وكرّت ست سنين ومخايل ما يزال مقيماً عند سيمون . وظل على جاري عادته . فلم يخرج إلى أي مكان ، وما تكلم إلا بما هو ضروري ، ولا ابتسم طوال تلك السنين إلا مرتين : مرةً حين قدمت له متريونا أول عشاء ، وثانية لما كان السيد في الكوخ . وقد كان سيمون راضياً عن عامله كل الرضى ، فما عاد يسأله من أين هو ، بل بات يخشى فقط أن يفارقه .

وذات يوم كان الجميع في البيت . كانت متريونا تضع أواني معدنية على الموقد ، والأولاد يتراكضون على الأسرّة وينظرون خارج النافذة . وكان سيمون

يخيط حذاء قرب إحدى النوافذ ، ومخايل يثبت كعباً قرب نافذة أخرى .

وركض أحد الاولاد على المقعد حتى وصل إلى مخايل ، فاتكأ على كتفه ، وتطلع من النافذة وقال :

"انظر يا عم مخايل! هناك سيدة معها فتاتان صغيرتان ، ويبدو أنها آتية إلينا ، وإحدى الفتاتين عرجاء!"

ولما قال الولد ذلك ، نفض مخايل يديه ، ونظر من النافذة ، وتطلع إلى الشارع .

إذ ذاك دهش سيمون . فإن مخايل لم يتعود أن ينظر إلى الخارج قط ، لكنه الآن يلصق جبهته بزجاج النافذة محدقاً إلى شيء ما .

وتطلع سيمون أيضاً ، فرأى فعلاً امرأة أنيقة اللباس مقبلة نحو كوخه ، ممسكة بيديها فتاتين صغيرتين ترتديان معطفي فرو وشالي صوف . وكان يصعب تمييز إحدى الفتاتين من الأخرى ، ما عدا أن إحداهما عرجاء تخمع على رجلها اليسرى .

دلفت المرأة إلى الرواق ، ودخلت الممر ، ثم مدت يدها تتلمس سقاطة الباب ، فرفعتها وفتحته ، وأدخلت الفتاتين أولاً ، ثم تبعتهما إلى داخل الكوخ .

"نهاركم سعيد أيها الطيّبون!"

فرد سيمون : "أهلاً وسهلاً! بماذا نخدمك ؟"

جلست المرأة قبالة المنضدة ، والتصقت بها الفتاتان خائفتين من القوم .

"أحتاج إلى حذاءين من جلد لهاتين الفتاتين الصغيرتين ، لفصل الربيع ."

"يمكننا أن نصنعهما! لم نصنع قبلاً أحذية بهذا الحجم الصغير ، ولكننا نقدر أن نصنع إما أحذية ذات سيور ، وإما أحذية قلابة مبطنة بالكتان . إنّ عاملي مخايل صنِعُ اليدين!"

والتفت سيمون إلى مخايل ، فإذا به قد ترك عمله وقعد شاخصاً بعينيه إلى الفتاتين . فدهش سيمون . صحيح أن الفتاتين جميلتان ، لهما أعين سود ،

وخدود متوردة ممتلئة ، وهما مرتديتان معطفي فرو أنيقين وشالين جميلين ، ولكن لم يستطع سيمون ان يفهم لماذا يتأملهما مخايل هكذا وكأنه يعرفهما من قبل . ومع أن سيمون تحير ، فقد مضى يتحدث مع المرأة ويتفق معها على السعر .

ثم تأهب لأخذ القياس . فرفعت المرأة الفتاة العرجاء وأجلستها في حضنها ، ثم قالت : "خذ قياسين لهذه الفتاة ، واصنع فردة حذاء للقدم العرجاء ، وثلاث فردات للقدم الأخرى . فأقدامهما من قياس واحد ، وهما توأمان ."

أخذ سيمون القياس ، ثم قال مشيراً إلى العرجاء : "كيف حدث لها هذا ؟ إنها فتاة حسناء! أهكذا ولدت ؟"

"لا ، بل إنّ والدتها شوهتها!"

وانضمت متريونا إلى الحديث ، متسائلة من كانت تلك المرأة ولمن الفتاتان ، فقالت : "ألستِ انتِ والدتهما ؟"

"لا ، أيتها الطيبة . لست أنا والدتهما ولا قريبتهما . إنهما غريبتان عني ، ولكنني تبنيّتهما ."

"ليستا ابنتيك ، ومع ذلك فانت متعلقة بهما هكذا ؟"

"وكيف لا أكون ؟ لقد أرضعتهما كلتيهما من صدري . كان لي ولد مني ، ولكن الله أخذه . ولم اكن متعلّقة به تعلّقي الآن بهما!"

"إذاً ، ابنتا من هما ؟"

9

شرعت المرأة تتحدث ، وحكت القصة كلها :

"مضت ست سنين على وفاة والديهما معاً في أسبوع واحد : فالأب دُفن يوم الثلاثاء ، والأم ماتت يوم الجمعة . ولدت هاتان اليتيمتان بعد وفاة أبيهما بثلاثة أيام ، ولم تعش امهما يوماً واحداً بعد ولادتهما .

"وكنا آنذاك ، انا وزوجي ، نعيش في القرية عيشة الفلاحين . كنا جيراناً لهم ، فناؤنا بلزق فنائهم . وكان أبوهما حطّاباً وحيداً يعمل في الغابة ، سقطت عليه شجرة كانوا يقطعونها فرهسته ، واندلقت أحشاؤه . وما كادوا ينقلونه إلى البيت حتى صعدت نفسه إلى الله . في ذلك الأسبوع عينه ولدت زوجته توامين ، هما هاتان الفتاتان الصغيرتان . وقد كانت فقيرة ووحيدة ، لا معين لها ولا معيل ، صغيراً كان أو كبيراً . فإنها وضعتهما وحدها ، ثم لقيت حتفها وحدها .

"وفي الصباح التالي ذهبت لأراها . ولكن ما إن دخلت الكوخ حتى وجدت المسكينة هامدةً باردة . فعند احتضارها انقلبت على هذه البنت فسحقت رجلها . ثم جاء أهل القرية إلى الكوخ وغسلوا الميتة ، وسجوها خارجاً ، ثم صنعوا لها نعشاً ، ودفنوها . كانوا كلهم قوماً طيبين . وقد تُركت الطفلتان وحدهما ، فماذا يفعلون بهما ؟ كنت أنا المرأة الوحيدة المطفل والمرضع آنذاك ، إذ كان على صدري ابني البكر ذو الأسابيع الثمانية . فأخذتهما إلى بيتي مدة . ثم اجتمع الفلاحون معاً وفكروا وتبصروا في ما يفعلون بهما ، حتى قالوا لي أخيراً : "ينبغي لك ، يا ماري ، في الوقت الحاضر أن تُبقي الفتاتين عندك ، وفي ما بعد ندبر أمرهما ." فأرضعت السليمة أولاً ، ولكنني لم أطعم هذه المشوّهة ، ما كنت أحسب أنها ستعيش . لكنني عدت فقلت لنفسي : "لماذا ينبغي أن تعاني هذه البريئة المسكينة وتقاسي ؟ فاشفقت عليها ، وأرضعتها . وهكذا أرضعت ابني وهاتين ، الثلاثة معاً ، من صدري . كنت فتية وقوية ، وآكل طعاماً جيداً ، فأدر الله حليبي حتى كان يفيض أيضاً . وكنت أحياناً أرضع طفلين معاً ، فيما الثالث ينتظر . حتى إذا شبع أحدهما ، ألقمت الثالث ثديي . وقد شاء الله أن تنمو هاتان وتعيشا ، فيما دُفن ابني قبل بلوغه عمر السنتين . ثم لم أُرزَق أطفالاً ، مع أن حالتنا كانت مزدهرة . والآن زوجي

يعمل عند تاجر الحنطة في المطحنة ، وأجرته جيدة ، وحياتنا ميسورة . ولكن ليس لي أولاد مني ، وكم أكون وحيدة لولا هاتان الصغيرتان! أنّى لي ألا أحبهما وأعنى بهما وهما بهجة حياتي؟"

ثم ضمت العرجاء بإحدى يديها ، فيما مسحت بالأخرى الدموع عن خديها . إذ ذاك تنهدت متريونا وقالت : "صدق المثل القائل : "قد يعيش الإنسان بلا أم أو أب ، لكنه لا يمكن أن يعيش بلا رب"؟"

وبينما هم يتحدثون معاً هكذا ، إذ غمر النور فجأة الكوخ كله كما من برق يوم صاحٍ يلمع من الركن الذي كان مخايل قاعداً فيه . والتفت الجميع صوبه ، فإذا هو جالس ويداه مطويتان على ركبتيه ، يحدق إلى العلاء ويبتسم!

10

ثم مضت المرأة في سبيلها مع الفتاتين . أما مخايل فقام عن مقعده ، ونفض يديه من عمله ، وخلع وزرته . وبعد ذلك انحنى لسيمون وزوجته قائلاً : "وداعاً يا سيديّ! لقد غفر لي الله . وإني التمس منكما ان تسامحاني بأي سوء بدر مني ."

ونظرا ، فإذا نور يشع منه . فقام سيمون وانحنى له ، وقال : "أرى ، يا مخايل ، أنك لست كباقي الناس ، ولست أستطيع أن استبقيك ولا أن استجوبك . إنما قل لي : لماذا كنت مكتئباً لمّا عثرت عليك وأتيت بك إلى البيت ، ولماذا ابتسمت وأشرق وجهك حين قدمت لك زوجتي الطعام ؟ ثم لمّا جاء السيد يوصي بصنع حذاء ابتسمت أيضاً وغدا وجهك اكثر إشراقاً ؟ والآن لمّا أحضرت هذه المرأة الفتاتين ابتسمت مرة ثالثة ، وشع منك مثل نور النهار ؟ فقل لي ، يا مخايل ، لماذا يشرق وجهك هكذا ، ولمَ ابتسمت هذه المرات الثلاث ؟"

فأجاب مخايل : "ينبعث مني النور ، لأني كنت قد عوقبت ، ولكن الآن

صفح عني الله . وقد ابتسمت ثلاثاً ، لأن الله أرسلني لأتعلم ثلاث حقائق ، وقد تعلمتها . فلقد تعلمت إحداها لما أشفقت زوجتك عليَ ، ولذا ابتسمت أول مرة . ثم تعلمت الحقيقة الثانية حين أوصى الرجل الغني على حذاء ، فابتسمت ثاني مرة . والآن لما رأيت هاتين الفتاتين الصغيرتين ، تعلمت الحقيقة الثالثة والأخيرة ، فابتسمت ثالث مرة ."

وسأل سيمون : "قل لي ، يا مخايل ، علامَ عاقبك الله ؟ وما هي الحقائق الثلاث ، لعلّي أنا أيضاً أتعلمها ؟"

فأجاب مخايل : "لقد عاقبني الله لانني عصيته . فأنا كنت ملاكاً في السماء وعصيت الله . وأرسلني الله لإحضار نفس امرأة . فطرت إلى الأرض ، ورأيت امرأة مريضة راقدة وحدها ، بعدما كانت قد وضعت تواً بنتين توامين أخذتا تتحركان حولها بوهن ، وهي لا تقوى على جذبهما إلى صدرها . وحالما رآتني المرأة عرفَت أن الله قد أرسلني لآخذ نفسها ، فتوسلت إلي باكية : "يا ملاك الله ، لقد قُتل زوجي منذ ثلاثة أيام بعدما سقطت عليه شجرة هرسته . وليس لي أخت ولا خالة ولا أم ، ولا أحد يعتني بيتيمتيَ هاتين . فلا تأخذ نفسي! دعني أُربَ طفلتي وأرضعهما حتى تستطيعا الوقوف وحدهما . فلا يستطيع الأطفال أن يعيشوا بلا أبٍ ولا أم!" فسمعت لها ، ووضعت طفلةً على صدرها ، والأخرى على ذراعيها ، ثم رجعت إلى الرب في السماء . ومثلت بين يدي الرب ، وقلت : "لم أستطع أن آخذ روح الوالدة . فإن شجرةً قتلت زوجها ، وعندها توأمان ، وقد توسلت إلي الا آخذ نفسها ، قائلةً : "دعني أرضع بنتيَ واطعمهما ، فالأطفال لا يستطيعون أن يعيشوا بلا أب ولا أم . "فلم آخذ نفسها ." فقال لي الله : "إنزل خذ نفس الوالدة ، وتعلم ثلاث حقائق : تعلم ماذا يسكن داخل الإنسان ، وما لم يُعطَه الإنسان ، وبما يحيا الإنسان . وعندما تتعلم هذه الأمور ، فعد إلى السماء!" وهكذا طرت إلى الأرض ثانية ،

وأخذت نفس الوالدة . فانكفأت الطفلتان عن ثدييها . وانقلب جسمها على الفراش ، فرهس إحداهما وسحق رجلها . ثم ارتفعتُ فوق القرية ، قاصداً أن أحمل نفس المرأة إلى الله . ولكن ريحاً عصفت بي ، فوهن جناحاي وهويا . إذ ذاك صعدت نفس المرأة إلى الله وحدها ، فيما سقطت أنا أرضاً إلى جانب الطريق ."

11

فأدرك سيمون ومتريونا مَن أقام عندهما ومن ألبسا وأطعما وانهمرت دموعهما رهبة وفرحاً . وقال لهما الملاك : "وهكذا بتّ وحيداً في العراء والعري . ما كنت أعرف شيئاً من حاجات البشر ، وما اختبرت البرد والجوع . حتى صرت إنساناً . فجعت وتجمدت برداً ، ولم أدر ماذا أفعل . ورأيت بقرب الحقل الذي هبطت فيه مزاراً بُني لله ، فقصدت إليه لعلي أجد مأوى ، لكنه كان مقفلاً فلم أستطع الدخول . ومن ثم قعدت خلف المزار لأحتمي من الريح على الأقل . ثم اقترب المساء وأنا جوعان ومتجمد ومتألم . وفجأة سمعت حس رجل مقبل على الطريق . كان يحمل حذاء ، ويناجي نفسه . وأول مرة بعدما صرت إنساناً رأيت وجه إنسان فانياً ، فهالني منظره واشحت بوجهي عنه . وقد سمعت الرجل يسائل نفسه كيف يستر جسده من برد الشتاء ، وكيف يطعم زوجته وأولاده . ففكرت : "ها أنا أكاد أهلك برداً وجوعاً ، وهوذا رجل يفكر فقط كيف يكسو نفسه وزوجته ، وكيف يحصل على خبز له ولعائلته . إذاً ، فهو لا يستطيع أن يساعدني ." ولما رآني الرجل ، أطرق عابساً ، وزاد هولاً ، وعبر عني إلى الجانب الآخر . واعتراني اليأس ، لكني لم ألبث أن سمعته عائداً . ورفعت نظري إليه ، ورأيت فيه رجلاً آخر : فقبلاً لمحت الموت على وجهه ، لكنه آنذاك بدا حيًا ، وآنست فيه حضور الله البهي . ثم اقترب إليّ ، وألبسني ، واصطحبني ، ومضى بي إلى بيته . ودخلت البيت فأقبلت امرأة لملاقاتنا

وشرعت تتكلم . وقد ألفيت المرأة أشد هولاً مما كان عليه الرجل ، إذ فاح من فمها نفَس الموت ، فحبست أنفاسي لأتفادى من رائحة الموت النتنة التي اكتنفتها . وأرادت أن تطردني خارجاً حيث البرد شديد ، فعلمت أنها إن فعلت ذلك فستموت . وفجأة تكلم إليها زوجها عن الله ، فتغيرت حالاً . حتى إذا أحضرت إلي الطعام وتأملتني ، لمحتها فرأيت أن الموت ما عاد ساكناً فيها ، فقد عادت إليها الحياة ، وفيها أيضاً رأيت وجه الله!

"عندئذٍ تذكرت أول درس عينه لي الله : "تعلم ماذا يسكن داخل الإنسان ." فادركت أنه داخل الإنسان يسكن الحب! وقد سررت لأن الله بدأ يكشف لي ما وعد به ، فابتسمت أول مرة . لكنني لمّا أتعلم جميع دروسي : فلم أكن قد عرفت بعد "ما لم يعطه الإنسان" ولا "بما يحيا الإنسان ."

"وأقمت عندكما إلى أن مضت سنة . فإذا برجل يأتي ليوصي بصنع حذاء ينتعله سنة كاملة دون أن يبلى أو يتمزق . وتطلعت إليه ، فإذا بي أرى وراء كتفه زميلي ، ملاكَ الموت . لم ير الملاكَ أحدٌ غيري . لكنني كنت أعرفه ، فعلمت أنه سيأخذ نفس ذلك الغني قبل غروب الشمس . وفكرت سراً : "ها هو الرجل يعدّ عدة سنة ، ولا يعلم أنه سيموت قبل المساء ."ثم تذكرت قول الله الثاني : "تعلم ما لم يعطه الإنسان ."

"سبق أن عرفت ماذا يسكن داخل الإنسان . والآن تعلمت ما لم يُعطَه الإنسان : فالإنسان لم يعط معرفة حاجاته الخاصة . وعندئذ ابتسمت ثاني مرة . وقد سرني أن أرى الملاك زميلي ، كما سرني أيضاً أن كشف لي الله سر القول الثاني .

"ولكنني لم أكن قد عرفت كل شيء بعد . فلمّا أعرف بما يحيا الإنسان . وهكذا عشت منتظراً أن يكشف لي الله الدرس الأخير . حتى كانت السنة السادسة وحضرت الفتاتان التوأمان مع المرأة ، فعرفتهما ، وسمعت كيف ظلتا على قيد الحياة . ولما سمعت قصتهما فكرت بسري : "لقد توسلت إليّ أمهما

لأجلهما ، وصدقتها حين قالت إن الأطفال لا يستطيعون أن يعيشوا بلا أبٍ ولا أم ، ولكن امرأة غريبة أرضعتهما وربتهما ، ولما أبدت المرأة حبها للفتاتين اللتين لم تكونا لها ، وبكت عليهما ، آنستُ فيها وجه الله الحي ، وأدركت بما يحيا الإنسان . وتأكد لي أن الله قد أعلن لي الدرس الأخير ، وأنه قد غفر لي خطيئتي . عندئذٍ ابتسمت ثالث مرة!"

12

ثم سقطت الثياب عن جسم الملاك ، واكتسى نوراً تعجز العين عن التحديق إليه ، وغدا صوته أعلى ، وكأنه آتٍ لا منه بل من العلاء ، من السماء . وقال الملاك :

"لقد علمت أن الإنسان يحيا لا بالاعتناء بنفسه ، بل بالحب .

"لم تُعطَ الأم معرفة ما احتاجت إليه بنتاها لتعيشا . ولا أعطي الغني معرفة ما يحتاج هو نفسه إليه . ولم يعط أي إنسان أن يعرف ، عندما يأتي المساء ، أيحتاج إلى حذاء لجسده أم إلى خف لجثته .

"ولما صرت أنا إنساناً ، ظللت على قيد الحياة ، ليس من طريق الاعتناء بنفسي ، بل لأن الحب كان يغمر قلب عابر سبيل ، ولأنه هو وزوجته أشفقا عليّ وأحباني . وظلّت اليتيمتان حيّين لأنّ قلب امرأة غريبة كان يغمره الحب ، فرقّت لهما وأحبتهما . والناس جميعاً يحيون لا بالتفكير في مصلحتهم الخاصة ، بل بالحب الذي في قلب الإنسان .

"كنت أعلم قبلاً أن الله أعطى الناس الحياة ، وأنه يريد لهم أن يحيوا . أما الآن فقد فهمت أكثر من ذلك .

"لقد فهمت أنّ الله لا يريد للإنسان أن يحيا منعزلاً ، ولذلك لا يطلعه على ما يحتاج إليه لنفسه ، بل إنه يريد للناس أن يعيشوا متحدين متعاونين ، ولذلك يكشف لكل منهم ما هو ضروري للجميع .

"إنني مدرك الآن أن الناس بالحقيقة يحيون بالحب ، ولو بدا لهم أنهم يحيون بالاعتناء بأنفسهم . فمن كانت له المحبة ، فهو في الله ، والله فيه ، لأن الله محبة!"

ثم سبّح الملاك بحمد الله بصوت جهوري جعل الكوخ يهتز ، وينفتح سقفُه . واندفع عمود نارٍ من الأرض نحو السماء . وسقط سيمون وزوجته وأولاده على الأرض . وظهر على كتفي الملاك جناحان ، فطار صاعداً إلى السماء .

ولما عاد إلى سيمون رشده ، ألفى الكوخ كما كان من ذي قبل ، وليس فيه أحد سوى عائلته .

سنة 1881

5

شعلة مهملة تحرق البيت

حينئذٍ تقدم إليه بطرس وقال : "يا رب ، كم مرة يخطىء إلي أخي وأنا أغفر له ؟ هل إلى سبع مرات ؟" قال له يسوع : "لا أقول لك ، إلى سبع مرات ، بل إلى سبعين مرة سبع مرات . لذلك يشبه ملكوت السماوات إنساناً ملكاً أراد أن يحاسب عبيده . فلما ابتدأ في المحاسبة ، قدم إليه واحد مديون بعشرة آلاف وزنة . وإذ لم يكن له ما يوفي أمر سيده أن يباع هو وامرأته وأولاده وكل ما له ويوفي الدين . فخر العبد وسجد له قائلاً : "يا سيد تمهل علي ، فأوفيك الجميع ." فتحنن سيد ذلك العبيد وأطلقه ، وترك له الدين . ولما خرج ذلك العبد ، وجد واحداً من العبيد رفقائه ، كان مديوناً له بمئة دينار . فأمسكه وأخذ بعنقه قائلاً : "أوفني ما لي عليك ." فخر العبد رفيقه على قدميه ، وطلب إليه قائلاً : "تمهل علي ، فأوفيك الجميع ." فلم يرد ، بل مضى وألقاه في سجن حتى يوفي الدين . فلما رأى العبيد رفقاؤه ما كان ، حزنوا جداً . وأتوا وقصوا على سيدهم كلّ ما جرى . فدعاه حينئذٍ سيده وقال له : "أيها العبد الشرير ، كل ذلك الدين تركته لك لأنك طلبت إلي . أفما كان ينبغي أنك أنت أيضاً ترحم العبد رفيقك ، كما رحمتك أنا ؟" وغضب سيده ، وسلمه إلى المعذّبين ، حتى يوفي كل ما كان له عليه . فهكذا أبي السماوي يفعل بكم إن لم تتركوا من قلوبكم كل واحد لأخيه زلاته ."

- الإنجيل كما دونه متى (18 : 21 -35)

عاش في إحدى القرى فلاّح اسمه إيفان اشتيرباكوف . كان ميسور الحال ، وفي مقتبل العمر ، وأفضل عامل في القرية ، وله ثلاثة أبناء قادرين جميعاً على العمل ، كبيرهم متزوج ، والثاني على وشك الزواج ، والثالث صبي كبير يستطيع الاعتناء بالخيل وقد بدأ يحرث الأرض .

وكانت زوجة إيفان امرأة قديرة ومقتصدة . وقد سعد الزوجان أيضاً بكنتهما الهادئة المجتهدة . فلم يكن ما يحول بين إيفان وعائلته وهناءة العيش . إلا أن الشخص الوحيد الخامل الذي ينبغي إطعامه كان والد إيفان الشيخ ، وكان يعاني الربو طريح الفراش قرب الموقد منذ سبع سنين .

كان لإيفان كل ما يعوزه : ثلاثة أحصنة ومهر ، وبقرة مع عجلها وخمسة عشر خروفاً . وكانت المرأتان تخيطان ما تحتاج إليه العائلة من ثياب ، فضلاً عن المساعدة في الحقول ، وكان الرجال يفلحون الارض ويتعهدونها . وقد كان لدى العائلة دائماً من الحنطة ما يكفيها حتى الموسم التالي ، كما كان ثمن الشوفان المبيع كافياً لدفع الضرائب وتوفير حاجات البيت .

ومن ثمّ كان ممكناً أن يعيش إيفان وعائلته في رغد وهناءة ، لولا نزاع نشب بينه وبين جاره القريب ، جبرايل الأعرج ابن غوردي إيفانوف .

ولما كان غوردي العجوز حياً ، وأبو إيفان قادراً بعد على تصريف شؤون المنزل ، عاش ذانك الفلاحان كما ينبغي أن يعيش الجيران . فإذا احتاجت نساء ايّ البيتين إلى منخل أو مغطس ، أو احتاج الرجال إلى كيس من الخيش ، أو إذا انخلعت عجلة عربة وتعذّر إصلاحها حالاً ، يقصدون البيت الآخر مستقرضين ، ويعاون بعضهم بعضاً كما يفعل الجيران الطيبون . وإذا ضل عجل فدخل بيدر الجار ، يردّونه ويكتفون بالقول : "لا تدعوه يدخل بيدرنا ثانية ، فما زالت حنطتنا مكدسة هناك ." أما إقفال الحظائر وغرف العربات والعدّة وتخبئة الأشياء عن الجيران ، والقيل والقال ، وما شابه ، فلم تكن يومذاك لتخطر في بال .

هكذا كانت الحال في أيام كبيري العائلتين المتجاورتين . ولكن لما آلت الامور إلى أيدي الابنين ، تغير كل شيء .

أما شرارة الخصام الاولى فكانت من أمرٍ تافه .

فقد كانت كنة إيفان تملك دجاجة بدأت تبيض باكراً ذلك الموسم ، فأخذت الكنة تجمع البيض لأجل عيد الفصح . كانت كل يوم تذهب إلى الحظيرة فتجد بيضة في صندوق العربة . ولكن ذات يوم طارت الدجاجة من فوق السياج إلى فناء الجيران وباضت هناك ، بعدما خوفها الأولاد على الأرجح . وسمعت المرأة قوقأة الدجاجة ، لكنها قالت لنفسها : "لا وقت عندي الآن ، فعلي ان ارتب البيت ليكون نظيفاً يوم الأحد . سأحضر البيضة في ما بعد ."

وفي ذلك المساء ذهبت الكنة إلى الحظيرة ، لكنها لم تجد البيضة في صندوق العربة . فمضت وسألت حماتها وأخا زوجها هل أخذا البيضة ، فأجابا بالنفي . إلا أن طاراس ، أخا زوجها الأصغر ، قال : "لقد باضت دجاجتك في فناء الجيران . فهناك قوقأت ، ومن هناك عادت طائرةً من فوق السياج ."

فذهبت المرأة ونظرت الدجاجة حيث كانت جاثمة مع الطيور الأخرى ، وقد أغمضت عينيها تواً استعداداً للنوم . فودت لو تسأل الدجاجة ، إن أمكن ، أين باضت ، كي تعرف الحقيقة .

ثم ذهبت إلى بيت الجيران ، فأقبلت أم جبرايل تسألها :

"ماذا تريدين ، يا شابة ؟"

"ألم تري ، يا ست ، أن دجاجتي طارت من فوق السياج هذا الصباح ؟ أما باضت هنا ؟"

"ما رأينا شيئاً من هذا قط . نشكر الله لأن دجاجاتنا بدأت تبيض من زمان طويل . فنحن نجمع بيض دجاجنا ، ولسنا في حاجة إلى ما عند جيراننا! ثم إننا ، يا صغيرتي ، لا نذهب نفتش عن البيض في أفنية الجيران!"

لم تتحمل الشابة الإهانة ، ففرطت بكلامها . وردت الجارة الكيل كيلين . ومضت الجارتان تتشاتمان . وإذ اتفق أن زوجة إيفان مرت من هناك في طريقها لاستقاء الماء ، تدخلت أيضاً . وكذلك اندفعت زوجة جبرايل خارجاً ، وشرعت

تؤنب الشابة وتعيّرها بأمور سبق أن حدثت فعلاً ، وبأمور ما حدثت قط . ثم احتدم الصراع ، وعلا الصياح والصراخ ، وكل واحدة تود أن تتكلم قبل الأخرى ، وثار التشاتم والتلاقب .

"أنت كذا وكذا" ، "أنت كذا" ، "أنت سرّاقة" ، "أنت ساقطة" ، "أنت تُجوّعين حماك الشيخ حتى يموت" ، "أنت حثالة" وهكذا دواليك .

"أنت الساقطة! لقد استعرتِ منخلي وثقبته . وها أنت تحملين دلويك بحمّالتنا ، فردّي لنا الحمّالة!"

ثم أمسكتا بالحمّالة ، فانكب دلوا الماء ، وشدت الواحدة بشال الأخرى ، ونشب العراك .

وإذ كان جبرايل عائداً من الحقل ، بادر إلى مساعدة زوجته . ثم اندفع إيفان وابنه إلى الخارج ، وشاركا في الشجار . وكان إيفان رجلاً قوياً ، فبذّ الجميع ، ومد يده إلى لحية جبرايل فنتف منها شعراً ملء قبضته . وأقبل الناس ليروا ما الأمر ، وفصلوا بين المتعاركين بعد جهد جهيد .

هكذا بدأ الخصام!

ثم لف جبرايل ما نُتف من شعر لحيته بورقه ، وقصد إلى محكمة المنطقة مشتكياً على إيفان . وقال : "أنا ما ربيت لحيتي حتى ينتفها هذا الحقير!" ثم شرعت زوجته تتبجح أمام الجيران قائلة إن القاضي سيحكم على إيفان ويرسله إلى سيبيريا . وهكذا استحكم الخلاف واستفحل الخصام .

أما أبو إيفان ، الشيخ ، فلم يتوان منذ أول لحظة عن الدعوة إلى الصلح والمسالمة ، من حيث كان مستلقياً قرب الموقد . غير أنهم لم يصغوا إليه . قال : "يا له من أمر رديء تسعَون إليه! إنكم ، يا أولاد ، تثيرون الجدال والخصام لسبب تافه . عودوا إلى رشدكم! أهذه المنازعة كلها حول بيضة ؟ لعل الأولاد أخذوها! فما همّ ؟ وما قيمة بيضة ؟ إن الله يرزق الجميع ما يكفيهم!

وهبي جارتك قالت كلمة بطالة ، أفلا تسوين أنتِ الأمر ؟ أما ترينها كيف تقولين كلمة أحسن! وإن حصل عراك ، فذاك يحصل دائماً . إننا جميعاً خطاة! ولكن ليَسوَ النزاع ويوضع له حد . فإن أضمرتم الغل وغذيتم الغضب ، عاد ذلك وبالاً عليكم أنتم! "

غير أن الشباب أبوا الإصغاء إلى الشيخ ، وعدوا كلامه من قبيل الهذر واللغو . فقد أبى إيفان أن يحني هامته أمام جاره ، قائلاً :

"أنا ما شددت بشعر لحيته قط ، بل هو من نتف شعرها نتفاً . ولكن ابنه فتق أزرار قميصي ومزقه . انظر كيف صار القميص!"

ثم مثل إيفان أمام المحكمة . وجرى استجواب الخصمين من قبل قاضي الصلح ، ثم في محكمة المنطقة . وفي أثناء ذلك اختفى وتد عربة جبرايل ، فاتهمت النساء من أهله ابن إيفان بسرقته ، قائلات : "شاهدناه في الليل يمر من تحت نافذتنا نحو العربة ، وقد قال أحد الجيران إنه رآه في حانة القرية يعرض الوتد على صاحبها ."

فعاد الخصمان للمثول أمام المحكمة بشأن الوتد . ولم يمر يوم دون خصام وشجار أو عراك . وتشاتم الأولاد أيضاً بعدما تعلموا ذلك من كبارهم . حتى إذا اتفق أن تلاقت النساء عند النهر لغسل الثياب ، لم تقم أذرعهن بالعصر مثلما قامت ألسنتهن بالهذر ، وكل كلمة أسوأ من الأخرى .

وبعدما اكتفى الفلاحان أولاً بالتلاقب والتشاتم ، ما لبثا أن بدأا كلاهما بخطف ما تناله يده من أمتعة الآخر ، وحذا الأولاد حذوهما ، حتى تكدرت عيشة الجميع وزادت مرارة .

وظل إيفان اشتيرباكوف وجبرايل الأعرج يتقاضيان أمام جمعية القرية ، ومحكمة المنطقة ، وقاضي الصلح ، حتى ضجر منهم القضاة وتعبوا . فإذا كسب جبرايل لإيفان الغرامة والسجن ، بادله إيفان بالمثل . وكلما راغم أحدهما

الآخر ، استشاطا غضباً ، وكأنهما كلبان يتهارشان فيغدوان أشرس كلما طال عراكهما . فإن ضربتَ أحد الكلبين من الخلف ، ظن أن الكلب الآخر يعضه ، وازداد شراسة . كذلك كان هذان الفلاحان ، فقد تقاضيا وغُرّم أحدهما أو الآخر وحُبِس ، فما زادهما ذلك إلا غضباً أحدهما على الآخر ، فتوعدا وهددا : "مهلاً ، وسأجعلك تدفع الثمن!"

وظلت الحال على هذا المنوال ست سنين . إلا أن الشيخ الراقد قرب الموقد وحده ظل يستنكر وينصح : "ماذا تفعلون يا أولاد ؟ كفوا عن رد الكيل كيلين ، انصرفوا إلى أعمالكم ، ولا تضمروا حقداً ، فيكون في ذلك خير لكم . فكلما أضمرتم الغل والضغينة ، ساءت الأحوال أكثر!"

غير أن أحداً لم يصغ إليه .

وفي السنة السابعة كان عرس ، فعيّرت كنة إيفان جبرايل إذ اتهمته بإلقاء القبض عليه وهو يسرق حصاناً . وكان جبرايل ثملاً ، فخرج عن طوره ، وضرب المرأة ضربة اضطرتها إلى لزوم الفراش أسبوعاً كاملاً ، وقد كانت حاملاً آنذاك . فسُرّ إيفان بهذه البلية ، وهرع إلى القاضي يقدم شكوى ، مفكراً : "الآن سأتخلص من جاري! هذه المرة لن تفلت من الحبس ، أو من النفي إلى سيبيريا!"

ولكن أمنية إيفان لم تتحقق . فقد رد القاضي الدعوى ، بعدما أُخضِعت المرأة لفحص طبي ، فتبين أنها سليمة معافاة ولم يظهر أي أثر لضربها . عندئذ ذهب إيفان إلى قاضي الصلح ، فأحال هذا الدعوى إلى محكمة المنطقة . ولجأ إيفان إلى المداهنة والتملق ، فقدم للقاضي والكاتب غالوناً من الشراب الفاخر ، وكسب حكماً بجلد جبرايل ، وتلا الكاتب الحكم على مسمع جبرايل قائلاً : "حكمت المحكمة بجلد الفلاح جبرايل غوردي عشرين جلدة أمام محكمة المنطقة ."

وإيفان أيضاً سمع تلاوة الحكم ، فنظر إلى جبرايل ليرى ردة فعله : لقد شحب وجهه حتى بدا كملاءة بيضاء ، واستدار وخرج إلى الفناء . فتبعه إيفان بقصد الانتباه إلى حصانه ، وإذا به يسمعه عَرَضاً يقول : "طيب! سيُسر بأن يُجلَد ظهري حتى يحترق ، ولكن حذار أن يحترق له شيء احتراقاً أشد!"

وما إن وقعت هذه الكلمات في أذني إيفان ، حتى أسرع عائداً إلى المحكمة وقال : "يا قضاة العدل ، لقد هدد بإحراق بيتي! هكذا قال بمحضر من الشهود! "

فاستدعي جبرايل وسئل : "أصحيح أنك قلت هذا ؟"

"ما قلت شيئاً! اجلدوني ، لأن الأمر بأيديكم . يبدو أن علي أنا وحدي أن أقاسي ما دام الحق معي ، فيما يسمح له بأن يفعل ما يحلو له ."

وهمّ جبرايل بأن يزيد شيئاً ، ولكن شفتيه وخديه ارتجفت ، فالتفت نحو الحائط ، وقد أخافت نظراته حتى أعضاء المحكمة فقالوا في أنفسهم : "ربما يؤذي نفسه أو جاره فعلا!"

ثم قال كبير القضاة : "انظرا أيها الرجلان! خير لكما أن تتعقلا وتتصالحا . هل كان حسناً منك ، يا جبرايل ، أن تضرب امرأة حاملاً ؟ من الخير أن الأمر مر بسلام . ولكن فكر ماذا كان ممكنا أن يحصل! هل كان عملك صائباً ؟ الأفضل أن تعترف وتطلب الصفح من إيفان ، فيسامحك هو ونرجع نحن عن حكمنا ."

إلا أن كاتب المحكمة ، حالما سمع هذه الكلمات ، أبدى الملاحظة التالية : "هذا مستحيل بحسب المادة 117 من القانون . فالمصالحة المسبقة المنصوص عليها لم تحصل ، وقد نطقت المحكمة بحكمها ، ولا يمكن نقضه ."

ولكن القاضي أبى الإصغاء إليه ، بل قال له : "صن لسانك يا صاح! إن القانون الأسمى لهو إطاعة الله ، وهو تعالى يحب السلام ."

ثم عاد القاضي يحاول إقناع الفلاحين بالتصافي ، لكنه لم يفلح . فقد أبى جبرايل الإصغاء لنصيحته ، وقال :

"سأبلغ الخمسين من العمر السنة المقبلة ، ولي ابن متزوج ، ولم أُجلَد قط في حياتي ، والآن استحصل هذا الحقير إيفان على حكم بجلدي . أفعليَّ أنا أن أسعى لمصالحته ؟ كلا! كفاني ما تحملت . . . ولسوف يكون لإيفان سبب يذكره بي!"

ثم تهدّج صوته ثانية ، وأُرتج عليه ، فاستدار وغادر المحكمة .

كانت المحكمة تبعد عن القرية نحو عشرة كيلومترات ، فوصل إيفان إلى بيته متأخراً . ثم نزع عدة حصانه ، وأعده للمبيت ، ودخل الكوخ . لم يكن هنالك أحد . فالنساء كن قد ذهبن ليأتين بالماشية للإيواء ، ولم يكن الشبان قد عادوا من الحقل بعد . فقعد إيفان يفكر . وتذكر كيف أصغى جبرايل إلى الحكم ، وكيف شحب وأدار وجهه نحو الحائط . وإذ ذاك انقبض صدره : ماذا يكون لو أنه حُكِم عليه هو بالجلد ؟ فأخذته الشفقة على جبرايل . ثم سمع سعال أبيه الشيخ عند الموقد ، ورآه يجلس ويدلّي رجليه ويتجه نحوه متثاقلاً . وجر العجوز نفسه إلى أحد المقاعد ، ثم تهالك عليه وقد أجهده التعب ، وراح يسعل حتى تنخع . وبعدما استند إلى الطاولة ، سأل : "ماذا ؟ هل حكم عليه ؟"

فأجاب إيفان : "نعم ، بعشرين جلدة!"

وهز الشيخ رأسه قائلاً : "واأسفاه! إنك تخطئ يا إيفان! أواه ، ما أسوأ ما فعلت! إنك لا تسيء إليه بمقدار ما تسيء إلى نفسك! حسناً ، سوف يجلدونه ، ولكن أيّ خير ستجني أنت من ذلك ؟"

فقال إيفان : "لن يعيد الكرة!"

"أي كرة لن يعيد ؟ وماذا فعل أسوأ مما فعلت أنت ؟"

"عجباً! فكر في الأذى الذي نالني منه! لولا قليل لقتل كنتي ، وقد هدد بإحراقنا . أأشكره على ذلك ؟"

فتنهد الشيخ وقال : "انت يا إيفان تجول في عالم الله الواسع ، فيما انا راقد قرب الموقد طيلة هذه السنين . ولذا يُخيّل إليك أنك تدرك كل شيء وانني لا أدرك شيئاً . . . كلا يا بني! فأنت من لا يدرك . فقد أعمى الحقد عينيك . إن خطايا الآخرين نصب عينيك ، أما خطاياك أنت فوراء ظهرك . تقول إنه أساء التصرف! فما أسوأ ما تقول! لو كان هو وحده من تصرّف تصرفاً سيئاً ، لما نشب بينكم نزاع . وهل نشأ أي نزاع بين الناس من طرف واحد ؟ إنما الخصام يكون بين اثنين دائماً . لو كان هو طالحاً وكنت انت صالحاً ، لما قام نزاع . من نتف شعر لحيته ؟ من سلب كدس تبنه ؟ من جرّه إلى المحكمة ؟ ومع ذلك تلقي عليه اللوم كله! إنك انت تعيش حياة سيئة . وذلك هو الخطأ الأكبر! ما هكذا عشت انا ، يا بني ، ولا هكذا علمتك ان تعيش . اوهكذا كنا نعيش انا وابوه ؟ بل كيف عشنا ؟ أليس كما ينبغي للجيران ؟ فإن نفد من عنده الدقيق ، تأتي إحدى النساء قائلة لي : "يا عم أترول ، نحن بحاجة إلى شيء من الدقيق ." فأقول لها : "إذهبي إلى مخزننا يا بنيتي وخذي ما تحتاجين إليه!" وإن لم يكن عنده من يرعى أحصنته ، كنت أقول لك : "إذهب يا إيفان ، واعتن بأحصنته!" إن أعوزني شيء ، أذهب إليه وأقول : "يا عم غوردي ، يعوزني كذا وكذا ." فيقول : "خذه يا عم أترول! هكذا كان ما بيني وبينه ، وما كان أحلى عيشنا! ما الآن . . . فأواه! أتذكر ما أخبرنا به ذلك الجندي يوماً عن معركة أبليفنا الرهيبة ؟ أفليست الحرب بينكما أسوأ ؟ وهل تسمي هذه عيشة ؟ . . . يا لها من خطيئة! أنت رجل ، وانت رب البيت ، فعليك أنت أن تقدم الحساب . ماذا تعلم النساء والأولاد ؟ أن يتماسكوا ويتخانقوا ؟ أمس شتم الغر طاراس جارتنا آرينا وسبها ، فيما كانت أمه تسمع وتقهقه . فهل هذا صائب ؟ إنك انت المسؤول! فكر في خير نفسك ، وقل لي : أهذا كله ما ينبغي أن يكون ؟ تهينني بكلمة ، فأرد لك كلمتين ، وتضربني ضربة ، فأضربك ضربتين . لا يا بني! فلما

مشى المسيح على هذه الأرض ، علّمنا نحن الأغبياء شيئاً آخر مختلفاً تماماً . . . إن جرحك أحد بكلمة ، فلا تجبه ، فيثور عليه ضميره مؤنباً . ذلك هو ما علّمنا إياه ربّنا : إن صفعك أحد على خدك ، فحوّل له الخد الآخر قائلاً : "هيا ، اصفعني ان كنت استحق الصفع!" ولسوف يعذبه ضميره ، فيلين ويستكين ويصغي إليك . هكذا علّمنا المسيح ، ولم يعلّمنا أن نتجبر وتتكبر! . . . لماذا لا تتكلم ؟ الست أقول الحق ؟"

لكن إيفان ظل قاعداً وهو يصغي صامتاً . ثم أخذت الشيخ نوبة سعال أجهدته ، وبعدما تنخّع بجهد جهيد ، أردف يقول : "أتعتقد أن ما علّمنا إياه المسيح خطأ ؟ اليس ذلك كله لخيرنا ؟ فكر قليلاً بحياتك الأرضية : أتحسنت أحوالك أم ساءت بعد هذه المعركة الكبيرة بينكما ؟ هل تحسب كم أنفقت على هذه الدعوى ، وكم كلفك سفرك ذهاباً وإياباً وزاد الطريق! وأي شبان مهذبين صار أبناؤك! كان في وسعك أن تعيش في بحبوحة ، إلا أن مواردك الآن تتضاءل . ولماذا ؟ كل ذلك بسبب هذه الحماقة ، وبسبب كبريائك . كان ينبغي أن تكون عاكفاً على الفلاحة مع فتيانك ، وأن تبذر بذارك بيدك . ولكن هوذا الشيطان يحملك إلى القاضي ، أو إلى هذا وذاك من صغار المحامين . فالحراثة لا تتم في أوانها ، ولا البذار يُبذَر في حينه ، والأرض المعطاء لا يمكن أن تغلّ كما ينبغي . ولماذا بار موسم الشوفان هذه السنة ؟ متى زرعت البذار ؟ بعدما عدت من المدينة! وماذا جنيت ؟ عبئاً ثقيلاً على كاهلك . . . آه ، يا بني ، فكر في عملك! اشتغل مع أولادك في الحقل وفي البيت ، وإن أساء إليك أحد فسامحه ، كما يريد لك الله أن تفعل . وعندئذ تجري حياتك بيسر ، ويكون قلبك خلياً كل حين!"

بقي إيفان صامتاً .

"إيفان ، بُنيّ ، أصغ إلى والدك الشيخ! أسرج الأغبر ، واذهب تواً إلى

مكتب الحكومة ، وأسقط هذه الدعوى واسحبها . وفي الصباح اذهب إلى جبرايل ، باسم الله ، وتصالح معه ، وادعه إلى بيتك غداً ، في عيد مولد العذراء . حضر الشاي ، وأحضر قنينة فودكا ، وضع حداً لهذا النزاع الشرير ، بحيث تقطع دابره إلى الأبد ، واطلب إلى النساء والأولاد أن يحذوا حذوك ."

فتنهد إيفان وفكر : "ما يقوله حق!" ولان قلبه . إلا انه لم يعرف كيف يشرع في تسوية الأُمور .

ولكن الشيخ استأنف كلامه ، وكأنه قرأ ما يدور في خاطر إيفان : "هيا يا إيفان ، عجل ولا تؤجل! أطفئ شعلة النار قبل أن تنتشر فيكون الأوان قد فات ."

وكان العجوز على وشك أن يزيد شيئاً ، ولكن حال دون ذلك دخول النساء وهن يثرثرن كالببغاوات . فقد بلغهنّ خبر الحكم على جبرايل بالجلد ، وتهديده بإحراق بيته . سمعن بذلك كله ، وزدن عليه من عندهن ، وخضن خصاماً مع النساء من آل إيفان في المرعى . فشرعن يتحدثن عن إجراء جديد هددت به كنة جبرايل ، إذ زعمت أنه مُنح حقاً باستئناف الحكم أمام قاض يفحص الدعوى ويتولى تغيير مجراها كلياً ، وأن مدير المدرسة يكتب استرحاماً آخر سيرَفع إلى القيصر نفسه بشأن إيفان ، مضمّناً كل شيء ، من وتد العربة إلى حديقة المطبخ ، حتى إنّ نصف ما يملكه إيفان سيؤول إلى آل جبرايل . ولما سمع إيفان أقوالهن ، برد قلبه من جديد ، وتخلّى عن فكرة التصالح مع جبرايل .

لا يَعدَم الفلاح الميسور عملاً يؤديه في أي وقت . لذا ، لم يلبث إيفان للتحدث مع النساء ، بل خرج إلى البيدر وإلى الحظيرة . ولما فرغ من العمل هناك ، كان النهار قد أمسى والشبان قد عادوا من الحقل ، حيث كانوا يحرثون الأرض إعداداً لبذار الشتاء ، بحصانين مقرونين . فلاقاهم إيفان وسألهم عن

العمل ، وساعدهم على إعادة العدّة إلى مكانها . ووضع جانباً نير حصان مشقوقاً كي يصلحه ، وتوجّه لوضع بعض الأوتاد حيث كانت إلى الغد . ثم وضع العلف في المذاود ، وربط خارجاً الأحصنة التي سيأخذها طاراس للرعي ليلاً ، وعاد فاقفل باب الحظيرة وارتجه ، مفكراً : "الآن اتعشى وآوي إلى الفراش!"

وحمل النير المشقوق ، وولج الكوخ . كان قد نسي أمر جبرايل ، وما نصح به أبوه الشيخ . ولكن ما إن مد يده إلى مسكة الباب ليدخل إلى الرواق ، حتى سمع جاره من خلف السياج يشتم ويلعن بصوته الأجش قائلاً : "تباً للشيطان! ماذا ينفعني ؟ إنه يستحق القتل فقط!" وإزاء تلك الكلمات ، هاج حقد إيفان الدفين على جاره . فوقف يصغي إلى توعّدات جبرايل ، حتى انقطعت فدخل الكوخ .

هوذا السراج موقد في الداخل ، وكنته قاعدة تغزل ، وزوجته تعد العشاء ، وابنه الأكبر يصنع سيوراً لِخُفّ ، والثاني جالس قرب الطاولة وبيده كتاب ، وطاراس يتأهب لسوق الأحصنة إلى المرعى . فكل شيء كان يمكن أن يكون في خير وسلام . . . لولا تلك البلية : الجار الرديء!

دخل إيفان مستشيطاً متجهماً ، وطوّح الهر عن الدكّة ، ووبخ النساء على ترك دلو الزبل في غير مكانه . وبدا في غاية الاكتئاب لمّا قعد مقطباً ليصلح نير الحصان . وظلت كلمات جبرايل ترن في مسمعيه : توعّده في المحكمة ، وسبابه الذي سمعه بأذنيه تواً إذ قال بصوته الأجش عن شخص ما "إنه يستحق القتل فقط!"

ثم قدّمت الزوجة العشاء لطاراس ، فأكل وقام وتلفلف بجلد غنم عتيق وبمعطف آخر ، ولف حزاماً على وسطه ، وتزود بشيء من الخبز ، ثم انطلق نحو الاحصنة . وهمّ أخوه الأكبر بالخروج لتشييعه ، إلا أن إيفان نفسه نهض وخرج إلى الرواق . كان الظلام في الخارج قد احلولك ، والغيوم تلبدت ،

والريح هبت . فهبط إيفان الدرج ، وأعان ابنه على امتطاء فرس ، ودفع المهر خلفها ، ثم وقف يتسمّع فيما مضى طاراس يعبر القرية بالأحصنة ، حيث انضم إليه فتيان آخرون خرجوا بأحصنتهم أيضاً ، ولبث إيفان حتى لم يعد يسمع حسّهم . وبينما هو واقف هناك بقرب الباب الكبير ، لم تبارح فكره كلمات جبرايل : "حذار أن يحترق له شيء احتراقاً أشد!"

وفكر برأسه : "إنه مستقتل! كل شيء يابس ، والريح شديدة . سيُقبِل في الخفاء ، ويشعل النار في شيء ، ثم يتسلل . يا له من وغد! سيحرق أملاكنا وينجو من العدالة . . . أما إذا قُبض عليه بالجرم المشهود ، فلن يفلت!" ثم استحوذت عليه هذه الفكرة ، حتى عدل عن صعود الدرج وخرج إلى شارع القرية ودار حول فنائه ، قائلاً لنفسه : "سأطوف حول أملاكنا ، فمن يدري نية هذا الوغد ؟" وانسل خارجاً من الباب الكبير . وما إن بلغ الزاوية ، حتى استشرف مجيلاً بصره على طول السياج ، فبدا له أنه لمح شيئا يتحرك فجأة عند الزاوية المقابِلة ، وكأن شخصاً برز ثم توارى . كان كل شيء ساكناً ، إلا ورق الصفصاف تحرّكه الريح فيُسمَع له حفيف ، وأسلات القصب تتناوح . منعته الظلمة الشديدة أولاً أن يرى شيئاً ، ولكن لما تعوّدتها عيناه ، استطاع أن يميز في الزاوية القصية محراثاً كان قد تُرك هناك تحت السقيفة . وأحدّ نظره ، لكنه لم ير أحداً .

وفكر : "الظاهر أني أخطأت . ومع ذلك ينبغي أن أكمل جولتي ." ثم تسلل بمحاذاة الحظيرة وهو يدوس الأرض برفق بخفّه المصنوع من اللحاء ، حتى إنه لم يسمع هو وقع خطواته . وما إن بلغ الزاوية القصية ، حتى بدا له قرب المحراث شيء يتوهج لحظة ثم يخبو . فصَعِق كمن طُعِن في قلبه ، وجمد في مكانه .

وما كاد يتوقف ، حتى توهج شيء آخر في المكان عينه توهجاً أشد

لمعاناً . وشاهد بجلاء رجلاً يعتمر قبعة ، محتبياً وظهره صوبه ، يشعل حزمة قش في يده . وخفق قلب إيفان بين أضلاعه كعصفور ينتفض . فاستجمع قواه ، وأسرع نحو الرجل بخطى واسعة وهو لا يكاد يحس برجليه تحته . وداخله هذا الفكر : "آه! لن يفلت من يدي! سأقبض عليه بالجرم المشهود!"

وإذ كان إيفان ما يزال بعيداً بعض الشيء ، لمح فجأة نوراً باهراً ، ولكن ليس في الموضع نفسه ولا لهباً ضئيلاً . فقد اشتعل قش السقيفة ، وأخذت ألسنة اللهب تتعالى حتى بلغت السقف ، وظهر تحته واقفاً جبرايل بشحمه ولحمه ، مَرئياً بجلاء كما في النهار .

وكصقر ينقض على عصفور ، اندفع إيفان نحو جبرايل الأعرج بلا هوادة ، وهو يقول في نفسه : "الآن ألقي القبض عليه! لن يفلت من يدي!" ولكن يبدو أن جبرايل سمع حس إيفان ، فتلفت حواليه واستطاع أن يفر مبتعداً عن الحظيرة كأرنب بري .

فلحق به إيفان كالسهم وهو يقول : "لن تفر! لن تفلت!" ولما هم بأن يمسك به ، راوغه وكاد يهرب ، لكن إيفان تمكن من الإمساك بطرف سترته ، فتمزقت ، وهوى إيفان أرضاً . ثم هب واقفاً وراح يطارده صائحاً : "النجدة! امسكوا به! حرامي! مجرم! "وكان جبرايل في تلك الأثناء قد وصل إلى باب داره ، حيث أدركه إيفان وكاد يمسك به ، إلا أن ضربة قوية نالت إيفان فدارت به الأرض وكأن حجراً ارتزّ في صدغه . فقد تناول جبرايل سفيناً من خشب السنديان كان ملقى قرب الباب ، ورماه به على رأسه ، بكل قوته .

اعترى إيفان الدوار ، والتمع أمام عينيه الشرار ، ثم غامت عيناه ، وترنّح وهوى أرضاً . ولما عاد إلى رشده ، كان جبرايل قد مضى ، والليل قد أضاء كالنهار ، ومن الجهة التي كان فيها منزل إيفان سَمِعت فرقعة وقرقعة كما من هدير آلة تعمل . والتفت إيفان فإذا حظيرته الخلفية كلها تشتعل ، وقد امتدت

النار أيضاً إلى الحظيرة الجانبية ، وأخذ الشرار والدخان ، وهباء القش يحترق وسطه ، يتطاير نحو الكوخ .

وصاح إيفان رافعاً وخافضاً ذراعيه ولاطماً فخذيه : "ما هذا يا إخوان ؟ . . . ما كان علي إلا أن انتزع الشعلة من تحت السقيفة وأدوسها بقدمي! ما هذا يا أصحاب ؟ . . ." ظل يردد ذلك ، وود لو يصرخ ، فخانه نفَسه ، وانعقل لسانه . وأراد أن يركض ، ولكن رجليه لم تسعفاه ، وعثّرت إحداهما الأخرى . فتحرك ببطء ، ولكنه عاد فترنح وانقطع نفَسه ، فتوقف يسترد أنفاسه ، ثم جر قدميه جراً . وقبل انعطافه حول الحظيرة الخلفية للوصول إلى النار ، علقت النار أيضاً بالحظيرة الجانبية ، وبزاوية الكوخ ورواقه المسقوف . وأخذت ألسنة اللهب تتعالى من الكوخ ، فتعذر الوصول إلى الفناء . وقد احتشد جمع كبير ، ولكن ما كان باليد حيلة . وأخذ الجيران يخرجون أمتعتهم من بيوتهم وبهائمهم من حظائرهم . ووصلت النار أيضاً إلى منزل جبرايل ، ثم هبت الريح فدفعت النار إلى الجانب الآخر من الشارع ، حتى التهمت نصف القرية وسوتها بالأرض!

وفي منزل إيفان ، لم يكد أهله ينقذون أباه الشيخ ، ونجا أفراد العائلة بما عليهم من ثياب . فقد خسروا كل شيء ما عدا الأحصنة التي كانت ترعى ؛ المواشي ، والدجاج ، والمحاريث ، والمساحي ، وصناديق النساء بثيابهن ، والقمح في الأهراء ، كلها احترقت!

أما في منزل جبرايل ، فقد أُخرِجت الماشية سليمة ، واستُنقِذت بعض الأمتعة .

وظلت النار مستعرة طوال الليل ، فيما وقف إيفان أمام داره مردداً : "ما هذا يا أصحاب ؟ كان علي فقط أن انتزع الشعلة وأدوسها بقدمي!" ولكن لما انهار السقف ، اندفع إيفان إلى قلب النار ، وأمسك بعارضة مسفوعة ، وحاول

أن يجرها إلى الخارج . وإذ رأته النساء ناديـنه للعودة ، لكنه سحب العارضة خارجاً . وهم بأن يدخل لإخراج عارضة أخرى ، فتعثر وسقط وسط اللهب . فشق ابنه طريقه إليه ، وسحبه خارجاً . وكان قد أحرق شعره ولحيته وثيابه ويديه ، إلا انه لم يحس شيئاً . فقال الناس : "لقد خبله الحزن!" ومع أن حدة اللهيب أخذت تتلاشى ، ظل إيفان واقفاً يردد : "يا إخوان! . . . ما هذا ؟ . . . كان علي فقط أن أسحب الشعلة خارجاً! "

وفي الصباح ، اقبل ابن شيخ القرية إلى إيفان ، يقول له : "يا عم إيفان ، أبوك يَحتضَر! وقد أرسلني إليك كي تذهب لتوديعه ."

كان إيفان قد نسي أباه ، ولم يعِ ما قيل له . فقال : "أي أب ؟ وإلى من أرسلك ؟"

فقال ابن شيخ القرية : "أبوك أرسلني إليك لتودعه . إنه يموت في كوخنا . فهيا إليه يا عم إيفان!" ثم شده بذراعه ، فتبعه .

بينما كان أبو إيفان يُحمَل إلى خارج الكوخ ، وقع عليه بعض القش المشتعل فأحرقه ، وحُمِل إلى بيت شيخ القرية في طرفها الأقصى ، حيث لم تصل النار .

ولما وصل إيفان إلى حيث أبوه ، لم يجد في الكوخ سوى زوجة شيخ القرية ، فضلاً عن بعض الصغار قرب الموقد ، إذ كان الباقون ما يزالون في مكان الحريق . كان أبو إيفان العجوز ممدّداً على دكّة وعيناه نحو الباب ، وبيده شمعة . فما إن دخل ابنه ، حتى تحرك قليلاً . فاقتربت منه زوجة الشيخ وقالت له إنّ ابنه قد حضر . فطلب إليها أن تُدنيه منه ، فدنا .

فشرع الوالد العجوز يقول : "ماذا قلت لك يا إيفان ؟ من أحرق القرية ؟" أجابه : "هو يا أبتاه! لقد قبضت عليه متلبّساً . رأيته يدس الشعلة تحت قش السقيفة . كان علي أن انتزع القش المشتعل وأدوسه بقدمي . ولو فعلت ، لما حدث شيء ."

فتابع العجوز يقول : "إيفان . ها انا اموت ، وانت أيضاً ستموت يوماً . فخطيئة مَن هذه ؟"

حملق إيفان إلى أبيه صامتاً ، ولم يستطع أن ينبس بكلمة .

"الآن ، في حضرة الله ، قل لي خطيئة مَن هذه ؟ ماذا فعلت لك ؟"

آنذاك فقط عاد إلى إيفان رشده ، وفهم كل شيء . فأخذ نَفَساً وقال : "خطيئتي انا يا أبتِ!" ثم جثا على ركبتيه أمام والده قائلاً :

"سامحني يا أبي! إنني مذنب أمامك وأمام الله! "

فحرك العجوز يديه ، ونقل الشمعة من يمناه إلى يسراه ، وحاول أن يرفع اليمنى إلى جبهته ليرسم إشارة الصليب ، لكنه لم يقدر ، فعدل . ثم قال : "حمداً لله! حمداً للرب!" وعاد فحوّل عينيه نحو ابنه :

"إيفان! إسمع يا إيفان!"

"ماذا يا أبي ؟"

"ماذا ينبغي أن تفعل الآن ؟"

وكان إيفان يبكي فقال :

"لست أدري كيف سنعيش الآن! "

فأطبق العجوز عينيه ، وحرك شفتيه كي يستجمع قوته ، ثم عاد ففتح عينيه ، وقال : "الله يدبّر! إن أطعتموه ، يدبر أموركم! "وتوقف هنيهة ، ثم ابتسم وقال : "إنتبه يا إيفان! لا تقل من أشعل النار . استر خطيئة غيرك ، يغفر لك الله خطيئتين!" وامسك العجوز المحتضر بالشمعة بكلتا يديه ، ثم صالبهما على صدره ، وتنهد ، وتمدد ، ولفظ أنفاسه .

لم ينطق إيفان بكلمة على جبرايل ، ولم يعلم أحد سبب اشتعال النار .

تلاشى غضب إيفان على جبرايل ، وتعجب هذا من سكوت إيفان عن الأمر . وقد توجس جبرايل خيفة أول الأمر ، لكنه بعد مدة اعتاد الواقع

الجديد . وإذ أقلع الرجلان عن الخصام ، حذت أسرتاهما حذوهما . وبينما كان كوخاهما يُبنيان ، أقامتا في بيت واحد . وبعد ترميم بيوت القرية ، إذ كان ممكناً أن يتباعد الرجلان ، رمّما بيتيهما المتجاورين ، وعاشا كما يعيش الجيران المتصافون ، في وئام وسلام .

وتذكر إيفان اشتيرباكوف وصية أبيه الشيخ بإطاعة شريعة الله ، وإطفاء النار عند الشرارة الأولى . وإذا أساء إليه أحد الآن ، فهو يحاول ألا ينتقم لنفسه بل بالحري يعيد الأمور إلى نصابها . وإذا شتمه أحد بكلمة ، فبدل أن يرد عليه بأسوأ منها ، يحاول تعليم الشاتم ألا يستخدم الكلام البذيء ، كما يعلّم نساءه وأولاده ألا يشتموا . من ثَم وقف إيفان اشتيرباكوف على قدميه من جديد ، وهو الآن يحيا حياة سعيدة ، بل أسعد من الماضي .

سنة 1885

6

شيخان

قالت له المرأة : "يا سيد ، أرى أنك نبي! آباؤنا سجدوا في هذا الجبل ، وأنتم تقولون إن في أورشليم الموضع الذي ينبغي أن يسجد فيه." قال لها يسوع : "يا امرأة ، صدقيني أنه تأتي ساعة لا في هذا الجبل ، ولا في أورشليم تسجدون للآب . . ولكن تأتي ساعة وهي الآن ، حين الساجدون الحقيقيون يسجدون للآب بالروح والحق لأن الآب طالب مثل هؤلاء الساجدين له."

- الإنجيل كما دونه يوحنا (4 : 19 - 23)

1

عاش في روسيا شيخان عقدا عزمهما على الحج إلى مدينة القدس ليتعبدا لله هناك . وكان أحدهما فلاحاً ميسور الحال ، اسمه إيفيم تارازيتش شيفيليف . أما الآخر ، ويدعى إليشا بودروف ، فلم يكن غنياً مثل ذاك .

كان إيفيم رجلاً رصيناً وحازماً وجاداً ، لا يشرب الكحول ولا يدخن التبغ ولا يتعاطى السعوط ، ولم يستخدم في حياته قط كلمة بذيئة . وقد تولى مرتين منصب شيخ القرية ، ثم ترك هذه الوظيفة ودفتر حساباته مضبوط بكل دقة . وكانت له عائلة كبيرة : ابنان وحفيد متزوج ، يقيمون جميعاً في منزله . وقد كان سليم البنية ، ملتحياً ، منتصب القامة ، ما وخط الشيب لحيته إلا بعد الستين من عمره .

أما إليشا فقد كان متوسط الحال ، لا غنياً ولا فقيراً . وكان في ما مضى يجول عاملاً في التجارة . لكن لما أخذ يتقدم في العمر ، لازم منزله ، وعكف على تربية النحل . وكان أحد ولديه قد غادر المنزل طلباً للعمل ، فيما بقي

الآخر في البيت . فكان إليشا شيخاً لطيفاً ومرحاً . ومع أنه كان يشرب أحياناً ، ويستنشق السعوط ، ويشغف بالغناء ، فقد كان رجلاً وديعاً مسالماً يعيش مع أهله وجيرانه في سلام ووئام . وكان قصير القامة ، أسمر البشرة ، جعد اللحية ، أصلع الرأس تماماً ، مثل النبي أليشع الذي سُمّي باسمه تيمناً .

وكان هذان الشيخان قد نذرا نذراً منذ عهد بعيد ، ونويا أن يحجا إلى مدينة القدس معاً . ولكن إيفيم لم يستطع قط أن يوفر الوقت لذلك ، إذ كان لديه دائماً أعمال كثيرة ، فما إن يفرغ من أمر حتى يباشر آخر . فكان عليه أولاً أن يهتم بتزويج حفيده ، ثم أن ينتظر عودة ابنه الأصغر من الخدمة العسكرية ، وبعد ذلك انهمك ببناء كوخٍ جديد .

وفي يوم عطلة ، تلاقى الشيخان أمام الكوخ ، فجلسا على عارضة من خشب وتجاذبا أطراف الحديث .

سأل إليشا : "متى نفي نذرنا ؟"

فتجهم وجه إيفيم ، وقال : "علينا أن نتمهل . كانت هذه السنة صعبة علي . فقد شرعت أبني هذا الكوخ وأنا أحسب أنه سيكلفني مئة روبل ، أو أكثر بقليل ، وها أنا أوفي على المئة الثالثة ، ولمّا أنتهِ . علينا أن ننتظر حتى الصيف . ففي الصيف ، إن شاء الله ، نسافر دون إبطاء ."

لكن إليشا قال : "يبدو لي أنه لا ينبغي لنا أن نؤجل بعد ، بل يجب أن ننطلق حالاً ، فالربيع أنسب الأوقات ."

"الوقت مناسب بالطبع ، ولكن ماذا أفعل بمشروع البناء هذا ؟ كيف يمكنني تركه ؟"

"كأن لا أحد عندك تكلّفه! يستطيع ابنك أن يتولى إكمال البناء ."

"ولكن كيف ؟ إن ابني البكر ليس جديراً بالثقة ، فهو يسرف في الشراب أحياناً ."

"أواه يا جار! عندما نموت يكملون حياتهم من دوننا . فدع ابنك يتلقَ الآن بعض الخبرة ."

"أنت على حق! ولكن المرء يحبّ إكمال عمل بدأه هو ."

"إيه يا صاح ، لن يسعنا دائماً إنجاز كل ما ينبغي إنجازه . منذ مدة كانت النساء عندنا يرتبن البيت وينظفنه استعداداً للعيد الكبير . كان شيء هنا ينبغي القيام به ، وشيء هناك ، وما استطعن إنجاز كل شيء . فقالت كنتي الكبرى ، وهي امرأة فطنة : "نشكر الله لأن العيد يأتي في حينه بغير انتظار منا ، فمهما اجتهدنا في عملنا نبقى غير مستعدين له تماما"!"

فشرع إيفيم يفكر . ثم قال :

"لقد انفقت مبلغاً كبيراً على هذا البناء . ولا يمكن المرء أن يشرع في سفرة الحج فارغ الجيب . يحتاج كل منا إلى مئة روبل ، وليس هذا المبلغ بقليل!"

فضحك إليشا وقال : "رويدك يا صديقي العتيق! عندك عشرة أضعاف ما عندي ، وتتحدث عن المال! قل لي فقط متى ننطلق ، وسأدبر المال اللازم ، مع أني لا أملك شيئاً منه الآن ."

وابتسم إيفيم أيضاً ثم قال : "عجباً! ما كنت أعرف أنك غني هكذا! فمن أين ستأتي بالمال ؟"

"أستطيع أن أحوّش بعض المال من البيت . وإن كان لا يكفي ، أبيع جاري عشر خلايا نحل ، فلطالما أبدى رغبته في الشراء ."

"ولكن إن أقبلت طرود النحل هذه السنة ، فستندم ."

"أأندم ؟ لا ، يا جار! ما ندمت في حياتي قط على شيء ، إلا على خطاياي وذنوبي . ولا شيء أغلى من النفس!"

"صحيح! ولكن ليس من الصواب أن نهمل أمور بيتنا ."

"ولكن مـاذا يكون إذا أهملنا أمـر نفوسـنا ؟ اليس الأسـوأ ؟ لقـد نذرنا نِذرَنا ، فلنذهب! الآن ، جدياً ، لنذهب!"

2

نجح إليشا في إقناع رفيقه . وفي صباح الغد ، جاء إيفيم إلى إليشا بعدما فكر في الأمر ملياً ، وقال له :

"أنت على حق . فلنذهب! إنما الحياة والموت بيد الله . فعلينا أن نذهب الآن ، ما دمنا على قيد الحياة ، وما دامت لنا القوة ."

وبعد أسبوع تأهب الرجلان للسفر . وكان بيد إيفيم مال ، فأخذ لنفسه مئة روبل ، وأعطى زوجته مئتين .

كذلك استعد إليشا أيضاً . فقد باع جاره عشر خلايا نحل مع الطرود الجديدة التي تطلع منها قبل حلول الصيف . وحصل على سبعين روبلاً من تلك الصفقة . أما الثلاثون روبلاً الباقية فقد هبّشها من سائر أفراد أسرته ، حتى خلت أيدي الجميع على السواء . وقد أعطته زوجته كل ما وفّرته لدفنها ، كما أعطته كنته ما في حوزتها .

وأصدر إيفيم إلى ابنه البكر أوامر محددة بشأن كل شيء : متى وكم يجز من العشب ، وأين يجمع السماد ، وكيف ينجز بناء الكوخ ويسقفه . فقد فكر ملياً في كل شيء، وأصدر تعليماته تبعاً لذلك .

أما إليشا ، في المقابل ، فقد اكتفى بأن أوصى زوجته بفرز طرود النحل الجديدة التي تطلع من الخلايا التي باعها ، وأن تسلّمها كلها للجار ، دون أي تلاعب . وأما الشؤون المنزلية ، فإنه لم يأت على ذكرها قط . بل قال : "ستعرفون ما تفعلون وكيف تفعلونه ، كلّما دعت الحاجة . فأنتم أصحاب الشأن ، وستعرفون كيف تفعلون ما هو الافضل لكم ."

وهكذا استعد الشيخان اتم استعداد . ثم خبز لهما أهلُهما أرغفة خبز ، وخاطوا لهما اكياساً ، وقصّوا لهما كتّاناً لعصب الأرجل . وانتعلا حذاءي جلد جديدين ، وحملا أحذية احتياطية مصنوعة من لحاء الشجر . ورافقهما أهلهما إلى طرف القرية ، حيث ودعوهما ، فانطلقا في سفرة حجّهما .

غادر إليشا منزله هاشاً باشاً ، وما إن خرج من القرية حتى نسي كل شؤون بيته . وقد كان همه الوحيد أن يسر رفيقه ، وألا يجرح أحداً بكلمة ، ويبلغ مقصده ثم يعود إلى بيته في سلام ومحبة .

وفي أثناء السير على الطريق ، كان يتمتم ببعض الصلوات أو يراجع في فكره ما يتذكره من سِيَر القديسين . وإذا لاقى أحداً في الطريق ، أو مال للمبيت في مكان ما ، سعى لأن يتصرف ألطف تصرف يستطيعه ، وينطق بكلمات التقوى . وهكذا مضى في سبيله مبتهجاً . إلا أنه لم يستطع أن يفعل أمراً واحداً : الإقلاع عن تعاطي السعوط . فمع أنه ترك علبة سعوطه في البيت ، ظل يتوق غليها بشدة . ثم أعطاه بعض السعوط رجل لقيه في الطريق . فكان بين الفينة والفينة يتأخر عن رفيقه قليلاً ، لئلا يوقعه في الحرج ، ويستنشق بعض السعوط .

كذلك مشى إيفيم أيضاً بخطى ثابتة ، ولم يكن يفعل إثماً أو ينطق بكلمة رديئة ، غير أن قلبه لم يكن مبتهجاً بالمثِل . فقد أتعبت فكره هموم البيت : أما نسي أن يصدر إلى ابنه هذا الأمر أو ذاك ؟ أينجز ابنه المهام كما ينبغي ؟ وإذا رأى في طريقه من يزرع بطاطا أو ينقل زبلاً ، كان يسائل نفسه هل يقوم ابنه بما أوصاه به . حتى إنه كاد يرغب في العودة كي يُرىَ ابنه كيف يفعل الأمور ، أو كي يقوم بها هو نفسه .

3

مضت خمسة اسابيع والشيخان يسيران ، حتى بليت أحذية اللحاء التي اتيا بها من البيت ، وبات عليهما أن يشتريا احذية جديدة . وإذ ذاك بلغا "روسيا الصغرى" . وقد اضطرا منذ انطلاقهما ، إلى شراء طعامهما ودفع أجرة مبيتهما . ولكن لما وصلا "روسيا الصغرى" ، تسابق الناس على دعوتهما إلى اكواخهم . فكانوا يضيفونهما ويطعمونهما ، ولا يقبلون اي مال . ثم إنهم كانوا يضعون في كيسيهما خبزاً أو طَلَماً لياكلا في الطريق .

وهكذا قطع الشيخان اكثر من سبع مئة كيلومتر على هذا المنوال . ولكن بعدما عبرا الولاية التالية ، وصلا إلى منطقة بار فيها الزرع . فكان الفلاحون يوفّرون لهما مبيتاً بلا مقابل ، إلا أنهم لم يستطيعوا إطعامهما مجاناً . بل إنهما ، في بعض الأحيان ، لم يتمكنا من الحصول على شيء من الخبز ، رغم استعدادهما لدفع ثمنه ، إذ لم يكن موجوداً . وقد قال لهما أهل المنطقة إنّ الأرض أمحلت تماماً في السنة الماضية ، حتى اضطر الأغنياء إلى بيع كل ما عندهم بعدما افتقروا . أما متوسطو الحال فقد باتوا محرومين . وأما الذين لم يغادروا تلك المنطقة من الفقراء ، فهاموا على وجوهم يستعطون ، أو لبثوا في بيوتهم خائرين من الجوع . وفي الشتاء اضطروا إلى اكل النخالة ونبات رِجل الوز .

وذات ليلة عرّج الشيخان على قرية صغيرة حيث باتا ليلتهما ، واشتريا سبعة كيلوغرامات من الخبز ، ثم انطلقا في سفرهما عند الفجر ، ليقطعا مسافة طويلة قبل أن يدركهما حر النهار . ولما سارا مسافة تزيد على عشرة كيلومترات ، وصلا إلى ساقية ماء ، فقعدا ، ثم ملآ طاساً بالماء ، ووضعا فيه بعض الخبز ، فابتل واكلاه . ثم غيرا عصائب أرجلهما ، واستراحا قليلاً . واخرج إليشا سَعوطه ، فهز إيفيم رأسه وقال له :

"كيف لا تقلع عن هذه العادة السيئة ؟"

فحرك إليشا رأسه وقال : "هذه العادة الرديئة اقوى مني! "وفي الحال نهضا ومضيا . وبعدما سارا نحو اثني عشر كيلومتراً ، وصلا إلى قرية كبيرة ، واجتازا فيها . كان الحر قد اشتد ، واحس إليشا أنه منهوك ، فأراد أن يستريح قليلاً ويشرب ، إلا أن إيفيم لم يتوقف . وقد كان إيفيم أقواهما في المشي ، فصعب على إليشا أن يلحق به .

وقال إليشا : "لو استطيع فقط أن أشرب!"

فقال إيفيم : "طيب ، إذهب واشرب! انا لا اريد ماء!"

وتوقف إليشا قائلاً : "تابع سيرك ، اما انا فسأسرع إلى ذلك الكوخ الصغير هناك ، فأشرب والحقك بعد هنيهة!"

قال إيفيم : "حسنا!" ثم سار على قارعة الطريق وحده ، فيما عاد إليشا إلى الكوخ مسرعاً .

كان كوخاً صغيراً مملّطاً بالطين ، وقد طُلي أسفله باللون الأسود ، أما أعلاه فبالكلس الأبيض ، ولكن الطين كان قد تفتت وتقشر ، وكان واضحاً أنه لم يُملّط ويُطلَ ثانية منذ عهد بعيد ، وقد تدلى خشب السقف جانباً في موضع منه . أما مدخل الكوخ فكان عبر الفناء .

ولما دخل إليشا الفناء ، رأى بلزق مصطبة ممتدةٍ حول الكوخ رجلاً هزيلاً غير ملتح مستلقياً هناك ، واطراف قميصه مدسوسة في بنطلونه ، على عادة أهل "روسيا الصغرى" . وخُيل إلى إليشا أن الرجل قد استلقى في الظل ، ولكن الشمس كانت في كبد السماء ، وهو عرضة لحرها الآن . ومع أنه لم يكن نائماً ، فقد ظل راقداً هناك . وناداه إليشا طالباً شربة ماء ، إلا أنه لم يجب .

ففكر إليشا : "لا بد أن يكون إما مريضاً ، وإما قليل المودة ." ثم اقترب

من الباب فسمع بكاء طفل في الداخل . فأمسك بحلقة الباب التي تؤدي دور مسكته ، وقرع بها ، منادياً : "هاي ، ايها السادة!"

ولم يكن جواب ، فقرع ثانية بعصاه قائلاً : "هاي ، يا شعب المسيح!"
ولم يتحرك شيء ، فنادى : "هاي ، يا عباد الله!" ولم يسمع جواباً .

وإذ هم بأن يمضي ، خُيل إليه أنه سمع أنيناً خلف الباب .

"ويلاه! لا شك أن مصيبة قد حلت بأهل هذا البيت! خير لي أن ألقي نظرة ."

ثم دخل إليشا الكوخ .

4

أدار إليشا حلقة الباب الذي لم يكن موصداً ، ففتحه ودخل الرواق ، وإذا باب الجلوس مفتوح ، وإلى اليسار موقد من القرميد ، وقرب الحائط في الصدر رف إيقونات وأمامه طاولة ، وإزاء الطاولة بنك جلست عليه عجوز لا ترتدي إلا ثوباً واحداً ، ورأسها العاري مسند إلى الطاولة ، وبقربها صبي نحيل ، أصفر كالشمع ، منتفخ البطن . كان يطلب منها شيئاً وهو يشد بكمَها ويبكي بكاءً مُرّاً .

دخل إليشا الغرفة ، وكان هواء الكوخ فاسداً نتناً . فأجال بصره فإذا خلف الموقد امرأة راقدة على الأرض . كانت مستلقية وعيناها مغمضتان وحنجرتها تخرخر ، تمد رجلاً ثم تسحبها ، وتتقلب من جنب إلى جنب ، وقد انبعثت منها الرائحة الكريهة . فبدا جلياً أنها عاجزة عن خدمة نفسها وليس لها مَن يعتني بها .

ورفعت العجوز رأسها ، فرأت الغريب ، وسألته : "ماذا تريد ؟ ما حاجتك يا رجل ؟ ليس عندنا شيء!"

ففهم إليشا مقصدها ، مع أنها تكلمت بلهجتها المحلية ، وقال : "دخلت إليكم ، يا عباد الله ، في شربة ماء ."

"لا أحد هنا ، لا أحد . وليس لنا ما نستقي به . فامضِ في سبيلك!"

فسألها إليشا : "عجباً! أليس عندكم أحد مُعافى بحيث يُعنى بهذه المرأة ؟"

"لا ، لا أحد ، ابني يموت خارجاً ، ونحن نموت هنا ."

أما الصغير ، فلما رأى الغريب كفّ عن البكاء . ولكن لما شرعت العجوز تتكلم ، عاد يبكي ، وشدّها بكمّها أيضاً ، صارخاً :

"خبزاً ، يا جدتي ، خبزاً!"

وهم إليشا بأن يستفسر العجوز ، فإذا بالرجل يدخل الكوخ مترنّحاً ، ثم يسير في الرواق مستنداً إلى الحائط . ولكن فيما هو يدخل غرفة الجلوس ، هوى أرضاً عند العتبة ، وشرع يتكلم بغير أن يحاول النهوض لعلّه يصل إلى البنك . وكانت كلماته متقطعة ، يقول كلمة ثم يتوقف ليأخذ نَفَساً ويقول أخرى لاهثاً :

"لقد حل بنا المرض والجوع . . . ها هو يموت جوعاً ."

ثم أومأ برأسه نحو الصبي ، وطفق يبكي .

فنتر إليشا كيسه من خلف كتفه ، وجذب سيوره ، ووضعه على الأرض ثم رفعه إلى البنك ، وحل السيور . وفتح الكيس ، وتناول رغيفاً من الخبز ، وقطع منه بسكّينه قطعة ، وقدمها إلى الرجل . فأبى أن يأخذها ، لكنه اشار إلى الصبي ، وإلى بنت صغيرة رابضة قرب الموقد ، وكأنه يقول : "أعطهما إياها!"

فمد إليشا يده بالخبزة إلى الصبي . وما إن اشتمّ هذا رائحة الخبز ، حتى مد ذراعيه وأخذ قطعة من الخبز بيديه الصغيرتين ، وقضم منها قضمة عميقة

أخفت أنفه فيها . ثم خرجت الفتاة الصغيرة من وراء الموقد وسمّرت عينيها على الخبـز . فناولها إليشـا قطعـة منه . ثم قطع قطعة أخرى وقـدمها إلى العجـوز ، فبدأت تمضغها بلا هوادة .

وقالت :

"لو يؤتى إليهم ببـعض المـاء ، فأفواههم جافّة . وقد حـاولت أمس ، او اليوم ، لا اذكـر ، أن أسـتقي بعض المـاء ، لكنني وقعت ولم أقو على إكمـال العمل ، وقد بقي الدلو هناك ، إلا إذا كان أحد قد أخذه ."

وسأل إليشـا عن مكان البـئر ، فـدلّته العجوز . فـخرج ، وأخـذ الدلو ، واسـتقى ماء ، وسـقاهم جميعاً . وقد اكل الولدان والعجوز بعض الخبز مع الماء ، أما الرجل فلم يأكل ، وقال :

"لا أستطيع أن آكل".

وفي تلك الأثناء لم يبدُ على المرأة الشابة ما يدل على أنها واعية ، وظلت تتقلب من جنب إلى جنب .

وما لبث إليشـا أن انطلق إلى دكـان القـرية ، واشـتـرى شـيئـاً من الدّخن والملح والطحين والزيت . ثـم وجد فـأسـا ، فـشـقق بعض الحطب ، وأوقد النار . واقبلت الصغيرة فـساعدته ، وطبخ بعض الحسـاء ، وقدم للعائلة الجائعة طعاماً .

5

اكل الرجل قليلاً ، وكذلك العجوز ، ولعق الصغيران الصحن لعقاً ، ثم انثنيا وناما متعانقين .

عندئذ شرع الرجل والعجوز يخبران إليشا كيف صارت العائلة إلى تلك الحال ، فقالت العجوز :

"كنا نعيش على الكفاف قبلاً ، ولكن لمّا أمحل الزرع لم يكفنا ما عندنا حتى آخر الخريف إلا بشق النفس . حتى إذا حل الشتـاء ، كان كل ما ادّخرناه

قد نفد ، فاضطُررنا إلى الاستعطاء من الجيران ، ومن كل قادر . فكانوا يعطوننا أولاً ، ثم بداوا يرفضون . ولو كان عند بعضهم ما يعطون لسرّهم أن يعينونا . وقد كنا نستحي أن نطلب ، حتى بتنا مديونين لكل جيراننا بالمال والطحين والخبز ."

وقال الرجل : "ذهبت أبحث عن عمل ، فلم أعثر على شيء . فالناس في كل مكان كانوا يعرضون أن يشتغلوا بلقمتهم . وكنت يوماً أجد عملاً قصير الأمد ، ثم أقضي يومين غيره في البحث . ثم أخذت العجوز والفتاة تتسولان في القرى الأخرى . لكنهما ما كانتا تعودان إلا بالنزر اليسير جداً ، إذ كان الخبز نادراً للغاية . ومع ذلك هبّشنا وحبّشنا من هنا وهناك ، وكنا نرجو أن نقطع الحال حتى الموسم المقبل . ولكن قُبيل الربيع كف الناس عن العطاء . ثم حل بنا هذا المرض ، فساءت الحال أكثر فأكثر . فكنا نأكل يوماً ، ونجوع يومين . حتى بدأنا نأكل العشب . وقد مرضت زوجتي ، من العشب أو من غيره ، لست أدري . فما عادت تقوى على الوقوف ، وأنا لم تبق في قوة ، وليس عندنا ما يعيننا على النهوض ."

ثم أضافت العجوز :

"كافحت وحدي حيناً ، ولكن في الأخير خارت قواي أيضاً من الجوع ، واعتراني الوهن . والصغيرة أيضاً ضعفت وباتت شديدة الخوف . وقد طلبت إليها أن تذهب إلى الجيران ، فأبت مغادرة الكوخ ، وزحفت إلى زاوية من زوايا البيت ، وربضت هناك . وأمس الأول قصدت إلينا إحدى الجارات ، ولكن لما رأتنا جياعاً ومرضى ، تحولت وتركتنا على حالنا . وكان زوجها قد اضطر إلى الرحيل ، وليس عندها ما تطعم به صغارها . وهكذا انطرحنا ننتظر الموت ."

وحالما سمع إليشا قصتهم ، تخلى عن فكرة اللحاق برفيقه ذلك اليوم ، وبات عندهم الليل كله . ثم نهض في الصباح وشرع يهتم بالشؤون المنزلية ،

وكأن البيت بيته . فعجن مع العجوز ، وأوقد النار . ثم توجه مع الصغيرة إلى الجيران طلباً للحاجات الضرورية جداً ، إذ لم يكن في الكوخ شيء ، فقد بيع كل شيء لشراء الخبز ، من أواني الطبخ والثياب وما شابه . وهكذا أخذ إليشا يستعيد ما هو ضروري ، صانعاً بنفسه بعض الأشياء ومشترياً بعضها . ولبث هناك يوماً ، ثمّ آخر ، ثمّ ثالثاً . وتقوى الصغير ، فصار إذا قعد إليشا يدبّ إليه على البنك ويجلس في حضنه . كذلك ابلّت الصغيرة وأخذت تساعد في شغل البيت ، راكضة خلف إليشا ، ومنادية إياه : "جدّي ، جدّي!"

واستعادت العجوز كامل قوتها ، فاستطاعت أن تذهب إلى إحدى جاراتها . كذلك أيضاً تحسنت حال الرجل ، وصار قادراً على التنقل مستنداً إلى الجدار . ولكن الزوجة وحدها ظلت لا تقوى على النهوض . غير أنها هي أيضا استعادت وعيها في اليوم الثالث وطلبت أن تأكل .

وفكر أليشا : "عجباً! لم أتوقع قط أن أُضيِّع وقتاً بهذا المقدار على الطريق . فعلي الآن أن أواصل السفر ."

6

صادف اليوم الرابع عيد ما بعد الصوم . ففكر إليشا : "سأبقى وأعيّد مع هذه العائلة . سأذهب وأشتري لهم شيئاً ونعيّد معاً ، ثم مساء الغد أستأنف سفري ."

وهكذا مضى إلى القرية ، حيث اشترى لبناً حليباً ودقيق قمح ودهناً ، وساعد العجوز في الطبخ والخبز وصنع الكعك للغد . وفي يوم العيد صلى في الكنيسة ، ثم أفطر مع أصدقائه الجدد في الكوخ . في ذلك اليوم قامت الزوجة ، وبدأت تمشي قليلاً . وحلق الزوج لحيته ، وارتدى قميصاً نظيفاً كانت العجوز قد غسلته له ، ثم ذهب يسترحم فلاّحاً غنياً في القرية رهن عنده حقله ومرجه ، راجياً منه أن يأذن له باستخدام المرج والحقل إلى ما بعد الحصاد . إلا أنه في

المساء رجع حزيناً جداً ، وطفق يبكي . فالفلاح الغني لم يُبدِ نحوه أية رحمة ، بل قال : "أحضر لي مالي!"

واستغرق إليشا في التفكير من جديد : "كيف سيعيشون الآن ؟ سوف يجمع غيرهم التبن والقش ، ولن يكون لهؤلاء ما يجزّونه لأن مرجهم مرهون . وسوف يحصد الآخرون حقولهم (وما أحسن غلة الأرض المعطاء هذه السنة!) . أما هم فليس لهم ما يرجونه ، لأن حقلهم مرهون عند ذلك الفلاح الغني . فإذا غادرتهم ، يعودون إلى الحالة التي وجدتهم عليها ."

وتوزع إليشا رأيان ، لكنه أخيراً صمم ألا يغادر في ذلك المساء بل يتريث حتى الغد . ثم خرج إلى الفناء لينام ، فتلا صلاته واضطجع ، لكنه لم يستطع أن ينام . فمن جهة ، شعر بأن عليه أن يواصل سفره ، لأنه قد ضيّع كثيراً من الوقت وأنفق من ماله . ومن جهة أخرى ، أشفق على تلك العائلة . وقد قال لنفسه :

"يبدو أن الأمر لن يقف عند حد . فقد نويت في البدء فقط أن أستقي لهم بعض الماء ، وأعطي كلاً منهم كسرة خبز ، ولكن أين صرت! فأنا الآن أمام قضية فك رهن للمرج وحقل الحنطة . وإن فككت الرهن ، فسينبغي لي أن اشتري لهم بقرة ، وللرجل حصاناً كي ينقل الحزم . يا لها من ورطة أوقعت نفسك فيها ، يا إليشا! لقد أرخيت حبالك وضيّعت حسابك!"

ثم جلس إليشا في مرقده ، ونشر معطفه الذي كان قد طواه تحت رأسه كالوسادة . وسحب علبة السَّعوط فاستنشق قليلاً منه لعله يسعفه في جلاء التفكير .

ولكن لا! فعبثاً حكّ دماغه وحث فكره . كان عليه أن يمضي ، إلا أن الشفقة قيدته ، فلم يدر ما يفعل . وعاد فطوى معطفه ودسه تحت رأسه ، ولبث مستيقظاً وقتاً طويلاً حتى صاحت الديوك أول مرة . إذ ذاك بدأ النوم يغطغط عليه ، فغفا . وفجأة بدا له كأن أحداً أيقظه . فرأى نفسه مرتدياً ثياب السفر ،

وعلى كتفه كيسه ، وبيده عصاه ، وألفى الباب منفتحاً فتحة يسيرة بحيث استطاع أن يحشر نفسه عبره . وكان يوشك أن يخرج من الباب ، فعلق كيسه بالسياج من جهة ، وحاول أن يحرره ، إلاّ أن عصابة رجله علقت من الجهة الأخرى بالسياج فانحلّت . وجذب الكيس ، فتبين له أنه لم يعلق بالسياج ، بل كانت البنت الصغيرة ممسكة به وهي تبكي وتصرخ : "خبزاً ، يا جدي ، خبزاً!"

ونظر إلى قدمه فإذا الصبي الصغير ممسك بعصابة رجله ، فيما رب البيت والعجوز ينظران إليه من النافذة .

إذ ذاك استيقظ إليشا وقال لنفسه بصوت مسموع :

"غداً افك رهن ارضهم ، واشتري لهم حصاناً وطحيناً يكفيهم حتى الحصاد ، وبقرة للصغيرين . وإلاّ ، فبينما أذهب إلى ما وراء البحار بحثاً عن الرب ، أفقده داخل نفسي؟"

ثم نام إليشا حتى الصباح . ونهض مبكراً ، فذهب إلى الفلاح الغني ، وفك رهن الحقل والمرج كليهما . واشترى ايضاً منجلاً كبيراً وعاد به ، إذ كان المنجل أيضاً قد بيع . ثم أرسل الفلاح ليجز العشب ، ورجع هو إلى القرية . فقد سمع أن حصاناً وعربة معروضان للبيع في سوق القرية ، فعقد صفقة مع مالكهما ، واشتراهما . ثم اشترى كيس طحين كبيراً ، ووضعه في العربة ، وذهب يبحث عن بقرة . وبينما هو ماض في سبيله ، أدرك امرأتين تتحدثان وهما سائرتان . ومع أنهما كانتا تتكلمان باللهجة المحلية ، فقد فهم ما كانتا تقولان :

"لم يعرفوه في بادئ الأمر ، وظنوا انه مجرد رجل عادي . دخل يطلب شربة ماء ، ثم بقي عندهم . فكري فقط في ما اشتراه لهم! يقولون إنه اشترى لهم حصاناً وعربة من السوق هذا الصباح! ليس في العالم كثير من أمثاله . ألا يجدر بنا أن نذهب لنلقي نظرة عليه؟"

سمعهما إليشا تتحدثان ، ففهم أنهما كانتا تمدحانه . ولم يذهب لشراء

البقرة ، بل عاد إلى السوق ، واكمل ثمن الحصان ، ثم شدّه إلى العربة ، وساق إلى الكوخ ، وترجّل . واعترت الدهشة أهل البيت لما رأوا الحصان . حسبوا أن يكون لهم ، لكنّهم لم يجرؤوا أن يسألوا . وأقبل الفلاح يفتح الباب ، ثم سأل :

"أنى لك هذا الحصان ، يا جدّ ؟"

فقال إليشا : "لقد اشتريته . كان معروضاً بسعر رخيص . إذهب وجز بعض العشب وضعه في المذود أمامه كي يأكل ليلاً . وأدخل كيس الطحين ."

فك الرجل الحصان ، وحمل الكيس إلى الحظيرة . ثم جز بعض العشب ووضعه في المذود . وأوى الجميع إلى فُرُشهم . أما إليشا فخرج إلى الفناء ، واضطجع قرب الطريق ، وقد حمل كيسه معه ذلك المساء . وفيما الجميع نيام ، نهض ، وربط كيسه ليحمله على كتفه ، ولف عصائب الكتان على ساقيه ، وانتعل حذاءه ، وتلفّع بمعطفه ، وانطلق كي يلحق بإيفيم .

7

بعدما قطع إليشا نحو خمسة كيلومترات ، بدأ الصباح يطلع . فقعد تحت شجرة ، وفتح كيسه ، وعد ماله ، فتبين له أنه قد بقي لديه فقط سبعة عشر روبلاً وعشرون كوبيكاً .

وفكر : "لا نفع في عبور البحر بهذا المبلغ . وإن استعطيتَ لأجل أجرة سفري ، فربما كان ذلك أسوأ من عدم ذهابي قطعاً . سوف يصل صديقي إيفيم إلى مدينة القدس وحده ، ويوقد شمعة عني . أما أنا فأخشى ألا أتمكن أبداً من وفاء نذري في حياتي . وينبغي لي أن أكون شكوراً لأني نذرت النذر لسيد رحيم يغفر للخطأة ذنوبهم"

ثم نهض ، وثبّت كيسه على كتفيه ، وقفل . ورغبة منه في ألا يعرفه أحد ، دار دورة حول القرية ، ومشى يغذّ السير نحو بلده .

لما سار على تلك الطريق مبتعداً عن بيته ، استصعب ذلك ، وشق عليه إدراك إيفيم . أما الآن ، في سفر العودة ، فقد أعانه الله على قطع المسافات حتى لم يكد يشعر بالتعب . وبدا له المشي اشبه بلعب الأولاد ، إذ مضى في سبيله يرجّح عصاه ، قاطعاً كل يوم نحو سبعين كيلومتراً .

ولما وصل إليشا إلى بيته ، كان الحصاد قد انتهى . وسُرّت عائلته برؤية وجهه ثانية ، ورغب الجميع في معرفة ما جرى : لماذا وكيف تخلف عن إيفيم ؟ ولماذا عاد دون الوصول إلى مقصد حجّه ؟ غير أنه لم يفضِ إليهم بشيء ، بل قال :

"لم يشأ الله أن أصل إلى القدس . ذهب مالي في الطريق ، وتأخرت عن رفيقي . أرجو أن تسامحوني باسم الرب!"

وناول زوجته العجوز ما بقي معه من المال . ثم سألهم عن شؤون المنزل ، فإذا كل شيء يسير على ما يرام ، وقد انجز العمل كله دون إهمال شيء ، والجميع يعيشون في سلام ووئام .

وسمعت عائلة إيفيم برجوع إليشا ذلك النهار ، فجاؤوا يسألونه عن شيخهم ، فقدم إليهم الجواب نفسه ، قائلاً :

"إيفيم مشاء! وقد افترقنا قبل عيد القديس بطرس بثلاثة أيام ، ونويت أن ألحق به ، ولكن حدثت أمور شتى ، ولم يعد معي مال ، وما كان لي سبيل إلى إكمال السفر ، فقفلت ."

وقد دهش أهل البلد لأن رجلاً فطناً مثله يتصرف تصرفاً طائشاً كذاك ، فينطلق مسافراً ولا يبلغ مقصده ، ويبذر كل ماله! وظلوا حيناً يتساءلون ، ثم نسوا ذلك كله ، ونسيه إليشا أيضاً .

عاد يعمل في أرباض داره . وعاونه ولداه في قطع الحطب وتشقيقه

للشتاء ، والنساء في دراس الحنطة . وأصلح سقوف الحظائر ، وآوى النحل تحت سقائف . وسلّم جاره الخلايا العشر التي باعها منه في الربيع ، وجميع الطرود التي طلعت منها . وقد حاولت زوجته كتم عدد الطرود التي انبثقت من تلك الخلايا ، لكنه علم جيداً أية خلية طرّدت وأيها لم تطرّد . فبدل أن يسلّم جاره عشرة طرود جديدة ، أعطاه سبعة عشر طَرَداً .

وإذ أعدّ إليشا كل شيء للشتاء ، أرسل ابنه كي يبحث عن عمل ، فيما عكف هو على صنع أخفافٍ من اللّحاء ، وتجويف جذوع شجر يصنع منها خلايا للنحل .

8

حين مكث إليشا في الكوخ مع العائلة المريضة ، انتظره إيفيم طوال النهار . ولم يقطع إلا مسافة قصيرة قبل أن يقعد ليستريح . ولبث ينتظر وينتظر ، ثم نام قليلاً ، وعاد فاستيقظ وراح ينتظر من جديد . إلا أن رفيقه لم يعد . وقد حملق حتى كلت عيناه وآلمتاه . فالشمس كانت تتوارى خلف شجرة ، ولكن لم يظهر لإليشا أي أثر .

وفكر إيفيم : "لعله جاوزني ، أو لعل احداً اقلّه في عربة عبرت عني وأنا نائم ، فلم يرني . ولكن كيف لا يراني ، ومدى الرؤية في هذه الأراضي المنبسطة بعيد ؟ أأرجع ؟ وهبه سبقني ، فسيضيع أحدنا الآخر كلياً وتغدو الحال أسوأ . خير لي أن أواصل سيري ، ولا بد من أن نلتقي عندما نميل كي نبيت ."

ووصل إلى قرية ، وأوصى الحارس قائلاً : "إذا أقبل شيخ أصلع قصير القامة ، فأحضره إلى الكوخ الذي سأبيت فيه ." ولكن لم يظهر لإليشا أثر تلك الليلة . فواصل إيفيم سيره ، سائلاً كل من لقيه في الطريق عن رفيق دربه . ولكن أياً ممن سألهم لم يكن قد رأى مسافراً كذاك . وساءل إيفيم نفسه

كثيراً ، لكنه عاد فانطلق ممنّياً نفســه بأن يلتقي إليشا حتماً في أوديسا أو على متن السفينة ، ولم يعد يزعج خاطرة بالتفكير في الأمر .

وعلى الطريق صادف حاجّاً يرتدي ثوب كاهن ، طويل الشعر ، وعلى رأسه قلنسوة كالتي يعتمرها الكهنة . كان هذا الحاجّ قد زار جبل آثوس ، وهو متوجه إلى القدس في حِجّة ثانية . فقد توقف كلاهما للمبيت في مكان واحد ، وإذ تلاقيا هناك ، ترافقا في السفر .

بلغ المســافران أوديسا بسلام ، حيث اضطرا إلى الانتظار ثلاثة أيام ريثما يوفّقان إلى سفينة . وكانت تلك حال كثيرين من الحجاج الذين وفدوا من أنحاء شتى . ومن جديد سأل إيفيم عن إليشا ، إلا أن أحداً لم يكن قد رآه . واستحصل إيفيم على جواز سفر كلّفه خمسة روبلات . ودفع أربعين روبلاً أجرة السفر إلى القدس ذهاباً وإياباً ، واشترى زاداً من الخبز والسمك المقدّد للرحلة .

وشرع الحاجّ يشرح لإيفيم كيف كان يمكنه الصعود إلى السفينة دون أن يدفع الأجرة ، لكن إيفيم ابى الإصغاء إليه ، وقال له : "كلا! لقد جئت مستعداً للدفع ، وسأدفع ."

ثم حُمّلت السفينة ، وصعد الحجاج إلى متنها ، وبينهم إيفيم ورفيقه الجديد . ثم رفعت المراسي ، واقلعت السفينة .

أبحروا طول النهار إبحاراً هادئا ، ولكن قبيل الليل هبت ريح شديدة ، وهطل المطر ، فأخذت السفينة تترنح ودخلها الماء . فذَعِر المسافرون ، وراحت النساء يولولن ويصرخن ، وأخذ بعض الرجال غير الأشداء يركضون في السفينة من جهة إلى أخرى بحثا عن ملجأ . وذَعِر إيفيم أيضاً ، إلا أنه تمالك نفسه ، وبقي حيث استقر لما صعد إلى متن السفينة أولاً ، على مقربة من بعض الشيوخ الآتين من تامبوف . فهنالك قعدوا صامتين ، طوال الليل والنهار التالي ،

متشبثين بأكياسهم . وفي اليوم الثالث هدأ البحر ، ثم في الخامس رست السفينة في القسطنطينية ، ونزل منها بعض الحجاج لزيارة كنيسة آيا صوفيا التي كانت تحت سيطرة الأتراك آنذاك .

أما إيفيم فبقي على متن السفينة ، لكنه اشترى شيئاً من الخبز الأبيض . وبعدما توقفت السفينة هناك أربعاً وعشرين ساعة ، أبحرت من جديد . كذلك توقفوا أيضاً في سميرنا وفي الاسكندرية ، لكن أخيراً وصلوا إلى يافا سالمين . وهناك كان على جميع الحجاج أن ينزلوا ، ويسيروا على البر فوق ستين كيلومتراً حتى يصلوا إلى القدس . وعند النزول من السفينة أصابهم الذعر أيضاً . فقد كانت السفينة عالية ، ودلّي المسافرون منها إلى قوارب كانت تترجح كثيراً بحيث كان سهلاً أن يقعوا في البحر إذا تدلّوا خارج القارب . وقد تبلل اثنان منهم فعلاً ، لكنهم أخيراً وصلوا جميعاً إلى البر بسلام .

ثم تابعوا السفر مشياً على الأقدام ، وفي اليوم الثالث وصلوا إلى مدينة القدس . وتوقفوا في ظاهر المدينة حيث الفندق الروسي ، فخُتِمت جوازات سفرهم . وبعد الغداء ، زار إيفيم الديار المقدسة بصحبة رفيقه الحاج . لم يكن قد حان موعد زيارة القبر المقدس الذي منه قام المسيح حيّاً من الموت ، فذهبوا إلى البطريركية ، حيث احتشد الحجاج كلهم . وهناك فُصِلت النساء عن الرجال ، وطُلب إلى هؤلاء أن يقعدوا حفاة في حلقة . ثم جاء راهب يحمل طستاً ومنشفة ليغسل أقدامهم جميعاً . وقد غسلها ومسحها ثم قبّلها . وغسل قدمي إيفيم وقبّلهما أيضاً . ثم شارك إيفيم في الصلوات المقامة وهو واقف ، وأوقد شمعاً أمام المزارات ، وكتب اسمي والديه في دفتر خاص كي يُذكرا في الصلوات الكنسية . وفي البطريركية قُدِم إليهم طعام وشراب . ثم في الصباح ذهبوا لزيارة صومعة مريم المصرية التي عاشت فيها تائبة عاكفة على الصلاة . وهناك أيضاً وُضِعت شموع مضاءة .

ومن هناك ذهبوا إلى دير إبراهيم الخليل ، ورأوا المكان الذي فيه كاد إبراهيم ينحر ابنه أضحيَة لله . ثم زاروا المكان الذي فيه ظهر المسيح لمريم المجدلية ، وكنيسة يعقوب أخي الرب . وكان الحاجّ يُري إيفيم جميع هذه الأمكنة ، ويقول :

"لقد سُرِقت محفظتي ، وفيها ثلاثة وعشرون روبلاً : ورقتان من فئة العشرة ، والباقي فراطة!"

ثمّ تأوّه الحاجّ وتشكّى كثيراً . ولكن إذ لم يكن باليد حيلة ، استلقيا كي يناما .

9

وبينما إيفيم مستلقٍ هناك ، ساورته وساوس الغواية ، فقال لنفسه : "لا ، لم يُسرَق أي مال من هذا الحاج . ولست أعتقد أنّه كان يحمل مالاً . وهو ما دفع شيئاً في أي مكان ، بل جعلني أنا ادفع ، بل إنه اقترض مني روبلاً ."

وما إن خطرت هذه الفكرة في باله ، حتى لام نفسه قائلاً : "أي حق لي في الحكم على إنسان ؟ ذلك إثم ، ولن افكر فيه بعد!" ولكن حالما بدأت أفكاره تسرح ، عادت إلى الحاجّ : "كم بدا شديد الشغف بالمال ، وكم بدا مصطنَعاً ادعاؤه أن محفظته قد سرقت!

وفكر : "ما كان يحمل أي مال . فهذا محض اختلاق!"

ثم في المساء نهضا من قيلولتهما ، وذهبا لحضور قدّاس نصف الليل في كنيسة القيامة الفخمة ، حيث قبر المسيح الفارغ . وظل الحاج ملتصقا بإيفيم ، يلازمه أينما ذهب . حتى بلغا الكنيسة ، فإذا جمع غفير من الحجاج ، بعضهم روس والآخرون مختلفو الجنسيات : يونان وأرمن وأتراك وعرب .

وعبر إيفيم الأبواب المقدسة مع الجمع ، ثم أرشدهم راهب إلى المكان الذي فيه أُنزِل المسيح المُنجّي من على الصليب إعداداً لدفنه ، فجاوزوا الحرس

التركي ووصلوا إلى حيث كانت الشموع مضاءة في تسع ثريات كبيرة ، وكان الراهب يدلّهم على كل شيء ويفسّره لهم .

هناك اوقد إيفيم شمعة . ثم اقتاده الحاج إلى اليمين وصعد به درجات موضع الجمجمة إلى المكان الذي فيه نُصِب صليب المسيح . فصلّى إيفيم هناك . بعدئذ شاهد الجرف الصخري حيث انشقت الأرض حتى أعمق أعماقها ، ثم المكان الذي فيه سُمّرت يدا المسيح وقدماه على خشبة الصليب ، ثم قبر آدم الذي يقال إنّ قطرات من دم المسيح روت عظامه . ثم شاهد الحجر الذي قعد عليه المسيح لمّا وُضع إكليل الشوك على رأسه ، ثم العمود الذي أوثِق به عندما جُلِد . ثم شاهد الحجر المثقوب ثقبين حيث وطئته قدما المسيح . وكان على وشك مشاهدة غير ذلك ، فتدافع الجمع مسرعين إلى كنيسة القبر الفارغ بالذات ، حيث كان القداس اللاتيني قد انتهى ، والقدّاس الروسي قد بدأ توّاً . فصحب إيفيم الجمع إلى مغارة القبر الفارغ المنقورة في الصخر .

وحاول إيفيم أن يتخلص من الحاجّ الذي إليه كان ما يزال يخطئ في فكره ، غير ان الحاج أبى أن يتركه ، بل صحبه إلى القدّاس الذي اقيم عند القبر الفارغ . وقد حاولا التقدم اكثر ، إلا أنهما كانا قد تأخرا . فقد كان الزحام خانقاً حتى استحال التحرك إلى الأمام أو إلى الوراء . ووقف إيفيم هناك يصلّي ناظراً قُدّامه ، متلمّساً محفظته بين الفينة والفينة . لقد توزعه فكران ، فحيناً يخيّل إليه ان ذلك الحاج يخدعه ، وحيناً يفكر في أنه إن كان الحاجّ يقول الحق وقد سرقت محفظته فعلاً ، فقد يحدث له هو الشيء عينه .

10

وقف إيفيم هناك يحملق إلى المحراب الذي يحتوي القبر المقدس ، وفوقه ستة وثلاثون مصباحاً متوهجاً . وبينما هو واقف ينظر من فوق الرؤوس ، إذ رأى مشهداً عجباً فاجاه : فتحت المصابيح التي أوقدت فيها النار المقدسة ، وأمام

الجمع كله ، راى إيفيم شيخاً في معطف رمادي ورأسه الأصلع اللماع مثل رأس إليشا بودروف!

فقال إيفيم لنفسه : "إنه يشبه إليشا ، ولكن لا يمكن أن يكون هو إياه . لا يعقل أن يكون قد سبقني . السفينة التي أبحرت قبل سفينتنا سبقتنا بثمانية أيام ، فلا يمكن أن يكون قد ادركها . وهو لم يكن على متن سفينتنا ، لأنني رأيت كل حاجٍ على متنها ."

وما كاد إيفيم يفكر بذلك ، حتى بدأ الشيخ القصير القامة يصلّي ، وقد انحنى مرة ساجداً لله ومسلّماً على إخوانه الحجّاج مرتين ، إلى يمينه وإلى يساره . وإذ ادار رأسه إلى اليمين ، عرفه إيفيم ، فإذا هو إليشا بودروف نفسه ، بلحيته السوداء الجعدة التي شاب عِذاراها ، وبحاجبيه وعينيه وأنفه وملامح وجهه . بلى ، إنه هو نفسه .

سُرّ إيفيم جداً بالعثور على رفيقه من جديد ، وتعجب من وصوله إلى القدس قبله .

وفكر : "نِعمًا يا إليشا! ها انت قد سبقت الجميع! لعله عثر على من دله إلى الطريق . حين نخرج من هنا ألقاه ، فأتخلص من هذا الحاج المقلنس ، والازم إليشا ، عسى أن يريني كيف أصل إلى المقدمة!"

وظل إيفيم مثبتاً نظره على إيفيم لئلاً يضيعه . ولكن لما انتهى القدّاس ، اخذ الجمع يتزاحم ويتدافع للوصول إلى القبر المقدس وتقبيله ، ودفعوا إيفيم جانباً . فاستولى عليه أيضاً الخوف من سرقة محفظته . فشد عليها بيده ، وشق طريقه بمنكبيه تائقاً إلى الخروج من الزحام . حتى إذا تيسر له الإفلات ، مضى يبحث طويلاً عن إليشا ، خارج الكنيسة وداخلها . وقد رأى في أرباض الكنيسة ناساً كثيرين من كل نوع ، يأكلون ويشربون ، أو يقرأون وينامون هناك . إلا أن أثراً واحد لإليشا لم يظهر في أيّ مكان . ومن ثم عاد إيفيم إلى الفندق بغير أن يلتقي رفيق سفره . وذلك المساء ، لم يعد الحاج ذو القلنسوة أيضاً . فقد

توارى دون أن يرد لإيفيم الروبل المقترض . وهكذا بات إيفيم وحيداً .

في صباح الغد ذهب إيفيم ثانية إلى القبر المقدس يصحبه شيخ من تامبوف كان قد التقاه على متن السفينة . وحاول أن يصل إلى المقدمة ، لكنه دُفع إلى الوراء ، فوقف قرب عمود وطفق يصلّي . وتطلع قدامه ، وإذا به يرى في الصدر تحت المصابيح ، بلزق القبر الفارغ تماماً ، إليشا واقفاً ويداه ممدودتان ككاهن عند المذبح ، ورأسه الأصلع يبرق كله!

فحدّث نفسه : "حسناً! هذه المرة لن أدعه يفلت مني!"

ومضى قُدماً دون إبطاء ، فبلغ المقدمة ، ولكن لما تلفت لم يجد إليشا ، فقدّر أن يكون قد ذهب .

وفي اليوم الثالث أيضاً تطلع إيفيم فرأى عند القبر ، في المكان الأقدس ، إليشا واقفاً بمشهد من الجميع ، ويداه مشبوحتان ، وعيناه شاخصتان إلى العلاء وكأنه يرى أحداً هناك ، ورأسه الأصلع يلمع كله .

فقال في نفسه : "طيب! هذه المرة لن يفلت من يدي! سأذهب وأقف عند الباب ، فلا يفوت أحدنا الآخر!"

ثم خرج إيفيم ووقف عند الباب ، ولبث هناك حتى العصر . لقد انصرف الجميع ، إلا أن إليشا لم يظهر .

أقام إيفيم ستة أسابيع في القدس ، وزار الديار المقدسة كلها ، من بيت لحم إلى بيت عنيا إلى نهر الأردن . وقد ختم كفناً جديداً بختم القبر المقدس كي يُكفن به عند موته ، وملأ قنينة بماء الأردن . كما حمل حفنة من التراب المقدس ، واشترى شمعاً أُوقِد من الشعلة المقدسة . ودوّن في ثمانية أماكن أسماء أشخاص يود أن يُصلّى لأجلهم . وأنفق كل ما يحمله من مال ، إلا ما يحتاج إليه في طريق العودة . ثم انطلق راجعاً إلى بلده . فنزل إلى يافا سيراً على قدميه ، ومنها أبحر إلى أوديسا . ثم سافر ماشياً إلى قريته .

11

سافر إيفيم عائداً في الطريق الذي سار فيه لما انطلق . وكلما اقترب من بلده ، زاد قلقه بشأن سير الأمور في اثناء غيابه . اما يقولون : "من الحول إلى الحول تتقلب الأحوال" ؟ وفكر : "إن بناء بيت يستغرق عمراً كاملاً ، أما تخريبه فلا يلزمه طويل وقت ." وساءل نفسه : كيف دبر ابنه شؤون المنزل دونه ، وأيّ ربيع جاء على عائلته ، وكيف مرّ الشتاء على الماشية ، وهل أنجز الكوخ حسناً ؟

ولما وصل إيفيم إلى المنطقة التي افترق فيها عن إليشا في الصيف الماضي ، لم يكد يصدق أن أهلها كانوا هم أنفسهم . فقبل سنة كانوا على شفا الموت جوعاً ، ولكنهم آنذاك كانوا عائشين في يسر . فقد كانت الغلال جيدة ، فازدهرت أحوال الفلاحين ونسوا بؤسهم .

وذات مساء وصل إيفيم إلى المكان الذي فيه تخلف عنه إليشا ، وإذ دخل القرية ، خرجت راكضة من احد الأكواخ فتاة صغيرة ترتدي فستاناً فضفاضاً ، وقالت له :

"جدي ، جدي ، هيا إلى بيتنا!"

وهمّ إيفيم بأن يجاوزها ، إلا انها لم تدعه ، بل أمسكت بمعطفه ضاحكة وجرته إلى الكوخ ، حيث خرجت إلى المدخل امرأة معها صبي صغير واومأت له بيدها قائلة :

"هيا ، يا جد ، تعشّ عندنا وبت!"

فلبى إيفيم الدعوة ، قائلاً في نفسه : "يمكنني أيضاً أن أسأل عن إليشا ، إذ يخيّل إلي أن هذا هو الكوخ الذي قصد إليه في شربة ماء!"

عاونته المرأة على إنزال كيسه ، وأحضرت له طست ماء ، ليغسل وجهه

ويديه ، وأجلسته إلى المائدة ، حيث وضعت لبناً حليباً وكعكاً وثريداً .
فشكرها إيفيم وأثنى على لطفها تجاه حاجّ نظيره .

فهزت المرأة رأسها قائلة : "عندنا سبب وجيه للترحيب بالحجاج . فواحد من الحجاج بيّن لنا حقيقة الحياة . كنا نعيش ناسين الله ، فعاقبنا الله حتى كدنا نموت . ففي الصيف الماضي وصلنا إلى حالة تدعو إلى الرثاء ، بحيث انطرحنا جميعنا مرضى لا حول لنا ولا قوة ، وليس عندنا شيء نأكله . وكدنا نموت لو لم يرسل الله إلينا شيخاً ليساعدنا ، شيخاً كريماً مثلك . فقد دخل علينا يوماً يطلب شربة ماء ، فرأى حالتنا وأشفق علينا ، ومكث عندنا . وأطعمنا وسقانا وأوقفنا على أقدامنا ثانية ، وفك رهن أرضنا ، واشترى لنا عربة وحصاناً ."

إذ ذاك دخلت العجوز ، فقاطعت المرأة وقالت :

"إنساناً كان أم ملاكاً من عند الله ؟ لسنا ندري! لقد أبدى لنا المحبة جميعاً ، وأشفق علينا جميعاً ، ثم رحل بغير أن يقول لنا ما اسمه ، حتى إننا لا نعلم لأجل مَن نصلّي شاكرين . يحضرني المشهد كله الآن! كنت مضطجعة هناك بانتظار الموت ، فدخل شيخ أصلع . كان زريّ الهيئة ، وطلب شربة ماء . وتبادر إلى ذهني ، أنا الخاطئة ، هذا الفكر : "ماذا يبتغي هذا المتسكع منا ؟" ولكن احزر ما فعل! حالما رآنا على حالنا ، أنزل كيسه عن ظهره في هذا المكان بالذات ، وحله . . ."

وهنا انضمت الصغيرة إلى الحديث ، فقالت : "لا ، يا جدتي . أولاً أنزل الكيس هنا في وسط الكوخ ، ثم رفعه إلى البنك ."

ومضين يتباحثن ويتذكرن كل ما قاله وما عمله ، وأين جلس ونام ، وماذا قال لكل منهن .

وفي أول الليل جاء الفلاح أيضاً ممتطياً الحصان ، فأخذ هو أيضاً يتحدث عن إليشا وكيف عاش معهم ، وقال :

"لو لم يأتِ ، لمتنا كلنا غير مغفوري الذنوب . فقد كنا نموت في يأسنا ، متذمرين على الله والناس . غير أنّه أقامنا على أقدامنا من جديد ، وبواسطته تعلّمنا أن نعرف الله ، وأن نؤمن بأن في الإنسان خيراً ما . باركه الرب! كنا نعيش عيشة الحيوانات ، فجعلنا بشراً!"

وبعدما أكل إيفيم وشرب ، دلوه على موضع نومه ، وناموا هم أيضاً .

اضطجع إيفيم ، لكنه لم يستطيع أن ينام . ولم يقدر على تحويل أفكاره عن إليشا ، بل تذكر كيف رآه في القدس ثلاث مرات واقفاً في المقام الأول .

وخطر في باله هذا الفكر : "إذاً ، هكذا سبقني إليشا! ربما تقبل الله حجتي ، أو ربما لم يتقبلها ، ولكنه تعالى قد تقبل حجة إليشا يقيناً!"

وفي صباح الغد ودع إيفيم أهل البيت ، بعدما كانوا قد دسوا في كيسه بعض الأقراص المحشوة لحماً قبل انصرافهم إلى عملهم ، ثم مضى في سبيله .

12

غاب إيفيم عن بلده سنة كاملة . ولما وصل إلى بيته عائداً من رحلة الحج كان الربيع قد بدأ . لم يكن ابنه في البيت ، بل في الحانة ، وعندما عاد إلى البيت كان ثملاً . وبدأ إيفيم يسأله عن الأحوال ، فتبين له أن ذلك الشاب اللاهي لم يقم بواجبه في أثناء غياب أبيه . فقد بذر المال ، وأهمل الأعمال . وشرع أبوه يوبخه ، لكنه رد بفظاظة :

"لماذا لم تبق أنت وتعتن بالشؤون بنفسك ؟ لقد رحلت حاملاً المال ، والآن تطالبني به!"

فغضب الشيخ وضرب ابنه .

وفي صباح الغد ذهب إيفيم إلى شيخ القرية ليشكو ابنه إليه . وبينما هو مارّ أمام بيت إليشا ، حيّته زوجة صديقه من أمام بابها ، قائلة :

"مرحباً يا جار! كيف حالك أيها الصديق العزيز ؟ هل أتممت حجتك بسلام ؟"

فتوقف إيفيم وقال :

"نعم ، والحمد لله . لقد ذهبت إلى القدس وعدت . وقد أضعت شيخك ، لكن سمعت أنه عاد سالماً ."

وكانت العجوز تهوى الثرثرة ، فقالت :

"نعم ، لقد عاد يا جار . عاد منذ مدة طويلة . عاد بُعيد عيد الصعود ، كما أعتقد . وقد سُررنا لأن الرب رده إلينا! كنا ضائعين في غيابه . ومع أننا لا نتوقع منه أن يقوم بكثير من الأعمال بعد ، إذ مضت سنو عمله ، فهو ما زال رأس البيت ، والحال بوجوده أسعد . وكم كان ابننا مسروراً! حتى إنه قال : "كنا كمن يعيش بلا شمس عندما كان أبي غائباً!" نعم ، كانت الحال لا تطاق في غيابه ، أيها الصديق العزيز . إننا نكن له كل الحب ، ونعامله أحسن معاملة ."

"أهو الآن في البيت ؟"

"نعم ، أيها الصديق العزيز . إنه مع نحله ، يؤوي الطرود . يقول إنّ النحل طردت طروداً جيدة هذه السنة . لقد بارك الرب نحلنا كثيراً ، حتى إن زوجي لا يذكر أنه شاهد مثل هذا النجاح قبلاً . وهو يقول : "إن الرب لم يجازنا حسب خطايانا ." هلم أيها الجار الطيب! سيُسر بلقائك من جديد ."

اجتاز إيفيم الممر ، وعبر الفناء ، وبلغ المنحلة ، كي يرى إليشا . وإذا إليشا هناك ، بمعطفه الرمادي ، بلا قفازين ولا قناع ذي منخل ، يقف تحت أشجار البتولا ناظراً إلى العلاء ، ويداه ممدودتان ، ورأسه الأصلع يلمع ، تماماً كما رآه إيفيم عند القبر الفارغ في مدينة القدس ، ومن فوقه ترامت أشعة

الشمس من بين قضبان البتولا متراقصة ، مثل ألسنة اللهب في القدس ، والنحل الذهبي يتطاير حول رأسه كالهالة ، دون أن يلسعه .

وتوقف إيفيم ، فنادت العجوز زوجها صارخة :

"ها قد حضر صديقك!"

فالتفت إليشا ، فانفرجت أساريره ، وأقبل نحو إيفيم ، طارداً النحل عن لحيته بكل رفق .

"نهارك سعيد يا جار . نهارك سعيد ، يا صديقاً عزيزاً . هل أنجزت حجتك بسلام ؟"

"نعم ، وسرت في الأماكن المقدسة ، بقدميّ هاتين ، وقد أحضرت لك بعض الماء من نهر الأردن . عليك أن تأتي إلى بيتي لتأخذه . أمّا هل تقبل الله سعيي . . ."

فقال إليشا : "حمداً للرب ، باركك المسيح! "

ولبث إيفيم صامتا هنيهة ، ثم قال :

"لقد كانت رجلاي هناك ، ولكن هل كانت هناك بأكثر صدقاً نفسي او نفس آخر . . ."

فقاطعه إليشا : "ذلك شأن الله ، يا جار ، شأن الله!"

وقال إيفيم : "وفي طريق عودتي ملت إلى الكوخ الذي مكثت أنت فيه . . ."

فذعر إليشا ، وبادر قائلاً :

"ذلك شأن الله ، يا جار ، شأن الله! هلا تدخل كوخنا لأعطيك شيئاً من عسلنا!"

وغيّر إليشا مجرى الحديث ، فتكلم عن شؤون البيت .

ثم تنهد إيفيم ، ولم يتحدث عن أهل الكوخ ولا كيف رأى إليشا في القدس . ولكنه آنذاك أدرك أن أفضل سبيل لوفاء الإنسان بنذوره لله ، وللعمل بمشيئته تعالى ، إنما هو أن يُبدي المحبة ويصنع الخير للآخرين ، ما دام على قيد الحياة .

سنة 1885

7

حيثما تكن المحبة يكن الله

عاش في إحدى المدن سكّاف اسمه مارتن افديتش . كانت له غرفة صغيرة في قبو ، تطل نافذتها الوحيدة على الشارع . ومن خلالها كان للمرء أن يرى أقدام العابرين فقط ، ولكن مارتن كان يعرف الناس من أحذيتهم . فقد طال مقامه في ذلك المكان ، وصار له معارف كثيرون . حتى لم يكد يوجد في الجوار كله حذاء واحد لم تمسكه يداه مرة أو مرتين . وهكذا ، فغالباً ما كان يرى صنعة يديه من خلال النافذة . ومن الأحذية ما كان قد جدد نعله ، أو رقعه ، أو خاطه ، أو غيّر فرعته . وكان شغله كثيراً ، لأنه أتقن صنعته ، واستعمل افضل بضاعة ، ولم يطلب أثماناً ثقيلة ، وكان جديراً بالثقة . فإذا استطاع إنجاز عمله في الموعد المطلوب ، كان يقبله ، وإلا فإنه كان يقول الحق ولا يضرب مواعيد زائفة . وهكذا اشتهر ، وتوافر لديه شغل كثير .

كان مارتن رجلاً صالحاً طول عمره ، ولكن لما تقدم في السن ، ازداد تفكيره في حال نفسه ، وفي التقرب من الله اكثر . وفي أول أمره ، بينما كان ما يزال يعمل عند معلّم آخر ، قبل أن يستقل بعمله الخاص ، تُوفيت زوجته ، تاركة إياه مع صبي صغير في الثالثة من العمر . أما أولاده الأولون فقد ماتوا كلهم صغاراً . وفي البداية فكر مارتن بإرسال ابنه الصغير إلى كنف أخته التي تقيم في الريف ، ولكن في ما بعد شق عليه أن يفترق عن صغيره ، مفكراً برأسه : "سيكون صعباً على صغيري كابيتون أن ينشأ في عائلة غريبة ، فسأبقيه معي!"

ثم ترك مارتن رب عمله ، واستأجر مسكناً أقام فيه مع ابنه الصغير . ولكنه كان قليل الحظ في أولاده . فما إن بلغ الصبي عمراً يستطيع فيه أن يساعد أباه ، فيكون له عوناً ومصدر بهجة ، حتى حل به المرض ، ثم خطفه الموت بعد لزومه الفراش أسبوعاً انتابته فيه الحمى الفتاكة . وبعدما دفن مارتن ابنه ، غرق في لجة يأس جارف ، حتى إنه تذمر على الله . وفي غمرة حزنه صلّى مراراً وتكراراً ، طالباً أن يموت هو أيضاً ، معاتباً الله لأنه أخذ منه ابنه الوحيد الذي أحبه فيما أبقاه ، هو الشيخ ، على قيد الحياة . ومن ثَمّ انقطع مارتن عن الذهاب إلى الكنيسة .

وذات يوم عرّج على مارتن شيخ من قريته يعيش عيشة الحجاج منذ ثماني سنين ، وكان عائداً من دير الثالوث . فأفضى إليه مارتن بدخيلة نفسه ، مطلعاً إياه على حزنه الشديد ، قائلاً له :

"لم تعد لي حتى أدنى رغبة في الحياة ، أيها القدّيس . وكل ما أطلبه من الله هو أن أموت عاجلاً . فما عاد لي أي رجاء في هذا العالم" .

فأجابه الشيخ : "لا يحق لك ، يا مارتن ، أن تقول أقوالاً من هذا النوع . فليس لنا أن نحكم على طرق الله . وما يقدّر ويقرّر هو مشيئة الله ، لا تفكيرنا نحن . فما دام الله قد شاء أن يموت ابنك وتبقى أنت حياً ، فلا بد أن يكون ذلك هو الأفضل . أما اليأس المستبد بك ، فمردّه إلى كونك راغباً في أن تعيش لسعادتك الشخصية ."

وسأله مارتن : "لأي شيء آخر ينبغي أن يعيش المرء ؟"

فقال الشيخ : "لله ، يا مارتن . إنه يهبك الحياة ، وله يجب أن تعيش . فعندما تتعلم أن تعيش له ، يولّي حزنك ، ويهون عليك كل شيء ."

وصمت مارتن هنيهة ، ثم سأل : "ولكن كيف يعيش المرء لله ؟"

فأجابه الشيخ : "لقد علّمنا المسيح كيف يمكن أن يعيش المرء لله . هل تحسن القراءة ؟ إذاً اشترِ نسخة من الإنجيل المقدس واقرأها ، تتعلم كيف يريد الله أن تعيش . فكل شيء واضح هناك ."

دخلت هذه الكلمات أعماق قلب مارتن . وفي ذلك اليوم بالذات ، ذهب واشترى لنفسه كتاب العهد الجديد (الإنجيل المقدس) المطبوع بالحرف الكبير ، وبدأ يقرأ فيه .

نوى في البداية أن يقرأ في أيام الأعياد . ولكنه ما إن شرع في القراءة حتى شعر براحة قلب عظيمة ، فأخذ يقرأ يومياً . وكان يستغرق أحياناً في قراءة الإنجيل حتى ينفد الزيت من القنديل قبل أن ينسلخ عن الكتاب العزيز . وواظب على القراءة كل ليلة ، فكان كلما قرأ ازداد إدراكاً لما يطلبه الله منه ولكيفية العيش لأجله تعالى . وأخذ قلبه يطيب ويستريح أكثر فأكثر . وبعدما كان يأوي إلى الفراش مثقل القلب ، آناً عند التفكير بصغيره كابيتون ، بات الآن لا يكرر إلاّ القول : "المجد لك يا رب ، المجد لك! لتكن مشيئتك!"

ومنذ ذلك الحين تغيرت حياة مارتن . فقد كان في ما مضى يذهب إلى الحانة ، إذا حل يوم عطلة ، حيث يشرب شيئاً من الشاي ، بل إنه لم يكن يعزف عن تناول كأس أو كأسين من الفودكا . وكان أحايين ، بعد أن يشرب قليلاً مع صديق ، ويغادر الحانة لا سكران بل جذلان ، ويتفوه ببعض الكلمات الخفيفة ، صارخاً على أحدهم أو معنّفاً إياه . أما الآن فقد أقلع عن ذلك كله ، وباتت حياته حياة سلام وفرح : في الصباح يعكف على عمله ، وحين ينهي شغل يومه يُنزل القنديل المعلق على الحائط ويضعه على الطاولة ، ثم يأتي بالكتاب العزيز من على الرف ، ويفتحه ، ويقعد يقرأ . وكلما قرأ ، ازداد إدراكاً ، وغدا ذهنه أكثر جلاءً وفرحاً .

واتفق ذات مرة أن تأخر مارتن عن النوم وهو مستغرق في القراءة . كان

يقرأ في الإنجيل كما دوّنه البشير لوقا ، وفي الأصحاح السادس ، طالع الآيات التالية :

"من ضربك على خدك ، فاعرض له الآخر أيضاً . ومن أخذ رداءك ، فلا تمنعه ثوبك أيضاً . وكل من سألك فأعطه ؛ ومن أخذ الذي لك فلا تطالبه . وكما تريدون أن يفعل الناس بكم ، افعلوا أنتم أيضاً بهم هكذا ."

ثم قرأ أيضاً الآيات التي فيها يقول ربّنا :

"ولماذا تدعونني : يا رب ، يا رب ، وأنتم لا تفعلون ما أقوله ؟ كل من يأتي إلي ويسمع كلامي ويعمل به ، أُريكم من يشبه : يشبه إنساناً بنى بيتاً ، وحفر وعمّق ، ووضع الأساس على الصخر . فلما حدث سيل ، صدم النهر ذلك البيت ، فلم يقدر أن يزعزعه ، لأنه كان مؤسساً على الصخر . وأما الذي يسمع ولا يعمل ، فيشبه إنساناً بنى بيته على الأرض من دون أساس ، فصدمه النهر ، فسقط حالاً ، وكان خراب ذلك البيت عظيماً ."

وإذ قرأ مارتن هذا الكلام ، فرحت نفسه داخل كيانه . فنزع نظّارته ووضعها على الكتاب ، وأسند مرفقيه على الطاولة ، وجعل يفكر في ما قرأ . ثم فحص حياته بمعيار هذا الكلام ، سائلاً نفسه :

"أعلى الصخر بيتي مبني أم على الرمل ؟ إن كان على الصخر ، فخير وبركة! يبدو الأمر في منتهى السهولة عندما أجلس هنا وحدي ، ثم اظن أنني فعلت كل ما يوصي به الله ، ولكن حالما اكف عن الاحتراس ، أعود إلى الإثم . ومع ذلك سوف أثابر على الخير . فيا له من فرح غامر يأتيني به! عونك يا رب!"

فكر بذلك ، وهم بالإخلاد إلى النوم ، ولكن عز عليه أن يرخي كتابه من يده . فتابع القراءة في الفصل السابع ، عن إيمان قائد المئة وإقامة ابن الأرملة من الموت وجواب المسيح عن سؤال يوحنّا المعمدان ، حتى وصل إلى الجزء الذي يتحدث عن دعوة الفريسي الغني للمسيح وضيافته له في بيته ، وقرأ عن

المرأة التي كانت خاطئة كيف دخلت البيت ودهنت قدميه بالطيب وغسلتهما بدموعها ، وكيف غفر لها الرب وبرّرها . ثم وصل إلى الآية الرابعة والأربعين ، فقرأ :

"ثم التفت إلى المرأة وقال لسمعان : أتنظر هذه المرأة ؟ إني دخلت بيتك ، وماءً لأجل رجليّ لم تعط . وأما هي فقد غسلت رجليّ بالدموع ، ومسحتهما بشعر رأسها . قبلة لم تقبلني ، وأما هي فمنذ دخلتُ لم تكف عن تقبيل رجليّ . بزيت لم تدهن رأسي ، وأما هي فقد دهنت بالطيب رجليّ ."

قرأ هذه الآيات ، وشرع يفكر : "ماءً لأجل رجليه لم يعط ؛ قبلة لم يقبله ، بزيت لم يدهن رأسه . ." ثمّ نزع نظارته أيضاً ، ووضعها على كتابه واستغرق في التفكير .

"لا بد أن ذلك الفرّيسي كان مثلي . فهو أيضاً فكر في نفسه فقط ؛ كيف يتناول فنجان شاي ، وكيف يظل مطمئناً مستريحاً . إنه لم يكترث لضيفه قط ، بل عُني بمصلحة نفسه فقط ، وأما بضيفه فلم يهتم قط . ومع ذلك فمن كان الضيف الشريف ؟ ألم يكن هو الرب نفسه ؟ فإن دخل الرب بيتي ، فهل أتصرف كما تصرف ذاك ؟"

ثم وضع مارتن رأسه على كلتا ذراعيه ، وغطغط النوم عليه ، فنام وهو لا يعي .

وفجأة سمع صوتاً يقول "مارتن!" وكأن أحداً همس بالكلمة في أذنه .

فاستيقظ تواً ، وسأل : "من هناك ؟"

والتفت إلى الباب مستشرفاً ، فلم يجد أحداً هناك . ونادى ثانيةً ، فسمع صوتاً جلياً يقول له : "مارتن! مارتن! انظر جيداً إلى الشارع غداً ، فأنا آتٍ!"

وهنا تنبه مارتن ، وقام عن كرسيه ، وفرك عينيه ، لكنه لم يعلم أفي حلم سمع تلك الكلمات أم في يقظة . فأطفأ القنديل ، وأخلد إلى النوم .

وفي صباح الغد ، نهض مارتن فجراً ، ثم تلا صلاته ، وأشعل الموقد ، وشرع يطبخ حساء ملفوف وعصيدة . ثم هيأ إبريق الشاي ، وارتدى وزرته ، وقعد قبالة النافذة إلى منضدة عمله . وبينما هو يعمل ، لم تبرح فِكرَةَ أحداث الليلة المنصرمة . وقد بدا له تارةً أنه رأى حلماً ، وخيل إليه طوراً أنه سمع صوتاً بالفعل ، وجال في خاطره أن أموراً من هذا النوع حدثت في ما مضى .

وهكذا قعد قرب النافذة ينظر إلى الشارع أكثر مما يشتغل ، حتى إذا مر أحدٌ منتعلاً حذاءً لم يألفه ينحني ويستشرف كي يرى وجه العابر فضلاً عن قدميه .

ومر بوّاب بيت منتعل حذاء لبّاد جديداً ، ثم سقّاء . وحالاً أقبل صوب النافذة جندي قديم من عهد نيقولا الأول وفي يده رفش . وقد عرفه مارتن من حذائه البالي المصنوع من اللبّاد والمكسوَ بالجلد . كان اسم هذا العجوز استيبانيتش ، وقد آواه تاجر في الجوار على سبيل الإحسان ، وكانت وظيفته أن يعاون بواب البيت . وبدأ الجندي الشيخ يجرف الثلج من قُدّام نافذة مارتن . فنظر إليه مارتن نظرة سريعة ، ثم عكف على عمله .

وبعد قليل قال مارتن لنفسه ضاحكاً من تخيلاته : "لا شك أن الخبل يعتريني مع تقدّم سني : يأتي استيبانيتش لجرف الثلج ، وأنا أتصور أنه المسيح وقد أتى يزورني! يا لي من عجوز خَرِف!"

ومع ذلك ، فبعدما غرز نحو اثنتي عشرة غرزة ، شعر بشيء يجذبه كي ينظر خارج النافذة من جديد . فإذا استيبانيتش قد أسند رفشه إلى الحائط وأخذ إما يستريح وإما يستدفىء . وكان ذلك الرجل قد شاخ ووهن ، حتى لم تعد فيه قوة ولو لجرف الثلج ، على ما يبدو .

ففكر مارتن : "لم لا أدعوه إلى هنا وأقدم له فنجان شاي ؟ أن الإبريق يكاد يغلي ."

ثم غرز مخرزه في موضعه ، وقام فوضع الإبريق على الطاولة وصنع شاياً . ثم نقر النافذة بأصابع يده . فالتفت استيبانيتش واقترب من النافذة . وأشار إليه مارتن أن ادخل ، ثم توجه ليفتح له الباب . وقال له : "ادخل ، واستدفىء قليلاً . أنا على يقين بأنك مقرور!"

فأجاب استيبانيتش "باركك الله! لقد خرق البرد عظامي ." ودخل بعدما نفض الثلج عن ثيابه أولاً ، ثم مسح نعليه حتى لا يبلل أرضية الغرفة ، لكنه ترنح وكاد يهوي أرضاً .

فقال له مارتن : "لا داعي إلى تجفيف نعليك . سوف أمسح أرضية الغرفة ، فهذا جزء من عمل يومي . هيا ، يا صاح ، اقعد واشرب بعض الشاي!"

ثم ملأ فنجانين ، وقدم إلى ضيفه واحداً ، ثم سكب الآخر في صحن فنجانه ، وأخذ يبرّده نافخاً .

وشرب الضيف فنجانه ، ثم قلبه رأساً على عقب ، ووضع ما تبقى من قطعة السكر فوقه . وبدأ يعبّر عن امتنانه ، ولكن بدا واضحاً أنه يود لو يشرب بعد .

فقال مارتن : "هيا ، تناول فنجاناً ثانياً!" وهو يملأ من جديد فنجان الضيف وفنجانه . ولكن بينما كان مارتن يشرب فنجانه ، ظل يتطلع إلى الشارع .

وسأله الضيف : "هل تنتظر أحداً ؟"

"هل أنتظر أحداً ؟ إنني أستحي أن أقول لك . فلست بالحقيقة أنتظر أحداً ، ولكنني البارحة سمعت شيئاً لا يمكنني أن أحوّل فكري عنه . أرؤيا كان أم وهماً ، لست أدري . إنما أقول لك ، يا صديق ، إنني كنت البارحة أقرأ في الإنجيل عن المسيح الرب : كيف عانى وكيف سار على أرضنا . لعلك سمعت شيئاً من أخباره ، على ما أظن ."

"نعم ، بلغني شيء من ذلك ، ولكنني رجل أمي لا أعرف القراءة ."

"لا بأس! لقد كنت أقرأ عن مسعاه على هذه الأرض . ووصلت إلى الفصل الذي يصف دخوله بيت الفريسي الذي لم يحسن استقباله . وإذ قرأت ذلك ، يا صديقي ، فكرت كيف لم يستقبل الفريسي المسيح الرب بالإكرام اللائق به . وقلت : لو أن أمراً كهذا حصل لرجل مثلي ، لما توانيت عن شيء كي أستقبله أحسن استقبال! غير أن ذلك الرجل لم يُبدِ له حسن استقبال قط . وبينما أنا ، يا صديقي ، أفكر في ذلك ، غطغط علي النوم . وما إن غفوت ، حتى سمعت شخصاً ينادي باسمي . فأفقت ، وخُيّل إلي أنني سمعت شخصاً يهمس في أذني : "انتظرني ؛ فأنا آت غداً ." وتكرّر الأمر مرتين . وأصدقك القول إن ذلك استحوذ على أفكاري حتى بت أنتظر الرب الكريم بنفسه ، مع أنني أستحي بهذا!"

فهز استيبانيتش رأسه صامتاً ، ثم أتى على فنجانه ، وقلبه على جنبه ، لكن مارتن عدله وملأه له مرة أخرى قائلاً : "هاك فنجاناً آخر ، فاشربه على بركة الله! وقد كنت أيضاً أفكر كيف سار المسيح على هذه الأرض دون أن يحتقر أحداً ، بل عاشر عامة الناس أكثر من سواهم . فقد جال بصحبة البسطاء ، واختار تلاميذه من بين قوم مثلنا نحن أصحاب الحِرَف البسيطة ، نحن الخطاة . وقد قال : "من ترفع يذل ، ومن اتضع يرفَع ." وقال : "أنتم تدعونني سيداً ومعلماً ، وأنا أغسل أقدامكم ." وقال : "من أراد أن يكون الأول ، فليكن خادماً للجميع ." وسبب ذلك ، كما قال ، أنّ الله يبارك الفقراء ، والمتضعين ، والودعاء ، والراحمين!"

ونسي استيبانيتش فنجان الشاي الموضوع أمامه . كان شيخاً تدمع عيناه بسهولة . وفيما هو قاعد يصغي ، جرت الدموع على خديه . فقال له مارتن : "هيا ، اشرب بعد!" ولكنه صلّب على وجهه ، وشكره ، وأبعد فنجانه ، وقام .

ثم قال : "شكراً لك يا مارتن أفديتش . لقد قدمت الغذاء والعزاء لنفسي وجسمي على السواء ."

فرد مارتن : "أهلاً وسهلاً! تعال مرة أخرى . يسرني أن أستقبل ضيفاً عزيزاً ."

ثم مضى استيبانيتش ، وصب مارتن ما بقي من الشاي وشربه . ثم أعاد عدة الشاي إلى مكانها ، وقعد يعمل مقطباً مؤخر حذاء . وبينما هو يغرز القطب ، ظل يتطلع من النافذة ، منتظراً المسيح ، مفكراً فيه وفي أعماله ، كما شغلت رأسه أقوال المسيح .

ومرّ جنديان يحتذي أحدهما حذاء عسكرياً ، والآخر حذاء عادياً ، ثم رب بيت مجاور ينتعل حذاء مطاط لماعاً ، ثم خبّاز يحمل سلة . هؤلاء كلهم مروا وعبروا . ثم أقبلت امرأة ذات جوربين من صوف ، وحذاء من صنع الفلاحين ، وجاوزت النافذة ، لكنها توقفت قرب الحائط . فتطلع إليها مارتن من خلال النافذة ، ورأى أنها غريبة رثة الثياب ، وعلى ذراعيها طفل . وقد وقفت قرب الحائط وظهرها إلى الريح ، محاولة أن تلف الطفل جيداً مع أنها لم تكد تملك ما تلفه به . فهي نفسها كانت ترتدي فقط ثياباً صيفية أشبه بالأسمال البالية . ومن النافذة ، سمع مارتن الطفل يبكي ، والمرأة تحاول أن تهدّئه ، لكنها لا تفلح . فقام حالاً وخرج من الباب ، وصعد على الدرج ، وناداها : "يا ست ، يا ست!"

فسمعت المرأة والتفتت نحوه . فقال لها : "لمَ تقفين خارجاً مع الطفل في البرد ؟ هيا إلى الداخل . تستطيعين أن تلفيه جيداً في مكان دافىء . تعالي من هنا!"

فوجئت المرأة برؤية شيخ ذي وزرة ، وعلى أنفه نظارة ، يناديها ويدعوها ، لكنها لحقت به إلى الداخل . فهبطا الدرج ، ودخلا الغرفة الصغيرة ، ودلها الشيخ على السرير قائلاً : "اقعدي هناك ، يا بنتي ، قرب الموقد . استدفئي وأطعمي الطفل ."

فقالت : "ليس عندي حليب . فأنا لم آكل شيئاً منذ الفجر" ، ولكنّها قرّبت الطفل إلى صدرها رغم ذلك .

فهز مارتن رأسه ، وأحضر قصعةً وخبزاً . ثمّ فتح بُوَيب الموقد ، وسكب شيئاً من حساء الملفوف في القصعة . وأخرج قدر العصيدة أيضاً ، ولكنها لم تكن قد نضجت . فبسط شرشفاً على الطاولة وقدم للمرأة حساءً وخبزاً فقط .

"اقعدي ، يا بنتي ، وكلي . وأنا أعنى بالطفل . لا بأس! فقد كان لي أولاد ، وأعرف كيف أعتني بالأطفال ."

فصلّبت المرأة ، ثم جلست إلى الطاولة وبدأت تأكل ، فيما أنام مارتن الطفل على السرير وقعد قربه . وحاول أن يناغي الطفل بأصوات يصدرها بلسانه ، لكنه لم يستطع لأنه كان بلا أسنان ، فظل الطفل يبكي . ثم حاول مارتن أن يلكز الطفل بإصبعه ، فقربها إلى فمه ثم سحبها مسرعاً ، وأعاد الكرة مرة بعد مرة . لكنه لم يدع الطفل يطبق شفتيه على إصبعه ، لأنها كانت سوداء من شمع السكّافين . إلا أن الطفل سكت أولاً إذ راقب الإصبع ، ثم أخذ يضحك . وشعر مارتن بسرور زائد .

أما المرأة فقعدت تأكل وتتكلم ، وأخبرت مارتن مَن هي وأين كانت ، فقالت :

"أنا زوجة جندي . وقد بُعث زوجي في مهمة إلى بلاد بعيدة منذ ثمانية أشهر ، ومنذئذٍ لم يصلني منه أي خبر . كنت أعمل طبّاخة في بيت ، ولكن أهله ابوا أن يُبقوني عندهم مع طفلي . وها أنا أكافح منذ ثلاثة أشهر ، ولم أحصل على عمل ، وقد اضطررت إلى بيع كل ما عندي في سبيل لقمة العيش . وحاولت أن أعمل مرضعة ، ولكن لم يستخدمني أحداً ، وقال لي الجميع إنني هزيلة ونحيلة . وقد عدت لتوّي من عند زوجة تاجر ، تخدمها امرأة من قريتنا ، وتلك وعدتني بأن تستخدمني . فحمدت الله على ذلك ، ولكنها أجلتني أسبوعاً . إنها

تسكن بعيداً ، وأنا مكدودة منهوكة ، وطفلي المسكين مُخوّر جوعاً . ومن حسن حظنا أن مالكة مسكننا لا تتقاضى مني أجراً ، وإلا فما كنت أدري ما أفعل!"

فتنهد مارتن ، وسألها : "أما عندكِ ثياب تدفىء ؟"

قالت : "وأنى لي ثياب تدفىء ؟ أمس رهنت آخر وشاح عندي ببضعة كوبيكات!"

ثم تقدمت المرأة وحملت الطفل ، فنهض مارتن ، وراح يفتش بين أشياء معلقة على الحائط ، ثم أحضر عباءة عتيقة . وقال :

"هاكِ! مع أنها بالية ، فهي تصلح لأن تلفلفي الطفل بها ."

نظرت المرأة إلى العباءة ، ثم إلى الشيخ ، وأخذتها بعينين دامعتين . فأشاح مارتن وجهه ، وانحنى تحت السرير ، فأخرج صندوقاً صغيراً ، وراح يفتش فيه ، ثم عاد فجلس قبالة المرأة . فقالت له : "باركك الرب أيها العم الكريم . لا شك أن المسيح قد أتى بي إلى نافذتك ، ولولا ذلك لكان الطفل تجمّد . كان الطقس لطيفاً لمّا خرجت ، ولكن الآن انظر كم صار بارداً . بلى ، لا شك أن المسيح دفعك لأن تنظر خارج نافذتك ، وتعطف علي أنا المسكينة!"

فابتسم مارتن وقال : "حقاً قلتِ! فهو من دفعني إلى ذلك . وليس صدفةً نظرت!"

ثم قص عليها حلمه ، وكيف سمع صوت الرب واعداً إياه بأن يزوره في ذلك اليوم .

فقالت : "من يدري ؟ كل شيء ممكن!" ثم نهضت وطرحت العباءة على كتفيها ، وتلفّعت بها هي والطفل . ثم انحنت شاكرة مارتن مرة أخرى .

وقال مارتن : "خذي هذه إكراماً للمسيح!" وناولها قطعة نقد صغيرة كي تفك رهن وشاحها . فصلّبت المرأة وصلّب مارتن أيضاً ، ثم شيّعها إلى الباب .

وبعد ذهاب المرأة ، أكل مارتن شيئاً من حساء الملفوف ، ونظف الطاولة ، ثم قعد يعمل . إلا أنه ما نسي النافذة . فكلما وقع عليها ظِل رفع رأسه حالاً لينظر مَن يمر . وعبر أشخاص يعرفهم ، وآخرون غرباء ، ولكن لم يكن بينهم من يلفت النظر .

بعد قليل شاهد مارتن بائعة تفاح تتوقف مقابل النافذة تماماً . كانت تحمل بيدها سلة كبيرة ، ولكن لم يبد أن فيها كثيراً من التفاح بعد ، فالظاهر أنها باعت معظم بضاعتها . وكان على ظهرها كيس حطب تأخذه إلى بيتها . ولا شك أنها جمعت قطع الحطب من ورشة بناء . وكان واضحاً أن الكيس آلمها ، فحاولت أن تنقله من كتف إلى كتف . إذ أسقطت الكيس على الرصيف ، ووضعت سلتها على أسطوانة حجرية ، وبدأت تهز قطع الحطب وتلبدها في الكيس . وبينما هي تفعل ذلك ، إذ ركض نحوها صبي يعتمر قبعة بالية ، وخطف من السلة تفاحة ، وحاول أن يهرب . ولكن البائعة العجوز تنبهت إليه ، فالتفتت وأمسكت به من كمه . فبدأ الصبي يتململ محاولاً الإفلات من قبضتها ، إلا أنها تشبثت به بكلتا يديها ، وأوقعت قبعته ، وشدت بشعر رأسه . فراح هو يزعق ، وجعلت هي تهدده وتعنفه . إذ ذاك ترك مارتن مخرزه من يده دون أن يغرزه في مكانه ، واندفع خارج الباب ، متعثراً على الدرج ، وموقعاً نظارته من عجلته ، حتى وصل إلى الشارع في الحال ، حيث كانت العجوز تشد شعر الصبي وتوبخه ، متوعدةً بجرّه إلى مخفر الشرطة . وكان الصبي يتخبط ويقاوم ويعترض قائلاً : "ما أخذت التفاحة! فعلامَ تضربينني ؟ أفلتيني!"

ففصل مارتن بينهما ، وأمسك بيد الصبي قائلاً : "اتركيه ، يا جدة . سامحيه إكراماً للمسيح!"

"سأعاقبه عقاباً لن ينساه سنة كاملة . سآخذ هذا الوغد إلى الشرطة!"

فأخذ مارتن يتوسل إليها . قال : "اتركيه ، يا جدة . لن يعيدها . دعيه يذهب كرمى للمسيح!"

عندئذ أرخت العجوز يدها عن الصبي ، فحاول هذا أن يهرب ، لكن مارتن أوقفه ، وقال : "اطلب إلى الجدة أن تسامحك! ولا تَعِد الكرة ثانية . أنا رأيتك تأخذ التفاحة ."

فأخذ الصبي يبكي ويطلب المسامحة .

فقال مارتن : "أحسنت . والآن خذ هذه التفاحة لك" ، ثم مد مارتن يده وتناول تفاحة من السلة وقدمها للصبي ، قائلاً للعجوز : "سأعطيك ثمنها ، يا جدة ."

فقالت العجوز : "بهذه الطريقة تفسد الأوغاد الصغار . كان ينبغي أن يُجلَد بالسوط بحيث تبقى الآثار على جسمه أسبوعاً ، فلا ينسى!"

قال مارتن : "لا ، أيتها الجدة الطيبة! تلك طريقتنا نحن ، لا طريقة الله . فإذا كان يُجلَد لسرقة تفاحة ، فماذا ينبغي أن يفعل بنا نحن لقاء خطايانا ؟"

فلم تُحِر العجوز جواباً .

وقص عليها مَثَل السيد الذي سامح خادمه بدين باهظ ، وكيف خرج الخادم وأخذ بخناق زميل له مَدين له بدين ضئيل . فأصغت المرأة ، إلى المثل كله ، فيما وقف الصبي أيضاً يصغي .

ثم قال مارتن : "الله يطالبنا بأن نسامح ، وإلا فلا يغفر هو لنا . فهلا تسامحين الجميع ، ولا سيما صبياً غِراً!"

فهزت المرأة رأسها ، وتنهدت قائلة : "صحيح! غير أنهم يصيرون فاسدين على نحو رهيب ."

فأجاب مارتن : "إذاً علينا نحن الكبار أن نعلّمهم طرقاً أفضل ."

وقالت العجوز : "ذلك هو ما أقوله أنا تماماً . وقد كان عندي سبعة أولاد ، ولكن لم تبق إلا ابنة واحدة ." ثم بدأت تخبر مارتن أين وكيف كانت تعيش مع ابنتها ، وكم حفيداً عندها . وقالت : "ها أنا الآن ولم تبق لي إلا قوة

يسيرة ، لكنني أشتغل بكد لأجل حفدائي ، وهم أولاد طيبون أيضاً . فلا أحد يخرج لملاقاتي إلا هؤلاء الأولاد . وأنّي الصغيرة لا تتركني لتذهب إلى أحد غيري ، وتظلّ تقول لي : "هذه جدتي ، جدتي العزيزة ، جدتي الحبيبة!" وفي الحال لانت العجوز كلياً عند هذه الفكرة ، وقالت عن الصبي : "طبعاً ، لم يكن ذلك إلا عملاً صبيانياً طائشاً . فليكن الله في عونه!"

وإذ كانت على وشك أن ترفع كيس الحطب إلى ظهرها ، تقدم الصبي إليها قائلاً : "دعيني أحمله عنك ، يا جدة . أنا ذاهب في الطريق ذاته ."

فأومأت العجوز برأسها موافقة ، ووضعت الكيس على ظهر الصبي ، وسارا في الشارع معاً ، وقد نسيت العجوز أن تطالب مارتن بثمن التفاحة . ووقف مارتن يشيعهما بنظراته فيما مضيا وهما يتحادثان . ولما غابا عن النظر ، عاد مارتن إلى البيت ، حيث عثر على نظارته سالمة على الدرج ، والتقط مخرزه ، ثم قعد يشتغل من جديد . وقد اشتغل قليلاً ، إلا أنه لم يستطع أن يرى بجلاء كي يُدخِل الخيط في ثقوب الجلد . وحالاً لاحظ مُشعِل المصابيح في طريقه لإنارة الشارع . فقال لنفسه : "يبدو أنه حان وقت الإنارة ." وسوّى فتيلة قنديله ، وأشعله ، وعاد فقعد يعمل ، حتى أنجز حذاءً واحداً ، فراح يقلبه بين يديه ويتفحصه ، فإذا به متقن جيداً . ثم جمع عدته ، ونظف الجذاذ ، ورفع الشمع والخيطان والمخارز ، ثم أنزل القنديل ، ووضعه على الطاولة . وأتى بالإنجيل من على الرف . وقد نوى أن يفتح الكتاب إلى الموضع الذي علّمه البارحة بجُذاذة جلد . غير أن الكتاب انفتح إلى موضع آخر . وما إن وضع مارتن الكتاب أمامه مفتوحاً ، حتى عاد إلى فكره حلم البارحة . وحالما فكر فيه ، خُيِّل إليه أنه سمع حس خطوات ، وكأن شخصاً يتحرك وراءه . فالتفت ، وإذا به يرى ما بدا أنه أناس واقفون في الزاوية المظلمة ، لكنه لم يستطع أن يعرف من هم . وهمس في أذنه صوت : "مارتن ، مارتن ، ألا تعرفني ؟"

فتمتم مارتن : "مَن هنا ؟"

قال الصوت : "هذا أنا!" ومن الزاوية المظلمة طلع استيبانيتش ، وابتسم ثم اختفى كغيمة عبرت .

ثم قال الصوت ثانية : "وهذا أنا!"ومن الظلمة برزت المرأة ، وطفلها على ذراعيها ، فابتسمت هي ، وضحك الطفل ، ثم اختفيا هما أيضاً .

ثم قال الصوت ثالثة : "وهذا أنا!" وبرزت العجوز والصبي حاملاً التفاحة ، فابتسما كلاهما ، ثم اختفيا هما أيضاً .

عندئذٍ ابتهجت نفس مارتن . فرسم إشارة الصليب ، ووضع نظارته على أنفه ، وطفق يقرأ في الإنجيل حيث انفتح من تلقاء ذاته ، فقرأ في رأس الصفحة :

" . .جعت فأطعمتموني ؛ عطشت فسقيتموني ؛ كنت غريباً فآويتموني ."

وفي أسفل الصفحة قرأ : "بما أنكم فعلتموه بأحد إخوتي ، هؤلاء الأصاغر ، فبي فعلتم ."

فتبين لمارتن أن حلمه قد تحقق ، وأن الفادي المُنجي قد أتى إليه في ذلك النهار ، وأنه رحب به .

سنة 1885

القسم الثالث

حكاية من حكايات الجن

8

قصة إيفان المغفّل

1

ذات زمان ، عاش في ولاية من الولايات ، ببلد من البلدان ، فلاح غني له ثلاثة أبناء : سيمون العسكري ، وتاراس البدين ، وإيفان المغفّل ، فضلاً عن ابنة لم تتزوج ، اسمها مرثا ، صماء بكماء .

خاض سيمون العسكري الحروب في خدمة الملك . وذهب تاراس البدين إلى محل تاجر في المدينة للاتّجار . أما إيفان المغفّل فبقي في البيت مع أخته ، يحرث الأرض حتى انحنى ظهره .

وبلغ سيمون العسكري رتبةً عليا ، واشترى عزبة ، وتزوج بابنة أحد النبلاء . وكان مرتّبه كبيراً ، وعزبته واسعة الأطراف ، إلاّ أنه لم يتمكن من الاقتصاد في الإنفاق ضمن حدود دخله . فما كسبه الزوج بذرته السيدة زوجته ، وكانا دائماً في حاجة إلى المال .

وهكذا ذهب سيمون العسكري إلى عزبته ليقبض دخلها ، ولكن وكيله قال : "أنى لنا أي دخل ؟ فلا ماشية عندنا ، ولا عدّة ، ولا حصان ، ولا محراث ، ولا مسحاة . علينا أولاً أن نأتي بهذه كلها ، ثم يأتي المال؟"

بعد ذلك قصد سيمون العسكري إلى أبيه وقال : "أنت ، يا أبي ، غني ، ولكنك لم تعطني شيئاً . فقسّم ما عندك ، وأعطني ثلثاً منه حتى أُحسّن حال عزبتي ."

ولكن أباه الشيخ قال : "إنك لم تأت بشيء إلى بيتي ، فلماذا أعطيك ثلثاً ؟ من شأن ذلك أن يكون مجحفاً بحق إيفان وأختك ."

إلا أن سيمون أجاب : "إنه مخبول ، وهي عانس ، عدا كونها طرشاء وخرساء ، فما نفع الأملاك لهما ؟"

فقال الشيخ : "لنر ما يقول إيفان في الأمر ."

وقال إيفان : "ليأخذ ما يريد!"

ومن ثَمّ أخذ سيمون حصته من أملاك أبيه وحولها إلى عزبته ، وعاد إلى خدمة الملك .

كذلك اصطنع تاراس البدين ثروة وافرة ، وصاهر أحد التجار ، لكنه ظل يبتغي المزيد . وهكذا اقبل هو ايضاً إلى أبيه وقال : "اعطني حصتي!"

ولكن الشيخ أبى أن يعطي تاراس ايضاً حصته ، وقال : "إنك لم تأت بشيء إلى هنا . وإيفان قد كسب لنا كل ما في بيتنا ، فلماذا نظلمه وأختك ؟"

إلا أن تاراس قال : "وإلامَ يحتاج ؟ إنه مخبول! لا يستطيع أن يتزوج ، فلا فتاة تقبله زوجاً ، والعانس الصماء لا تحتاج إلى شيء أيضاً ."

ثم قال لإيفان : "اسمع يا ايفان! أعطني نصف غلة الحنطة . لا أريد أية عدة . ومن البهائم آخذ فقط الجواد الأغبر ، فهو لا ينفعك في الحراثة ."

فضحك إيفان وقال : "خذ ما تشاء . سأشتغل كي أكسب المزيد ."

وهكذا أعطي تاراس أيضاً حصة ، فشحن الحنطة بالعربة إلى المدينة ، وأخذ الجواد الأغبر . ولم يبق عند إيفان إلا فرس هرمة ليستعين بها في شؤون الفلاحة ، ويعيل أباه وأمه .

2

إذ ذاك استشاط إبليس المحنك لأن الإخوة لم يتخاصموا بسبب القسمة ، بل افترقوا بسلام ، واستدعى ثلاثة من صغار العفاريت .

وقال لهم : "اسمعوا! هوذا ثلاثة إخوة : سيمون العسكري ، وتاراس البدين ، وإيفان المغفل . كان ينبغي أن يتخاصموا ، لكنهم يعيشون بسلام

ويجتمعون على ونام . لقد افسد إيفان المغفّل عملي كله . فاذهبوا أنتم الثلاثة الآن ، وهاجموا هؤلاء الإخوة الثلاثة ، وأقِضّوا مضاجعهم حتى يقلع بعضهم أعين بعض! أتظنون أنكم على هذا قادرون ؟"

فقال العفاريت الصغار : "نعم ، سوف نفعل ذلك ."

"وكيف ستفعلون ذلك ؟"

قالوا : "أولاً ، سنخرب بيوتهم . وحين لا تبقى عندهم كسرة خبز يأكلونها ، نشبكهم بعضهم ببعض ، فيتقاتلون حتماً!"

"ذلك هو الأساس! أرى أنكم تعرفون عملكم . فاذهبوا ، ولا تعودوا إلا وقد بذرتم بينهم الشقاق ، وإلا سلخت جلودكم وأنتم أحياء!"

ذهب العفاريت الصغار إلى أرض سبخة ، وبدأوا يفكرون في كيفية إنجازهم لعملهم . فتنازعوا وتخاصموا ، إذ أراد كل عُفَيْريت منهم أن يقوم بالعمل الأسهل . لكنهم في الأخير ألقوا قرعة ليعرفوا أي أخ يتولى أمره كل عُفَيْريت منهم . وإذا أنهى عفيريت منهم عمله قبل الآخرَين ، يأتي ويعاونهما . وبعدما ألقى العفاريت الصغار القرعة ، ضربوا موعداً للتلاقي في السبخة عينها ، ليعرفوا أيهم نجح وأيّهم تعوزه المعاونة .

وحل الموعد المضروب ، فتلاقى العفاريت الصغار في السبخة كما اتفقوا .

ومضى كل عُفَيْريت يقصّ كيف سارت الأمور معه . فبدأ أولهم ، وكان قد تولى أمر سيمون العسكري ، قائلاً : "عملي يجري حسناً . فسيمون سيعود غداً إلى بيت أبيه ."

وسأله رفيقاه : "كيف دبرت الأمر ؟"

فقال : "أولاً ، جعلت سيمون جريئاً جداً حتى عرض على مليكه أن يقهر له العالم كله ، فعينه الملك قائداً لجيشه ، وبعثه كي يحارب ملك الهند . والتقى

الجيشان لخوض المعركة الحاسمة ، لكنني عشية المعركة رطبت كل البارود في معسكر سيمون ، وصنعت عديداً من جنود القش للملك الهندي اكبر من أن يحصى . وحين شاهد عسكر سيمون جنود القش يحيطون بهم ، ذعروا . وأمرهم سيمون بإطلاق النار ، إلا أن بندقياتهم ومدافعهم لم تعمل . عندئذٍ اعترى الهلع جنود سيمون فركضوا هاربين كالغنم ، وفتك بهم الملك الهندي . فحل العار على سيمون ، وجُرِّد من رتبته ، وحُكم عليه بالإعدام ، على ان يُنفذ الحكم غداً . فلم يبق لي إلا يوم عمل واحد ، إذ علي أن أساعده على الفرار إلى بيته . فغداً أكون مستعداً لمعاونة من يحتاج منكما إلى معاونتي ."

ثم شرع العَفَيريت الثاني ، الذي وقع تاراس في يده ، يقص ما جرى له ، فقال : "أنا لا أحتاج إلى معاونة . فعملي يسير حسناً . ولن يستطيع تاراس أن يصمد أكثر من أسبوع . فأولاً ، جعلته شرهاً فازداد بدانة . وقد بلغ به الجشع مبلغاً دفعه لأن يرغب في شراء كل ما تقع عليه عيناه . فأنفق ماله كله في شراء كثير من البضائع والسلع ، وما زال يبتغي المزيد . وقد بدأ فعلاً يستخدم مالاً مقترَضاً ، وديونه تطوّق عنقه كحجر الرحى ، وهو متورط إلى حد يجعل وفاء الدين مستحيلاً عليه . فبعد أسبوع يستحق وفاء ديونه ، وقبل الموعد سأفسد كل بضائعه المخزونة . فلسوف يتعذر عليه إبراء ذمته من الديون ، ويضطر لأن يتوجه إلى بيت أبيه ."

ثم سأل هذان العَفَيريتان العَفَيريت الثالث ، المولَج أمر إيفان : "وأنت ، كيف كان عملك ؟" فقال :

"تباً! إنّ عملي لا يسير كما يرام . فأولاً ، بصقت في شرابه كي تؤلمه معدته ، ثم ذهبت إلى حقله ورصصت التربة حتى صارت كالصخر كيلا يقوى على شقها . وظننت أنه لن يفلحها . لكنه ، وهو المغفّل المخبّل ، أتى بمحراثه وبدأ يشق تلماً . كان يئن من ألم معدته ، لكنه مضى يفلح . وكسرت له

محراثه ، فذهب إلى البيت وأتى بآخر ، ثم عاد يحرث ، فزحفت تحت التربة وامسكت بشفرة المحراث ، ولكن لم أقو على وقفها . فقد وقف بكل ثقله على سكة المحراث ، وإذ كانت الشفرة حادة جرحت يديّ . وقد كاد يفرغ من حراثة حقله ، فلم تبق منه إلا مساحة يسيرة . فهيا ، يا أخويّ ، وساعداني ، لأن جهودنا تذهب أدراج الرياح إن نحن لم ننجح في قهره . فإذا تماسك هذا المغفّل ، وظل يتعهّد الأرض ، فلن يعرف أخواه الحاجة ، لأنه سيطعمهما كليهما ."

ووعد عفيريت سيمون العسكريَ بأن يأتي للمساعدة في اليوم التالي ، ثم تفرقوا .

3

كان إيفان قد أكمل حراثة الحقل كله ، ما عدا مساحة صغيرة . فجاء كي يكمل عمله . ومع أن معدته آلمته ، فقد أصر على إنجاز الفلاحة . وهكذا ، جر حبل النير ، وغرز السكة ، وبدأ يعمل . وشقّ تلماً واحداً ، لكنه عند الرجوع أحس كأن المحراث عالق ببعض الجذور . كان ذلك هو العفَيريت ، وقد لف ساقيه حول شفرة المحراث وأعاق تقدمها .

ففكر إيفان : "أمر غريب! لم يكن هنا جذور ، ومع ذلك يبدو أن ههنا جذراً ." ودس يده في العمق داخل التلم ، وجعلها تجوس قليلاً حتى أحس بشيء رخو ، فأمسك به وسحبه خارجاً . فإذا به أسود كالجذر ، لكنه يتلوى . ولا عجب ، فإنه عفيريت حي!

فقال إيفان : "يا لك من حقير!" ورفعه بيده ليصدمه بالمحراث ، لكن العفَيريت زعق صارخاً :

لا تؤذني ، فأفعل كل ما تقول لي ."

"وماذا تستطيع أن تفعل ؟"

"أي شيء تطلبه مني ."

فحك إيفان رأسه ، وقال : "معدتي تؤلمني ، فهل تستطيع شفاءها ؟"

"طبعاً ، طبعاً!"

"إذاً ، اشفها ."

فغار العُفَيريت في التلم ، وفتّش وخمّش بمخالبه ، واقتلع حزمة من ثلاثة جذور صغيرة ، ثم قدمها إلى إيفان قائلاً : "هاك! كل من يبتلع واحداً من هذه يشفى من أي مرض اعتراه ."

فتناول إيفان الجذور ، وفصلها ، وابتلع أحدها . وفي الحال شفي وجع معدته . فعاد العُفَيريت يتوسل إليه كي يطلقه ، وقال : "سأقفز إلى داخل التلم ، وأختفي في الأرض ، ولا ارجع البتة ."

فقال إيفان : "حسناً ، اذهب! وليكن الله معك!"

وما إن ذكر إيفان اسم الله ، حتى غار العُفَيريت في الأرض كما يغوص الحجر في الماء . ولم يبق منظوراً إلا حفرة في الأرض .

ثم وضع إيفان الجذرين الآخرين داخل قبعته ، وأكمل حراثة الأرض . وأكمل فلاحة المساحة الباقية ، ثم قلب محراثه ، ومضى إلى البيت ، ففك فرسه ، ودخل الكوخ ، حيث رأى أخاه الأكبر سيمون العسكري وزوجته جالسين إلى العشاء . كانت عزبة سيمون قد صودرت ، واستطاع هو بالكادَ أن يفر من السجن ، وقد عاد ليقيم في بيت أبيه .

ولما رأى سيمون إيفان ، قال له : "لقد جئت كي أقيم معكم . فأطعمني وزوجتي حتى أظفر بوظيفة أخرى ."

فقال إيفان : "طيب! لك أن تقيم معنا ."

ولكن ما إن هم إيفان بأن يقعد على البنك ، حتى نفرت السيدة من رائحته وقالت لزوجها : "لا أستطيع أن أتعشى مع فلاح وسخ!"

فقال سيمون العسكري : "السيدة زوجتي تقول إنّ رائحتك كريهة . فالأفضل أن تخرج وتتعشى خارجاً ."

قال إيفان : "طيب! على كل حال عليّ أن أقضي الليل خارجاً ، إذ ينبغي أن أرعى الفرس ."

ثم أخذ شيئاً من الخبز ، وحمل معطفه ، ومضى بالفرس إلى الحقول .

4

بعدما أنهى عفيريت سيمون عمله تلك الية ، ذهب لملاقاة عفيريت إيفان كي يساعده على إخضاع المغفّل . وقصد الحقل ، حيث بحث وفتش ، لكنه عثر على حفرة بدل العثور على رفيقه . ففكر : "لا بد أن يكون أمر سيّء قد وقع لرفيقي ، فعلي أن أحل محله . وما دام الحقل قد فُلح فينبغي التصدّي للمغفّل في المرج ."

ثم ذهب العُفَيريت إلى المروج ، وطوّف حشيش إيفان بالماء حتى غمر الوحل المرج كله .

وعاد إيفان من المرعى عند الفجر ، فسنّ منجله ، وذهب كي يجز العشب . وما إن ضرب بمنجله ضربة أو ضربتين حتى تثلّم المنجل ولم يعد يقطع الحشيش ، وصار بحاجة إلى السن من جديد . وجاهد إيفان قليلاً ، لكنه قال : "هذا لا ينفع . علي أن أذهب إلي البيت لآتي بالمسنّ وأصلح المنجل . وسآتي أيضاً بكسرة خبز . ولئن وجب علي أن أقضي أسبوعاً هنا ، فلست بتارك المرج حتى أفرغ من جزّه!"

وسمع العُفَيريت ذلك ، وفكر برأسه : "هذا المغفّل عنيد ، فلن أقهره بهذه الطريقة . علي أن أجرب حيلة أخرى ."

ثم عاد إيفان ، فسنّ منجله ، وبدأ يجز . فزحف العُفَيريت بين الحشيش ، وأخذ يمسك بالمنجل من عقبه ويدفع رأسه داخل التربة .

وقد استصعب إيفان العمل كثيراً ، غير أنه جز المرج كله ، إلا قطعة صغيرة منه في السبخة . فزحف الغفَيريت إلى داخل السبخة ، قائلاً لنفسه : "لن أدعه يجز ، ولو تجرّحت مخالبي!"

وانتقل إيفان إلى السبخة ، حيث قاوم العشب المنجل ، مع أنه بدا غير كثيف . فاستشاط إيفان وأخذ يَهوي بالمنجل بكل ما أوتي من قوة . واضطر الغفَيريت إلى الاستسلام ، إذ عجز عن مرافقة المنجل المترجح ، ورأى أن المهمة ليست يسيرة ، فانزوى داخل عليقة . ورجّح إيفان منجله ثم أهوى به على العليقة ، فقطع نصف ذنب الغفَيريت . ثم أنهى جز العشب ، وطلب من أخته أن تجمعه ، فيما ذهب هو لجز نبات الجاودار ، حاملاً منجله . ولكن الغفَيريت المبتور الذنب سبقه إلى هناك ، وشبك الجاودار ، بحيث لم ينفع المنجل . ولكن إيفان ذهب إلى البيت وأتى بمنجل صغير ، وأخذ يحشّ به حتى حصد الجاودار كله .

ثم قال : "حان الآن وقت الانتقال إلى الشوفان!"

وسمع الغفَيريت المبتور الذنب ذلك ، وفكر : "لم أستطع قهره في حقل الجاودار . ولكني سأقهره في حقل الشوفان . إنما لأنتظر حتى الصباح ."

وفي الصباح سارع الغفَيريت إلى حقل الشوفان ، ولكن الشوفان كان قد حُصِد! فإن إيفان حصده في الليل لئلاً يسقط منه حب كثير . فاستشاط الغفَيريت غاضباً ، وقال :

"لقد جرّحني هذا المغفّل وأنهكني . إنني كمن يخوض حرباً لا هوادة فيها . هذا المغفّل اللعين لا ينام البتة ، ويصعب علي أن أجاريه . سأندس الآن في حزمه وأتلفها ."

فاندس الغفَيريت بين الجاودار ، زاحفاً بين الحزَم ، فبدأت تتلف . وحميت الحزَم ، فشعر الغفَيريت بالدفء ، وغفا .

شد إيفان الفرس ، وذهب مع أخته كي يرجد الجاودار بالعربة . فوصل إلى الحزَم ، وأخذ يشكلها بالمذراة ويرفعها إلى العربة . رفع حزمتين وغرز المذراة ليرفع الثالثة فأصاب العُفَيريت في ظهره . ولما رفع المذراة ، رأى على أصابعها عفيريتاً حياً مبتور الذنب يتلوى ويتململ مجاهداً أن يفلت وينزل .

"أيها اللعين الحقير ، أأنت هنا من جديد ؟"

فقال العُفَيريت : "أنا واحد آخر . الأول كان أخي . أنا كنت مع أخيك سيمون ."

قال إيفان : "طيب! كائناً من كنت ، فقد لقيت المصير عينه!" وهمّ بأن يقذفه إلى العربة ليسحقه ، فتوسل إليه باكياً : "أفلتني ، فلا أعود إليك ، كما افعل أيضاً اي شيء تطلبه مني!"

"وماذا تستطيع أن تفعل ؟"

"أستطيع أن أصنع عسكراً من أي شيء أردته ."

"وماذا ينفعني العسكر ؟"

"تستطيع أن تكلفهم ما تبتغي ، ففي وسعهم أن يفعلوا ما تشاء ."

"هل يستطيعون الغناء ؟"

"نعم ، إذا أردت منهم ذلك ."

"حسناً ، اصنع لي بعض العسكر!"

فقال العفريت : "دونك حزمة الجاودار هذه ، فأوقفها على الأرض وقل هذا القول البسيط :

"يا حزمتي ، قال عبدي :
هيا استجيبي طلبتي!
مكان كل قشة
أطلعي لي عسكرياً

مستعداً لخدمتي"؟

تناول إيفان الحزمة ، وأوقفها على الأرض ، وقال ما علمه العفَيريت . فإذا بالحزمة تتفرق ، وتصير كل قشة منها عسكرياً ، وفي الطليعة بوّاق وطبّال ، حتى كانت كتيبة كاملة .

فضحك إيفان وقال : "ما أذكاك! جميل جداً! أي فرح ستفرح الفتيات؟"

فقال العفَيريت : "والآن أطلقني؟"

قال إيفان : "كلا! ينبغي أن أصنع عسكري من سنابل بلا حَبّ ، وإلا بددت شيئاً من الغلة الحسنة . فعلّمني كيف أحول هؤلاء الجنود إلى حزمة من جديد . إنني أريد أن أخبطها ."

فقال العفَيريت : "اتلُ هذا القول :

"ليعد كل جندي

قشة من الحزمة ،

هكذا أمر عبدي

من هو تحت إمرتي"!

وتلا إيفان هذا القول ، فعادت الحزمة من جديد .

ومن جديد توسل العفَيريت قائلاً : "والان أطلقني!

"طيب!"ثم حشره إيفان إلى جنب العربة ، وأمسكه بيده ، ثم سحبه من المذراة ، وقال له : "ليكن الله معك!"

وما إن ذكر إيفان اسم الله ، حتى غار العفَيريت في الأرض كما يغوص الحجر في الماء . ولم يبق منظوراً إلا حفرة في الأرض .

ثم عاد إيفان إلى البيت ، فإذا به يجد أخاه الآخر تاراس ، مع زوجته ، يتناولان العشاء .

فقد أخفق تاراس البدين في وفاء ديونه ، وهرب من دائنيه ، عائداً إلى

بيت أبيه . ولما رأى إيفان قال : "اسمع! اريد منك أن تبقيني وزوجتي هنا إلى أن يتاح لي مباشرة عملي من جديد ."

فقال له إيفان : "لا بأس! تستطيع البقاء إن أردت ."

وخلع إيفان معطفه ، ثم جلس إلى الطاولة .

لكن زوجة التاجر قالت : "لا يمكنني مجالسة هذا الفلاح الفظ إلى الطعام ، فرائحة عرقه مقرفة!"

عندئذٍ قال تاراس البدين : "إيفان ، إنّ رائحتك مزعجة . فاذهب وكل خارجاً!"

فقال إيفان : "طيب!"

ثم أخذ شيئاً من الخبز وخرج إلى الفناء وهو يقول : "على كل حال ، آن لي أن أذهب لأرعى الفرس ."

5

أما عُفيريت تاراس ، فإذ بات بلا عمل تلك الليلة ، جاء حسب الاتفاق كي يعاون رفيقه على قهر إيفان المغفّل . وقد ذهب إلى حقل الحنطة ، وبحث وفتش عن رفيقيه ، فلم يجد أحداً هناك ، بل وجد حفرة في الأرض لا غير . وذهب إلى المرج ، فوجد هناك ذنب عفيريت في السبخة ، وحفرة أخرى في جذامة الجاودار .

ففكر برأسه : "لا بد أن يكون شيء من النكد قد حل برفيقيّ . فعليّ أن أحل محلهما وأتصدى لهذا المغفّل ."

وذهب العُفَيريت يبحث عن إيفان . وكان هذا قد كدّس حُزَم الحنطة ومضى يقطع شجراً في الغابة . ذلك أن الأخوين كانا قد بدآ يشعران بأنهما محشوران في إقامتهما معاً ، فطلبا إلى إيفان أن يقطع شجراً لبناء بيتين جديدين لهما .

سارع العَفَيريت إلى الغابة ، وتسلق أغصان الشجر ، وشرع يعوق إيفان في إسقاط الأشجار . وضرب إيفان جذع شجرة بفأسه بحيث تهوي في بقعة خالية ، لكنها عند سقوطها انحرفت وعلقت ببعض الأغصان . فقطع إيفان عموداً استعمله كمخل ، وراح يجاهد بكل قوته لإسقاط الشجرة على الأرض ، فأفلح بعد جهد جهيد . ثم عكف على إسقاط شجرة أخرى ، وإذا به يواجه المشكلة عينها ، لكنه استطاع بالكادّ أن يُسقِط الشجرة أرضاً بعد لأي مُضن . وتوجه إلى شجرة ثالثة ، فحدث الشيء ذاته .

كان إيفان يرجو أن يقطع خمسين شجرة صغيرة ، لكنه لم يُسقِط ولو عشرين ، وقد أقبل الليل وهو منهوك خائر . وتصاعد منه البخار حتى انتشر في الغابة كالضباب . غير أنه واصل عمله رغم ذلك . وقطع شجرة أخرى ، لكن ظهره بدأ يؤلمه بحيث تعذّر عليه الوقوف . فغرز فأسه في الشجرة وقعد ليستريح .

ولما لاحظ العَفَيريت أن إيفان توقف عن العمل ، فرح واستبشر . وفكر : "ها هو مرهق أخيراً! سيستسلم ، فالآن يمكنني أن أستريح أنا ." ثم فرشخ وقعد على غصن وهو يضحك في خفوت . ولكن إيفان ما لبث أن قام وأمسك بفأسه وأهوى بها على الشجرة من الجهة المقابلة بقوة جعلتها تهوي في الحال وتسقط أرضاً . ولم يكن العَفَيريت قد توقع ذلك ، كما لم يُتِح له الوقت أن يسحب رجله ، فإذ انقصفت الشجرة علق بها مخلبه . وبدأ إيفان يقضب الأغصان ، فإذا به يلمح عفيريتاً حياً عالقاً بالشجرة ، فيفاجأ! ويقول له :

"ماذا ، أيها الحقير اللعين ؟ ها قد عدت!"

فيقول العَفَيريت : "أنا واحد آخر . لقد كنت مع أخيك تاراس ."

"كائناً من كنت ، فقد لقيت سوء المصير ." ثم رجّح فأسه وهمّ بأن يضربه بنصابها . لكن العَفَيريت استرحم قائلاً : "لا تضربني ، فأفعل مهما طلبت مني!"

"وماذا تستطيع أن تفعل ؟"

"أستطيع أن أصنع لك مالاً بقدر ما تشاء ."

"طيب! اصنع بعض المال ."

فأراه العَفَريت كيف يصنع مالاً ، قائلاً : "خذ بعض الورق من هذه السنديانة وافركه بيديك ، فيتساقط الذهب على الأرض ."

فأخذ إيفان بعض الورق وفركه ، فتساقط الذهب من بين يديه . فقال : "سوف ينفع هذا الأصحاب إذ يلعبون به في الأعياد ."

وقال العَفَريت : "والآن أطلقني!"

فقال إيفان : "طيب!" ثم أخذ عموداً رفع به الأغصان وحرر العَفَريت ، وقال له : "اذهب الآن! وليكن الله معك!"

وما إن ذكر اسم الله ، حتى غار العَفَريت في الأرض كما يغوص الحجر في الماء . ولم يبق منظوراً إلا حفرة في الأرض .

6

وهكذا بنى الأخوان بيتين ، وعاشا منفصلين . وأنهى إيفان عمل الحصاد ، وخمّر جِعَة ، ودعا أخويه إلى قضاء العيد التالي عنده .

فأبى أخواه المجيء قائلَين : "لا تعنينا أعياد الفلاحين!"

فأضاف إيفان الفلاحين وزوجاتهم ، وشرب حتى ثمل ، أو كاد . ثم نزل إلى حلقة رقص في الشارع ، وطلب إلى النساء أن يغنّين أغنية على شرفه . وبيّن السبب قائلاً : "سأعطيكن شيئاً لم ترين مثله قبلاً في حياتكن!"

فضحكت النساء وغنّين يمدحنه ، حتى إذا فرغن قلن : "والآن أعطنا عطيتك ."

قال : "سآتي بها في الحال!" ثم أخذ سلة بذار وركض نحو الغابة .

فتضاحكت النساء قائلات : "إنه مخبول!" وغيّرن مجرى الحديث . ولكن إيفان ما لبث أن رجع راكضاً ، وهو يحمل السلة ملأى بشيء ثقيل .

"أأعطيكن إياه الآن ؟"

"نعم ، أعطنا إياه!"

فقبض إيفان قبضة من الذهب ورماها إلى النسوة . فلو رأيتهن كيف ارتمين على الذهب ليلتقطنه! وتدافع الرجال حواليهن طلباً للذهب ، واختطفوه بعضهم من أيدي بعض . وكادت عجوز تُسحَق حتى الموت تحت الأقدام .

وراح إيفان يضحك قائلاً : "أيها المغفلون! لماذا سحقتم الجدّة العجوز ؟ اهدأوا فأعطيكم المزيد ."

ثم رمى إليهم كل ما يحمله من الذهب . وطلبوا المزيد ، لكن إيفان قال : "ليس عندي المزيد الآن . في وقت آخر أعطيكم قليلاً منه . فلنرقص الآن ، وفي وسعكم أن تغنّوا لي!"

فبدأت النساء يُغنّين . لكنه قال : "ليست أغانيكن عذبة!"

سألنه : "أنّى لك مغنّون أفضل ؟"

فقال : "سأريكن عاجلاً!"

ثم مضى إلى الهُري ، وأخذ حزمة ، فخبطها ثم أوقفها ورزّها على الأرض ، وقال :

"والآن . . . يا حزمتي ، قال عبدي :

هيا استجيبي طلبتي!

مكان كل قشة

أطلعي لي عسكرياً

مستعداً لخدمتي"!

فتفرقت الحزمة ، وصارت عسكراً منظماً ، وأخذ الطبالون والبواقون

يعزفون . فأمر إيفان الجنود بأن يعزفوا ويغنوا ، واقتادهم خارجاً إلى الشارع ، فذهل الناس . وعزف الجنود وغنوا ، ثم مضى بهم إيفان إلى البيدر ، بغير أن يدع أحداً يتبعه ، وحولهم أيضاً إلى حزمة رماها في مكانها .

ثم مضى إلى البيت ، واستلقى في الاسطبل كي ينام .

7

وسمع سيمون العسكري صباح الغد بكل ما جرى ، فذهب إلى أخيه وقال له :

"قل لي : من أين اتيت بأولئك الجنود ، وإلى أين ذهبت بهم ؟"

فسأله إيفان : "وفيم يعنيك الأمر ؟"

"فيم يعنيني ؟ الا تدري أن المرء يستطيع أن يفعل اي شيء إذا كان لديه عسكر ؟ إنّ المرء ليستطيع أن يكسب بهم مملكة ."

فتعجب إيفان وقال : "أحقاً ؟ لِمَ لم تقل لي من قبل ؟ سأصنع لك من العسكر بقدر ما تشاء . فمن الخير اننا قد خبطنا أنا واختنا ، سنبلاً كثيراً ."

ثم اصطحب إيفان أخاه إلى الهُري وقال :

"انتبه! إذا صنعت لك عسكراً ، فعليك أن تأخذهم من هنا حالاً ، لأنه إذا اضطررنا لإطعامهم ياكلون القرية كلها في يوم واحد ."

فوعد سيمون العسكري باقتياد الجنود بعيداً ، وشرع إيفان يصنعهم . أوقف حزمة على البيدر ، فظهرت كتيبة عسكر . وأوقف حزمة أخرى ، فبرزت كتيبة ثانية . وصنع عديداً من العسكر حتى غطّوا الحقل كله . ثم سأل أخاه :

"أيكفيك هؤلاء ؟"

فغمر الفرح قلب سيمون وقال : "طبعاً! شكراً يا إيفان!"

قال إيفان : "طيب! إذا أردت المزيد ، فعد إليّ أصنع لك . لقد طلع لنا في هذا الموسم قش كثير ."

وفي الحال تولى سيمون إمرة جيشه ، فجمعه ونظمه ، وزحف ليحارب . وما كاد سيمون يمضي ، حتى أقبل تاراس البدين . فهو أيضاً قد سمع بما جرى أمس . وقال لأخيه :

"أرني من أين حصلت على مال من ذهب! لو كان بيدي شيء من الذهب أبدأ به ، لجعلته يعود علي بالأموال من جميع أنحاء العالم ."

فدهش إيفان وقال : "أحقاً ؟ كان ينبغي أن تقول لي سريعاً . سأصنع لك قدر ما تشاء ذهباً ."

سُرَّ أخوه كثيراً ، وقال : "أعطني ثلاث سلال ملأى كي أبدأ بها ."

فقال إيفان : "طيب! هيا إلى الغابة ، إنما الأحرى أن تُسرج الفرس ، لأنك لن تستطيع أن تحمل الذهب كله وحدك ."

ثم أسرعا إلى الغابة ، حيث أخذ إيفان يفرك ورق السنديان ، حتى صنع كومة ذهب كبيرة ، وسأل أخاه :

"أتكفيك هذه ؟"

فغمر الفرح قلب تاراس وقال : "تكفيني الآن . شكراً لك ، يا إيفان!"

قال إيفان : "طيب! إذا أردت المزيد ، فعد إلي . لقد بقي كثير من ورق السنديان ."

وجمع تاراس البدين حِمل عربة ذهباً ، ثم مضى كي يتاجر .

وهكذا مضى الأخوان كلاهما : سيمون ليحارب ، وتاراس ليبيع ويشتري . فاستفتح سيمون العسكري لنفسه مملكة ، وكسب سيمون البدين مالاً كثيراً بالتجارة .

وفي ما بعد التقى الأخوان ، فأخبر أحدهما الآخر بما جرى ، إذ روى سيمون كيف حصل على العسكر ، وتاراس كيف حصل على المال . وقال سيمون العسكري لأخيه : "لقد استفتحت مملكة وأنا أعيش في أبهة وجبروت ، غير أني لا أملك من المال ما يكفي لإعالة عسكري ."

وقال تاراس البدين : "وأنا كسبت مالاً كثيراً ، ولكن مشكلتي أن ليس عندي من يحرسه لي ."

عندئذٍ قال سيمون العسكري : "هيا بنا إلى أخينا ، فاقول له أنا أن يصنع مزيداً من العسكر ، وأعطيك إياهم كي يحرسوا لك أموالك . ويمكنك أنت أن تطلب إليه أن يصنع لي مالاً أطعم به رجالي ."

فمضيا إلى أخيهما إيفان ، وقال له سيمون : "يا أخي العزيز ، ليس عندي من العسكر ما يكفي ، فاصنع لي كتيبتين أخريين على الأقل!"

ولكن إيفان هز رأسه وقال : "كلا! لن أصنع مزيداً من الجنود!"

"ولكنك وعدتني بأن تصنع لي ."

"أعرف أني وعدتك ، ولكني لن أصنع المزيد ."

"ولماذا يا مخبّل ؟"

"لأن جنودك قتلوا رجلاً . كنت منذ عهد قريب أفلح قرب الطريق ، فرأيت امرأة تسير وراء نعش في عربة وهي تبكي . وسألتها مَن الميت ، فقالت : "لقد قتل جنود سيمون زوجي في المعركة ." كنت اظن ان الجنود سيعزفون الموسيقى فقط ، غير انهم قتلوا رجلاً . فلن اعطيك عسكراً بعد!"

وظل عند كلامه ، فلم يقبل أن يصنع أي عسكر بعد .

ثم شرع تاراس البدين أيضاً يترجى من إيفان أن يصنع له مزيداً من المال الذهبي . ولكن إيفان هز رأسه رفضاً ، وقال :

"كلا! لن أصنع مزيداً من الذهب!"

"ألم تعدني ؟"

"بلى ، وعدتك! ولكنني لن أصنع أي ذهب بعد!"

"ولم لا تصنع يا مغفّل ؟"

"لأن نقودك الذهبية حرمت بنت مخايل بقرتها ."

"كيف ؟"

"لقد ذهب مالك بالبقرة! فقد كان عند بنت مخايل بقرة ؛ واعتاد أولادها أن يشربوا حليب البقرة . ولكن منذ عهد قريب جاء إليّ الأولاد يطلبون حليباً . فقلت : "وأين بقرتكم ؟" أجابوا : "جاء وكيل تاراس البدين وأعطى أمنا ثلاث قطع من الذهب ، فأعطته البقرة ، فلم يبق عندنا حليب نشربه ." كنت أظن أنك فقط ستلعب بقطع الذهب ، غير انك حرمت الأولاد بقرتهم . فلن أعطيك أي مال بعد!"

وظل إيفان عند كلامه ، فلم يقبل أن يعطي تاراس مزيداً من الذهب . فمضى الأخوان . وفي طريقهما تباحثا كيف يمكنهما إن يتصديا لمصاعبهما . ثم قال سيمون :

"اسمع! سأقول لك ما نفعل . أعطني انت مالاً لإطعام جنودي ، فأعطيك أنا نصف مملكتي ومعها ما يكفي من العسكر لحراسة أموالك ."

فوافق تاراس . وهكذا تقاسم الأخوان ما عندهما ، وصارا كلاهما مَلِكين ، وكان كلاهما غنياً .

8

أما إيفان فأقام في البيت ، يَعيل أباه وأمه ، ويعمل في الحقول بمعاونة أخته الخرساء . ثم حدث أن مرضت كلبة الحراسة عند إيفان ، واعتراها الجرب ، وكادت تموت . وأشفق إيفان عليها ، فأتى من عند أخته بشيء من الخبز أخفاه في قبعته ، وخرج به ، ورماه إلى الكلبة . ولكن القبعة كانت مخرّقة ، فوقع على الأرض مع الخبز واحد من الجذور الثلاثة ، واكلته الكلبة الهرمة مع الخبز . وما إن ابتلعته حتى هبت واقفة وراحت تلعب وتنبح وتبصبص بذيلها ؛ وبكلمة موجزة ؛ تعافت وصحت .

وإذ رأى الوالدان ذلك دهشا . وسألا إيفان : "كيف شفيت الكلبة ؟"

أجاب إيفان : "كان عندي جذران صغيران لشفاء أي وجع ، وقد ابتلعت أحدهما ."

وفي تلك الأثناء أيضاً مرضت ابنة الملك ، فأعلن الملك في كل مدينة وقرية أنه يكافىء من يشفيها ، وإذا استطاع رجل عَزَب أن يشفي ابنة الملك ، تصير له زوجة . وأذيع الخبر في قرية إيفان كما في كل مكان .

فاستدعى إيفان أبواه وقالا له : "هل سمعت بما أعلنه الملك ؟ قلتَ إنّ عندك جذراً من شأنه أن يشفي أي مرض . فاذهب واشف ابنة الملك تغدُ سعيداً مدى الحياة ."

قال إيفان : "طيب!"

وتأهب إيفان للذهاب ، فألبسه أبواه أفضل ثيابه . لكنه حالما خرج من الباب التقى شحاذة يابسة اليد ، قالت له : "سمعت أنك تستطيع شفاء الناس . أتوسل إليك أن تشفي لي يدي ، لأنني لا أستطيع ولو أن أنتعل حذائي بنفسي ."

فقال إيفان : "طيب!" وناول الشحادة الجذر طالباً منها أن تبتلعه . فابتلعته وشفيت حالاً بحيث استطاعت تحريك يدها كيفما شاءت . وخرج أبو إيفان وأمه كي يصحباه إلى قصر الملك . لكنهما لما سمعا أنه أعطى الجذر ولم يبق عنده ما يشفي به ابنة الملك ، أخذا يوبخانه .

قالا : "أتشفق على شحاذة ، ولا تأسف على ابنة الملك ؟!"

إلا أن إيفان كان حزيناً على ابنة الملك أيضاً . فشد العربة إلى الفرس ، ووضع في العربة بعض القش كي يجلس عليه ، ثم جلس كي يسوق . فسأله أبواه :

"إلى أين ، يا مغفّل ؟"

"إلى شفاء ابنة الملك ."

"ولكن لم يبق لديك ما تشفيها به!"

فقال : "لا بأس!" ثم انطلق .

وساق إلى قصر الملك . وما إن داس العتبة ، حتى صحّت بنت الملك . فسرّ الملك ، وطلب إحضار إيفان إليه ، وامر بإلباسه أفخر الثياب . وقال له : "كن صهري!"

فقال إيفان : "طيب!"

ثم تزوج إيفان الأميرة . وبُعيدَ ذلك مات أبوها ، فصار إيفان ملكاً . وهكذا غدا الإخوة الثلاثة كلهم ملوكاً .

9

عاش الإخوة الثلاثة وملكوا . وازدهرت أحوال سيمون العسكري . فبجنوده المصنوعين من القش جنّد جنوداً حقيقيين . إذ أمر في جميع أنحاء مملكته بتجنيد عسكري من كل عشرة بيوت ، على أن يكون كل عسكري طويل القامة ، سليم البنية ، جميل الوجه . فجمع عديداً من هؤلاء الجنود ، ودرّبهم . وإذا عارضه أحد ، كان يبعث اولئك الجنود حالاً ، ويفرض رأيه فرضاً ، حتى بات الجميع يخشونه ، وغدت حياته لينة هينة . وكل ما وقعت عليه عيناه ، امتلكته يداه . إذ كان يبعث الجنود فيأتون له بما يريد .

وعاش تاراس البدين ايضاً عيشة هانئة . فلم يبدد المال الذي حصل عليه من إيفان ، بل ثمّره وأنماه كثيراً وأحل النظام والأمان في مملكته . وخزن أمواله في صناديق ، وفرض على الناس ضرائب . فقد فرض ضريبة رؤوس ، ومكوس عبور على المشاة والعربات ، وجزية عن الأحذية والجوارب والثياب المزركشة . وكل ما رغب فيه ، نالته يده . وطلباً للمال ، آتاه الناس كل شيء ، وعرضوا عليه أن يشتغلوا عنده ، لأن الجميع كانوا يريدون المال .

وإيفان المغفّل أيضاً لم يعش عيشة سيئة . فما إن دفن حماه ، حتى خلع ثيابه الملوكية كلها وأعطاها لزوجته حتى تخبئها في صندوق ، ثم عاد فارتدى

قميصه المصنوع من القِنّب الهندي وسرواله وحذاءه الفلاّحي ، ليستأنف عمله في الحقول . وقد قال :

"ما ألفت حياة الكسل . فها أنا أسمن وقد فقدت شهيتي واضطرب نومي ."

ومن ثَمّ أتى بأبيه وأمه وأخته الخرساء ليقيموا معه ، وعاد يعمل كالسابق .

وقال له الناس : "ولكنك ملك!"

فقال : "نعم ، ولكن حتى الملك ينبغي أن يأكل ."

وأقبل إليه أحد وزرائه يقول : "ليس عندنا مال لدفع المعاشات ."

فقال : "طيب! لا تدفعوها ."

"عندئذ لن يخدمك أحد ."

"طيب! لا يخدموا ، فيكون لديهم إذ ذاك متسع من الوقت ليشتغلوا . فلينقلوا الزبل . وثمة تنظيفات كثيرة ينبغي القيام بها ."

ومثل الناس بين يدي إيفان ليُحاكموا . قال أحدهم : "لقد سرق خصمي مالي ." فقال له إيفان : "طيب! ذلك يبين أنه بحاجة إليه ."

وأخذ الجميع يعرفون أن إيفان مختبل . وقالت له زوجته : "يقول الناس إنك مغفّل ."

"طيب! فليقولوا ."

ففكرت زوجته ملياً في الأمر ، ولكنها هي أيضاً كانت مغفّلة ، فقالت : "أأعارض زوجي ؟ حيثما تنغرز الإبرة يتبعها الخيط!"

ومن ثَمّ خلعت ثيابها الملوكية ، وخبأتها في صندوق ، وذهبت إلى الخرساء لتعلمها الشغل . فتعلّمت الشغل ، وشرعت تساعد زوجها . عندئذ غادر جميع الحكماء مملكة إيفان ، ولم يبق فيها إلا المغفّلون . وما كان عند أحد منهم مال . فقد عاشوا واشتغلوا ، وأطعموا أنفسهم والآخرين .

10

انتظر إبليس المحنك طويلاً أن يصله أي خبر من العفاريت الصغار حول تخريبهم بيوت الإخوة الثلاثة . ولكن لا خبر! لذلك ذهب بنفسه مستخبراً . فبحث وفتش ، ولكن بدل أن يجد العفاريت الثلاثة ، وجد الحفر الثلاث فقط . فقال :

"الظاهر أنهم أخفقوا . فينبغي لي أن أتولى أنا الأمر ."

ومن ثم انطلق يبحث عن الإخوة الثلاثة . لكنهم لم يكونوا في أماكنهم القديمة بعد . لقد وجدهم في ثلاث ممالك مختلفة ، والثلاثة كانوا عائشين ومالكين . فأزعج هذا الأمر إبليس المحنك أيّ إزعاج ، وقال :

"حسناً ، يجب أن أجرّب يدي في العمل ."

وذهب أولاً إلى الملك سيمون ، قاصداً إياه لا بشكله الخاص بل متنكراً في زي قائد عسكري ، وقد ساق عربته إلى قصر سيمون .ثم قال له :

"سمعت ، أيها الملك سيمون ، انك محارب عظيم . ولمّا كنت خبيراً بهذا العمل ، فاني أرغب في خدمتك ."

وساءله الملك سيمون ، فألفاه رجلاً حكيماً ، وأدخله في خدمته .

وشرع القائد الجديد يعلّم الملك سيمون كيف يشكّل جيشاً قوياً ، قال :

"علينا أولاً أن نجنّد مزيداً من العسكر ، لأنّ في مملكتك كثيرين بلا عمل . علينا أن نجند جميع الشبان بلا استثناء . وعندئذ يكون عندك جيش يبلغ خمسة أضعاف ما كان . وعلينا ثانياً أن نحصل على بندقيات ومدافع جديدة . فسآتي ببندقيات تطلق مئة خبيبة دفعة واحدة ، فتتطاير طلقاتها كحبات الحمَص . وسآتي أيضاً بمدافع حرّاقة تضرم النار في الناس والخيل والحيطان ، فتحرق كل شيء وتفحمه!"

وعمل سيمون الملك بنصيحة القائد الجديد ، فأمر بتجنيد جميع الشبان

بلا استثناء ، وابتنى مصانع جديدة صنع فيها كميات هائلة من البندقيات والمدافع المطوّرة . ثم عجّل بإعلان الحرب على ملك مجاور . وما إن واجه الملك سيمون جيش العدو ، حتى أمر جنوده بإطلاق وابل من القذائف عليه ، من البندقيات والمدافع معاً ، وبهجوم واحد أحرق نصف جيش العدو وأشل حركته . فذعر الملك المجاور أيّ ذعر حتى تنحّى وأخضع مملكته لسيمون ، فابتهج هذا وقال :

"والآن سأقهر ملك الهند ."

ولكن ملك الهند كان قد سمع بأخبار سيمون ، فتبنّى كل مخترعاته وزاد عليها من عنده . وقد جنّد الملك الهندي ، فضلاً عن الشبان كلهم ، جميع النساء غير المتزوجات ، حتى حشد جيشاً أعظم من جيش سيمون . وقلّد كل ما كان عند سيمون من بندقيات ومدافع ، واخترع طريقة يطير بها المحاربون في الهواء ويرمون القذائف المتفجرة من عل . وزحف الملك سيمون لمحاربة ملك الهند ، متوقعاً أن يهزمه كما هزم غيره من الملوك ؛ ولكن السيف البتّار تثلّم وخاب! فلم يدع ملك الهند جيش سيمون يبلغ نطاق الرمي ، بل بعث نساءه في الهواء يصببن الحِمَم المتفجرة على رؤوس عسكر سيمون . فأخذت النساء يمطرن القنابل على جيش العدو كما يذر البورق على الصراصير . إذ ذاك هرب الجيش ، وبقي الملك سيمون وحده . فاستولى ملك الهند على مملكة سيمون ، وفر سيمون العسكري بأسرع ما أعانته رجلاه .

وبعدما نفض إبليس المحنّك يده من هذا الأخ ، توجه إلى الملك تاراس ، متنكّراً في زي تاجر . فاستقر في مملكة تاراس وأسس داراً للتجارة ، وأخذ ينفق المال بسخاء ، دافعاً مبالغ ضخمة لقاء كل شيء . فهرع الجميع إلى التاجر الجديد لاصطناع المال . وتوافر في أيدي الشعب مال كثير ، حتى أخذوا يؤدّون ضرائبهم حالاً ، ودفعوا جميع متأخراتهم ، فسرّ الملك تاراس أي سرور .

وفكر : "بفضل هذا التاجر الجديد ، سيصير عندي مال أكثر من ذي قبل ، وتغدو حياتي أكثر هناءة وليناً ."

وشرع تاراس الملك يرسم خططاً جديدة ، ويبني قصراً جديداً وأصدر أمراً بأن يأتيه الناس بالخشب والحجارة ويَقبلوا إلى العمل ، وحدّد أثماناً عالية لكل شيء . وقد خُيّل إلى الملك تاراس أن الناس سيتقاطرون إلى العمل زرافات كسابق العهد . إلا انه فوجيء بكون الخشب والحجارة كلها قد حُمِلت إلى التاجر ، وإليه ذهب جميع الصّنّاع أيضاً . ورفع الملك تاراس أسعاره ، لكنّ التاجر زايده . فقد كان عند الملك تاراس مال كثير ، غير أن التاجر كان عنده أكثر ، فظل يعرض أثماناً أعلى .

وهكذا انقطعت الحركة من قصر الملك ، ولم يكتمل مشروع البناء . ثم خطط الملك تاراس بستاناً . ولما أقبل الخريف ، استدعى الناس كي يأتوا ويغرسوا البستان ، إلا أن أحداً لم يأت . إذ كان الجميع منهمكين في حفر بركة كبيرة للتاجر . ثم أقبل الشتاء ، وأراد الملك تاراس أن يشتري فرو سمّور لمعطف جديد . فأرسل من يشترون له ، ولكن الرسل عادوا صفر اليدين ، وقالوا : "لم يبق شيء من فرو السمّور . فقد اشترى التاجر الفرو كله ، إذ دفع أفضل سعر ، وصنع من الجلود سجّاداً ."

وأراد الملك تاراس أن يشتري بعض الجياد ، فأرسل من يشترون له ، لكن الرسل عادوا صفر اليدين وقالوا : "لقد اشترى التاجر جميع الجياد القوية ، وهي الآن تنقل الماء لملء بركته ."

ومن ثَمّ توقفت جميع شؤون الملك . فلم يقبل أحد أن يخدمه ، إذ كان الجميع مشغولين بخدمة التاجر ، وكانوا فقط يأتون إلى الملك تاراس بأموال التاجر لتأدية ضرائبهم .

وجمع الملك مالاً كثيراً جداً بحيث لم يعد عنده مكان يخزنه فيه ، إلا أن

حياته باتت تَعِسة . فكف عن رسم الخطط ، واكتفى بأن يبقى على قيد الحياة فحسب ، لكنه لم يكد يستطيع القيام بهذا . فقد أعوزه كل شيء . وتركه واحداً فواحداً جميع طبّاخيه وخدّامه للالتحاق بخدمة التاجر . وما لبث أن أعوزه حتى الطعام . فإذا أرسل إلى السوق لشراء شيء ما ، تعذر عليه أن يحصل على اي شيء ، إذ كان التاجر قد اشترى كل شيء ، وكان الناس فقط يأتون إلى الملك بالمال لتأدية ضرائبهم . ثم استشاط الملك تاراس ، وطرد التاجر من البلد . غير أن التاجر استقر وراء الحدود تماماً ، وظل مزدهر لأحوال كما من ذي قبل . فطلباً لمال التاجر ، ظل الناس يأخذون كل شيء إليه لا إلى الملك . وساءت أحوال الملك تاراس . فكانت تمر أيام متلاحقة وليس عنده ما يأكله . حتى إن شائعة سرت تقول أن التاجر كان يتباهى بأنه سيشتري الملك نفسه! فذَعر الملك تاراس ، ولم يدر ما العمل . وفي ذلك الحين جاء إليه سيمون العسكري يقول : "ساعدني ، فإن ملك الهند قد هزمني ."

ولكن الملك تاراس نفسه كان غاطساً في المصاعب حتى أذنيه ، فقال : "لقد مر علي أنا نفسي يومان وليس عندي ما آكله!"

11

وبعدما فرغ إبليس المحنك من الأخوين ، توجه إلى إيفان ، متنكراً في زي قائد عسكري . وإذ وصل إلى إيفان ، شرع يحاول إقناعه بأنه في حاجة إلى جيش ، قال :

"لا يليق بالملك أن يكون بلا جيش . فما عليك إلا أن تصدر إليّ الأمر ، فأجمع لك عسكراً من بين شعبك وأشكل جيشاً ."

فأصغى إليه إيفان وقال : "طيب! شكّل جيشاً ، وعلّمهم أن يحسنوا الغناء . فأنا أحب أن أسمع الجيش يؤدي الأناشيد ."

وهكذا جال إبليس المحنك في مملكة إيفان لتطويع جنود . فكان يطلب

إليهم أن يذهبوا ويتجندوا فيعطى كل منهم قِنِينة كحول وقلنسوة حمراء جميلة . فضحك الشعب ، وقالوا :

"عندنا كثير من الكحول . فنحن نصنعه بأنفسنا . أما القلانس فنساؤنا يصنعن كل نوع منها ، حتى المخططة ذات الشرابات ."

وهكذا لم يتجند أحد .

فاقبل إبليس المحنك إلى إيفان وقال : "إن مغفليك لن يتجندوا من تلقاء أنفسهم . فعلينا نحن أن نجندهم ."

قال إيفان : "طيب! لك أن تحاول ."

فأعلن إبليس المحنك أن على الجميع أن يتجندوا ، وانذر بأن إيفان سيعدم كل من يرفض . وجاء الناس إلى القائد يقولون : "إنك تقول إنّ الملك سيعدمنا إن لم نتجند ، ولكنك لم تقل ماذا يحدث إن تجنّدنا . فقد سمعنا مَن يقولون أنّ الجنود يقتلون!"

"نعم ، ذلك يحدث أحياناً"

فلما سمع الناس ذلك باتوا معاندين ، وقالوا : "لن نتجند! فلقاء الموت في ديارنا أفضل ، ما دمنا سنموت في كلتا الحالتين ."

قال إبليس المحنك : "مغفلون! أنتم مغفلون! قد يَقتل الجندي أو لا يُقتل . ولكن إن لم تتجنّدوا ، يعدمكم الملك إيفان حتماً ."

فتحير الناس ، وذهب بعضهم إلى الملك إيفان ليستشيروه ، وقالوا :

"جاء إلينا قائد يقول إنّ على الجميع أن يتجندوا . وقد قال لنا : "إن تجندتم فقد تقتلون أو لا تقتلون ، ولكن أن لم تتجندوا ، يعدمكم الملك إيفان حتماً ." فهل هذا صحيح ؟"

فضحك إيفان وقال : "كيف يمكنني أنا وحدي أن أعدمكم جميعاً ؟ لو لم اكن مغفلاً ، لفسّرتَ لكم الأمر . ولكن الواقع اني أنا نفسي لا أفهمه ."

فقالوا : "إذاً ، لن نخدم في الجيش ."

قال : "طيب ؛ لا تخدموا!" فذهب الناس إلى القائد وأعلموه برفضهم أن يتجندوا . ورأى إبليس المحنك أن هذه اللعبة انتهت ، فمضى وتملّق ملك تراكان حتى نال حظوة لديه . ثم قال له :

"لنشنّ حرباً ونُخضِع بلد الملك إيفان . فلئن لم يكن في ذلك البلد مال ، ففيه وفرة من الحنطة والمواشي وغير ذلك ."

وهكذا أعدّ ملك تراكان عدّة الحرب . فحشد جيشاً كبيراً ، وجهّزه بالبندقيات والمدافع ، وزحف إلى الحدود ، ودخل مملكة إيفان .

فقصد الناس إلى إيفان قائلين : "هوذا ملك تراكان زاحفٌ علينا كي يحاربنا ."

قال إيفان : "طيب ؛ فليزحف!"

وبعدما عبر ملك تراكان الحدود ، أرسل كشّافة لاستطلاع أحوال جيش إيفان . فاستشرف الكشافة كثيراً ، ولكن لا جيش! وظلوا ينتظرون طويلاً أن يظهر جيش في مكان ما ، ولكن لم تكن أية علامات تدل على وجود جيش ، ولا كان مَن يحاربونه . عندئذٍ بعث ملك تراكان عسكره للاستيلاء على القرى . ودخل الجنود قرية ، فاندفع أهلها ، رجالاً ونساء ، يحملقون إليهم مدهوشين . وبدأ الجنود ينهبون حنطتهم ومواشيهم ، فسمحوا لهم بها ولم يقاوموهم . ثم ذهب الجنود إلى قرية أخرى ، فحصل الأمر عينه . وواصل الجنود تقدّمهم يوماً ، ثم يومين . وفي كل مكان حصل الأمر عينه . فقد سمح لهم الناس بأخذ كل شيء ، ولم يقاومهم أحد ، بل دعاهم الجميع كي يعيشوا معهم ، قائلين : "يا لكم من مساكين! إن كانت حياتهم في بلدكم صعبة ، فلماذا لا تأتون إلى هنا وتعيشون معنا ؟"

ومضى الجنود يزحفون ويزحفون . ومع ذلك لم يجدوا جيشاً ، بل فقط

ناساً يعيشون ويُطعمون أنفسهم والآخرين ، ولا يقاومون ، بل يدعون الجند للإقامة عندهم والعيش معهم .

فألفى الجنود عملهم عبثاً ، وذهبوا إلى ملك تراكان ، وقالوا له : "لا نستطيع ان نحارب هنا ، فابعثنا إلى مكان آخر . لا بأس بالحرب ، ولكن ما هذا ؟ إنه يشبه قطع الحساء بالسكين! لن نحارب بعد هنا ."

استشاط ملك تراكان غضباً ، وأمر عسكره باجتياح المملكة كلها ، وتدمير القرى ، وإحراق الحنطة والبيوت ، وذبح المواشي . وأردف : "وإن لم تطيعوا اوامري ، أعدمكم جميعاً ."

ذعر الجنود ، وشرعوا يعملون بأوامر الملك . بدأوا يحرقون البيوت والحنطة ، ويذبحون المواشي . ولكن المغفّلين أيضاً لم يُبدوا أية مقاومة ، بل راحوا يبكون . فالشيوخ بكوا ، والعجائز بكين ، والشبان والصبايا بكوا . وسألوا الجند :

"لماذا تؤذوننا ؟ لماذا تبدّدون الخيرات ؟ إن كنتم محتاجين إليها ، فلماذا لا تأخذونها لكم ؟"

أخيراً لم يعد الجنود يتحملون ذلك . فرفضوا أن يتقدموا بعد ، وتفرق الجيش وفر أفراده .

12

كان على إبليس المحنّك أن يستسلم . فلم يستطع إخضاع إيفان بالجنود . فاتخذ هيئة سيّد ماجد ، واستقر في مملكة إيفان ، وهو ينوي أن يقهره بوساطة المال ، كما سبق أن قهر تاراس البدين ، وقال له :

"أرغب في إسداء معروف إليك بأن أعلمك الذوق والمنطق . سأبني لي بيتاً بينكم وأنشىء تجارة!"

فقال إيفان : "طيب! تعال وعش بيننا إن شئت ."

وفي الصباح التالي قصد السيد الماجد إلى السوق ومعه كيس كبير من الذهب ، وقصاصة من الورق ، وقال : "إنكم تعيشون كلكم عيشة الخنازير . أنا أرغب أن أعلمكم كيف تعيشون عيشة لائقة . فابنوا لي بيتاً حسب هذه الخريطة . أنتم تشتغلون ، وأنا أعلمكم الكيفية ، وسأدفع لكم أجرتكم ذهباً ." ثم أراهم الذهب .

ذهل المغفلون ، فلم يكونوا يتداولون المال ، بل يقايضون بضائعهم ويوفون أحدهم الآخر عملاً . ونظروا إلى الذهب مدهوشين ، وقالوا : "يا لها من قطع صغير[illegible]يلة!"

وشرعوا يستبدلون ببضائعهم وعملهم قطع الذهب التي يحملها السيد . وكما حدث في مملكة تاراس ، بدأ إبليس المحنك يتصرّف بذهبه في حرية ، وجعل الناس يستبدلون ذهباً بكل شيء ، ويؤدّون كل عمل مقابله .

وابتهج إبليس المحنك ، وفكر برأسه : "إن الأمور تسير حسناً هذه المرة . فالآن لا بد من أن أدمّر المغفل كما دمرت تاراس ، وسأشتريه كلّه ، نفساً وجسداً ."

ولكن ما إن حصل المغفلون على قطع الذهب حتى قدموها إلى النساء ليصنعن بها عقوداً . وقد ضفرت بها الصبايا جدائلهن ، كما راح الصغار أخيراً يلعبون بتلك القطع الصغيرة في الشوارع . وحاز كل واحد مقداراً وافراً منها ، حتى توقف الجميع عن استلامها . ولكن قصر السيد الماجد لم يكن نصف بنائه قد اكتمل ، ولا كانت حنطته ومواشيه لذلك العام قد جُهّزت . فأعلن رغبته في أن يأتي الناس ويشتغلوا عنده ، وأنه في حاجة إلى مواش وحنطة ، وأنه مستعد لإعطائهم مزيداً من قطع الذهب لقاء كل شيء يأخذه وكل عمل يؤدّونه .

ولكن لم يأت أحد ليشتغل ، ولا جيء بشيء إلى السيد . إلا أن صبياً أو بنتاً كانا يركضان إليه أحياناً لاستبدال قطعة ذهب ببيضة . ولكن ما جاء أحد

غيرهما ، ولم يعد عنده ما يأكله . ولمّا جاع السيد الماجد ، طاف في القرية محاولاً أن يشتري طعاماً يتغذاه . وحاول في ذات بيت ان يحصل على دجاجة لقاء قطعة ذهب ، فأبت ربة البيت ان تأخذها وقالت : "عندي كثير منها!"

ثم حاول في بيت ارملة أن يشتري سمكة مقددة ، وعرض قطعة ذهب . فقالت الأرملة :

"لا أريدها ، يا سيدي الطيب . لا أولاد عندي يلعبون بها . وأنا قد حصلت على ثلاث قطع لأحتفظ بها كتُحَف!"

ثم حاول في بيت فلاح أن يحصل على خبز ، إلا ان الفلاح ابى أن يأخذ مالاً ، وقال :

"لا حاجة بي إليه . أما إذا كنت تستعطي "من أجل المسيح" فانتظر قليلاً حتى أطلب من ربة البيت أن تقطع لك كسرة خبز ."

إذ ذاك بصق إبليس ، وولّى هارباً . فإن سماعه ذكر اسم المسيح ، عدا تلقّيه شيئاً من أجل المسيح ، آلمه اكثر من طعنة مُدية في صدره .

وهكذا لم يحصل على اي خبز . فقد كان عند الجميع ذهب ، وحيثما ذهب إبليس المحنك ابى الجميع إعطاءه أي شيء لقاء المال ، بل كان كل واحد يقول له إما : "احضر شيئاً آخر" وإما : "تعال واعمل عندنا "وإما : "خذ ما تريد من أجل المسيح!"

ولكن إبليس المحنّك لم يكن عنده شيء سوى المال . أما العمل ؛ فلم يكن يهواه . وأما اخذ شيء "من أجل المسيح" فامر لا يقدر أن يفعله . ومن ثم غضب غضباً شديداً ، وقال :

"وأي شيء بعد تريدون حين أعطيكم مالاً ؟ تستطيعون أن تشتروا اي شيء بالذهب ، وتستخدموا اي عامل ."

غير أن المغفلين لم يسمعوا له ، بل قالوا : "لا ، لسنا نريد المال . لا مستحقات علينا ، ولا ضرائب ، فماذا نفعل به ؟"

فما كان من إبليس المحنك إلا أن اضطجع لينام .. . بلا عشاء!

ثم نُقِل خبر ما جرى إلى إيفان المغفل ، إذ جاء الناس يسألونه : "ماذا عسانا نفعل ؟ لقد حل بيننا سيد ماجد يحب أن يأكل ويشرب ويلبس حسناً ، لكنه لا يحب أن يشتغل ، ولا يستعطي "من أجل المسيح" ، بل يعرض فقط قطع الذهب على الجميع . وفي البداية أعطاه الناس كل ما أراد حتى صار عندهم وفرة من الذهب . أما الآن فلا أحد يعطيه شيئاً . ماذا عسانا نفعل به ؟ لن يطول الوقت حتى يموت جوعاً ."

وأصغى إيفان ، ثم قال : "طيب! علينا أن نطعمه . فليعش مداورة في كل بيت كما يعيش الراعي ."

ولم يكن من ذلك مفر ، فكان واجباً أن يبدأ إبليس المحنك جولته . وفي الأوان جاء دور النزول في بيت إيفان . فجاء إبليس المحنك لتناول الغداء ، وكانت الخرساء تعدّه . وما أكثر ما كان قد خدعها الكسالى الذين وفدوا إلى الغداء باكراً ، دون أن يكونوا قد قاموا بقسطهم من العمل ، فأكلوا العصيدة كلها ، حتى خطر في بالها أن تكتشف الكسالى بواسطة أيديهم! فإذا وجدت شخصاً خشن اليدين ، أجلسته إلى المائدة ، أما الآخرون فلم تكن تعطيهم سوى الفتات الباقي .

جلس إبليس المحنك إلى المائدة ، ولكن الخرساء أمسكت بيديه ونظرت راحتيه ، فلم تجد فيهما أثراً للخشونة ، بل كانتا نظيفتين وملساوين ، وفيهما أظفار طويلة . فنخرت الخرساء وجرّت إبليس بعيداً عن المائدة . وقالت له زوجة إيفان : "لا يصعب عليك الأمر أيها السيد الماجد ، فابنة عمي لا تسمح لذي يدين غير خشنتين بالجلوس إلى المائدة . ولكن انتظر قليلاً حتى يفرغ الآكلون ، فتأكل مما فضل عنهم ."

وشق على إبليس المحنك أن يكرّه في بيت الملك على تناول طعامه كالخنزير . فقال لإيفان : "يا له من قانون سخيف عندك في المملكة أن يعمل كل امرىء بيديه! إن غباوتكم اخترعت هذا القانون . أبالأيدي فقط يعمل الناس ؟ فبم يعمل الحكماء ؟"

فقال إيفان : "وأنى لنا نحن المغفلين أن ندري ؟ فمعظم عملنا نؤديه بأيدينا ومتوننا!"

"ذلك لأنكم مغفلون! ولكنني سأعلمكم كيف تعملون برؤوسكم ، فتعرفون أن العمل بالرأس أوفر ربحاً من العمل باليدين ."

فدهش إيفان وقال : "إذا كانت هذه هي الحال ، ففي دعوتنا مغفلين شيء من المعنى!"

ومضى إبليس المحنك يقول : "إنما العمل بالرأس ليس هيناً . إنكم لا تعطونني ما آكله لأن لا خشونة في يدي ، ولكنكم لا تعلمون أن العمل بالرأس أصعب بمئة مرة . فأحياناً ينفلق رأس المرء حقاً!"

فاستغرق إيفان في التفكير هنيهة ثم قال :

"إذاً ، يا صاح ، لماذا تعذب نفسك هكذا ؟ أيسرّك أن ينفلق رأسك ؟ ألا يكون أفضل أن تعمل بيديك وظهرك عملاً أسهل ؟"

ولكن إبليس قال : "إنما أفعل ذلك كله إشفاقاً مني عليكم أيها المغفلون! إن كنت لا أعذب نفسي تبقون مُغفلين إلى الأبد . أما ، وقد عملت برأسي ، أعلمكم الآن!"

فدهش إيفان وقال : "هلا تعلّمنا! حتى إذا كلت أيدينا ، نستعمل رؤسنا على سبيل التغيير ."

ووعده إبليس بتعليم الناس . فنشر إيفان إعلاناً في المملكة : أن سيداً ماجداً قد جاء كي يعلم الناس كيف يعملون برؤوسهم ، وأن المرء يستطيع أن

ينجز برأسه أكثر مما ينجزه بيديه ، وأن على الجميع أن يأتوا ليتعلموا .

وكان في مملكة إيفان برج عال ذو أدراج كثيرة تفضي إلى منارة في أعلاه . فأخذ إيفان السيد المحنك إلى أعلى البرج حتى يتسنى للجميع أن يروه . فاعتلى السيد قمة البرج وطفق يتكلم ، وأقبل الناس جميعاً لرؤيته . وقد ظنوا أن السيد سيعلّمهم حقاً كيف يعملون برؤوسهم دون استعمال أيديهم . غير أن إبليس المحنك علّمهم ، بكلام كثير ، فقط كيف يمكنهم أن يعيشوا بلا عمل . فلم يستطيعوا أن يستوعبوا شيئاً ، بل نظروا وفكروا ، ثم عادوا أخيراً إلى الاهتمام بشؤونهم .

وقف السيد المحنك على قمة البرج نهاراً كاملاً ، ثم نهاراً آخر ، وهو لا يكف عن الكلام . لكنه لما وقف هنالك ذلك الوقت الطويل جاع ، ولم يفكر المغفلون قط في أخذ طعام إليه إلى أعلى البرج . وقد خُيّل إليهم أنه ما دام قادراً على العمل برأسه أفضل منه بيديه ، فهو يستطيع على كل حال أن يوفر لنفسه الخبز بسهولة . إلا أن إبليس المحنك وقف على قمة البرج نهاراً ثالثاً بعد ، وهو يتكلم . فاقترب الناس ، ونظروه قليلاً ، ثم مضوا .

وسأل إيفان : "ماذا ؟ هل بدأ السيد يعمل برأسه ؟"

فقال الناس : "لا ، ما بدأ بعد! إنه ما زال يقبق ."

ثم وقف إبليس المحنك على البرج نهاراً آخر بعد ، غير أنه بدأ يهن ، حتى ترنّح وصدم رأسه بأحد أعمدة المنارة . فلاحظ أحد الحضور ذلك ، وأخبر زوجة إيفان ، فركضت لتخبر زوجها ، وكان في الحقل .

قالت : "تعال وانظر! يقولون إنّ السيد قد بدأ يعمل برأسه ."

فدهش إيفان وقال : "أحقاً ؟" ثم عطف جواده ، ومضى إلى البرج . حتى إذا وصل إلى البرج ، كان إبليس المحنك قد خار وانهار من الجوع ، وراح يترنّح ويصدم بالأعمدة رأسه . وما إن وصل إيفان ، حتى تعثر إبليس وهوى

ارضاً ، وأخذ يتدحرج ويتخبط درجة فدرجة ، إلى أن استقر في القاع ، ومع كل درجة صدمة من رأسه!

وقال إيفان : "حسناً! لقد نطق السيد بالحق لمّا قال إنّ رأس المرء أحياناً ينفلق حقاً . فبعد هذا العمل كله يتورم الرأس بأسوأ من البثور والقروح!"

تكوّم إبليس المحنك عند أسفل الدرج ، وصدم بالأرض رأسه . وهمّ إيفان بأن يذهب إليه ليرى مقدار ما أنجزه من العمل ، فإذا بالأرض تنشق ، وبإبليس اللعين يغور فيها . ولم يبق منظوراً إلا حفرة فقط!

فحك إيفان رأسه وقال : "يا له من أمر سيّئ! إنه واحد من أولئك العفاريت مرة أخرى . كم هو كذّاب! لا بد أن يكون أباهم جميعاً ".

ثم طالت حياة إيفان ، وتقاطر الناس إلى مملكته . حتى أخواه أيضاً جاءا ليعيشا عنده ، وهو يُطعِمهما أيضاً .

وكل من يأتي طالباً الطعام ، يقول له إيفان : "طيب! لك أن تمكث عندنا ، فلدينا وفرة من كل شيء!"

غير أن في تلك المملكة عادة واحدة خاصة : من كانت يداه خشنتين ، يتقدم إلى المائدة ؛ أما من كانت يداه ملساوين ، فعليه أن يأكل من فتات الآخرين .

سنة 1885

القسم الرابع

حكايات كتبت للسينما

9

الشر يغري لكن الخير أبقى

عاش في قديم الزمان رجلٌ صالحٌ ولطيف . كان له الكثير من خيرات هذه الدنيا ، وعبيد كثيرون يخدمونه . وقد غبط العبيد أنفسهم على سيدهم ، قائلين :

"ليس تحت الشمس سيّدٌ آخر كسيدنا . فهو يطعمنا ويكسونا جيداً ، ويكلّفنا أعمالاً على قدر طاقتنا . ولا يحقد على أحد منا ، ولا يقسو بكلامه على أي منا . إنه ليس مثل السادة الآخرين الذين يعاملون عبيدهم أسوأ من معاملة البهائم ، فيُعاقبونهم سواءٌ أكانوا يستحقون أم لا ، ولا يُسمعونهم كلمة طيبة . فهو يريد لنا الخير ، ويفعل الحسنى ، ويتكلّم إلينا بلطف . إننا لا نشتهي حياة أفضل من هذه!"

هكذا دأب العبيد في امتداح سيدهم . ولكنّ إبليس ، إذ رأى ذلك ، ساءه أن يعيش عبيدٌ في حبٍّ ووئام بالغين في كنف سيدهم . فما كان منه إلا أن سيطر على واحدٍ منهم ، اسمه آلب ، وأمره بأن يغري سائر العبيد . وذات يوم ، بينما كانوا جميعاً قاعدين يتكلمون عن صلاح سيدهم ، رفع آلب صوته وقال :

"من الغباوة أن تُسهبوا في الإشادة بصلاح سيّدنا . إن إبليس نفسه يكون لطيفاً معكم ، إن فعلتم ما يريد . فنحن نخدم سيدنا أحسن خدمة ، ونلاطفه في كل شيء . وحالما فكّر في شيءٍ نفعله ، مُستبِقين رغباته . فماذا يستطيع أن يفعل سوى أن يكون لطيفاً معاً ؟ هلاّ تُجرِّبون كيف يكون الأمر لو

آذيناه بعض الأذى عوضاً عن إكرامه! فهو سيتصرّف كما يتصرّف أيّ سيّد سواه ،

وسيجازينا عن الشرّ بشرّ ، كما يفعل أسوأ السادة ."

طفق العبيد الآخرون يستنكرون ما قاله آلب ، ثم عقدوا معه شرطاً في الأخير . فتعهد آلب أن يُغضِبَ السيّد . فإن أخفق يخسر حلّة العيد التي له ؛ وإن أفلح يعطيه العبيد الآخرون حللهم . ثمّ إنهم وعدوه بأن يدافعوا عنه لدى السيد ، ويحرروه إذا قيّده السيّد أو سجنه .

وما إن عقدوا هذه المشارطة ، حتى وعدهم آلب بإغضاب سيده صباح الغد .

كان آلب راعياً ، وفي عهدته عدد من الخراف الثمينة الأصيلة التي شُغف بها السيد . ففي صباح الغد ، إذ أتى السيد ببعض زواره إلى الحظيرة ليريهم الخراف الثمينة ، غمز آلب رفقاءه ، كأنما يقول لهم : "انظروا الآن أي غضب سأغضبه ."

احتشد العبيد الآخرون كلهم ، يتطلعون من الأبواب ، أو من فوق السياج . وتسلّق إبليس شجرة مشرفة ليرى كيف ينجز خادمه عمله . وجال السيد في أنحاء الحظيرة ، يُري ضيوفه النعاج والحملان ، وأوشك على استعراض أفضل كبش لديه ، قائلاً :

"جميع كباشي فاخرة . ولكنّ لدي واحداً معقوف القرنين لا يُقدّر بثمن ، وهو عندي مثل حدقة عيني ."

إذ ذاك أجفلت الخراف من الغرباء ، وتراكضت في أنحاء الحظيرة ، فلم يستطع الزوار إلقاء نظرة على الكبش . وما إن هدأت الحركة ، حتى جفّل آلب الخراف كما لو كان عَرَضاً ، فاختلط بعضها ببعض من جديد . ولم يستطع الزوار أن يعرفوا أي الخراف هو الكبش الفاخر .

أخيراً عيل صبر السيد وقال : "آلب ، صديقي العزيز ، أرجو أن تقبض لي على كبشنا الفاخر ذي القرنين الأعقفين . أمسك به بكل حذر ، وأوقفه هنيهة ."

وما كاد السيد يتلفظ بذلك ، حتى اندفع آلب بين الخراف كالأسد ، وقبض على الكبش الثمين . ثم تشبث بصوفه ، وأمسك بقائمته الخلفية اليسرى بيده ، وبمرأى من سيده رفعه وطرحه أرضاً ، فهوى كغصن يابس . لقد كسر ساق الكبش ، فسقط على ركبه يثغو . ثم أمسك آلب بالقائمة الخلفية اليمنى ، فيما التوت اليسرى وتدلّت شلاء . فصرخ الزوار والعبيد صراخ الخيبة والفزع ، وابتهج إبليس الجاثم على الشجرة لإنجاز آلب عمله بمهارة . واكفهر وجه السيد واسود كالغيم الراعد ، وعبس ، وحنى رأسه ، ولم ينبس ببنت شفة . وران الصمت على الزوار والعبيد أيضاً ، منتظرين ما سيكون .

وبعدما ظل السيد صامتاً هنيهة ، تململ كمن يطرح عن ظهره حملاً ما . ثم رفع رأسه ، وشال بعينيه نحو السماء ، وظل هكذا حيناً . ثم ما لبث وجهه أن تطلّق وفارقه التغضّن ، ونظر إلى آلب مبتسماً وقال : "أوه ، يا آلب! لقد أمرك سيدك بأن تغضبني . ولكن سيدي أقوى من سيدك . لست غاضباً عليك ؛ ولكنني سأُغضِب سيدك . انت تخشى أن أعاقبك ، وطالما كنت تتمنى أن أعتقك . فاعلم إذاً ، يا آلب ، انني لن أعاقبك . ولكن بما أنك راغب في التحرّر ، فها أنا أعتقك الآن ، بمشهد من ضيوفي الكرام . فاذهب حيث تشاء ، وخذ معك حلة العيد التي لك!"

ثم عاد السيد اللطيف مع زواره إلى البيت . أما إبليس ، فوقع من على الشجرة وهو يصرّ بأسنانه ، وغار في الأرض .

سنة 1885

10

صغيرتان أحكم من الرجال

حل عيد الفصح باكراً تلك السنة . وكان الناس منذ عهد قريب فقط قد كفوا عن التنقل بالمزالج ، وما يزال الثلج يغطي الساحات ، والماء يجري في القنوات عبر شوارع القرية .

واتفق أن التقت فتاتان من بيتين مختلفين في زقاق بين فناءين ، حيث شكّلت المياه الموحلة الآتية من الحقول بِركة واسعة . كانت إحدى الفتاتين اكبر قليلاً من الأخرى الصغيرة جداً . وقد ألبستهما أمّاهما كل واحدة فستاناً جديداً . وقد أرتدت الصغرى فستاناً أزرق ، أما الكبرى فأصفر مزركشاً ، وكان على رأس كلّ منهما منديل أحمر .

كانتا قد عادتا للتو من الكنيسة ، فأرت كلتاهما الأخرى ثيابها الجديدة ، ثم شرعتا تلعبان . وبعد ذلك أملى عليهما خيالهما أن تلهوا بطرطشة الماء . وإذ همّت الصغرى بأن تخوض البركة منتعلة حذاءها ، زجرتها الكبرى قائلة :

"لا ، يا مالاشا! لا تخوضي الماء هكذا ، لئلا توبخك أمّك . أنا سأخلع جوربي وحذائي ، فاخلعي أنت جوربيك وحذاءك ." وهكذا فعلتا ، ثم رفعت كلتاهما طرف فستانها ، وأخذت تمشي نحو الأخرى في الماء . وإذ وصل الماء إلى كاحلي مالاشا ، قالت :

"البِركة عميقة ، يا أكوليا ، وأنا خائفة!"

فقالت الأخرى :

"تعالي! لا تخافي . لن يصير الماء أكثر عمقاً في البركة كلها ."

ولما اقتربت إحداهما من الأخرى ، قالت أكوليا :

"حذار ، يا مالاشا . لا تُرشَشي الماء علي . امشي بانتباه!"

ولكن ما كادت تقول ذلك ، حتى خبطت مالاشا الماء برجلها ، فغطى الرشاش فستان أكوليا ، وبلغ عينيها وأنفها . فلما رأت اللطخات ، اغتاظت وركضت وراء مالاشا كي تضربها .

ذُعرت مالاشا ، وإذ رأت أنها تورطت في مازق ، هرعت خارجة من البركة ، وهمّت بأن تجري إلى بيتها . واتّفق حينئذ أن أم أكولينا كانت مارّة من هناك ، فرأت فستان ابنتها الملطخ وكمّيها المتسخين ، وقالت لها : "أيتها البنت الوسخة الوقحة! ماذا كنت تفعلين ؟"

فأجابت أكوليا : "مالاشا فعلت هذا بي عمداً ."

فما كان من الأم إلا أن أمسكت بمالاشا ، وصفعتها على قفا رقبتها . وأخذت مالاشا تصرخ حتى يسمعها أهل الحي ، وسمعت أمها فأقبلت مسرعة .

فقالت لجارتها : "لماذا تضربين ابنتي ؟" وشرعت توبخها . وجرّت كلمة أخرى ، فحمي النزاع والخصام . وخرج الرجال من بيوتهم حتى اجتمع حشد في الشارع ، وأخذ الجميع يتصايحون دون أن يصغي أحد ، ومضوا يتخاصمون ويتدافعون ، وكادت تنهال الضربات واللكمات . إلا أن جدة أكوليا العجوز اندفعت بينهم محاولة أن تهدئهم .

"بم تفكرون يا هؤلاء ؟ أمن الصواب أن تتصرفوا هكذا ؟ وفي مثل هذا اليوم أيضاً! إنه يوم للابتهاج والوئام ، وليس للاهتياج والخصام ، كما أنتم فاعلون!"

لكنهم أبوا الإصغاء للعجوز ، وكادوا يوقعونها أرضاً . وما كانت لتستطيع تهدئة ذلك الحشد الهائج ، لولا أكوليا ومالاشا أنفسهما . فبينما الجارتان تتلاقبان وتتشاتمان ، مسحت أكوليا الوحل عن فستانها ، وعادت إلى البِركة ،

حيث أخذت حجراً صغيراً وبدأت تحفر التراب أمام البركة لتُحدِث قناة صغيرة يجري منها الماء إلى الشارع . وحالاً انضمت إليها مالاشا ، وأخذت تساعدها على حفر القناة بشظيّة حطب .

وفيما الرجال يكادون يتقاتلون ، اندفع الماء من قناة الصغيرتين وفاض في الشارع إلى حيث كانت العجوز تحاول تهدئتهم . ولحقت الفتاتان بالماء الجاري . راكضتين واحدة من هنا وواحدة من هناك .

وصاحت اكوليا : "إلحقي الماء ، يا مالاشا ، إلحقيه!" فيما مالاشا لا تستطيع أن تتكلم من الضحك .

كانت فرحة الصغيرتين عظيمة إذ أخذتا تراقبان شظيّة الحطب الطافية في الساقية الصغيرة ، وهما تركضان حتى وصلتا إلى وسط الرجال المحتشدين . وما إن رأتهما العجوز حتى قالت لهؤلاء : "أما تستحون ؟ ها أنتم تتقاتلون بسبب هاتين الصغيرتين ، وها هما قد نسيتا كل ما يتعلق بالأمر ، وتلعبان معاً بكل سرور . يا لهما من صغيرتين طيبتين! إنهما أحكم منكم جميعاً!"

فالتفت الرجال إلى الصغيرتين وخجلوا ، وضحكوا على أنفسهم ، ثم رجعوا إلى بيوتهم صامتين .

"إن لم ترجعوا وتصيروا مثل الأولاد ، فلن تدخلوا ملكوت السماوات ."

سنة 1885

11

الياس

عاش ذات زمان في بلاد أوفة بشكيريّ اسمه إلياس . مات أبوه بعد سنة من تزويجه ، ولم يترك له رزقاً كثيراً . فقد كان له آنذاك فقط سبع أفراس وبقرتان ونحو عشرين خروفاً . غير أنه كان جيد التدبير ، فأخذ رزقه يزداد . وكان هو وزوجته يشتغلان من الصباح حتى المساء ، فيسبقان الجميع في النهوض ، ويسبقهما الجميع في الإخلاد إلى النوم . وأخذت أملاكه تزيد سنة بعد سنة . وإذ عاش على هذا النحو ، اصطنع ثروة عظيمة شيئاً فشيئاً ، حتى صار عنده بعد خمس وثلاثين سنة مئتا حصان ، ومئة وخمسون رأساً من الماشية ، وألف ومئتا خروف . واستأجر رجالاً يعتنون بقطعانه ومواشيه ، ونساء يحلبن أفراسه وبقراته ويصنعن اللبن والجبن والزبدة . فغدا لدى إلياس وفرة من كل شيء ، وبات أهل المنطقة يحسدونه ويقولون عنه :

"إن إلياس رجل سعيد الطالع ، وعنده خيرات كثيرة ، فلا شك أنه يتمتع بدنياه!"

وسمع ذوو المناصب بأخبار إلياس ، فسعوا إلى التعرّف به . وتقاطر إليه الزوار من البعيد ، وهو يرحب بالجميع ويقدم إليهم الطعام والشراب . فكل من حل عليه ضيفاً ، تناول إلى مائدته اللبن والشاي والشربات ولحم الضأن . وكلما وفد زوار ذبح لهم خروفاً ، أو خروفين أحياناً . أمّا إذا كثر الضيوف فكان يذبح لهم فرساً .

رُزق إلياس ثلاثة أولاد : ابنَين وابنة ، وزوّجهم جميعاً . ولما كان فقيراً ،

ساعده ابناه في العمل ، واهتما بالقطعان والمواشي بأنفسهما . ولكن لما اغتنى فسدا ، وأدمن أحدهما الشراب . وقُتل أكبرهما في شجار . أما الصغير ، وقد تزوج بامرأة عنيدة ، فكف عن إطاعة أبيه ، وشق عليه أن يظل في كنفه ، فكان لا بد من الافتراق .

عندئذٍ أعطى إلياس ابنه بيتاً وبعض الماشية ، فتضاءلت أرزاقه . وبعيد ذلك تفشى وبأ في خراف إلياس ، فنفق كثير منها . ثم أعقب ذلك موسم سيئ ، فبار الزرع وقلت الحنطة ، وهلك كثير من الماشية في الشتاء . ثم نهب القيرغيز أفضل خيوله ، وتضاءلت أرزاقه كثيراً . ومع تناقص أملاكه تضاءلت قوته ، حتى إذا بات في السبعين من عمره بدأ يبيع ما لديه من فرو وسجاد وسروج وخيام . اخيراً اضطر إلى بيع آخر ما يملكه من الماشية ، فالفى نفسه في مواجهة الفقر . وقبل ان يدري كيف حل به ما حل ، خسر كل شيء ، واضطر هو وزوجته في شيخوختهما إلى خدمة الآخرين . ولم يبق عنده إلا ما عليه من ثياب ، وعباءة من الصوف ، وطاس ، وخفان منزليان ، وحذاء خارجي ، وزوجته شام شيماجي التي امست عجوزاً آنذاك . أما ابنه الذي استقل عنه فكان قد ذهب إلى بلد ناءٍ ، كما توفيت ابنته ، فلم يبق له ولزوجته من يعينهما في شيخوختهما .

واشفق عليهما جارهما محمد شاه . وقد كان لا غنياً ولا فقيراً ، بل رجلاً صالحاً يعيش في بحبوحة . فإذ تذكر حُسن ضيافة إلياس ، واشفق عليه ، قال له :

"تعال وعش عندي ، يا إلياس ، أنت وزوجتك العجوز . في الصيف تستطيع أن تشتغل في حقل البطيخ الذي لي ، بقدر ما تسمح به قوتك ، وفي الشتاء تطعم ماشيتي . أما شام شيماجي فتحلب أفراسي وتصنع مخيض اللبن . وسوف أطعمكما واكسوكما كليكما . وإذا احتجتما إلى شيء ، فقولا لي أعطِكما إياه ."

فشكر إلياس جاره محمد شاه ، ودخل في خدمته هو وزوجته كعاملين . وقد شق عليهما الأمر في البداية ، لكنهما ما لبثا أن تعوّدا عملهما ، فواصلا حياتهما يعملان بقدر ما تسمح به طاقتهما .

ووجد محمد شاه له مصلحة في استبقاء هذين الزوجين ، لأنهما ، وقد كانا هما أنفسهما سيّدين ، يعرفان كيف يتصرفان ، ولم يكونا كسلانين بل قاما بكل ما وسعهما من عمل . ومع ذلك آلم محمد شاه أن يشهد كيف حط الدهر هكذا إنسانين كانا عاليي المقام كحالهما .

ثم اتفق يوماً أن قدم لزيارة محمد شاه بعض أقربائه ، آتين من بلد ناءٍ ، وكان معهم أيضاً مَلاً من الشيوخ . فأوعز محمد شاه إلى إلياس بأن يأخذ خروفاً ويذبحه . ففعل ، وسلخ الخروف ، وقطّعه ، وطهاه ، ثمّ قدّمه إلى الضيوف . فتناولوا لحم الضأن ، وشربوا شيئاً من الشاي ، ثم قُدّم إليهم مخيض اللبن . وبينما هم قاعدون مع مضيفهم على وسائد وُضِعت فوق سجادة ، يتحدثون ويرشفون مخيض اللبن من طاساتهم ، إذ مر أمام الباب إلياس وقد أنهى عمله . وحالما رآه محمد شاه ماراً ، قال لأحد ضيوفه :

"أرأيت هذا العجوز الذي مر قدام الباب قبل قليل ؟"

فقال الضيف : "نعم! وماذا يلفت فيه ؟"

أجاب المضيف : "لا شيء سوى أنه كان في ما مضى أغنى واحد فينا . اسمه إلياس . لعلك سمعت به ."

"طبعاً ، سمعت به . لم أره قبلاً ، ولكن صيته طار في طول البلاد وعرضها!"

"نعم! والآن لم يبق له شيء . وهو يقيم عندي عاملاً في خدمتي . ومعه أيضاً زوجته العجوز ، فهي تحلب الأفراس والبقرات ."

فدهش الضيف ، وتمطّق ، وقال هازّاً رأسه :

"الحظ دولاب ، يشيل ناساً ويحط ناساً! ألا يأسف العجوز على كل ما فقده ؟"

"من يدري ؟ إنه يعيش في هدوء وسلام ، ويعمل حسناً ."

قال الضيف : "هل لي أن أكلمه ؟ أود لو أسأله عن حياته؟"

فأجاب السيد : "ولم لا ؟" ثم نادى من البهو الذي كانوا قاعدين فيه :

"باباي (تعني بالبشكيرية "يا جد") تعال اشرب طاس مخيض معنا ، وأحضر زوجتك أيضاً ."

فدخل إلياس وزوجته . وبعدما سلّم على سيده وضيوفه ، دعا دعاء ، وقعد قرب الباب . أما زوجته فعبرت إلى ما وراء الستارة ، وقعدت مع سيدتها .

قُدِّم لإلياس طاس مخيض ، فدعا للضيوف والسيد بدوام الصحة ، ثم انحنى وشرب قليلاً ، ووضع الطاس قدامه .

وقال الضيف الذي رغب في التحدث إليه : "حسناً ، أيها الجد ، أعتقد أنك تشعر بالحزن إذ ترانا ، إذ ربما ذكّرتك حالنا بازدهار حالك ماضياً ، وبمحنتك الحالية ."

فابتسم إلياس وقال :

"لو حدثتكم عن سعادتنا وعن شقاوتنا ، لما صدقتموني . فخير لكم أن تسألوا زوجتي . إنها امرأة ، وما في قلبها يبديه لسانها . فلا بد أن تجدوا لديها الخبر اليقين ."

فالتفت الضيف نحو الستارة ونادى : "يا جدة ، قولي لي كيف تجدين شقاوتكما الحاضرة بعد سعادتكما الماضية؟"

أجابت شام شيماجي من وراء الستارة :

"هاكم ما أفكر فيه بهذا الشأن : لقد عشنا ، شيخي وأنا ، خمسين سنة ننشد السعادة فلا نجدها . لكننا الآن فقط طوال هاتين السنتين بعد افتقارنا

وعيشنا عيشة الخدم ، قد وجدنا السعادة الحقيقية ، ولسنا نطمح إلى ما يتعدى نصيبنا الحاضر ."

دهش الضيوف ، كما دهش السيد نفسه ، حتى إنه قام وأزاح الستارة حتى يرى وجه العجوز . فإذا بها واقفة هناك ، مكتوفة اليدين ، تنظر إلى زوجها الشيخ وتبتسم ، فيرد عليها بابتسامة معبّرة ، فتردف :

"أقول الصدق ولا أمزح! لقد فتشنا عن السعادة طيلة نصف قرن ، لكننا لم نجدها ما دمنا غنيّين . أما الآن ، وقد افتقرنا وصرنا في خدمة سوانا ، فقد وجدنا سعادة عظيمة ، حتى إننا لا نرغب في شيء غيرها ."

فسأل الضيف : ولكن ما قوام سعادتكما ؟"

أجابت : "حسناً! لما كنا من الأغنياء ، كان عندنا ، زوجي وأنا ، هموم كثيرة لم تبق لنا وقتاً كي يكلم أحدنا الآخر ، أو كي نفكر في نفسينا ، أو كي نصلي إلى الله . فتارة يكون عندنا ضيوف ، فيشغل فكرنا ماذا نُقدّم لهم من الطعام ، وأية هدايا نهدي إليهم ، لئلا يتكلموا علينا بسوء . وحين يغادرون ، نُضطرّ إلى مراقبة عمالنا الذين يحاولون دائماً أن يعملوا عملاً أقل ويتناولوا طعاماً أفضل ، فيما نرغب نحن في استغلالهم إلى أقصى حد . وهكذا كنا نخطئ ونأثم . وطوراً نخشى أن يفترس الذئب مهراً أو عجلاً ، أو يسرق اللصوص أحصنتنا . ونسهر الليالي لئلا تنقلب بعض نعاجنا على حملانها ، فننهض مراراً وتكراراً لنتيقّن بأن كل شيء في خير . فإذا فرغنا من مهمّة ، طلع علينا هم جديد ، مثلاً : كيف نخزن علفاً كافياً للشتاء . ثم إننا كثيراً ما كنا نتخالف ، زوجي الشيخ وأنا . فهو يقول إنّ علينا أن نفعل كذا وكذا ، وأنا أقول إنّ علينا أن نفعل ذَيت وذيت ، فنتخاصم ونأثم من جديد . وهكذا كنا ننتقل من هم إلى هم ، ومن إثم إلى إثم ، فلا نعثر للسعادة على أثر!"

"والآن ؟ كيف الحال ؟"

"والآن ، عندما نستيقظ صباحاً ، زوجي وأنا ، نخاطب أحدنا الآخر بكلام المودة والوئام ، ونعيش في سلام ، وليس من شيء نتخاصم فيه . ولا هم لنا سوى كيف نؤدي لسيدنا الخدمة الفضلى . فنعمل بقدر ما تسمح به طاقتنا ، وقصدنا أن يربح سيدنا من خدمتنا ولا يخسر . حتى إذا أوينا ، نجد الغداء أو العشاء جاهزاً ، ومخيض اللبن حاضراً . وفي أيام البرد عندنا وَقود يدفئنا ، وعباءتا صوف نتدثر بهما . ولدينا متسع من الوقت للأحاديث ، وللتفكير في نفسينا ، وللصلوات . نشدنا السعادة خمسين سنة ، ولكننا لم نجدها إلا الآن أخيراً ."

إذ ذاك ضحك الضيوف . ولكن إلياس قال :

"لا تضحكوا ، يا أصدقائي . فليس هذا موضوع تندر وتفكه ، بل هو حقيقة الحياة . ونحن أيضاً كنا غبيين في البداءة ، وبكينا لفقدان ثروتنا . لكن الله قد كشف لنا الحقيقة ، وها نحن نخبركم بها ليس لكي نتعزّى نحن ، بل لأجل خيركم أنتم ."

وقال المُلاّ :

"هذا مقال حكمة . لقد نطق إلياس بالحقيقة الصادقة . وكلامه موافق لما جاء في كتابنا العزيز ."

فكف الضيوف عن الضحك ، واستغرقوا في التفكير متعقّلين .

سنة 1885

القسم الخامس

حكايات شعبية مَروِيّة من جديد

12

النساك الثلاثة

أسطورة قديمة شائعة في منطقة الفولغا

وحينما تصلون ، لا تكرروا الكلام باطلاً كالوثنيين ؛ فإنهم يظنون أنه بكثرة كلامهم يستجاب لهم . فلا تتشبهوا بهم ؛ لأن أباكم يعلم ما تحتاجون إليه قبل أن تسألوه .

- الإنجيل كما دونه متى (6 : 7 و8) .

كان مطران مسافراً بحراً من أركانجيل إلى دير سولوفسكي ، وفي السفينة نفسها عدد من الحجاج في طريقهم إلى زيارة المزارات القائمة هناك . وكانت السفرة ممتعة ، فالريح مؤاتية والطقس جيد . وقد قعد الحجاج على متن السفينة يأكلون ، أو تحلقوا يتحادثون . وصعد المطران أيضاً إلى متن السفينة حيث أخذ يتمشى جيئةً وذهوباً ، فلفت انتباهه على مقربة من القيدوم جمع من الرجال يصغون إلى صياد سمك يحدثهم عن شيء ما وهو يشير بيده نحو البحر . فتوقف المطران ونظر في الاتجاه الذي كان الرجل يشير إليه . على أنه لم يستطع أن يرى سوى صفحة الماء تتوهج تحت الشمس ، فاقترب كي يتسمع . ولكن ما إن رآه الرجل حتى رفع له قبعته وأطرق ، وحذا الآخرون حذوه فرفعوا قبعاتهم وانحنوا .

فقال المطران : "لا تنزعجوا مني ، يا أصحاب . لقد جئت لأسمع ما يقوله هذا الرجل الطيب ."

قال أحدهم ، وهو تاجر كان أجرأ من سواه : "كان الصياد يخبرنا عن النساك ."

فسأل المطران : "عن أي نساك ؟" متقدماً نحو طرف السفينة وقاعداً على صندوق . ثم أضاف : "حدثني عنهم ، فأنا أود أن أسمع خبرهم . إلام كنت تشير ؟"

قال الصياد ، وهو يدل عل موقع أمام السفينة ، نحو اليمين قليلاً : "أترى تلك الجَزَيرة هناك ؟ إنّ فيها نساكاً يعيشون عليها لأجل إنقاذ نفوسهم ."

سأل المطران : "اين الجَزَيرة ؟ إنني لا أرى شيئاً!"

"هنالك ، في البعيد . تفضل بالنظر إلى حيث أشير بيدي . أترى تلك الغيمة ؟ تحتها ، إلى اليسار قليلاً ، تجد شبه شريط صغير . تلك هي الجَزَيرة!"

أحدّ المطران النظر ، ولكن عينيه غير المتعوّدتين لم تستطيعا أن تريا سوى المياه المتلألئة تحت الشمس . وقال :

لا أستطيع أن أراها . ولكن مَن النساك العائشون هناك ؟"

فأجاب صياد السمك : "إنهم رجال أتقياء أنقياء . ولطالما سمعت بهم ، غير أنني لم أرهم إلا العام الأول ."

ثم روى كيف انطلق مرة للصيد قبل سنتين ، فشطّ به القارب ليلاً على تلك الجَزَيرة وهو لا يدري أين كان . وبينما هو في الصباح يجوب أرجاء الجَزَيرة ، إذ وقع على كوخ من طين ، وصادف شيخاً واقفاً قربه . ثم ما لبث شيخان أن خرجا من الكوخ . فساعدوه جميعاً على إصلاح قاربه ، بعدما أطعموه وجففوا أمتعته .

وسأل المطران : "وكيف كان شكلهم ؟"

"أحدهم قصير محدودب ، طاعن في السن ، يرتدي جبة كاهن ، والأرجح أنه جاوز المئة ، إذ كان بياض لحيته ضارباً نحو الاخضرار ، لكنه دائم الابتسام ، ووجهه يلمع كأنه وجه ملاك من السماء . أما الثاني فأطول منه قامة ، لكنه كبير السن مثله ، وهو يرتدي معطف فلاح بالياً . ولحيته غزيرة ،

وشائبة على اصفرار . لكنه قوي البنية ، إذ قلب قاربي كأنه دلو ، قبل أن تُتاح لي مساعدته . وهو ايضاً لطيف وبسّام . وأما الثالث فطويل القامة ، ذو لحية بيضاء مثل الثلج نازلة حتى ركبتيه . تبدو عليه ملامح القسوة ، بحاجبيه الكثيفين المتهدلين ، وجسمه العاري إلا من قطعة حصير يتّزر بها ."

فسأله المطران : "وهل تكلموا إليك ؟"

"كانوا يقومون بجميع أمورهم تقريباً في صمت ، وقليلاً ما تكلموا ، حتى بعضهم إلى بعض . فكان يكفي أن ينظر أحدهم نظرة ، فيفهم الآخران قصده . وقد سألت اطولهم هل يعيشون هناك منذ أمد بعيد . فتجهّم وجهه وهمهم كما لو كان غاضباً ، ولكن اكبرهم سناً أمسك بيده وابتسم ، فاستكان . وعندئذ قال اكبرهم : "رفقاً بنا!" وتبسم ."

وفيما الصياد يتكلم ، كانت السفينة قد اقتربت من الجزيرة الصغيرة . فقال التاجر وهو يشير بيده : "ها هي الجزَيَرة ، يا صاحب السيادة! فإن تفضلت بالنظر تراها ."

وتطلع المطران فشاهد بالفعل شريطاً أسود ، كان هو تلك الجزيرة الصغيرة . وبعدما نظر إلى الجزيرة هنيهة ، انتقل من قيدوم السفينة إلى مؤخّرها ، وسأل مدير الدفّة :

"ما اسم تلك الجزيرة الصغيرة ؟"

فأجاب المدير : "تلك الجزَيَرة لا اسم لها . وفي هذا البحر كثير مثلها ."

"اصحيح أن نساكاً يعيشون عليها في سبيل إنقاذ نفوسهم ؟"

"هكذا يقال ، يا صاحب السعادة . ولكني لا أعلم حقيقة الأمر . يقول الصيادون إنهم قد رأوهم ، ولكن ربما كانوا يلفقون قصصاً!"

فقال المطران : "أود لو انزل على هذه الجزَيَرة فأرى هؤلاء الرجال! فكيف يتأتّى لي ذلك ؟"

فاجاب مدير الدفة : "لا يمكن الاقتراب بالسفينة من الجزيرة . ولكن يمكن أن تَنقل إليها بالقارب . أفضل أن تكلم الربان ."

واستَدعي الربان فحضر ، وقال له المطران :

"أود لو أرى هؤلاء النساك . هلا تُقِلّونني إلى هناك بالقارب؟ "

فحاول الربان ثنيه عن عزمه قائلاً : "بالطبع ، في وسعنا إقلالك بالقارب . ولكن في ذلك إضاعة لوقت كثير . وإن كان لي أن اتجاسر ، يا صاحب السيادة ، أقول لك إنّ رؤية هؤلاء الشيوخ لا تستحق العناء . فقد سمعت من يقولون إنهم شيوخ مخبَلون ، لا يعقلون شيئاً ، ولا ينبسون ببنت شفة ، مثلهم مثل سمك البحر! "

ولكن المطران قال : "إنني ارغب في رؤيتهم . وسأدفع لك ما يُعوّض عن الجهد والوقت الضائع . فأرجو أن تهيّىء لي قارباً ."

فإذ لم يكن مفر ، أصدر الربان الأمر ، فأسدل البحارة الأشرعة ، وحوّل مدير الدفة الاتجاه ، فانسابت السفينة نحو الجَزيَرة . وجيء للمطران بكرسي ، فقعد على القيدوم ، وشرع يتطلع . واحتشد الركاب أيضاً على قيدوم السفينة ، يحملقون إلى الجزيرة الصغيرة . فاستطاع من كانوا اجلى بصراً بينهم أن يميزوا صخور الجَزَيَرة ، ثم كوخاً من طين . وأخيراً رأى أحدهم النساكَ أنفسهم . فأحضر الربان منظاراً ، واستشرف به ، ثم قدمه إلى المطران قائلاً :

"صحيح ما يقولون! ثمة ثلاثة رجال واقفين على الشاطئ . هنالك ، إلى اليمين قليلاً من تلك الصخرة الكبيرة ."

تناول المطران المنظار ، وركّزه ، فإذا به يرى ثلاثة رجال واقفين على الشاطئ وممسكين بعضهم بأيدي بعض ، أحدهم طويل القامة ، وثانٍ أقصر منه ، وثالث قصير جداً ومحدودب .

والتفت الربان إلى المطران قائلاً :

"لا يمكن أن نتقدم بالسفينة بعد ، يا صاحب السيادة . فإن كنت راغباً في النزول على الشاطئ ، فلا بد من أن نطلب إليك استقلال قارب ، فيما نُرسي نحن هنا ."

وفي الحال حُلّت الحبال ، وأُلقيت المرساة ، ولُفّت الأشرعة . فارتجّت السفينة واهتزّت . ثم دُلّي قارب ، وقفز المجذّفون إليه ، ثم نزل المطران على السلّم ، وقعد . فأخذ الرجال يضربون بالمجاذيف ، وانطلق القارب نحو الجزَيرة مسرعاً . وحالما صاروا على بعد رمية حجر منها ، رأوا ثلاثة شيوخ ، أحدهم طويل حول خصره قطعة حصير لا غير ، وآخر أقصر منه في معطف فلاّحٍ مهلهل ، وثالث عجوز حنى الدهر ظهره ، يرتدي جبّة عتيقة ، وجميعهم وقوف وأيدي بعضهم في أيدي بعض .

ثم جرّ المجذّفون القارب إلى الشاطئ وثبّتوه ريثما ينزل المطران . وما إن رآه الشيوخ الثلاثة حتى انحنوا له ، فمنحهم بركته ، فزادوا انحناء .

وشرع المطران يتكلم إليهم ، فقال :

"لقد سمعت ، أيها الأتقياء ، أنكم تقيمون هنا في سبيل إنقاذ نفوسكم وتُصلّون إلى ربّنا يسوع المسيح لأجل إخوانكم البشر . وأنا ، خادم المسيح غير المستحق ، مدعوّ برحمة من الله للسهر على رعيّته وتعليمهم . فقد رغبت في رؤيتكم ، يا عباد الله ، وفي بذل ما يسعني لتعليمكم أيضاً ."

نظر الشيوخ بعضهم إلى بعض مبتسمين ، لكنهم ظلوا صامتين .

فقال المطران : "قولوا لي ، ماذا تفعلون في سبيل إنقاذ نفوسكم ، وكيف تخدمون الله على هذه الجزيرة الصغيرة ؟"

فتنهد الشيخ الثاني ، وتطلع إلى الأكبر سنّاً ، إلى العجوز الهرم جداً . فتبسّم هذا وقال :

"لا نعرف كيف نخدم الله . فنحن ، يا خادم الرب ، إنما نخدم أنفسنا ونُعنى بمعيشتنا ."

فسأل المطران : "ولكن كيف تصلّون إلى الله ؟"

أجاب الناسك : "نصلي هكذا : ثلاثة أنت ، وثلاثة نحن ، فارحمنا!"

وما إن قال العجوز ذلك ، حتى رفع الثلاثة أعينهم نحو السماء ورددوا : "ثلاثة أنت ، وثلاثة نحن ، فارحمنا!"

فابتسم المطران وقال :

"الظاهر انكم سمعتم شيئاً عن الثالوث الأقدس . لكنكم لا تصلّون صلاة صحيحة . لقد كسبتم عطفي ، أيها الأتقياء ، فأنا أرى أنكم تبتغون رضى الرب ، ولكنكم لا تعرفون كيف تعبدونه وتخدمونه . ليست تلك طريقة الصلاة الصحيحة . إنما أصغوا إلي فأعلمكم ، لا طريقة من عندي ، بل الطريقة التي اوصى الله في الكتاب المقدس جميع البشر بأن يُصلّوا بها إليه ."

ثم شرع المطران يشرح للنساك كيف تجلّى الله للبشر ، محدثاً إياهم عن الله الآب ، والله الابن ، والله الروح القدس ، الإله الواحد . وقال :

"لقد نزل الله الابن إلى الأرض لينجّي الناس . واليكم كيف علّمنا جميعاً أن نصلي . فأصغوا إليّ ، وكرّروا ما أقول : "أبانا"!"

فردّ الشيخ الأول وراءه : "أبانا!" وقال الثاني : "أبانا!" وقال الثالث : "أبانا!"

وتابع المطران يقول : "الذي في السماوات ."

فرد الناسك الأول : "الذي في السماوات" ، ولكن الثاني أخطأ اللفظ ، والناسك الطويل تلعثم أيضاً . وكان شعر لحيته قد غطى شفتيه ، فلم يحسن النطق جيداً . أما الناسك الهرم ، إذ لم يكن في فمه أي أسنان ، فقد غمغم وهمهم .

وكرر المطران الكلمات ثانية ، والشيوخ يكررونها وراءه . وقد قعد المطران على حجر ، فيما وقف الشيوخ أمامه ، يراقبون فمه ، ويُعيدون

الكلمات كما تفوّه بها . وطوال النهار بذل المطران جهده ، مكرراً الكلمة عشرين مرة ، وثلاثين ومئة ، والشيوخ يُردّدون الكلمات بعده ، فيتلعثمون وهو يصحّح لهم ويطلب منهم الإعادة من جديد .

ولم يقلع المطران حتى علّمهم "الصلاة الربانية" كلها بحيث صاروا قادرين على تلاوتها بأنفسهم ، بغير أن يكرّروها وراءه . وكان ثاني الشيوخ أسرعهم في استظهارها وتلاوتها كاملة وحده . وطلب منه المطران أن يتلوها مراراً وتكراراً ، حتى غدا الآخران في النهاية قادرَين على تلاوتها .

كان الظلام قد بدأ يهبط ، والقمر بدأ يطلع على المياه ، لمّا قام المطران ليعود إلى السفينة . وإذ ودّع الشيوخ ، انحنوا له جميعاً إلى الأرض . فأنهضهم ، وقبّل كلاً منهم ، موصياً إياهم بالصلاة كما علّمهم .

ثم ركب القارب رجوعاً إلى السفينة .

وبينما هو قاعد في القارب ، والمجاذيف ضاربة ، استطاع أن يسمع أصوات النسّاك الثلاثة وهم يتلون الصلاة عالياً . وعندما دنا القارب من السفينة ، لم يعد المطران يسمع أصواتهم ، لكنه استطاع مع ذلك أن يتبيّنهم تحت ضوء القمر واقفين حيث تركهم على الشاطئ ، أقصرهم في الوسط ، وأطولهم إلى اليمين ، والأوسط إلى اليسار .

وحالما صعد المطران إلى السفينة ، رُفعت المرساة ، ونُشرت الأشرعة فملأتها الريح ، وأقلعت السفينة من جديد ، بعدما قعد المطران في المؤخّر منعماً النظر في الجُزَيرة التي خلّفوها . وظل حيناً يستطيع أن يرى النسّاك ، لكنهم ما لبثوا أن غابوا عن النظر ، وإن كانت الجُزَيرة ما تزال ترى . ثم اختفت هي أيضاً في الأخير ، وما عاد يُرى سوى البحر متلألئاً تحت ضوء القمر .

تمدّد الحجاج كي يناموا ، وسكنت كل حركة على متن السفينة . أما المطران فلم يشأ أن ينام ، بل جلس وحده في المؤخّر ، محملقاً إلى البحر

حيث توارت الجَزَيرة عن الأنظار ، ومفكراً في الشيوخ الطيبين . وتذكّر كم كان فرحهم عظيماً لدى تعلمهم "الصلاة الربانية" . فشكر الله إذ أرسله كي يعلّم ويساعد رجالاً أتقياء نظير أولئك .

وبينما هو قاعد يفكر ويحملق إلى البحر حيث توارت الجَزَيرة ، وأشعة القمر تتراقص أمام عينيه متلألئة بين الفينة والفينة على الأمواج ، إذ تراءى له شيء ابيض نيّر تحت شلال النور الذي أرسله القمر على المياه . أكان نورساً أم شراع قارب صغيراً خفّاقاً ؟ فأحدّ المطران نظره لعله يتبين ذلك الشيء ، مسائلاً نفسه عنه . وفكر برأسه :

"ينبغي أن يكون ذلك قارباً مبحراً خلفنا . لكنه يتجه نحونا مسرعاً حتى ليكاد يدركنا تواً . قبل دقيقة كان بعيداً جداً ، أما الآن فهو أقرب بكثير جداً . لا يعقل أن يكون قارباً ، إذ لا أرى له شراعاً . ولكن مهما كان ، فهو يلحقنا ، ويكاد يدركنا ."

ولم يحزر ما هو . لا قارب ، ولا طائر ، ولا سمكة! وهو أكثر جداً من أن يكون إنساناً . أضف أن الإنسان لا يستطيع أن يجري هكذا في عرض البحر .

وفي الحال قام المطران وقال لمدير الدفّة :

"انظر ، يا صاح ، ما هناك! أي شيء هو يا ترى ؟"

ولم يلبث المطران أن رأى جلياً ما كان ذلك الشيء : الشيوخ الثلاثة يجرون على الماء ، وكل ما فيهم يتألق ببياض ناصع ، ولحاهم الشائبة تسطع نوراً ، يقتربون من السفينة مسرعين كما لو كانت جامدة في مكانها .

ونظر مدير الدفة ذلك ، فاستولى عليه الذعر ، وأرخى الدفة من يده ، قائلاً :

"رباه! ها النسّاك يركضون وراءنا على الماء وكأنه يابسة!"

وحالما سمع الركاب ذلك ، هبّوا واقفين ، واحتشدوا في مؤخر السفينة .

فرأوا النسّاك مقبلين وأيدي بعضهم في أيدي بعض ، واللذان على الطرفين يلوحان باليد كي تقف السفينة . وكان الثلاثة ينزلقون على الماء دون تحريك أقدامهم . وقبل أن يتسنّى إيقاف السفينة ، كان النّساك قد بلغوها ، فرفعوا رؤوسهم ، وشرعوا يقولون كما بصوتٍ واحد :

"لقد نسينا ما علّمتنا ، يا خادم الله . فإذ واظبنا على تكرار كلمات الصلاة ، تذكّرناها . ولكن لمّا توقفنا حيناً عن تلاوتها ، سهونا عن كلمة من الكلمات ، فنسينا الصلاة كلها . ولا نستطيع أن نتذكّر منها حرفاً . فهلاّ تعلّمنا من جديد؟"

فصلّب المطران ، واتكأ على حافة السفينة ، وقال :

"إن صلواتكم سوف تبلغ أذني الرب ، يا رجال الله . فليس لي أن أعلّمكم شيئاً . فصلّوا لأجلنا نحن الخطاة!"

ثم انحنى المطران مطأطئاً رأسه أمام الشيوخ الثلاثة . أما هم ، فاستداروا وعادوا أدراجهم على البحر . وظل نور يتألق حتى الفجر حيث توارَوا عن الأنظار .

سنة 1886

13

العَفَريت وكسرة الخبز

انطلق فلاح فقير باكراً ذات صباح ليحرث ، آخذاً معه كسرة خبز للفَطور . فجهّز محراثه ، ولفّ خبزته بمعطفه ، ثم وضعه تحت شجيرة شائكة ، وشرع يعمل .

وبعد حين ، إذ تعب الحصان وجاع الفلاح ، حل رباط المحراث عن الحصان وأطلقه كي يرعى ، ثم مضى ليحضر معطفه وفطوره .

رفع الفلاح المعطف ، ونظر فإذا كسرة الخبز قد اختفت! ففتّش وفتّش ، مقلّباً المعطف ونافضاً إياه ، ولكن لم يجد للخبزة أثراً . وشقّ عليه ذلك ، ولم يجد له تفسيراً ، إذ فكر برأسه :

"يا له من أمر غريب! ما رأيت أحداً هنا ، ومع ذلك جاء أحدهم وأخذ خبزتي!"

كان عفريت صغير قد سرق الخبزة فيما الفلاح يحرث ، وفي تلك اللحظة كان كامناً خلف الشجيرة ينتظر أن يسمع الفلاح يشتم ويلعن إبليس .

أسف الفلاح لفقد فطوره . إلا أنه قال : "ما باليد حيلة . ثم إني لن أموت جوعاً! لا شك أن من أخذ الخبزة ، كائناً من كان ، يحتاج إليها . فهنيئاً له بها!"

ثم توجه إلى البئر ، فشرب واستراح قليلاً . ثم أمسك بحصانه ، وشدّ إليه المحراث ، واستأنف عمله .

واغتاظ العُفَيريت لأنه أخفق في دفع الفلاح إلى الإثم ، فمضى كي يطلع سيده إبليس على ما جرى .

قابل العُفَيريت إبليس وأخبره كيف خطف خبزة الفلاح ، وكيف قال هذا : "هنيئاً له بها!" بدل أن يلعن ويشتم .

فغضب إبليس وردّ قائلاً : "إن قهرك ذلك الإنسان ، فالغلطة غلطتك : أنت غِرّ في عملك! وإذا تصرّف الفلاحون هكذا ، ونساؤهم من بعدهم ، يطفح كيلنا! لا يمكن نفض أيدينا من الأمر . فعد إلى هناك ، وسوّ المسألة . وإن أخفقت في قهر الفلاح في غضون ثلاث سنين ، فسوف آمر بتغطيسك في الماء المقدّس!" .

ارتعب العُفَيريت ، وأطلق ساقيه للريح ، مفكراً في طريقة يصلح بها خطأه . وبعدما تفكّر وتدبّر ، عثر أخيراً على خطة بدت له حسنة .

حوّل العُفَيريت نفسه إلى رجل يعمل في الفلاحة ، ثم ذهب ووضع نفسه في خدمة الفلاح الفقير . وأول سنة ، نصح الفلاح بأن يبذر الحنطة في الأرض السبخة . فعمل الفلاح بنصيحته وبذر بذاره في الأماكن السبخة . وكانت تلك السنة سنة جفاف ، فسفعت الشمس حنطة سائر الفلاحين ، غير أن حنطة الفلاح الفقير اخضوضرت وطالت واكتست سنبلاً وفيراً . فجنى من الحبّ مؤونة تكفيه السنة كلها ، ويفضل منها كثير أيضاً .

وثاني سنة ، نصح العُفَيريت الفلاح بأن يبذر بذاره على التل ، فجاء الصيف ممطراً ، ولوت السنابل أعناقها فارغة من الحب ، ثم هوت وذوت . ولكن غلة الفلاح الفقير ، على التل ، كانت جيدة جداً ، حتى بقي عنده من الحنطة أكثر بكثير من ذي قبل ، ولم يدرِ ما يفعل بذاك الجنى الوافر .

ثم علّم العُفَيريت الفلاح كيف يهرس الحبّ ويقطّر منه كحولاً . فصنع الفلاح شراباً مسكراً ، وشرع يشرب منه ويسقي أصدقاءه .

بعدئذٍ ذهب العُفَيريت إلى إبليس سيده ، مفاخراً بأنه عوّض عن قصوره الماضي . فقال له إبليس إنه سيذهب معه بنفسه ليرى ما آلت إليه الأمور .

ووصل إبليس إلى بيت الفلاح ، فإذا به قد دعا جيرانه الميسورين إلى منادمته ، وزوجته بنفسها تقدّم إليهم الشراب . وبينما هي تدور به ، تعثّرت بالطاولة فقلبت كأساً ملأى .

فاغتاظ الفلاح وعنّف زوجته قائلاً : "يا فَساقِ! ماذا فعلتِ؟ أظننتِ ، يا شلأء ، أن هذا ماء سواقٍ حتى أرقته هكذا على الأرض ؟"

إذ ذاك وكز العُفَيريت سيده إبليس بمرفقه ، قائلاً له : "أرأيت ؟ ذلك هو الرجل الذي لم يأسف على خبزته!"

وبينما الفلاح ما يزال مستشيطاً على زوجته ، أخذ يدور هو بالشراب . وفي تلك اللحظة عينها دخل فلاح فقير راجع من عمل يومه ، دون أن يدعوه أحد . فسلّم على الحضور ، وقعد ، ثم رآهم يشربون . وإذ كان نهاره متعِباً ، ودّ لو يشرب قليلاً . ثم طال قعوده ، وظل يبلع ريقه . ولكن ربّ البيت ، بدل أن يقدم له كأساً ، ما زاد على قوله متذمّراً : "أنّى لي أن أجد شراباً لكل من يَقبل إلينا ؟"

فسرّ ذلك إبليس . لكن العُفَيريت كبت ضحكة وقال له : "انتظر قليلاً تَرَ المزيد بعد!"

وظل الفلاحون الميسورون يشربون ، ومضيفهم يشرب معهم ، حتى شرعوا يتمادحون ويُسمِعون بعضهم بعضاً معسول الكلام .

فأصغى إبليس إلى كل ما قيل تزييفاً ، وأثنى على العُفَيريت ، قائلاً : "إن كان الشراب يجعلهم منافقين هكذا حتى يخدع بعضهم بعضاً ، فلا بد أن يقعوا تحت سيطرتنا سريعاً ."

فقال العُفَيريت : "انتظر ما يأتي . فلتُدَر عليهم بعد كأس صغيرة . إنهم الآن كالثعالب تُحرّك أذنابها وتحاول أن تخدع بعضها بعضاً . ولكن بعد لحيظات تراهم كالذئاب الشرسة المفترسة!"

ثم شرب الفلاحون كلّ كأساً صغيرة أخرى ، فإذا بكلامهم يزداد خشونة وقساوة . وبدل الكلام المعسول ، تلاقبوا وتشاتموا . وبعد قليل شرعوا يتضاربون ، ويلكم بعضهم أنوف بعض . وشارك مضيفهم في الشجار ، فنال حصة وافرة من الضرب واللكم!

كل ذلك وإبليس يراقب بسرور ما بعده سرور . حتى قال : "ممتاز ، ممتاز!"

لكن العَفَريت أجاب : "قليلاً ، فترى النهاية السعيدة بعد . مهلاً حتى يشربوا الكأس الثالثة ؛ فلئن كانوا الآن كالذئاب الهائجة ، فليشربوا كأساً أخرى بعد يصيروا كالخنازير البرية!"

ثم شرب الفلاحون الثالثة ، فإذا بهم كالوحوش ، يقبعون ويتصايحون وهم لا يدرون لماذا ، ولا يصغي بعضهم إلى بعض .

بعد ذلك بدأ الشّرب يتفرقون . فمنهم من ذهب وحده ، وبعضهم ذهبوا اثنين اثنين ، أو ثلاثة ثلاثة ، والجميع يترنّحون في الطريق . وخرج المضيف ليودّع ضيوفه ، لكنه سقط على وجهه في بركة وحل ، وتلطّخ من رأسه حتى قدميه ، ولبث هناك يقبع كالخنزير البغيض .

وسرّ ذلك إبليس المكّار سروراً زائداً ، فقال :

"زه ، زه ، لقد وُفّقت إلى شراب ممتاز ، فأحسنت التعويض عن تقصيرك في شأن تلك الخبزة! لكن قل لي الآن كيف صنعت هذا الشراب . لا أشك في أنك ركّبت شرابك أولاً من دم ثعلب ؛ فذلك ما جعل الفلاحين خبثاء كالثعالب . ثم أضعف إليه دم ذئب : فذلك ما جعلهم شرسين كالذئاب . وأخيراً ، أعتقد أنك زدت دم خنزير ، حتى جعلتهم يتصرّفون كالخنازير البرّيّة ."

فقال العَفَريت : "لا ، لم تكن هذه طريقتي فكل ما فعلته أنني عُنيت بحصول الفلاح على غلة تفيض عن حاجته . إن دماء الوحوش هاجعة في الإنسان

دائماً ، ولكنها تبقى ضمن حدودها ما دام عند الإنسان حنطة تكفيه لحاجته . فحينما كانت هذه حال الفلاح ، لم يأسف على آخر كسرة خبز عنده . ولكن لما فضل عنده كثير من الحنطة ، بحث عن طرق للتمتّع به . وأنا أريته سبيل لذة ، ألا وهو الشراب المسكر! وحين أخذ يحوّل هبات الله الصالحة إلى شراب يؤتيه اللذة إذا عاقره ، فاضت فيه دماء الثعلب والذئب والخنزير . فإن هو ظلّ يشرب فحسب ، يبقى كالوحش دائماً!"

فأثنى إبليس على العَفَريت ، وسامحه بقصوره الماضي ، ورقّاه إلى منصب أسمى .

سنة 1886

14

ما مساحة الأرض التي يحتاج إليها الإنسان؟

1

قدمت امرأة لزيارة أختها الصغرى في الريف . وكانت متزوّجة من تاجر في المدينة ، فيما كان زوج الصغرى فلاّحاً من القرية . وإذ قعدت الأختان تتحدّثان وهما تشربان الشاي ، أخذت الكبرى تُباهي بمزايا الحياة في المدينة ، واصفةً رفاهية العيش هناك ، وأناقة اللباس ، وكيف ترفل مع أولادها في أفخر الثياب ، وايّ طعام فاخر يأكلون وشرابٍ سائغٍ يشربون ، وكيف يرتادون المسارح ويؤمّون المنتزهات ويحضرون الحفلات ، ويتمتعون بمختلف التسليات .

جُرِحت كبرياء الأُخت الصغرى ، فراحت بدورها تنتقص حياة التجار وتدافع عن حياة الفلاّح . قالت :

"ما كنتُ لأستبدل نمط حياتك بنمط حياتي . قد تكون عيشتنا خشنة ، غير أننا على الأقلّ خِلوٌ من الهم والقلق . إنّ أُسلوب حياتكم أفضل من أسلوب حياتنا ، ولكن مع أنكم تكسبون غالباً أكثر مما تحتاجون إليه فكثيراً ما تخسرون كلّ ما تملكون . أما تعرفين المثل الذي نتناقله : "الربح والخسران أخوان توأمان" ؟ فما أكثر ما يصبح الأغنياء اليوم فقراء غداً يستعطون لقمة الخبز! لكن سبيلنا أكثر أماناً . فلئن كانت حياة الفلاح هزيلة ، فإنها طويلة . إننا لن نصير أغنياء البتة ، ولكن سيكون عندنا دائماً ما يكفينا لنعيش ."

فقالت الأخت الكبرى ساخرة :

"ما يكفي ؟ نعم ، إذا شئتم أن تشاركوا الخنازير والعجول! ماذا تعرفين

من شؤون الأناقة وآداب السلوك ؟ مهما كدح رجُلكِ الطيب ، فلا بدّ أن تموتا كما تعيشان ، على كومةٍ من الزبل ، وسيحذو أولادكما حذوكما!"

أجابت الصغرى : "لا بأس في ذلك كله! طبعاً ، عملنا قاسٍ وخشن . لكنه ، في المقابل ، مأمون . ولسنا مضطرين للانحناء أمام أيّ مخلوق . ولكنكم ، أنتم أهل المدن ، محاطون بالمُغريات . قد تكون حياتكما اليوم حسنة ، ولكن غداً قد يُغوي الشيطان زوجك بالميسر أو المَسكر أو النساء ، فتنهار حياتكما . ألا تحدثُ أمورٌ كهذه غالباً ؟"

كان فهوم ، ربّ البيت ، مستلقياً آنذاك قرب الموقد ، يُصغي إلى ثرثرة المرأتين ، فدارت في رأسه غيرُ فكرة : "هذا صحيحٌ تماماً . فها نحن منذ الصغر منشغلون بحراثة أمّنا الأرض ، وليس عندنا نحن الفلاحين مُتسعٌ من الوقت لإيواء أيّ فسادٍ في رؤوسنا . إنما مشكلتنا الوحيدة أننا لا نملك ما يكفينا من الأرض . فلو كان عندي أرضٌ واسعة ، ما كنتُ أخشى حتى إبليس نفسه!"

فرغت المرأتان من تناول الشاي ، وثرثرتا قليلاً عن الملابس ، ثم رفعتا أواني الشاي ، وتمدّدتا لتناما .

غير أن إبليس كان جاثماً خلف الموقد ، وقد سمع كل ما قيل . وسرّه أن تكون زوجة الفلاح قد حملت زوجها على الافتخار ، وأنه قال إنه لو كان عنده أرض واسعة ما كان يخشى حتى إبليس نفسه .

ففكر إبليس برأسه : "طيب! سيكون لنا غير صولة وجولة : سوف أعطيك أرضاً كافية ، وبهذه الوسيلة أسيطر عليك ."

2

وعلى مقربة من تلك القرية كانت تقيم مالكة صغيرة عندها أرض مساحتها نحو ثلاث مئة فدان . وقد عاشت مع الفلاحين دائماً في وئام ، إلى أن استخدمت وكيلاً كان جندياً قديماً فدأب في إثقال الكواهل بالغرامات . وسعى فهوم جهده

للاحتراس ، إلا أنه حدث مراراً وتكراراً أن دخل حصان حقل الشوفان الذي تملكه السيدة ، أو شردت بقرة إلى حديقتها ، أو سرحت العجول في مروجها ، فكان عليه ، دائماً أن يؤدي الغرامات مقابل ذلك . وكان فهوم يؤدّي ما عليه ، لكن متذمراً مدمدماً ، ثم يعود إلى البيت مكدراً فيعامل عائلته معاملة فظة . وطوال ذلك الصيف ، عانى فهوم كثيراً بسبب ذلك الوكيل . حتى إنه ابتهج لما حل الشتاء فأدخل ماشيته زرائبها . ومع أنه أسف على العلف بعدما تعذر إخراج المواشي إلى المراعي ، فقد استراح على الأقل من قلقه عليها .

وفي الشتاء انتشر خبر بأن المالكة عرضت أرضها للبيع ، وأن صاحب الفندق المشرف على الطريق العام كان يساومها بها . فلما علم الفلاحون بذلك اضطربوا كثيراً . ذلك أنهم فكروا برؤوسهم : "ويلاه! إذا امتلك صاحب الفندق الأرض ، فسوف يُثقّل علينا الغرامات أكثر مما يفعل وكيل المالكة . فمصيرنا متعلق بهذه الأرض ."

وهكذا ذهب بعض الفلاحين ، نيابة عن إدارة منطقتهم ، وطلبوا إلى المالكة ألا تبيع صاحب الفندق أرضها ، عارضين عليها سعراً أفضل . فوعدتهم المالكة خيراً . ومن ثم حاولوا السعي لدى الإدارة لشراء تلك الأرض كلها حتى يتشاركوا في استغلالها . وعقدوا اجتماعين متواليين لبحث الأمر ، لكنهم لم يستطيعوا التفاهم على شيء . فقد بذر الشيطان بينهم الشقاق ، وتعذر عليهم الاتفاق . وعليه ، قرروا شراء الأرض منفردين ، كلّ بوسيلته الخاصة ، ووافقت المالكة على هذا المشروع كما سبق أن وافقت على الآخر .

وما لبث فهوم أن سمع أن واحداً من جيرانه سيشتري خمسين فداناً ، وأن المالكة قبلت أن تقبض نصف الثمن نقداً ، وتنتظر النصف الآخر في مهلة سنة . فحسد فهوم جاره على ذلك .

وقال لنفسه : "انظر ما هو جار! ها الأرض تُباع كلها ، ولن أحصل أنا على

شيء منها ." ومن ثم كلم زوجته في الأمر . قال ،
"الجميع يشترون . ونحن أيضاً يجب أن نشتري عشرين فداناً ، أو نحوها . باتت الحياة لا تُطاق . فالوكيل يسحقنا بغراماته سحقاً ."

هكذا شرعا يفكران معاً لعلّهما يهتديان إلى سبيل لشراء قطعة من تلك الأرض . وكانا قد وفّرا مئة روبل . فباعا مهراً ، ونصف نحلهما ، ووظّفا أحد ابنائهما عاملاً ، وقبضا أجرته سلفاً ، واقترضا الباقي من أحد الأصهار ، وبذلك حوّشا نصف ثمن القطعة .

إذ ذاك انتقى فهوم قطعة مساحتها أربعون فداناً ، في قسم منها أشجار ، وقصد إلى المالكة يساومها بها . فتوصلا إلى اتفاق ، وعقدا الصفقة ، فدفع فهوم عربوناً . ثم ذهبا إلى المدينة ووقعا سند البيع ، حيث دفع فهوم نصف المبلغ وتعهد بدفع الباقي في مهلة سنتين .

وهكذا صار فهوم مالكاً لأرضه الخاصة . فاقترض بذاراً وزرع الأرض التي اشتراها . وكانت الغلة وافرة ، فدبّر في غضون سنة واحدة وفاء ديونه للمالكة ولصهره أيضاً . وبذلك صار مالكاً يحرث ويزرع أرضه الخاصة ، ويرعى مواشيه في مرعاه الخاصّ . ويصنع تبناً على بيدره الخاص ، ويقطع حطباً من أشجاره الخاصة ، فكان إذا خرج لحراثة حقوله ، أو تفقّد حنطته النامية أو مروجه النضرة ، يغمر الفرح قلبه . حتى إنّ العشب الذي طلع هناك ، أو الزهور التي نوّرت هنالك ، بدت غير ما في سائر الأمكنة . وحين كان يمر قبلاً بتلك الأرض ، كانت تبدو له كغيرها من الأراضي ؛ أما الآن فقد بدت مختلفة تماماً!

3

وهكذا غدا فهوم راضياً قانعاً . ولولا تعدّي جيرانه الفلاحين حدود حقوله ومروجه ، لكان كل شيء بخير . وقد ناشدهم بكل تأدب ، لكنهم ظلوا يتعدّون . فحيناً يترك الرعاة المشتركون بقرات القرية تشرد إلى مروجه ،

وحيناً تدخل حقوله بعض الأحصنة التي ترعى ليلاً . وكان فهوم يطرد الماشية مراراً وتكراراً ، ويسامح مالكيها ، محجماً عن الادعاء على أحد مدة طويلة . إلا أن صبره نفد أخيراً ، فشكاهم إلى محكمة المنطقة . كان يعلم أن سبب المشكلة حاجة الفلاحين إلى الأرض ، لا أية نية سوءٍ من جانبهم ، ولكنه فكر :

"لا يمكنني أن أظل متغاضياً عن ذلك ، وإلا أفسدوا كل ما لي . ينبغي أن يلقنوا درساً لا ينسى ."

وعليه ، فقد تم استدعاؤهم ، ولُقّنوا درساً بعد درس ، وغُرّم منهم اثنان أو ثلاثة . وبعد حينٍ بات جيران فهوم يضمرون له غلاً ، وصاروا بين الفينة والفينة يفلتون مواشيهم في أرضه عمداً . حتى إنّ فلاحاً منهم دلف إلى غابة فهوم ليلاً وقطع خمس شجرات زيزفون لأجل لحائها . وبينما فهوم يعبر الغابة يوماً ، لفت نظره شيء أبيض . فاقترب ، وإذا الجذوع المقشورة مطروحة أرضاً وعلى مقربةٍ منها الجذول الباقية من الشجرات العزيزة . فاستشاط فهوم جداً ، وفكر :

"لو قطع شجرة هنا وشجرة هناك ، لهان الأمر رغم سوئه . ولكن الوغد قطع أجمةً كاملة . أوّاه ليتني أعرف فقط من فعل هذا فأقاضيه!"

حك دماغه ، لعله يهتدي إلى الفاعل . وأخيراً قرر : "لا بد من أنه سيمون ، فلا أحد سواه يفعل هذه الفعلة الشؤمى!"

ومن ثم قصد فهوم إلى دار سيمون ، وأجال بصره في الفناء ، فلم يعثر على شيء ، ولكن غضبه لم يُفثأ . غير أنه أحس يقيناً غير مسبوق بأن سيمون هو الفاعل ، فرفع شكوى عليه . فاستُدعي سيمون ، وتم النظر في القضية مرة ومرتين ، ثم بُرِئَ سيمون أخيراً لانعدام الأدلة عليه . إذ ذاك شعر فهوم بمزيدٍ من الظلم ، وصب جام غضبه على كبير القضاة ومساعديه قائلاً :

"أتدعون لصاً يُزيّت أكفكم ؟ لو كنتم قوماً شرفاء ، ما تركتم لصاً يفلت من العقاب!"

وهكذا خاصم فهوم القضاة كما خاصم جيرانه . وسَمِع مَن يتفوه بتهديدات بحرق مبانيه . ومن ثم باتت مكانته في مجتمع الفلاحين هناك أسوأ جداً من ذي قبل ، وإن كان مالكاً لأرض أوسع .

وفي تلك الأثناء سرت شائعة بان كثيرين ينتقلون إلى أنحاء جديدة . ففكر فهوم براسه : "لا داعي لأن اترك أرضي . ولكن بعض الآخرين قد يغادرون قريتنا ، فتتسع لنا الأراضي عندئذٍ . وسأستولي انا على اراضيهم فأوسع أرضي قليلاً . اذ ذاك يتسنى لي أن أعيش خلياً رخياً . فوالحالة هذه ما تزال أرضي أضيق من أن تريحني ."

وذات يوم كان فهوم قاعداً في البيت ، فعرّج عليه فلاح مارّ بالقرية ، وأذن له بالمبيت عنده ، بعدما عشّاه . وتحدث اليه فهوم واستفسره من أين جاء . فأجاب الغريب بأنه جاء من عبر الفولغا ، حيث كان يشتغل . وجرّت الكلمة أختها ، فأخبره الرجل بأن كثيرين كانوا يستقرون هنالك . وروى كيف استوطن هنالك بعض أهل قريته . فقد وهبت الإدارة المحلية هناك كلاً منهم خمسة وعشرين فداناً . وقال الضيف إن الأرض جيدة جداً هناك ، حتى إن الجاودار المزروع فيها يرتفع بعلو حصان ، وهو كثيف جداً بحيث إن خمس ضربات بالمنجل تحصد حزمة كاملة . وقال أيضاً إن فلاحاً حل هناك وليس لديه الا يداه الخاليتان ، ولكنه الآن يملك ستة أحصنة وبقرتين .

فاضطرم قلب فهوم تشهّياً ، وفكر :

"فيمَ أقاسي في هذا الوادي الضيق ، ما دام المرء يستطيع أن يحيا هذه العيشة الهانئة في مكان آخر ؟ سأبيع أرضي وبيتي هنا ، وبالمال الحاصل أبدأ من جديد هناك ، وأجدّد كل شيء . في هذا المكان المزدحم مشاكل دائمة لا تكاد تنتهي . . لكن ينبغي أولاً أن أذهب وأرى الوضع بنفسي ."

ثم قُبيل الصيف تأهب وسافر . ركب في باخرة على نهر الفولغا إلى

سمارا ، ثم مشى على قدميه نحو خمس مئة كيلومتر أخرى ؛ حتى وصل إلى تلك المنطقة أخيراً ، فوجدها كما قال الغريب تماماً . فالفلاحون يملكون اراضي واسعة ، إذ وَهب كل منهم خمسة وعشرين فداناً للاستغلال ، وفي وسع اي فلاح ذي مال أن يشتري ما شاء من الأرض فوق ذلك بسعر زهيد جداً .

وبعدما عرف فهوم كل ما رغب فيه ، رجع إلى قريته مع إقبال الخريف ، وبدأ يبيع ممتلكاته . فباع أرضه بربح ، وباع بيته ومواشيه ، وانسحب من عضوية الإدارة المحلية . غير أنه انتظر حتى الربيع ، ثم انطلق وعائلته نحو المقر الجديد .

4

حالما وصل فهوم وأسرته إلى مقرهم الجديد ، طلب الانتساب إلى إدارة قريةٍ كبيرة . ثم أضاف المشايخ ، وجمع الوثائق الضرورية . فأعطي مع بنيه خمس حصص من الأراضي المشتركة ، أي مئة وخمسة وعشرين فداناً ، لا متصلة بل متفرقة ، فضلاً عن الاستفادة من المراعي العمومية .

ثم بنى فهوم ما يعوزه من مبانٍ ، واشترى مواشي . ومن الأراضي المشتركة وحدها حاز ثلاثة أضعاف ما كان له في قريته السابقة ، وكانت أرض حنطةٍ جيدة . وتحسنت حاله عشرة أضعاف عن ذي قبل . وبات عنده كثير من الأراضي المنزرعة والمراعي ، وصار قادراً على اقتناء ما شاء من الماشية .

باديَ بدء ، في حُميّا البناء والاستيطان ، سُرّ فهوم بكل شيء . ولكن لما اعتاد ذلك ، بدأ يفكر أنه حتى هنا لا يملك ما يكفيه من الأراضي . ففي السنة الأولى بذر الحنطة في حصته من الأرض المشتركة ، وجنى غلة جيدة وأراد أن يمضي في زراعة الحنطة ، فميز أنه لم يكن يمتلك ما يكفي من الأرض العمومية لذلك الغرض ، وما سبق أن استغله لم يعد مبذولاً ، إذ كانت الحنطة في تلك المنطقة تزرع فقط في الأراضي البكر أو الأراضي المراحة . فكانت الأرض تُزرع

سنة أو سنتين حنطة ، ثم تُراح حتى يكسوها عشب المروج . كان كثيرون يطلبون أرضاً كهذه ولم يكن ما يكفي الجميع ، فتخاصم الناس بسببها . فالأيسر حالاً يريدونها لزرع الحنطة ، والفقراء يريدونها لتأجيرها للوكلاء حتى يحصلوا على المال لدفع ضرائبهم . وكان فهوم يريد أن يزرع مزيداً من الحنطة ، فاستأجر أرضاً من أحد الوكلاء لسنة . وقد بذر كثيراً وحصد جنى وافراً ، إلا أن أرضه كانت بعيدة من القرية فكان واجباً نقل الحنطة بالعربات نحو خمسة عشر كيلو متراً . وبعد مدة لاحظ فهوم أن بعض كبار الفلاحين كانوا يعيشون في مزارع مستقلة ، ويزدادون غنى ، ففكر برأسه :

"لو قُدّر لي أن أشتري أرضاً بالتملك الحر ، وبنيت بيتاً فيها ، لتغيّرت حالي كلياً ، ولطاب لي العيش حقاً في أرباض متصلة ."

وراودته مرة بعد مرة فكرة شراء الأرض بالتملك الحر .

لكنه ظل على حاله ثلاث سنين مستأجراً الأرض وزارعاً الحنطة . وقد أقبلت المواسم وكان المحصول جيداً ، فأخذ يدخر بعض المال . كان له أن يعيش قانعاً ، لكنه سئم استئجار أراضي الغير كل سنة ، والسعي للحصول عليها بالجهد الجهيد . فحيثما توافرت الأرض الصالحة ، تدافع الفلاحون للحصول عليها فطارت في الحال ؛ حتى إذا أعيت المرء الحيلة عاد صفر اليدين . واتفق في السنة الثالثة أن فهوم وأحد الوكلاء استأجرا معاً قطعة أرض للرعي من بعض الفلاحين ، وفلحاها ثم نشب نزاع حولها وتداعى الفلاحون فيها ، فأفلت كل شيء من اليد ، وضاع كل جهد . ففكر فهوم :

"لو كانت الأرض أرضي ، لكنت مستقلاً ، وما تكدرت هكذا وانزعجت؟"

ومن ثم شرع يبحث عن أرض يستطيع شراءها ، فوقع على فلاح كان قد اشترى ألفاً وثلاث مئة فدان لكنه واجه بعض الصعوبات فعرض أرضه للبيع بسعر بخس . فساومه فهوم بها وماحكه عليها ، حتى اتفقا أخيراً على ألف وخمس مئة

روبل ، يؤدى بعضها نقداً وبعضها نسيئة . ولكن قبل أن يحسما الأمر ، اتفق أن وكيلاً عابراً عرج على فهوم يوما ليطعم أحصنته . فقدم له فهوم فنجان شاي ، وتجاذبا أطراف الحديث فقال الوكيل إنه عائدَ لتوه من بلاد البشكيريين النائية ، حيث اشترى ألفاً وثلاث مئة فدان بألف روبل فقط . واستفسره فهوم بعد ، فأردف :

"لا يحتاج المرء إلاّ إلى مصادقة الوجهاء . فقد وزعت بنحو مئة روبل حللاً وسجاداً وصندوق شاي ، وأهديت خمراً إلى من يشربون ، فحصلت على الأرض بأبخس الأثمان ." ثم أرى فهوم سند الملكية ، وقال :

"الأرض على مقربة من نهر ، والمروج كلها أراضٍ بكر ."

وأمطره فهوم بوابل من الأسئلة ، حتى قال :

"هنالك من الأراضي ما لا تقطعه لو سرت سنة واحدة ، وكلّها ملك للبشكيريين ، وهم سُذّج كالخراف . فيمكنك الحصول على الأرض مقابل لا شيء تقريباً ."

فتفكر فهوم في أمره : "إن في يدي ألف روبل فلماذا اشتري فقط ألفاً وثلاث مئة فدان ، وأرهق نفسي بالدين أيضاً ؟ إذا حملت هذا المبلغ إلى هنالك ، فقد أحصل به على عشرة أضعاف ما يشتري لي هنا؟"

5

استفسر فهوم عن الطريق المؤدي إلى تلك المنطقة النائية . وحالما غادره الوكيل ، أعد عدته للتوجه إلى هناك بنفسه . وقد ترك زوجته للاعتناء بالبيت ، وانطلق في سفرته بصحبة معاونه . وفي طريقهما عرّجا على مدينة ، حيث اشتريا صندوق شاي ، وبعض الخمر ، وهدايا أخرى ، عملاً بنصيحة الوكيل . وأغذّا السير حتى قطعا أكثر من خمس مئة كيلومتر . وفي اليوم السابع بلغا مكاناً كان البشكيريون قد ضربوا فيه خيامهم . فإذا كل شيء كما قال الوكيل .

كان الناس يقيمون على السهوب قرب النهر ، في خيام مغطاة باللباد وكانوا لا يفلحون الأرض ولا يأكلون الخبز . وكانت مواشيهم وقطعانهم ترعى معاً في السهوب . وكانت الأمهار مربوطة بحبال طويلة خلف الخيام حيث تسرح الأفراس اليها مرتين في النهار . وكانت الأفراس تُحلب ، ويصنع من حليبها مخيض اللبن الحامض . وقد تولت النساء حلب الأفراس وصنع المخيض ، كما كن هن أيضاً يصنعن الجبن . اما الرجال فكل ما عنوا به من هذه الحياة إنما كان شرب المخيض والشاي وأكل لحم الضأن ، وعزف النايات . وكانوا أقوياء البنية ومفرطي المرح ، لا يفكرون أن يأتوا عملاً طوال الصيف . وقد كانوا أميين تماماً ، لا يعرفون الروسية البتة ، إلاّ أنهم كانوا طيبي المزاج للغاية .

فما إن رأى هؤلاء فهوم ، حتى خرجوا من خيمهم وتجمعوا حول الضيف الكريم . وجيء بمترجم ، فأخبرهم فهوم أنه جاء لأجل بعض الأرض . وبدا البشكيريون مسرورين جداً ، فأدخلوا فهوم واحدة من أفخر خيامهم ، حيث أقعدوه على وسائد وضعت على سجادة ، وتحلقوا حوله . وقدموا له شاياً ومخيضاً ، وذبحوا خروفاً ، وقدموا له لحم ضأن ليأكل . ثم أحضر فهوم من عربته هدايا وزعها على البشكيريين ، وقسّم بينهم الشاي . فسر البشكيريون أي سرور . وتحدثوا كثيراً فيما بينهم ، ثم طلبوا إلى الترجمان أن يترجم ، فقال :

"إنّهم يودون أن يقولوا لك إن هذه عادتنا : أن نبذل كل ما في وسعنا لإكرام ضيفنا ومكافأته نظير هداياه . وأنت قدمت لنا هدايا فقل لنا أيّ شيء من ممتلكاتنا يسرّك أكثر من سواه فنقدمه لك؟"

فقال فهوم : "ما يسرّني اكثر كل شيء هنا هو أرضكم . إن أرضنا مزدحمة وتربتها مستهلكة . ولكنّ عندكم أراضي كثيرة ، وهي أراضٍ جيدة . ما رأيت مثلها قط ."

وترجم المترجم ، فتحدث البشكيريون في ما بينهم هنيهة ، وفهوم لا يفهم شيئاً مما يقولون ، لكنه تبين أنهم مسروورون جداً إذ تصايحوا وتضاحكوا . ثم صمتوا وحملقوا إلى فهوم فيما الترجمان يقول : "إنهم يرغبون ان اقول لك إنهم مقابل هداياك سيعطونك من الأرض بقدر ما تشاء . ما عليك إلا أن تشير إلى الأرض بيدك ، فتصير لك!"

ثم تحدث البشكيريون من جديد بعض الوقت ، وبدأوا يتخاصمون . وسأل فهوم عن سبب تخاصمهم ، فقال له المترجم إن بعضهم يعتقدون أن عليهم أن يستشيروا شيخهم بشأن الأرض ولا يتصرفوا بغيابه ، فيما يعتقد الباقون أن لا داعي لانتظاره حتى يعود .

6

وفيما البشكيريون يتجادلون ، أقبل رجلٌ يعتمر قبعة كبيرة من فرو الثعالب ، فوجموا جميعاً وهبوا واقفين . فقال المترجم : "هذا شيخنا وزعيمنا ."

وفي الحال أحضر فهوم نحو كيلوين من الشاي وأفخر حلةٍ لديه ، وقدمها إلى الزعيم . فقبل الزعيم الهدية وقعد في مقام الشرف . وللحال طفق البشكيريون يخبرونه شيئاً . فاصغى الزعيم حيناً ، ثم اومأ براسه إليهم كي يسكتوا ، وخاطب فهوم بالروسية قائلاً :

"لا بأس! ليكن لك ما تريد . فاختر أية قطعة أرضٍ شئت ؛ إن أراضينا كثيرة " .

ففكر فهوم براسه : "ترى ، كيف يمكنني أن أستولي على ما شئت ؟ ينبغي أن احصل على سند يضمن لي الأرض ، وإلا فقد يقولون "إنها لك!" ثم يأخذونها مني في ما بعد ."

وقال جهراً : "شكراً لكم على كلامكم اللطيف! عندكم اراضٍ كثيرة ، وأنا أريد قليلاً منها فقط . ولكني أود لو أتيقن أية قطعةٍ لي . فهل يمكن قياسها

وتحويلها إلي ؟ الحياة والموت بيد الله . فأنتم أيها القوم الطيبون تهبونني الأرض ، ولكن أولادكم قد يرغبون في استرجاعها ."

فقال الزعيم : "أنت على حق ؟ سوف نحولها إليك ."

وأردف فهوم : "سمعت أن وكيلاً كان هنا ، وأنكم أعطيتموه أيضاً أرضاً صغيرة ، ووقّعتم له سنداً بها . فأنا أود لو تفعلون ذلك لي ."

ففهم الزعيم وقال : "نعم ، سهل أن نفعل ذلك . فعندنا كاتب ، وسنذهب معك إلى المدينة ونختم السند كما ينبغي ."

وسأله فهوم : "وماذا سيكون الثمن ؟"

"الثمن عندنا هو هو : ألف روبل في اليوم!"

فلم يفهم فهوم ، وسأل : "في اليوم ؟ وما المساحة ؟ كم فداناً تكون الأرض ؟"

قال الزعيم : "نحن لا نحسن حسابها ، بل نبيعها باليوم . فالأرض التي تدور حولها مشياً على قدميك في يومٍ واحد ، تكون لك ، والسعر هو ألف روبل في اليوم ."

فوجئ فهوم ، وقال : "ولكن في يومٌ واحد يمكنك أن تدور حول قطعة أرضٍ كبيرة!"

فضحك الزعيم وقال : "وستكون كلها لك! إنما عندنا شرط واحد : إن لم تعد في اليوم نفسه إلى النقطة التي انطلقت منها ، تخسر مالك ."

"ولكن كيف تُرسَم حدود الأرض التي أدور حولها ؟"

"لا عليك! فنحن نذهب إلى أي موقع تختاره ، ونلبث هناك . وعليك أنت أن تنطلق من ذلك الموقع حاملاً مجرفة . وحيثما تجد الأمر ضرورياً ، تضع علامة . وعند كل منعطف ، تحفر حفرة صغيرة وتكوم التراب ، ثم نلحقك نحن بمحراث من حفرة إلى حفرة . في وسعك أن تدور أكبر دورة تشاؤها . ولكن

قبل غروب الشمس ينبغي أن تعود إلى النقطة التي انطلقت منها . والأرض التي تقطعها في دورتك تكون لك ."

سُرّ فهوم أي سرور . وتقرر أن ينطلق باكراً صباح الغد . ثم تجاذبوا أطراف الحديث حيناً ، وبعدما شربوا مزيداً من المخيض وأكلوا قليلاً من لحم الضأن ، شربوا الشاي من جديد ، ثم حل الليل . فأعطوا فهوم فراشاً من الريش لينام عليه ، وتفرقوا للمبيت ، متواعدين أن يتلاقوا في الغد فجراً ويمضوا إلى الموقع المعين ، على الخيول .

7

استلقى فهوم على فراش الريش ، ولكن لم يغمض له جفن ، إذ شغله التفكير في الأرض :

"يا لها من قطعة أرضٍ واسعة سأدور حولها! يسهل علي أن أقطع نحو ستين كيلومتراً في اليوم . فالنهار طويل الآن . وداخل دورة من ستين كيلومتراً أية قطعة أرضٍ ستكون! وسوف أبيع الأرض الأقل جودةً ، أو أؤجرها للفلاحين ، لكنني سأنتقي الفضلى وأزرعها . ثم أشتري فدانَي حراثة ، وأستأجر عاملين بعد . فيصير عندي نحو مئة وخمسين فداناً من الأرض المنحرثة ، وأرعى المواشي في الأراضي الباقية ."

ظل فهوم مستيقظاً طول الليل ولم ينم إلا قُبيل الفجر قليلاً . وما كادت عيناه تغمضان حتى حلم حلماً . رأى نفسه مستلقياً في تلك الخيمة بعينها ، وسمع شخصاً يضحك ضحكة مكبوتة . وساءل نفسه عمّن يكون ذلك ، ثم قام وخرج فرأى الزعيم البشكيري قاعداً قدام الخيمة وهو يقهقه ضاحكاً ويداه على خاصرتيه . فاقترب إلى الزعيم أكثر وسأله : "علام تضحك ؟" لكنه رأى أنه لم يعد ذاك الزعيم بعد ، بل هو الوكيل الذي عرّج على بيته منذ عهد قريب وأخبره بشأن الأرض . ولما هم بأن يسأله : "أأنت هنا منذ وقتٍ بعيد ؟" رأى أنه لم

يكن الوكيل ، بل الفلاح الذي جاء قديماً إلى بيته الأول آتياً من منطقة الفولغا . ثم رأى أنه ليس الفلاح أيضاً ، بل هو إبليس نفسه بحافريه وقرنيه قاعداً هنالك يقهقه ، وأمامه منطرحاً على الأرض رجل حافٍ وليس عليه سوى بنطلون وقميص . وحلم فهوم أنه أحدّ نظره ليرى أي رجلٍ كان منطرحاً هناك ، فإذا الرجل ميت ، وإذا به فهوم نفسه! فاستيقظ مذعوراً .

وفكر برأسه : "إنها أضغاث أحلام!"

وتطلع حوله فرأى من باب الخيمة المفتوح أن الفجر بدأ يلوح ، ففكر :

"حان وقت إيقاظهم . ينبغي أن ننطلق ."

فنهض وأيقظ معاونه ، وكان نائماً في عربته ، وطلب منه أن يشد العربة إلى الحصان ، ثم مضى يستدعي البشكيريين ، قائلاً لهم :

"حان وقت الذهاب إلى السهب لقياس الأرض!"

فنهض البشكيريون وتجمعوا ، وحضر الزعيم أيضاً . ثم بدأوا يشربون المخيض من جديد ، وقدّموا لفهوم بعض الشاي ، ولكنه لم يشأ أن ينتظر ، بل قال : "إن كان ينبغي أن نذهب ، فلنذهب الآن . لقد آن الأوان!"

8

تأهب البشكيريون ، وانطلق الجميع ، بعضهم يمتطون أحصنة وبعضهم يركبون في عربات . وساق فهوم عربته الصغيرة ، ومعه رجله ، وقد أخذ معه مجرفة . ولما وصلوا السهب ، كان احمرار الأفق عند الفجر قد بدأ يشتد . ثم صعدوا هضبة (يدعوها البشكيريون "شيخان") وترجلوا من العربات وعن الأحصنة ، وتجمعوا في نقطة محددة . وتقدم الزعيم إلى فهوم ، قائلاً وهو ماد ذراعه نحو السهل :

"انظر! هذه الأرض ، على مد بصرك ، كلها لنا . ويمكنك أن تمتلك منها أي جزءٍ شئت ."

انتلقت عينا فهوم : فالأرض كلها من التربة البكر ، مسطحة ككف اليد ، سوداء كبزر الخشخاش ، وفي أغوارها حشانش شتى بعلو صدر الإنسان .

ونزع الزعيم قبعته المصنوعة من فرو الثعالب ، ووضعها على الأرض قائلاً :

"هذه ستكون العلامة . انطلق من هنا ، وعد إلى ههنا . والأرض التي تدور حولها تكون كلها لك ."

وأخرج فهوم ماله ووضعه على القبعة . ثم خلع معطفه ، وبقي لابساً صدرته الداخلية . وحل حزامه ثم شده بإحكام تحت بطنه ، ووضع لفة خبزٍ صغيرة في جيب صدرته ، وعلق مطرة ماء بحزامه ، وجذب أعلى حذائه ، وأخذ المجرفة من معاونه ، ووقف متأهباً للانطلاق . وفكر هنيهة في أي اتجاه يستحسن أن ينطلق ، إذ كانت جميع الاتجاهات مغرية جداً .

أخيراً قرر : "لا فرق! سأنطلق باتجاه الشمس المشرقة ."

فأدار وجهه نحو الشرق ، وتمطى منتظراً طلوع الشمس في الأفق البعيد .

وفكر : "يجب ألاّ أضيع أي وقت . والسير أسهل ما دام النهار بارداً ."

ولم تكد أشعة الشمس تلتمع في الأفق ، حتى حمل فهوم المجرفة على كتفه وهبط إلى السهب .

انطلق فهوم يمشي لا متمهلاً ولا مسرعاً . وبعدما قطع نحو ألف متر ، توقف وحفر حُفَيرة وكوم التراب والخثّ عالياً حتى تُرى العلامة بسهولة . ثم تابع السير ، وقد اتسعت خطاه بعدما تليّن جسمه . وبعدما حين حفر حفرة أخرى .

والتفت فهوم إلى ورائه ، فاستطاع أن يرى الهضبة بجلاء تحت ضوء الشمس وعليها القوم ، وعجلات العربات البراقة . وخمّن فهوم تقريباً أنه قطع نحو خمسة كيلومترات . وكانت برودة الصباح قد بدأت تتلاشى فخلع صدرته

وألقاها على كتفه ، وواصل سيره . ثم اشتدت حرارة الشمس فتطلع فهوم نحوها ورأى أن وقت فَطوره قد حان . لكنه قال لنفسه :

"ها قد فرغت من أول نوبة ، ولكن في النهار أربع نوبات ، ومن المبكر جداً أن أنعطف . إنما سأخلع حذائي ."

فقعد أرضاً وخلع حذاءه ودسّه تحت حزامه . فصار المشي أسهل الآن . وفكر برأسه :

"سأقطع خمسة كيلومترات بعد ، ثم انعطف يساراً . فهذا الموضع حسن جداً بحيث إن خسارته تدعو إلى الأسف . وكلما قطع المرء مسافة أطول بدت الأرض أجمل!"

ثم واصل تقدمه حيناً ؛ ولما نظر إلى الوراء لم تكد الهضبة تبين ، وبدا الرجال عليها كالنمال السود ، واستطاع أن يرى شيئاً ما يبرق تحت الشمس .

ففكر : "آه! لقد قطعت مسافة بعيدة جداً في هذا الاتجاه ، وآن أوان الانعطاف . ثم إن عرقي يتصبب كثيراً ، وأنا عطشان جداً ."

ثم توقف وحفر حفرة كبيرة ، وكوم التراب والخُثّ . وحل مطرته فشرب جرعة ماء ، وانعطف نحو اليسار انعطافاً حاداً ومضى يغذ السير حيث كان العشب عالياً ، وقد بات الحر شديداً .

بدأ فهوم يشعر بالتعب الشديد ، ونظر إلى الشمس ، فرأى أن الظهر قد حل . ففكر :

"لا بأس! ينبغي أن استريح قليلاً ."

فقعد ، وأكل بعض الخبز ، وشرب بعض الماء . لكنه لم يستلقِ ، ظاناً أنه قد ينام . وبعدما استراح هنيهة ، استأنف السير وقد مشى بيسر أول الأمر ، وبعدما قواه الطعام قليلاً . إلاّ أن الحر بات لا يطاق ، وغالبه النعاس . لكنه واصل تقدمه وهو يقول لنفسه : "ساعة شقاء عمر هناء!"

وقطع مسافة طويلة في هذا الاتجاه أيضاً ، ثم هم بان ينعطف يساراً أيضاً ، فاذا به يرى غوراً رطباً ، ففكر برأسه : "حرام أن أترك هذا الغور خارج أرضي! هذه البقعة صالحة لزراعة الكتان الجيد ." ومن ثم دار حول الغور ، وحفر حفرة في الجانب الاخر قبل أن ينعطف يساراً من جديد . ثم التفت صوب الهضبة ، وكان الحر قد جعل الهواء مثقلاً بالضباب الرقيق ، فلاحت كأنها تهتز ، ومن خلال الضباب لم يكد البشكيريون يَرَون .

وفكر فهوم : "آه! لقد طوّلت طرفي الأرض ، فينبغي أن أُقصّر هذا الجانب ." ثم مضى يقطع الجانب الثالث بخطى أسرع . وتطلع نحو الشمس فاذا هي في منتصف الزوال ، وهو لم يقطع بعد ثلثي الخمسة كيلومترات المكوّنة للضلع الثالث من المربع . إنه ما يزال بعيداً عن هدفه بنحو خمسة عشر كيلومتراً .

إذ ذاك فكر برأسه : "لا! فمع أن أرضي ستكون منكفئة ، ينبغي لي أن أعجّل عائداً الآن في خط مستقيم . فربما جاوزت الحد في مواصلة سيري ، وقد صار عندي أرض واسعة على هذه الحال ."

وهكذا حفر فهوم حفرة بسرعة ، وعاد متجهاً نحو الهضبة في خط مستقيم .

9

رجع فهوم أدراجه نحو الهضبة ، لكنه الآن بات يسير متثاقلاً . فقد سفعته الحرارة ، وتقرّحت قدماه العاريتان وترضضتا ، وبدأت ساقاه تخذلانه . وتمنى لو يستريح ، لكن ذلك كان مستحيلاً ما دام ينوي العودة إلى الهضبة قبل الغروب . فالشمس لا تتمهّل لأحد ، وها هي تميل نحو المغيب مسرعة .

وفكر : "يا ويلاه! ليتني لم أرتبك بالسعي إلى الكثير! ماذا يكون لو أنني تأخرت أكثر من الواجب ؟"

ونظر إلى الهضبة وإلى الشمس ، فإذا به ما يزال بعيداً عن هدفه ، والشمس على شفا الغروب . فراح يغذ السير ، وما كان أصعبه! لكنه سارع في خطوه ، وواظب على التحرك ، غير أنه كان ما يزال بعيداً عن الهدف . فأخذ يكض بعدما رمى صدرته وحذاءه ومطرته ، محتفظاً بالمجرفة التي استخدمها كعكاز .

وفكر من جديد : "ماذا أفعل يا ترى! لقد تشبثت بما يفوق طاقتي وأفسدت مسعاي كله . لن أصل إلى الهضبة قبل الغروب!"

إذ ذاك بهر هذا التوجس أنفاسه . فمضى راكضاً ، وقد التصق ببدنه قميصه وبنطلونه العاصران عرقاً ، وجف حلقه عطشاً . وأخذ صدره يعلو ويهبط كمنفاخ الحدّاد ، وقلبه يخفق كالمطرقة ، ورجلاه تتحركان كأنهما ليستا منه . واستولى عليه الرعب لخشيته من أن يميته الإجهاد .

ورغم خشيته من الموت ، لم يستطع التوقف ، إذ دار في خاطره هذا الفكر :

"بعدما ركضت هذه المسافة كلها ، يدعونني مغفلاً إن توقفت ." فمضى يركض ويركض ، حتى اقترب من البشكيريين وسمعهم يهتفون له ويصيحون ، فألهبت صرخاتهم قلبه أكثر بعد . واستجمع آخر قواه وتابع عدوه . كانت الشمس تكاد تغيب ، وقد غلفها الضباب الرقيق فبدت كبيرة وحمراء كالدم . فالآن ، الآن بالذات قد أخذت تغيب . وقد باتت الشمس منخفضة كثيراً ، إلاّ أنه هو أيضاً كاد يبلغ غايته . وبات يستطيع أن يرى الأيدي على الهضبة ملوّحة له كي يسرع . واستطاع أن يرى قبعة فرو الثعالب على الأرض ، والمال فوقها ، والزعيم قاعداً ويداه على خاصرتيه . إذ ذاك تذكر حلمه ، ففكر برأسه :

"الأرض كبيرة ولكن هل يسمح لي الله بان أعيش عليها ؟ لقد خسرت حياتي ؛ لقد خسرت حياتي! لن أبلغ تلك النقطة البتة!"

ثم نظر فهوم إلى الشمس ، فإذا بها قد لامست الارض ، وقد غاب جزء منها . فاندفع بكل ما بقي لديه من قوة ، حانياً جسمه إلى الأمام بحيث لم تكد رجلاه تلبيانه بالركض لئلا يسقط أرضاً . وحالما وصل إلى الهضبة ، كان الظلام قد غمرها . وتطلع ، فإذا الشمس قد غابت! إذ ذاك أطلق صرخة يأس مفكراً : "عبثاً كان كل تعبي!" وهم بأن يتوقف ، ولكنه سمع البشكيريين يواصلون الهتاف ، وتذكر أنهم ما يزالون قادرين على رؤية الشمس من فوق الهضبة وإن كان قد بدا له انها غابت فعلاً حيث هو في الأسفل . فأخذ نفَساً عميقاً وركض صاعداً الهضبة . وكان الضوء ما يزال ظاهراً هناك . فبلغ القمة ورأى القبعة ، وأمامها قد جلس الزعيم ضاحكاً وممسكاً بخاصرتيه . ومرة أخرى تذكر فهوم حلمه فأطلق صرخة رهيبة ، واضطربت ساقاه تحته فسقط على وجهه ، وقد مد يديه حتى لامستا القبعة .

فهتف الزعيم : "آهٍ! هذا رجل فذ! لقد كسب أرضاً واسعة جداً! "ثم اقبل معاون فهوم يعدو ، وحاول أن يُنهض سيده ، لكنه رأى الدم يتدفق من فمه . . . لقد مات فهوم!

ونضنض البشكيريون ألسنتهم مطقطقين ، تعبيراً عن رثائهم وإشفاقهم .

ثم أخذ المعاون المجرفة ، وحفر لفهوم قبراً يسعه مُمدّداً ، ودفنه فيه . وكان كل ما احتاج إليه من الأرض دون المترين طولاً ، من هامة رأسه حتى أخمصي قدميه!

سنة 1886

15

قمحة بحجم البيضة

عثر بعض الأولاد يوماً في واد صغير على شيء بشكل حبة قمح ، في وسطه أخدود طولي ، لكنه بحجم بيضة الدجاجة .واتفق أن مسافراً عابراً رأى ذلك الشيء ، فاشتراه من الأولاد بفلس واحد ، وأخذه إلى العاصمة حيث باعه للملك كتُحفة نادرة .

واستدعى الملك حكماءه ، وطلب منهم أن يكتشفوا حقيقة ذلك الشيء . فتفكر الحكماء وتدبروا ، إلا أنهم لم يعرفوا له أصلاً ولا فصلاً . إلى أن جاء يوم كان فيه ذلك الشيء ملقى على عتبة إحدى النوافذ ، فطارت دجاجة إلى الداخل فأخذت تنقره بمنقارها حتى ثقبته ، وإذا بالجميع يرون أنه كان حبة قمح . فذهب الحكماء إلى الملك وقالوا :

"إنه حبة قمح!"

حيال ذلك دهش الملك جداً ، وأمر العلماء بأن يكتشفوا متى وأين طلع قمح من ذلك النوع . فتفكر العلماء وتدبروا أيضاً ، وفتشوا كتبهم ، لكنهم لم يجدوا ضالّتهم المنشودة . فرجعوا إلى الملك قائلين :

"لا يمكننا إعطاؤك جواباً . فليس في كتبنا أية معلومات في هذا الشأن . ينبغي لك أن تسأل الفلاحين ، لعل بعضاً منهم سمعوا من آبائهم متى وأين طلع قمح بهذا الحجم ."

فأصدر الملك أمراً بأن يؤتى إليه بفلاح معمّر ؛ وعثر خدامه على رجل بهذه الصفة فأحضروه في الحال . واستطاع أن يمثل أمام الملك بظهر أثقلته

السنون ، وبشرة شاحبة وفم أدرد ، مستعيناً بعكازين على رجليه المتقلقلتين .

وأراه الملك القمحة ، لكنه لم يكد يراها ، غير انه أمسكها بيده وتلمسها . فاستفسره الملك قائلاً :

"أيمكنك يا شيخ ، أن تقول لنا أين طلع قمح من هذا النوع ؟ وهل سبق أن اشتريت قمحاً كهذه الحبة أو زرعته في حقولك ؟"

ولكن الصمم كان قد أثر في ذلك الشيخ حتى لم يكد يسمع ما قاله الملك ، وما فهم قصده إلا بعد جهد جهيد .

أخيراً أجاب : "لا! ما زرعت ولا حصدت قط شيئاً من هذا النوع في حقولي ، ولا اشتريت يوماً مثله . فكلما اشترينا قمحاً ، كانت حباته دائماً صغيرة كما هي اليوم . ولكن يمكنك أن تسأل أبي فلعله سمع أين طلع مثل هذا القمح ."

فأمر الملك بإحضار والد الشيخ ، فعثر عليه وجيء به للمثول أمامه .

وقد دخل متوكئاً على عكاز واحد . وأراه الملك حبة القمح ، فحدق إليها الفلاح الشيخ ، وكان بصره ما يزال قوياً . فسأله الملك :

"أتستطيع يا شيخ ، أن تقول لنا أين كان يطلع قمح من هذا الصنف ؟ وهل سبق أن اشتريت مثله ، أو زرعت منه في حقولك ؟"

ومع أن هذا الشيخ كان ثقيل السمع بالأحرى ، فقد كان يسمع أفضل من ابنه . فقال :

"لا ، ما زرعت ولا حصدت قط في مثل هذا القمح في حقلي . أما الشراء ، فلم أشترِ أياً منه قط ، لأن تداول المال لم يكن قد بدأ في أيامي . وكان كل فلاح يزرع قمحه ، وإذا دعت الحاجة تشاركنا فيما عندنا . لست أدري أين طلع قمح كهذا . وقد كان قمحنا أكبر حجماً وأكثر طحيناً من قمح اليوم . غير أنني ما رأيت قط قمحاً كهذا . ولكنني سمعت أبي يقول إن القمح

في زمانه كان أكبر حجماً من قمحنا وأوفر منه طحيناً . فأحسن لك أن تسأله ."

وهكذا أرسل الملك بعض خَدَمِه لإحضار والد الشيخ ، فعثروا عليه أيضاً ، وأتوا به إليه . وقد دخل ماشياً بيسر وبغير عكاز . وكان نظره حاداً ، وسمعه جيداً ، وكلامه مبيناً . فأراه الملك القمحة ، فحدق إليها وقلّبها في يده . ثم قال الجدّ العجوز : "منذ زمن بعيد لم أرَ قمحة ممتازة كهذه!" وفتّ شيئاً منها وتذوقها ، ثم أردف قائلاً :

"إنه النوع عينه بغير شك!"

فقال الملك : "قل لي ، يا جدّ ، متى وأين كان يطلع قمح من هذا النوع ؟ وهل سبق أن اشتريت مثله ، أو زرعته في حقولك ؟"

أجاب العجوز : "كان قمح كهذا يطلع في كل مكان في أيامي . فأنا عشت على قمح من هذا النوع في أيام شبابي ، وأعشت غيري عليه . وكنا نزرع ونحصد وندرس مثل هذا القمح!"

فسأل الملك : "قل لي ، يا جدّ ، هل كنت تشتريه من موضع ما ؟ أم هل كنت تزرعه من عندك ؟"

فتبسّم العجوز وقال :

"في أيامي ، لم يفكر أحد قط في إثم كبيع الخبز وشرائه . وما كنا نعرف شيئاً من شؤون المال . فقد كان كل إنسان يملك ما يكفيه من الحنطة ."

وسأله الملك :

"قل لي ، يا جدّ ، أين كان حقلك ، وأين زرعت مثل هذا القمح ؟"

فأجاب الجد العجوز :

"حقلي هو أرض الله . فحيثما حرثت ، فهناك كان حقلي . فقد كانت الأرض مجانية . كانت شيئاً لا يدعوه أي إنسان ملكاً له . وكان العمل هو الشيء الوحيد الذي يدعوه الناس ملكاً لهم ."

قال الملك :

"أجبني عن سؤالين بعد : لماذا كانت الأرض تثمر مثل هذا القمح آنذاك ، وكفت عن ذلك اليوم ؟ ولماذا يمشي حفيدك على عكازين ، وابنك على واحد ، وأنت بلا عكاز ؟ ثم إن عينيك حادتا البصر ، وأسنانك سليمة ونطقك واضح ومُطرب للأذن ، فكيف حصل ذلك ؟"

فأجاب العجوز :

"إن الحال على هذا المنوال لأن الناس لم يعودوا يعيشون بعملهم الخاص ، وقد تعودوا الاعتماد على عمل الآخرين . ففي الزمان القديم عاش الناس بمقتضى شريعة الله ، فامتلكوا ما كان ملكاً لهم ، ولم يشتهوا ما أنتجه سواهم ."

سنة 1886

16

الفليون

سمعتم أنه قيل : عين بعين ، وسن بسن . وأما فأقول لكم : لا تقاوموا الشر .

- من أقوال المسيح في الإنجيل كما دونه متى (5 : 38و39)

لي النقمة : أنا أجازي - يقول الرب .

- رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية (12 : 19)

1

رزق فلاح فقير ابناً : ففرح به وقصد إلى جاره يطلب إليه أن يكون عرّاباً يكفل الصبي عند تنصيره . إلا أن الجار أبى ، لأنه لم يود أن يقف عرّاباً لابن فقير . فطلب الفلاح إلى جار آخر أن يكون عرّاب ابنه ، ولكن هذا أيضاً أبى . بعد ذلك طاف الأب بالقرية كلها ، إلا أنه لم يجد مَن كان راغباً في الوقوف عرّاباً لابنه . فانطلق إلى قرية أخرى ، وفي الطريق لقيه رجل توقف وقال :

"نهارك سعيد ، أيها الطيّب ، أين تبغي ؟"

فأجاب الفلاح : "لقد رزقني الله ابناً تقرّ به عيني في شبابي ، ويكون لي عزاء في شيخوختي ، ويصلّي لأجل نفسي بعد مماتي . لكنني فقير ، ولم يقبل أحد في قريتي أن يكون عرّاباً لابني ، فها أنا الآن منطلق بحثاً عن عرّاب في مكان آخر ."

قال الغريب : "فلأكن أنا عرّابه!"

فسُرّ الفلاح ، وشكره ، لكنه أردف :

"ومَن أسأل أن تكون عرّابته ؟"

أجاب الغريب : "امض إلى المدينة ، فتجد في الساحة بيتاً من حجر أمامه واجهة . وفي المدخل تجد التاجر صاحب البيت . فاطلب إليه أن يدع ابنته تقف عرّابة لابنك ."

فتردد الفلاح وقال : "وكيف لي ان اسأل غنياً شيئاً ؟ سيحتقرني ولن يسمح لابنته بالمجيء معي ."

"لا يقلقك الأمر! إذهب واطلب . ثم جهّز كل شيء صباح غد ، وسوف اوافيك إلى تنصير الصبي ."

عاد الفلاح الفقير إلى بيته ، ثم ركب إلى المدينة ليقابل التاجر . وما كاد يَدخل حصانه الفناء ، حتى لاقاه التاجر بنفسه .

وسأل : "ماذا تبغي ؟"

فقال الفلاح : "حسناً ، يا سيدي . لقد رزقني الله ابناً تقرّ به عيني في شبابي ، ويكون لي عزاء في شيخوختي ، ويصلي لأجل نفسي بعد مماتي . فهلا تتكرّم علي بالسماح لابنتك بأن تقف له عرّابة؟"

قال التاجر : "ومتى التنصير ؟"

"صباح غد ."

"جيد جداً . امض بسلام . سوف توافيك ابنتي صباح غد إلى الكنيسة ."

وفي صباح الغد حضرت العرّابة . وحضر العرّاب ايضاً ، ونُصّر الولد . وبعد مراسم التنصير حالاً ، مضى العرّاب . ولم يعلم أهل الولد مَن هو ، ولا رأوه ثانية قط .

2

كبر الولد وصار فرحة والديه . وكان قوياً ومجتهداً في العمل ، وذكياً ومطيعاً . ولما بلغ من العمر عشراً ، أرسله أبواه إلى المدرسة ليتعلم القراءة

والكتابة . فتعلم في سنة واحدة ما يتعلمه غيره في خمس . وسرعان ما لم يعد من شيء يتعلّمه بعد .

وحل عيد الفصح ، فانطلق الفتى يزور عرّابته ويهنئها بالعيد . ولما عاد إلى البيت قال :

"يا أبي ويا أمي ، اين يسكن عرّابي ؟ أحب أن أهنئه أيضاً بعيد الفصح ."

فأجابه أبوه : "يا بني ، لا نعرف شيئاً عن عرّابك . وما اكثر ما تأسفنا نحن على ذلك! فمنذ يوم تنصيرك لم نره قط ، ولا وصلنا منه اي خبر . لسنا ندري أين يسكن ، ولا هل هو حي بعد ."

فانحنى الفتى لأبويه وقال : "يا أبي ويا أمي ، اسمحا لي بأن أمضي فأبحث عن عرّابي . ينبغي أن أراه وأهنئه بالعيد ."

وهكذا سمح له أبواه ، فانطلق للبحث عن عرّابه .

3

غادر الفتى البيت ، وسار في الطريق . وبعدما مشى بضع ساعات ، لقي غريباً استوقفه وقال له :

نهارك سعيد يا بني . أين تبغي ؟"

فأجاب الفتى : "زرت عرّابتي وهنأتها بالعيد . ولمّا عدت إلى البيت سألت أبويّ أين يسكن عرّابي ، حتى أذهب وأعايده هو أيضاً . فقالا لي إنهما لا يعرفان ذلك . وقالا إنه مضى حالما نُصّرت ، وهما لا يعرفان عنه شيئاً ، حتى ولا هل هو حي بعد . ولكنني رغبت في رؤية عرّابي ، فانطلقت أبحث عنه ."

عندئذ قال الغريب : "أنا عرّابك!"

فسر الولد بذلك أيّ سرور . وقبل عرّابه ثلاثاً تهنئة بالعيد ، ثم سأله : "أين تبغي الآن ، يا عرّابي ؟ إن كنت متوجهاً صوبنا ، فتفضّل زر بيتنا . وإن كنت ذاهباً إلى بيتك ، أذهب معك ."

أجاب العرّاب : "لا يتسع وقتي الآن لزيارتكم . فلي شغل في بعض القرى . ولكن سأعود إلى بيتي غداً . فوافني إلى هناك ."

"ولكن كيف أجدك ، يا عرّابي ؟"

عندما تغادر بيتك ، توجه مستقيماً نحو مشرق الشمس تصل إلى غابة ، إذا دخلتها وسرت فيها تصل إلى فُرجة بلا شجر . في هذه الفرجة اقعد واسترح هنيهة ، وتطلع حواليك وراقب ما يجري . وفي طرف الغابة الاقصى تجد بستاناً ، وفيه بيت سقفُه من ذهب . ذلك هو بيتي . فتقدم إلى بابه ، وسأكون أنا هناك بأنتظارك ."

وما إن قال العرّاب ذلك ، حتى توارى عن ناظري فَليونه .

4

عمل الفتى بتوجيهات عرّابه . مشى نحو الشرق حتى وصل إلى الغابة ، ثم بلغ الفرجة ، فشاهد في وسطها شجرة صنوبر ، تدلى من أحد أغصانها حبل عُلقت به عارضة خشب ثقيلة . وتحت هذه العارضة تماماً دلو خشبي مليء عسلاً . ولم يكد يتسنّى للفتى وقت للتساؤل عن سبب وضع العسل هناك ، وتعليق العارضة فوقه ، حتى سمع خشخشة وطقطقة في الغابة ، ورأى بعض الدببة تقترب : دبّة يتبعها دب ابن سنة وثلاثة جراء صغار . وإذ شمت الدبة الهواء ، تقدمت حالاً إلى الدلو يتبعها الجراء . وأقحمت الدبة خطمها في العسل ، داعية الجراء لمحاكاتها . إذ ذاك أسرعت الجراء ، وشرعت تأكل . وفيما الدببة تأكل ، بعدما أبعدت الدبة العارضة برأسها ، ترجحت العارضة مبتعدة قليلاً ثم ارتدت وارتطمت بالدببة . عندئذٍ أبعدت الدبة العارضة بقائمتها . فابتعدت العارضة مسافة أطول ثم ارتدت ارتدادة أقوى ، ضاربة جرواً على ظهره وآخر على رأسه . فركض الجروان بعيداً يزعقان من الألم ، فيما هدرت الأم والتقطت العارضة بقائمتيها الأماميتين ، ثم رفعتها فوق رأسها

ودفعتها بعيداً . فارتفعت العارضة عالياً ، وهرع الدب ابن السنة نحو الدلو ، فأدخل خطمه في العسل ، وبدأ يلعق مصوّتاً . واقتربت الجراء الأخرى أيضاً ، ولكنها ما كادت تصل إلى الدلو حتى ارتدّت الخشبة وصدمت الدب ابن السنة على راسه ، فقتلته . فهدرت الأم هديراً أقوى ، وأمسكت بالعارضة ، وطوّحتها بكل قوتها . فارتفعت أعلى من الغصن الذي كانت معلقة به ارتفاعاً جعل الحبل يرتخي . ثم عادت الدبة إلى الدلو وخلفها جراؤها الصغار . وترجحت العارضة أعلى فأعلى ، ثم توقفت ، وبدأت تسقط . وكلما اقتربت تسارع ترجحها . اخيراً ، وبأقصى سرعة ، هوت على رأس الدبة ، فانقلبت وقوائمها تنتفض ، ثم ماتت! إذ ذاك هربت الجراء وتوارت في الغابة .

5

راقب الفتى ذلك كله مدهوشاً ، ثم تابع طريقه . وإذ خرج من الغابة ، وصل إلى بستان كبير في وسطه قصر منيف سقفه من ذهب . وعند باب القصر الخارجي وقف العرّاب مبتسماً ، حيث رحّب بفليونه وصحبه إلى البستان عبر الممر . وما كان الفتى قط قد حلم بمثل ما أحاط به في ذلك القصر من بهاء وبهجة .

ثم أدخله عرّابه القصر ، فألفاه من الداخل أجمل بعد من الخارج . وراى العرّاب الفتى جميع الغرف ، فإذا كل واحدة أبهى وأبهج من الأخرى .

لكنهما وصلا أخيراً إلى باب كان مختوماً ، فقال العرّاب :

"أترى هذا الباب ؟ إنه ليس مقفلا بل مختوم فقط . إنّ فتحه سهل ، ولكنني أمنعك أن تفتحه . في وسعك أن تقيم هنا ، وتذهب أينما شئت ، وتتمتع بمباهج هذا القصر كلها . إنما أمري الوحيد لك هو ألاّ تفتح ذلك الباب البتة! ولكن إذا فتحته ، فتذكر ما رأيته في الغابة ."

وبعدما قال العرّاب ذلك ، تركه ومضى . فمكث الفليون في القصر ، حيث

كانت الحياة ممتعة ومبهجة جداً بحيث خُيِّل إليه أنه أقام هناك ثلاث ساعات فقط مع أنه عاش في القصر فعلاً ثلاثين سنة . ولما انقضت السنون الثلاثون ، اتفق أن الفليون كان ماراً أمام الباب المختوم ذات يوم ، فساءل نفسه عن السبب الذي حدا بعرّابه أن يمنعه دخول تلك الغرفة .

ففكر برأسه : "سألقي نظرة إلى الداخل فحسب ، وأرى ما في الغرفة ." ثم دفع الباب دفعة انفضّ لها الختم ، وانفتح الباب ، فإذا أمام الفليون بهو أعلى وأبهى من سائر أبهاء القصر ، وفي وسطه عرش .

جال الفليون في أنحاء البهو هنيهة ، ثم ارتقى الدرجات ، واعتلى العرش . وما إن استوى على العرش ، حتى رأى صولجاناً مسنداً إليه ، فأمسك به . ولم يكد يفعل ذلك ، حتى اختفت حيطان البهو الأربعة فجأة . ونظر الفليون حواليه ، فرأى العالم أجمع ، وكل ما يفعله الناس في العالم . نظر أمامه فرأى البحر والسفن مبحرة فيه . ونظر إلى يمينه ، فرأى بلدان الشعوب الوثنية الغربية . ونظر إلى اليسار فرأى بلدان المسيحيين غير الروس . ونظر خلفه ، فإذا في الجهة الرابعة الشعب الروسي الذي هو منه .

ثم قال : "سأتطلع الآن لأرى ما يجري عندنا ، وهل حصادنا جيد ." وتطلع إلى حقول أبيه فرأى الحُزَم مكدّسة . وبدأ يعدّها ليرى هل حصد قمح كثير ، وإذا به يشاهد فلاحاً في عربة . كان الليل قد هبط ، فظن الفليون ذلك الفلاح أباه وقد أتى ليلاً لينقل قمحه .

لكنه تحقق فميّز فاسيلي كودرياشوف اللص ، وقد دخل الحديقة بالعربة ، وبدأ ينقل الحُزَم إليها . فاغتاظ الفليون ونادى أباه قائلاً :

"يا أبي ، إن الحزم تسرق من حقلنا!"

وكان أبوه نائماً حيث يرعى أحصنته ليلاً ، فأفاق وقال :

"حلمت بأن حزمي تسرق ، فسأنزل إلى الحقل لأرى ."

ثم امتطى حصاناً وانطلق إلى الحقل . وإذ وجد فاسيلي هناك ، نادى فلاحين آخرين فعاونوه على ضرب اللص وتقييده وسوقه إلى السجن .

بعد ذلك نظر الفليون إلى المدينة التي فيها تقيم عرابته . وكانت قد تزوّجت من تاجر . فإذا بالعرّابة تغط في سبات ، فيقوم زوجها ويذهب إلى عشيقته . إذ ذاك صاح الفليون بعرّابته :

"قومي ، قومي! إن زوجك يسلك سبيل سوء!"

فهبّت العرابة واقفة ، وارتدت ثيابها ، وقصدت المكان الذي كان فيه زوجها ، حيث عيّرت العشيقة وضربتها ، ثم طردت زوجها .

ثم بحث الفليون عن أمّه ، فألفاها نائمة في كوخها . وإذا لص يدلف إلى الكوخ ، ويشرع بكسر قفل الصندوق الذي فيه تحتفظ بأشيائها . فتفيق الأم وتزعق ، فيمسك اللص بفأس ويرفعها فوق رأسه ليهوي بها عليها ويقتلها . فما تمالك الفليون أن رمى اللص بالصولجان ، فأصابه في صدغه ، فخرّ بلا حراك!

6

وحالما قتل الفليون اللص ، انتصبت الحيطان من جديد ، وعاد البهو كما كان .

ثم انفتح الباب ، فدخل العراب ، واقترب إلى فليونه ، فأمسك بيده وأنزله عن العرش ، وقال له :

"لقد عصيت أمري! وأول خطإٍ اقترفته أنك فتحت الباب المحظور . أما الثاني فأنك تبوأت العرش وحملت صولجاني بيدك . وها قد اقترفت ثالث خطإٍ زاد شر العالم شراً . ولو بقيت مستوياً هنا ساعة أخرى ، لأبدت نصف البشر!"

ثم أعاد العرّاب فَليونه إلى العرش ، وأخذ بيده الصولجان ، فانهارت الحيطان من جديد ، وانكشف كل شيء ، فقال العرّاب :

"انظر ما فعلت بأبيك . قضى فاسيلي في السجن سنة واحدة ، وخرج منه متعلماً كل نوع من الشر ، وقد بات متعذراً إصلاحه . وها هو قد سرق اثنين من أحصنة أبيك ، والآن يضرم النار في حظيرته . وهذا كله جلبته أنت على أبيك!"

ورأى الفليون ألسنة النار تتعالى من حظيرة أبيه ، لكن عرّابه حجب المنظر عنه ، ودعاه لأن ينظر إلى ناحية أخرى ، قائلاً :

"وهذا زوج عرّابتك . مضت سنة منذ هجر زوجته ، وهو الآن يطارد نساء أُخَر . أما عشيقته السابقة ، فتردت في مَهاوٍ أعمق ، فيما دفع الحزن زوجته إلى معاقرة الخمرة . ذلك هو ما فعلته بعرّابتك ."

وحجب العرّاب هذا المنظر أيضاً ، وأرى الفليون بيت أبيه ، حيث شاهد أمه تبكي ذنوبها تائبة وهي تقول :

"يا ليت اللص قتلني تلك الليلة فلم أرتكب هذه الخطايا الثقيلة!" وقال العرّاب : "ذلك هو ما فعلته بأمك ."

ثم حجب هذا المنظر أيضاً ، وأشار بيده إلى الأسفل ، فرأى الفليون حارسين ممسكين باللص قدّام سجن . وقال العرّاب :

"هذا الرجل قتل تسعة أنفس . وكان ينبغي أن يُكفّر بنفسه عن آثامه ، ولكنك قتلته فحملت ذنوبه على كاهلك . وعليك الآن أن تؤدي قصاص خطاياه كلها . ذلك هو ما فعلته بنفسك . إنّ الدبة دفعت عارضة الخشب مرة فأزعجت جراءها ؛ ودفعتها ثانية فقتلت جروها ابن السنة ؛ ثم دفعتها ثالثة فقتلت نفسها . وأنت قد فعلت فعلها . والآن أمهلك ثلاثين سنة لتمضي إلى العالم وتكفّر عن ذنوب اللص . فإن أخفقت في التكفير عنها ، ينبغي لك أن تحل محله ."

فسأل الفليون : "وكيف أكفّر عن ذنوب اللص ؟"

أجاب العرّاب : "عندما تُخلص العالم من مثل مقدار الشر الذي جلبته إليه ، تكون قد كفّرت عن ذنوبك وذنوب اللص معاً ."

وسأل الفليون : "وكيف أستطيع دحر الشر في العالم ؟"

فقال العراب : "انطلق وسر نحو مشرق الشمس . وبعد حين تصل إلى حقل فيه أناس . فلاحظ ما يفعلونه ، وعلّمهم ما تعرفه . ثم امض قدماً ، ولاحظ ما تراه . وفي اليوم الرابع تصل إلى غابة تجد في وسطها صومعة يعيش فيها ناسك . فأخبره بكل ما جرى ، يَعلّمك ما تعمله . حتى إذا عملت بكل ما يقوله لك ، تكون قد كفّرت عن ذنوبك وذنوب اللص أيضاً ."

قال العرّاب ذلك ، ثم شيّع فليونه عند باب القصر الخارجي .

7

مضى الفليون في سبيله ، وهو يفكر : "كيف أدحر الشر في العالم ؟ إنما يُدحر الشر بنفي الأشرار ، أو حبسهم ، أو إعدامهم . فكيف لي إذاً أن أدحر الشر بغير أن أحمل على كاهلي ذنوب الآخرين ؟"

فكر الفليون في ذلك طويلاً ، لكنه لم يهتد إلى حل . وواصل سيره حتى وصل إلى حقل تموج فيه سنابل الحنطة الكثيفة الجيدة المُحصِدة .

وشاهد الفليون عجلاً صغيراً دخل بين السنابل . فامتطى بعض الرجال القريبين جيادهم ، وشرعوا يطاردونه جيئة وذهوباً وسط الحقل . وكلما أوشك العجل على الخروج من حقل الحنطة ، واجهه فارس فأجفل وعاد إلى الحقل ، وطارده الفرسان عَدواً دائسين السنابل . وقد وقفت على الطريق امرأة تبكي قائلة : "ويلاه! سينهكون عجلي حتى يموت ."

إذ ذاك قال الفليون للفلاحين : "ماذا تفعلون ؟ اخرجوا من حقل الحنطة جميعاً . ودعوا المرأة تُنادِ عجلها ."

فامتثل الرجال له ، ووقفت المرأة عند طرف الحقل ، ونادت العجل قائلة :

"هلم يا عجول! تعال يا أسيمر!" فنصب العجل أذنيه ، وأصغى هنيهة ، ثم ركض نحو المرأة من تلقاء ذاته ، ودس رأسه في ثنايا تنورتها ، حتى كاد يوقعها أرضاً . وهكذا سرّ الفلاح ، وسرّت المرأة كما سرّ عجلها الصغير .

ثم مضى الفليون في سبيله ، مفكراً : "أرى الآن أن الشر ينشر الشر . وكلما حاول الناس طرد الشر بعيداً ، تفاقم الشر . يبدو أن الشر لا يدحره الشر . ولكن كيف يمكن أن يدحر ؟ لست أدري! لقد أطاع العجل صاحبته فسارت الأمور حسناً . ولكن كيف كان ممكناً اخراجه من الحقل لو لم يطعها ؟"

تفكر الفليون وتدبر ، لكنه لم يهتد إلى حل ، وتابع سيره .

8

ظل الفليون يمشي حتى وصل إلى قرية . وعند طرف القرية الأقصى عرّج على بيتٍ طالباً المبيت . فوجد صاحبة البيت وحدها ، وكانت تنظف البيت ، فرحبت به . فدخل وقعد قرب الموقد ، وأخذ يلاحظ ما تفعله المرأة ، فرآها وقد فرغت من تمسيح أرض الغرفة وبدأت تنظف الطاولة وقد بدأت تمسح الطاولة بخرقة وسخة . مسحتها من جانب إلى جانب ، لكنها لم تصر نظيفة . فالخرقة الوسخة وسخت الطاولة . ثم مسحتها بالعكس ، فزالت البقع الاولى ، لكن بقعاً جديدة حلت محلها . فمسحتها طولاً وعرضاً ، ومرة أخرى حدث ذلك بعينه : لقد وسخت الخرقة الوسخة الطاولة كلها ، فإذا زالت بقعة ظهرت أخرى . وظل الفليون يراقب ذلك حيناً ، ثم قال للمرأة :

"ماذا أنت فاعلة يا ست ؟"

"الا ترى أنني انظف للعيد ؟ غير أنني حرت في أمر هذه الطاولة ، فهي تابى أن تنظف وأنا مرهقة ."

فقال الفليون : "عليك أن تغسلي الخرقة أولاً ، قبل أن تمسحي الطاولة بها ."

فامتثلت المرأة ، وفي الحال نُظّفت الطاولة . وقالت له المرأة : "شكراً على تنبيهي!"

وفي صباح الغد ودع الفليون المرأة وتابع سيره . وبعدما مشى مسافة لا بأس بها ، وصل إلى طرف غابة . هنالك رأى بعض الفلاحين يصنعون أطر عربات من الخشب الملوي . ودنا فرأى الرجال يدورون ويدورون لكنهم لا يستطيعون أن يلووا الخشب . ووقف يراقبهم ، فلاحظ أن الدعامة التي ربط بها لوح الخشب الطويل لم تكن مثبتة ، فإذا دار الرجال دارت الدعامة أيضاً . عندئذٍ قال الفليون :

"ماذا تفعلون يا أصحاب ؟"

"ألا ترى أننا نصنع أطراً لعجلات العربات ؟ لقد عرّضنا الخشب للبُخار مرتين ، لكنه يأبى أن يلتوي ، ونحن مرهقون ."

فقال الفليون : "عليكم ، يا أصحاب ، أن تثبتوا الدعامة أولاً ، وإلاّ ظلت تدور معكم!"

وامتثل الفلاحون ، فثبتوا الدعامة ، وسار العمل هيناً ليناً .

ثم بات الفليون ليلته عندهم ، وواصل سيره ، ماشياً نهاراً وليلاً كاملين . وقُبيل الفجر صادف سُوّاق ماشية مخيمين لقضاء الليل ، فاضطجع على مقربة منهم . ورأى أنهم قد أراحوا مواشيهم كلها ، ويحاولون إشعال نار للاستدفاء ، وقد أضرموا ناراً في قضبان يابسة ، وجعلوا يضعون فوقها قضباناً رطبة ، فتُصدر هسيساً وتجعل النار تدخّن ثم تخبو . ثم يأتي السُوّاق بقضبان يابسة أخرى ، ويشعلونها ، ثم يضعون قضباناً رطبة فوقها ، فتنطفىء النار من جديد . وظلوا يحاولون إضرام نار وقتاً طويلاً ، لكنهم أخفقوا . عندئذٍ قال الفليون :

"لا تستعجلوا وضع القضبان الرطبة ، بل انتظروا حتى يضطرم الحطب اليابس جيداً قبل أن تطرحوا في النار شيئاً . وحين تشتعل النار جيداً تطرحون فيها ما تشاؤون ."

وعمل السوّاق بالنصيحة . فانتظروا حتى أضطرمت النار بضراوة قبل أن يلقوا فيها قضباناً طرية ، فاشتعلت هذه وشبت سريعاً نار مفرقعة . ولبث الفليون معهم حيناً ، ثم واصل سيره . وقد مشى وهو يفكر متسائلاً عما قد تعنيه هذه الحوادث الثلاثة ، لكنه لم يستطع سبر غورها .

9

مشى الفليون ذلك النهار كله ، وفي المساء ، وصل إلى غابة أخرى ، حيث وجد صومعة ناسك ، فقرع بابها ، وإذا بصوت من الداخل يسأل : "من بالباب ؟"

فأجاب الفليون : "مذنب كبير! علي أن اكفّر عن خطاياي فضلاً عن خطايا شخص سواي ."

وحالما سمع الناسك ذلك ، خرج من الصومعة :

"وما تلك الخطايا التي ينبغي أن تحملها عن آخر سواك ؟"

فأخبره الفليون بكل شيء من جهة عرّابه ، والدبة وصغارها ، والعرش في البهو المختوم ، وأوامر عرّابه له ؛ وكذلك من جهة الفلاحين الذين رآهم يدوسون السنابل ، والعجل الذي اقبل على صاحبته من تلقاء ذاته .

ثم قال : "لقد أدركت ان الانسان لا يستطيع دحر الشر بالشر . ولكن لا أستطيع أن أفهم كيف ينبغي دحره . فعلّمني كيف أقوم بذلك ."

أجاب الناسك : "قل لي : ماذا رأيت أيضاً في طريقك ؟"

فأخبره الفليون خبر المرأة التي كانت تمسح الطاولة ، والفلاحين الذين كانوا يصنعون أطراً لعجلات العربة ، وسوّاق الماشية الذين أعياهم إشعال النار .

وأصغى الناسك إلى كل ذلك ، ثم عاد إلى صومعته ، وأتى بفأس عتيقة مثلمة ، وقال للفليون : "تعال معي!"

وبعدما سارا مسافة ، أشار الناسك إلى شجرة ، وقال :

"اقطع هذه الشجرة ."

فقطع الفليون الشجرة ، فهوت ارضاً . وقال الناسك :

"والآن قطّعها ثلاث قطع ."

فقطّعها ثلاث قطع . ثم عاد الناسك إلى صومعته ، وأتى ببعض القضبان المتّقدة ، وقال للفليون :

"احرق هذه الخشبات الثلاث ."

فأشعل الفليون ناراً ، وأحرق الخشبات الثلاث ، حتى صارت ثلاثة أزنادٍ من فحم .

"والآن اغرز هذه الأزناد في الأرض حتى نصفها ، على هذا النحو ."

فغرز الفليون الأزناد المفحمة في الأرض .

"اترى ذلك النهر عند سفح التل ؟ استق منه ماء بفمك ، واسق هذه الازناد . اسقِ هذا الزند كما علّمت المرأة ؛ وذاك الزّند كما علّمتَ صانعي الأطر ، وذلك الزّند كما علّمت سوّاق الماشية . فعندما تضرب هذه الأزناد المفحمة جذوراً وتطلع منها ثلاث شجرات تفاح ، تعرف كيف تدحر الشر في الناس ، وتكون قد كفّرت عن آثامك كلها ."

وما إن قال الناسك ذلك حتى عاد إلى صومعته . وراح الفليون يتفكر ويتدبر طويلاً ، لكنه لم يستطع ان يفهم قصد الناسك . غير انه شرع يعمل بما قيل له .

10

نزل الفليون إلى النهر ، وملأ فمه ماء ثم عاد فسقى أحد أزناد الفحم . وفعل ذلك مراراً وتكراراً حتى سقى الأزناد الثلاثة . ولما جاع وخارت قوته ، قصد إلى الناسك الشيخ ليطلب بعض الطعام . وفتح الباب ، فإذا الشيخ ميت

على مقعده . وبحث عن طعام ، فوجد بعض الخبز اليابس فأكل منه شيئاً . ثم أخذ مجرفة ، وشرع يحفر للناسك قبراً . في الليل حمل الماء وسقى الأزناد المفحمة ، وفي النهار أكمل حفر القبر . وما كاد يفرغ من الحفر ويهم بدفن الجثة ، حتى وصل قوم من القرية يحملون طعاماً للناسك .

وعلم القوم أن الناسك الشيخ قد توفي ، وأنه منح الفليون بركته وأحلّه محلّه . فدفنوا الشيخ ، وأعطوا الفليون ما أحضروه من الخبز ، ووعدوه بإحضار المزيد ، ثم مضوا .

وأقام الفليون في مقام الشيخ ، حيث عاش آكلاً الطعام الذي يحمله الناس إليه ، وقانعاً بالعمل الذي كلّفه الشيخ إياه ، حاملاً بفمه الماء من النهر ، وساقياً أزناد الفحم .

وقضى سنة على هذا النحو ، وزاره الكثيرون . إذ ذاع صيته بوصفه رجلاً تقياً يعيش في الغابة ويجلب الماء بفمه من سفح تل ليسقي حطباً مفحَماً في سبيل إنقاذ روحه ، فتقاطر الناس لرؤيته . وركب إليه أيضاً تجار أغنياء حاملين إليه هدايا ، ولكنه لم يحتفظ لنفسه إلاّ بالكفاف ، موزعاً الباقي على الفقراء .

وهكذا عاش الفليون حاملاً بفمه الماء ، وساقياً أزناد الفحم في نصف من النهار ؛ ومستريحاً ومستقبلاً الزوار في النصف الآخر . وشرع يخال أن تلك هي الطريقة التي قيل له ان يعيش بها كي يدحر الشر ويكفّر عن ذنوبه .

وقد قضى سنتين على هذا المنوال ، غير مُفوّت سقي الأزناد ولا يوماً واحداً . إلا أن أيّاً منها لم يشطأ .

وبينما هو ذات يوم في صومعته ، إذا به يسمع فارساً يمر وهو يغني . فخرج ليرى أي رجل ذاك ، وإذا أمامه شاب قوي حسن الهندام يمتطي جواداً جميلاً ذا سرج فاخر .

استوقف الفليون الرجل وسأله من هو وأين يبغي .

فشد الرجل الزمام وأجاب : "أنا قاطع طريق ، أجوس في الدروب وأقتل الناس . وكلما زاد عدد قتلاي ، زادت أغانيَّ مرحاً!"

فاستولى الرعب على الفليون وأخذ يفكر : "ترى ، كيف يُدحر الشر في رجل كهذا ؟ سهل علي أن أكلم الذين يأتون إلي من تلقاء ذواتهم معترفين بآثامهم . أما هذا ، فيتباهى بما يرتكبه من الشر!"

من ثم لم يقل شيئاً ، وهم بالانصراف وهو يفكر برأسه : "ماذا ينبغي أن أفعل الآن ؟ قد يدأب قاطع الطريق هذا في التجوال هنا ، فيرعب الناس وينفّرهم ، فيكفّون عن زيارتي ، فيكون ذلك خسارة لهم ، ويصعب علي أنا أن أعيش ."

فاستدار وقال لقاطع الطريق :

"يأتي إليّ الناس ههنا ، لا ليفتخروا بذنوبهم ، بل كي يتوبوا ويصلوا لأجل الغفران . فتب عن آثامك إن كنت تخشى الله . ولكن إذا خلا قلبك من نية التوبة ، فامض إذاً ولا ترجع البتة إلى ههنا . لا تزعجني ، ولا ترهب الناس وتنفّرهم عني . وإن أبيت أن تمتثل ، فسوف يعاقبك الله ."

فضحك قاطع الطريق وقال :

"أنا لا أخشى الله ، ولن امتثل كلامك . إنك لست سيدي . فأنت تعيش بتقواك ، وأنا أعيش بفتكي . وينبغي لنا جميعاً أن نعيش . لك أن تعلم العجائز اللواتي يزرنك ، ولكن ليس لك أن تعلمني . ولأنك ذكّرتني بالله ، فسأقتل غداً رجلين آخرين . وما كنت لأتوانى عن قتلك ، غير أني الآن لا أريد أن أوسّخ يديّ . فحذارِ أن تعترض في طريقي بعد اليوم!"

تفوّه قاطع الطريق بهذا التهديد ، ثم امتطى جواده ومضى . ولم يظهر مرة أخرى في غضون ثماني سنين ، فعاش الفليون في دعة وسلام كسالف عهده .

11

وذات ليلة سقى الفليون ازناده ، ثم عاد إلى صومعته وقعد يستريح ، وعينه على الممر ، مسائلاً نفسه هل يأتي أحد قريباً . ولكن لم يأت إليه أحد طوال ذلك النهار . فظل قاعداً وحده حتى المساء ، وقد شعر بالوحشة والكآبة ، وأخذ يتأمل ماضي حياته . ويتذكر كيف عيّره قاطع الطريق لأنه يعيش بتقواه ، وتأمل نمط حياته ، مفكراً :

"إنني لا أعيش بالطريقة التي أمرني الناسك بها . فالناسك فرض علي أعمال توبة ، وها أنا قد كسبت بها عيشة وشهرة ، وطالما أغرتني وأغوتني ، بحيث بت الآن اشعر بالكآبة حين لا يفد الناس إلي ، حتى إذا وفدوا ابتهجت فقط لانهم يثنون على تقواي . فما هكذا ينبغي للمرء أن يعيش . لقد طوّحني حب المديح ، فما كفّرت عن ذنوبي الماضية ، بل زدت عليها ذنوباً جديدة . سأمضي إلى ناحية أخرى من الغابة ، حيث لا يعثر علي الناس ، فأعيش بحيث أكفر عن خطاياي السالفة وأتفادى من ارتكاب خطايا جديدة ."

وإذ عقد عزمه على ذلك ، ملأ كيساً خبزاً يابساً ، وحمل مجرفة ، وغادر الصومعة منطلقاً إلى واد صغير عرفه في بقعة منعزلة ، حيث يستطيع أن يحفر لنفسه كهفاً يتوارى فيه عن الناس .

وبينما هو منطلق بكيسه ومجرفته ، شاهد قاطع الطريق مقبلاً نحوه . فارتعب وارتعد ، وهم بالفرار ، لكن قاطع الطريق أدركه ، وسأله :

"إلى اين أنت ذاهب ؟"

فقال له الفليون إنه عازم على الابتعاد عن الناس والعيش في مكان لا يوافيه إليه أحد ، فأدهش ذلك قاطع الطريق ، وسأله :

"وبم ستعيش إن كفّ الناس عن زيارتك ؟"

لم يكن الفليون قد فكّر في ذلك قط ، ولكن سؤال قاطع الطريق ذكّره بأن الطعام لا يُستغنى عنه . فأجاب :

"سأعيش مما يشاء الله أن يرزقني ."

فلم يجب قاطع الطريق بكلمة ، بل مضى في سبيله . وفكر الفليون برأسه :

"لماذا لم أقل له شيئاً عن نمط حياته ؟ فقد يتوب الآن ، إذ يبدو اليوم أن مزاجه ألطف ، فهو لم يهددني بالقتل ." فنادى به :

"ما زال ينبغي لك أن تتوب عن خطاياك . فلا يمكنك أن تفلت من يد الله!"

فعطف قاطع الطريق جواده ، واستلّ من حزامه خنجراً هدد به الناسك . فذعر الفليون ، وفر ليتوارى في الغابة .

لكن قاطع الطريق لم يلحق به ، بل اكتفى بأن قال له صارخاً :

"مرتين أفلتّك ، يا عجوز ، ولكن إذا اعترضت في طريقي مرة ثالثة فسأقتلك!"

وإذ قال ذلك ، مضى في سبيله . وفي ذلك المساء ، ذهب الفليون ليسقي أزناده ، فإذا أحدها قد شطأ! وإذا شجرة تفاح غضة قد طلعت منه .

12

بعدما توارى الفليون عن الناس جميعاً ، عاش وحيداً . ولما نفد زاد الخبز ، قال لنفسه : "ينبغي الآن أن أمضي وأبحث عن جذور آكلها ."

على انه لم يبتعد كثيراً حتى رأى كيس خبز يابس متدلياً من غصن شجرة ، فأنزله وراح يقتات به إلى أن نفد . إذ ذاك وجد كيساً آخر مليناً تحت الغصن نفسه . وهكذا عاش قانعاً ، لا يكدره سوى خوفه من قاطع الطريق . فكان إذا سمعه ماراً يختبىء مفكراً :

"قد يقتلني قبل أن يتسع وقتي للتكفير عن ذنوبي ."

على هذا المنوال عاش عشر سنين أخرى . وقد ظلت شجرة التفاح تنمو . فيما بقي الزندان الآخران على حالهما .

وذات صباح نهض الفليون باكراً وانطلق إلى عمله المعتاد . وما إن فرغ من ترطيب التربة جيداً حول الزندين حتى نهكت قواه ، فقعد يستريح . وبينما هو قاعد هناك ، اعتلج في رأسه هذا الفكر :

"لقد ارتكبت آثاماً ، وبتّ خائفاً من الموت . فلعل مشيئة الله تقضي بأن اكفّر عن ذنوبي بموتي ."

وما كاد هذا الخاطر يجول في باله ، حتى سمع حس قاطع الطريق مقبلاً وهو يشتم ويلعن . فلما سمع الفليون ذلك ، قال لنفسه :

"لا يمكن أن يحل بي أيّ شر أو أيّ خير إلا من عند الله وحده ."

ثم انطلق لملاقاة قاطع الطريق . فإذا به ليس وحده ، بل وراءه على السرج رجل آخر ، مكموم الفم ، موثق اليدين والقدمين . ما كان ذلك الرجل يأتي حركة ، ولكن قاطع الطريق كان يسومه عسفاً وخسفاً .

فتقدم الفليون ووقف قدّام الجواد . وسأل قاطع الطريق :

"إلى أين تأخذ هذا الرجل ؟"

أجاب قاطع الطريق : "إلى الغابة . إنه ابن تاجر ، وقد أبى أن يدلّني على المكان الذي خبأ والده ماله فيه . فسوف أجلده بالسوط حتى يقرّ بذلك ."

وهمز قاطع الطريق جواده كي ينطلق . لكن الفليون أمسك بلجامه ، ولم يدعه يمر . بل قال له :

"أطلق سراح هذا الرجل!"

فاستشاط قاطع الطريق ، ورفع يده للضرب ، قائلاً :

"أتحب أن تذوق شيئاً مما سأذيق هذا الرجل ؟ أما توعّدتك بالقتل ؟ افلت اللجام!"

إلا أن الفليون لم يخف ، بل قال :

"لن تمضي! أنا لا أخاف منك . ولست أخشى أحداً سوى الله ، ومشيئته تقضي بألا أدعك تمرّ . فأطلق سراح هذا الرجل ."

فتجهّم وجه قاطع الطريق ، واستلّ خنجره ، فقطع وثُق ابن التاجر ، وأخلى سبيله . وقال :

"اغربا عن وجهي كلاكما . وحذار ساعة تسدّ عليّ الطريق بعد!"

فترجّل ابن التاجر مسرعاً وولّى هارباً . وهمّ قاطع الطريق بمتابعة سيره ، ولكن الفليون أوقفه أيضاً ، وكلمه من جديد في الإقلاع عن سلوك سبيل الشر . فأصغى اليه قاطع الطريق صامتاً حتى فرغ من كلامه ، ثم امتطى جواده ومضى دون أن ينبس ببنت شفة .

وفي صباح الغد مضى الفليون ليسقي أزناده ، فإذا بزند ثانٍ قد بدأ يشطأ ، وإذا شجرة تفاحٍ غضة ثانية قد بدأت تطلع!

13

ثم مرّت عشر سنين أخرى . وبينما الفليون قاعد ذات يوم في سكون ، لا يشتهي شيئاً ولا يخشى شيئاً ، وقلبه مفعم بالغبطة ، أخذ يفكر :

"ما أوفر البركات التي يغدقها الله على البشر! ومع ذلك فكم يعذّبون أنفسهم بلا داع! ماذا يمنعهم أن يعيشوا سعداء ؟"

وإذ تذكر كل ما في البشر من شر ، وما يجلبونه على أنفسهم من بلايا ، غمرت الشفقة قلبه رثاءً لحالهم .

وقال لنفسه : "أنا مخطئ في عيشتي هذه المنعزلة . ينبغي لي أن أمضي وأعلم الآخرين ما قد تعلمته أنا نفسي ."

ولم يكد يفكر في ذلك حتى سمع حس قاطع الطريق مقبلاً نحوه . وتركه يمر ، مفكراً برأسه : "لا جدوى من التكلّم إليه ، فهو لن يعي ولن يرعوي! "

كانت تلك أول فكرة خطرت في باله ، لكنه غيّر رأيه وخرج إلى الطريق . فإذا به يرى قاطع الطريق مكتئباً ، يمتطي حصانه مُطرِقاً . فنظر إليه وتحنن عليه ، فأسرع نحوه ووضع يده على ركبته ، قائلاً له :

"يا أخي العزيز ، ارحم نفسك! ألا تتردد نسمة الله فيك ؟ ها أنت تعاني وتعذب الآخرين ، وتذخر للمستقبل مزيداً من المعاناة . إلا أن الله يحبك ، وعنده لك بركات وافرة . فلا تهلك نفسك إلى الأبد ، بل غيّر طريقة حياتك!"

فتجهّم وجه قاطع الطريق ، وأعرض عن الفليون ، قائلاً :

"دعني وشأني!"

غير أن الفليون شدّد قبضته عليه أكثر ، وبدأ يبكي .

عندئذٍ رفع قاطع الطريق عينيه ، ونظر إلى الفليون مبدئاً ومعيداً ومديماً ، ثم ترجّل عن جواده ، وجثا على ركبتيه عند قدمي الفليون ، وقال :

"لقد غلبتني أيها العجوز! عشرين سنة قاومتك ، لكنك الآن قهرتني . فافعل بي ما تشاء ، لأن لا سلطة لي على نفسي . عندما حاولت إقناعي في البداية ، ما زادني ذلك إلا غضباً . ولكن حينما تواريت عن الناس ، حينئذٍ فقط ، بدأت أتأمل كلامك ، إذ تأكد لي آنذاك أنك لم تطلب منهم شيئاً لنفسك . ومنذ ذلك اليوم دأبت في إحضار الطعام لك ، معلّقاً إياه بالشجرة ."

عندئذٍ تذكر الفليون أن المرأة لم تنظف طاولتها إلا حين غسلت خرقتها . وكذلك عندما كفّ هو عن الاعتناء بنفسه ، وعندما نقّى قلبه ، عندئذٍ تسنّى له أن ينقّي قلوب الآخرين .

ومضى قاطع الطريق يقول :

"لمّا رأيت أنك لا تخشى الموت ، تحوّل قلبي ."

عندئذٍ تذكر الفليون أن صانعي الأطر لم يستطيعوا لَيّها إلاّ بعد تثبيت الدعامة . وكذلك لم يستطع هو أن يُخضع قلب قاطع الطريق العاصي إلاّ بعد أن طرح عنه خوف الموت وثبّت حياته في الله .

ثم تابع قاطع الطريق قائلاً : "ولكن لم يَذب قلبي تماماً إلاّ حين تحننت علي وبكيت لاجلي ."

فغمر الفرح قلب الفليون وذهب بقاطع الطريق إلى حيث كانت الأزناد المفحمة . وحالما وصلا ، رأيا شجرة تفاح قد بدأت تشطأ من الزّند الثالث .

عندئذٍ تذكر الفليون أن سوّاق الماشية لم يتمكّنوا من إشعال الحطب الرطب قبل اضطرام النار جيداً . وكذلك ، فعندما اضطرم قلبه هو بحرارة المحبة ، عندئذٍ فقط شبّت الحرارة الشديدة في قلب شخص آخر .

وغمر الفرح الفليون لانه كفّر أخيراً عن جميع ذنوبه .

وقد روى ذلك كله لقاطع الطريق ، ثم مات! فدفن قاطع الطريق الفليون وشرع يعيش كما أوصاه ، معلّماً الآخرين ما علّمه إياه .

سنة 1886

17

الخاطئ التائب

ثم قال ليسوع : "اذكرني يا رب متى جئت في ملكوتك ." فقال له يسوع : "الحق أقول لك : إنك اليوم تكون معي في الفردوس ."

- الإنجيل كما دونه لوقا (23 ، 42 و 43)

1

عاش مرة رجل حتى بلغ السبعين من عمره وهو ما يزال يعيش في الخطيئة . وابتُلي بمرض ، لكنه أيضاً لم يتب عن شره .

إلا أنه في الساعة الأخيرة ، عند احتضاره ، بكى وقال :

"يا رب ، اغفر لي كما غفرت للصِّ التائب على الصليب ."

وما إن تفوه بهذه الكلمة ، حتى فارقت نفسه جسده .

وإذ شعرت نفس هذا الخاطئ بالمحبة لله والإيمان برحمته ، طارت إلى عتبات الفردوس ، وأخذت تقرع الباب متوسلة أن تَدخَل المملكة السماوية .

عندئذٍ تكلم صوت من وراء الباب قائلاً :

"أيّ إنسان يقرع باب الفردوس ؟ وأيةَ أعمال عمل في حياته ؟"

فأجاب صوت إبليس المشتكي معدّداً كل ما عمله ذلك الإنسان من شرور ، ولم يذكر له عملاً واحداً حسناً .

ورد الصوت من وراء الباب قائلاً :

"لا يستطيع الخطأة أن يدخلوا المملكة السماوية . فاذه ن هنا ."

عندئذٍ قال الرجل :

"سيدي ، إنني أسمع صوتك ، ولكن لا أستطيع أن أرى وجهك ، ولا أعرف اسمك ."

فأجاب الصوت :

"أنا بطرس ، رسول المسيح ."

فرد الخاطئ :

"تحنن علي ، أيها الرسول بطرس! تذكّر ضعف الإنسان ورحمة الله . ألم تكن أنت تلميذاً للمسيح ؟ أوَلم تسمع تعليمه من شفتيه بالذات ، وتتخذه قدوة لك ؟ فتذكر إذاً ، حين حزن واكتأب بالروح ، وطلب إليك ثلاثاً أن تسهر وتصلّي ، كيف نمت فعلاً لأن النعاس أثقل أجفانك ، ووجدك ثلاث مرات نائماً . فهكذا كانت حالي . وتذكّر أيضاً كيف وعدت بأن تكون أميناً حتى الموت ومع ذلك أنكرته ثلاثاً حين سيق إلى دار قيافا . فهكذا كانت حالي . وتذكّر أيضاً ، عندما صاح الديك ، كيف خرجت خارجاً وبكيت بكاءً مرّاً . فهكذا كانت حالي . فلا يمكنك أن ترفض إدخالي ."

ولكن بقي الصوت خلف الباب صامتاً .

عندئذٍ وقف الخاطئ هنيهة ، ثم شرع يقرع من جديد ، متضرّعاً أن يدخَل إلى المملكة السماوية .

وسمع من وراء باب الفردوس صوتاً آخر يقول :

"مَن هذا الإنسان ، وكيف عاش على الارض ؟"

ومرة أخرى تلا صوت المشتكي جميع سيئات الخاطئ ، ولم يذكر له حسنة واحدة .

ورد الصوت من خلف الباب قائلاً :

"اذهب من هنا الخطأة! أمثالك لا يمكن أن يقيموا معنا في الفردوس ."

عندئذٍ قال الخاطئ :

"سيدي ، أنا أسمع صوتك ، ولكني لا أراك ، ولا أعرف اسمك ."

فأجاب الصوت :

"أنا داود ، الملك والنبي ."

فما يئس الخاطئ ، ولا غادر باب الفردوس ، بل قال :

"تحنن علي ، أيها الملك داود! تذكّر ضعف الإنسان ورحمة الله . لقد احبّك الله ، ورفعك بين الناس ، فكان لك كل شيء : ملك ومجد وغنى وزوجات وبنون . ولكنك رأيت من على سطحك امرأة رجل فقير ، فداخلتك الخطيئة ، فأخذت زوجة "أوريا" وقتلته بسيف العمونيين . فإنك ، وانت غني ، سلبت الفقير نعجته الوحيدة ، ثم قتلته . وانا فعلت مثل ذلك . فتذكّر إذاً كيف تبت قائلاً : "إني عارف بمعاصيَ ، وخطيئتي أمامي دائماً ." وانا فعلت هكذا . فلا يمكنك أن ترفض إدخالي ."

ولكن بقي الصوت خلف الباب صامتاً .

وبعدما وقف الخاطئ هنيهة ، شرع يقرع من جديد ، متضرعاً أن يَدخُل إلى المملكة السماوية . وسَمع من وراء الباب صوت ثالث يقول :

"مَن هذا الإنسان ، وكيف قضى حياته على الأرض ؟"

ومرة ثالثة تعالى صوت المشتكي ، مُعدّداً سيئات الخاطئ ، وغير ذاكر له حسنة واحدة .

وقال الصوت من خلف الباب :

"ارحل من هنا! الخطأة لا يمكن أن يدخلوا المملكة السماوية ."

عندئذٍ قال الخاطئ :

"صوتك أسمع ، ولكن وجهك لا أرى ، ولست أعرف اسمك أيضاً ."

فرد الصوت قائلاً :

"أنا يوحنا اللاهوتيَ ، تلميذ المسيح الحبيب ."

فابتهج الخاطئ وقال :

"الآن يقيناً يُسمَح لي بالدخول . فلا بد لبطرس وداود من أن يدعاني أدخل ، لأنهما يعرفان ضعف الإنسان ورحمة الله ، ولا بد أن تدعني أنت أدخل ، لأنك كثير المحبة . أولست أنت يوحنا اللاهوتيَ الذي كتب في الرسالة أن الله محبة وأن من لا يحب لم يعرف الله ؟ أوَلم تقل للمؤمنين ، في شيخوختك : "أيها الأحباء ، لنحب بعضنا بعضاً ؟" فكيف يمكنك إذاً أن تنظر إلي ببغضة وتطردني بعيداً ؟ عليك إمّا إن تنكر ما قد قلته ، وإمّا إن تحدوك محبتك لي على إدخالي إلى المملكة السماوية؟"

إذ ذاك انفتح باب الفردوس على مصراعيه ، وعانق يوحنا الخاطئ التائب ، وأدخله إلى المملكة السماوية .

سنة 1886

18

الطبل الفارغ

حكاية شعبية شائعة منذ القديم في منطقة الفولغا

كان إميليان عاملاً يشتغل عند سيد . وبينما هو يعبر مرجاً ذات يوم في طريقه إلى العمل ، كاد يدوس ضفدعة قفزت أمامه فوراً ، لكنه استطاع ان يتفادى منها . وفجأة سمع صوتاً يناديه من خلف .

والتفت إميليان فرأى صبية حسناء ، قالت له : "لماذا لا تتزوج ، يا إميليان ؟"

فقال : "وأنّى لي أن أتزوج أيتها الصبية الحسناء ؟ ليس لي إلاّ الثياب التي علي ، دون سواها ، وما من صبية تقبلني زوجاً لها ."

قالت : "اتخذني أنا زوجة لك ."

فأحب إميليان الصبية ، وقال : "يسرني ذلك ، ولكن أين وكيف نعيش ؟"

قالت الفتاة : "لا داعي للقلق بهذا الشأن . فلن يضطر المرء إلا لأن يعمل اكثر وينام اقل . أما الكساء والطعام ، فالمرء يدبرهما في اي مكان ."

فقال إميليان : "جيد جداً! فأين نذهب ؟"

"لنذهب إلى المدينة!"

ومن ثمّ ذهب إميليان والحسناء إلى المدينة ، واصطحبته إلى ضاحيتها ، حيث كان كوخ صغير . ثم تزوجا وبدأا يُعنَيان بشؤون منزلهما .

وذات يوم كان الملك يعبر المدينة بعربته ، فمر امام كوخ إميليان . وخرجت زوجة إميليان لترى الملك . فلاحظها الملك ، وأذهله جمالها ، حتى قال :

"من أين جاء مثل هذا الجمال ؟"

ثم أوقف عربته ، ودعا زوجة إميليان وسألها : "من أنت ؟"

فقالت : "زوجة الفلاح إمليان ."

قال الملك : "ولماذا تزوجتِ من فلاح وأنت باهرة الجمال ؟ ينبغي أن تكوني ملكة!"

قالت : "شكراً لك على كلامك اللطيف . ولكنّ زوجاً فلاحاً يكفيني ."

وبعدما حادثها الملك حيناً ، مضى في سبيله عائداً إلى القصر . ولكنه لم يستطع أن يصرف ذهنه عنها . فلم يغمض له جفن طول الليل ، وظل يفكر كيف يتخذ زوجة إميليان لنفسه . وما استطاع أن يستنبط طريقة لإتمام ذلك ، فاستدعى خدّامه وأمرهم بالعثورعلى وسيلة أو حيلة .

فقال خدام الملك : "أصدر أمراً بأن يأتي إميليان إلى القصر ليعمل ، فنثقّل عليه العمل حتى يموت ، فيخلّف زوجته أرملة ، وعندئذٍ تتخذها زوجة لك ."

وعمل الملك بنصيحتهم . فأصدر أمراً بأن يأتي إميليان إلى القصر عاملاً ، ويقيم في القصر ، ومعه زوجته .

فتوجه المبعوثون إلى إميليان وبلّغوه رسالة الملك . فقالت له زوجته : "اذهب يا إميليان ، واعمل طول النهار ، ولكن عد إلى البيت مساءً ."

فذهب إميليان ، ولما وصل إلى القصر ، سأله وكيل الملك : "لماذا جئت بلا زوجتك ؟"

قال إميليان : "ولمَ آتي بها ؟ عندها بيت تقيم فيه!"

وفي قصر الملك كَلّف إميليان عمل رجلين . فبدأ عمله وهو يخشى ألا ينهيه ، ولكن ما إن حل المساء حتى كان العمل كله قد أُنجز . ورأى الوكيل أن العمل قد تم ، فعيّن له أربعة أضعاف للنهار التالي .

مضى إميليان إلى بيته ، حيث وجد كل شيء مكنوساً ونظيفاً . كان الموقد مُشعَلاً ، وعشاؤه مطبوخاً وجاهزاً ، وزوجته قاعدة إزاء الطاولة تخيط بانتظار عودته . فرحبت به ، وبسطت المائدة ، وقدمت له طعاماً وشراباً ، ثم شرعت تسأله عن عمله ، فقال :

"آه! عمل رديء ؛ لقد كلّفوني ما يفوق طاقتي ، وهم يبتغون قتلي بالعمل!"

فقالت له : "لا يُغظك مقدار العمل! حذار أن تنظر أمامك أو وراءك لترى كم انجزت أو كم بقي ، بل واظب على عملك فيكون كل شيء على ما يرام ."

وهكذا تمدّد إميليان ونام . وصباح الغد عاد إلى العمل ، واشتغل دون أن ينظر حواليه ولو مرة واحدة . وما إن أقبل المساء ، حتى كان العمل قد أنجز كله . ثم أوى إميليان إلى بيته قبل حلول الظلام .

ويوماً بعد يوم ، ضاعف خدام الملك عمل إميليان . لكنه كان دائماً ينجزه قبل الأوان ، ثم يأوي إلى بيته لينام . حتى انقضى أسبوع ، وتبين لهم أنهم لا يستطيعون أن يسحقوه بالعمل القاسي ، فحاولوا إعطاءه عملاً يقتضي مهارة . ولكن هذا أيضاً لم يُجدِهم نفعاً . فمهما عيّنوا له ، من نجارة أو بناء أو تسقيف ، كان ينجزه قبل الأوان ، ويذهب إلى كوخه ليبيت الليل مع زوجته . وعلى هذا النحو مر أسبوعان .

ثم دعا الملك خدامه وقال : "أتأكلون خبزي ولا تعملون عملي ؟ ها قد مر أسبوعان ، وأنتم لم تنجزوا شيئاً ، كما أرى . كنتم في صدد إنهاك إميليان بالعمل ، ولكني أستطيع أن أرى من نوافذي كيف يمضي كل مساء ليأوي إلى بيته ، وهو يغني منشرحاً! أفتنوون أن تسخروا بي ؟"

وبدأ خدام الملك ينتحلون الأعذار ، قالوا : "لقد بذلنا قصارى جهدنا

لإرهاقه بالعمل المضني ، ولكن لم يكن شيء صعباً عليه ، إذ كان ينجز عمله كله كمن يكنس كنساً . فما كان من سبيل إلى إنهاكه . ثم عيّنّا له مهامّ تقتضي مهارة ، وكنا نظن أنه ليس صَناع اليدين فيها ، ولكنه دبر كل شيء حسناً . فأي عمل نكلّفه ينجزه ، ولا أحد يدري كيف . لا بد أنه يعرف ، إمّا هو وإمّا زوجته ، رَقية تساعدهما . ونحن أنفسنا سئمنا التعامل معه ، ونودّ لو نجد مهمة لا يحسنها . وقد فكرنا الآن في تكليفه بناء كاتدرائية في يوم واحد . فهلاّ تستدعيه وتأمره ببناء كاتدرائية مقابل القصر في يوم واحد! وإن عجز عن ذلك ، فعندئذٍ تأمر بقطع رأسه لعدم الطاعة ."

فاستدعى الملك إميليان ، وقال له : "أصغِ إلى أمري : ابنِ لي كاتدرائية جديدة في الساحة المواجهة لقصري ، وأنجزها قبل مساء غد . فإن أنجزتها أكافئك ، وإلا أمرت بقطع رأسك!"

حالما سمع إميليان أمر الملك ، تحول ومضى إلى بيته ، مفكراً : "ها قد دنت ساعتي!" وما إن وصل كوخه حتى قال لزوجته : "استعدي ، يا زوجتي! علينا أن نهرب من هنا ، وإلا هلكت بعلة ليست مني ."

فسألته : "ماذا أخافك هكذا ؟ ولِمَ ينبغي أن نهرب ؟"

"وكيف لا أخاف ؟ لقد أمرني الملك بأن أقوم ، غداً وفي نهار واحد ، ببناء كاتدرائية . وإن أخفقت ، يقطع رأسي . فليس أمامنا إلا أمر واحد نعمله ، ألا وهو أن نهرب ما دام الوقت يسمح لنا ."

ولكن زوجته أبت أن تنصاع له ، وقالت : "عند الملك عسكر كثيرون . وسوف يقبضون علينا في أي مكان . فلا يمكننا الإفلات منه ، بل ينبغي أن نطيعه ما دامت فينا قوة ."

"وكيف أطيعه والمهمة فوق طاقتي ؟"

"إيهٍ يا طيب! لا يكتئب قلبك . تعشَ الان ، وأخلد إلى النوم . ثم انهض باكراً في الصباح ، وسيُنجَز كل شيء!"

فتمدد إميليان ونام . وفي صباح الغد أيقظته زوجته باكراً ، قائلة له : "اذهب بسرعة وأنجز الكاتدرائية . إليك مسامير ومطرقة ؛ فقد بقي من العمل ما يكفي ليوم واحد!"

ذهب إميليان إلى المدينة ، ووصل ساحة القصر ، فإذا أمامه كاتدرائية ضخمة غير مكتملة تماماً . فشرع إميليان يعمل لإنجاز ما بقي ؛ حتى إذا حان المساء كان كل شيء قد كمل .

عندما استيقظ الملك ، تطلع من قصره فرأى الكاتدرائية ، وإميليان يجول ويدق المسامير هنا وهناك . فلم يَسرّ الملك بإنجاز الكاتدرائية ، فقد انزعج لعدم تمكنه من الحكم على إميليان وسلبه زوجته . فدعا خدامه من جديد ، وقال لهم : "لقد أنجز إميليان هذه المهمة أيضاً وليس من عذر لإعدامه الحياة . حتى هذا العمل لم يكن أصعب من أن يقوم به! عليكم أن تهتدوا إلى حيلة أدهى ، وإلا قطعت رؤوسكم مع رأسه ."

فارتأى خدام الملك أن يؤمر إميليان بصنع نهر حول القصر وفيه سفن مسافرة . واستدعى الملك إميليان ، وكلفه هذه المهمّة الجديدة ، قائلاً :

"إن استطعت بناء كاتدرائية في ليلة واحدة ، ففي وسعك أن تفعل هذا أيضاً . غداً ينبغي أن يكون كل شيء مُنجزاً . وإلا أمرت بقطع رأسك ."

اكتأب إميليان اكثر من ذي قبل ، وعاد إلى زوجته كسير القلب .

فقالت له :

"لماذا أنت حزين هكذا ؟ هل عيّن لك الملك مهمة جديدة ؟"

فأطلعها إميليان على الأمر ، وقال : "ينبغي أن نهرب ."

ولكن الزوجة أجابت : "لا مفر من العسكر . سوف يقبضون علينا أينما ذهبنا . ما باليد غير الطاعة!"

فدمدم إميليان : "وكيف أصنع نهراً وسفناً ؟"

قالت : "إيه يا طيب! لا يكتئب قلبك . تعشَ الان ونم . ثم انهض باكراً ، وسيُنجز كل شيء في أوانه ."

فاضطجع إميليان ونام . وفي الصباح أيقظته زوجته قائلة : "اذهب إلى القصر ، فكل شيء مُعَدّ . إنما بقيت كومة تراب صغيرة بقرب الرصيف قدام القصر ، فخذ مجرفة وسوّها ."

ولما استيقظ الملك رأى نهراً حيث لم يكن نهر ، والسفن مسافرة فيه ذهاباً وإياباً ، وإميليان يسوّي كومة بالمجرفة . فتعجب الملك ، إلاّ أنه لم يسر لا بالنهر ولا بالسفن ، إذ اغتاظ جداً لعدم قدرته على إصدار حكم إعدام على إميليان . وفكر برأسه : "ليس من مهمة يعجز عن تدبيرها . فما العمل ؟" ثم استدعى خدامه من جديد واستشارهم ، قائلاً :

"جدوا لي مهمة يعجز إميليان عن إنجازها . فمهما خططناه نفّذه ، ولا يسعني أن آخذ زوجته منه ."

فتفكر خدام الملك وتدبروا ، حتى انفتقت لهم حيلة . فجاءوا إلى الملك وقالوا : "استدع إميليان وقل له : "اذهب إلى حيث لا يُدرى ، وعد حاملاً ما لا يعرف ؛" فعندئذ لا يقوى على الإفلات منك . فأينما ذهب ، يمكنك أن تقول له إنه لم يذهب إلى المكان الصحيح ؛ ومهما أحضر ، يمكنك أن تقول إنّه ليس الشيء الصحيح . ومن ثم تستطيع أن تأمر بقطع رأسه ويمكنك أن تأخذ زوجته ."

سُرّ الملك وقال : "يا لها من حيلة محكمة!" ثم استدعى إميليان وقال له :

"إذهب إلى حيث لا يدرى ، وعد حاملاً ما لا يعرف . فإن أخفقت قطعت رأسك!"

رجع إميليان إلى زوجته ، وأخبرها بما قاله الملك ، ففكرت زوجته حيناً ثم قالت :

"حسناً ، لقد علّموا الملك كيف يوقع بك . فعلينا الآن أن نتصرف باحتراس!"

ثم قعدت تفكر هنيهة بعد ، وأخيراً قالت لزوجها : "عليك أن تذهب إلى مكان بعيد ، إلى جدتنا ، الفلاحة العجوز أمّ العسكر ، وتلتمس معونتها ، فإن أعانتك بشيء ، فاذهب به إلى القصر تواً ، وأنا أكون هناك . لا سبيل لي إلى الإفلات منهم الآن . سوف يأخذونني عنوة ، ولكن لن يطول بقائي عندهم . فإن عملت تماماً بما تهديك اليه الجدة ، فسوف تنقذني سريعاً ."

وهكذا جهزت الزوجة زوجها للرحلة . أعطته محفظة ، ومغزلاً أيضاً . وقالت له : "أعط الجدة هذا . فبهذه العلامة تعرف انك زوجي ." ثم شيعته فانطلق .

مضى إميليان في سبيله ، مخلّفاً المدينة وراءه ، حتى وصل إلى حيث كان بعض الجنود يُدرّبون . وبعد التدريب ، قعد الجنود يستريحون . فقصد إميليان اليهم وسألهم : "يا إخوان ، هل تعرفون الطريق إلى حيث لا يدرى ، وسبيل الحصول على ما لا يُعرَف ؟"

فأصغى إليه الجنود مدهوشين ، وقالوا : "من أرسلك في هذه المهمة ؟"

قال : "الملك ."

فقالوا : "منذ يوم أصبحنا جنوداً ونحن نذهب إلى حيث لا يدرى وحتى الآن لم نصل إلى هناك قط ؛ كما أننا نلتمس ما لا يُعرَف ولا نقدر أن نعثر

عليه . فليس في وسعنا أن نساعدك ."

لبث إميليان مع الجنود حيناً ، ثم مضى في سبيله من جديد ، وقطع كيلومترات كثيرة مُجهِدة ، حتى وصل اخيراً إلى غابة . كان في تلك الغابة كوخ ، وفي ذلك الكوخ قعدت امرأة عجوز بدا عليها ثقل السنين الكثيرة ، هي أمّ العسكر الفلاّحين ، وكانت تغزل الكتّان وتبكي . وفيما هي تغزل ، ما كانت تُقرّب أصابعها إلى فمهما لتبلّها بريقها ، بل إلى عينيها لتبلّها بدموعها . ولما شاهدت العجوز إميليان ، صاحت به : "لمَ أتيت إلى هنا ؟"عندئذٍ أعطاها إميليان المغزل ، وقال لها إنّ زوجته قد أرسلته اليها .

وفي الحال لانت العجوز ، وبدأت تستفسره . فروى لها إميليان سيرة حياته كلها : كيف تزوج الصبية الحسناء ؛ وكيف مضيا وأقاما في المدينة ؛ وكيف عمل وماذا فعل في القصر ؛ وكيف بنى الكاتدرائية ، وصنع نهراً فيه سفن مسافرة ؛ وكيف أمره الملك الآن بأن يذهب إلى "حيث لا يُدرى" ويعود حاملاً "ما لا يعرف" .

ظلت الجدة العجوز تصغي إلى الأخير ، وكفكفت دموعها . وتمتمت قائلة لنفسها : "يقيناً قد آن الأوان ." ثم قالت لإميليان : "طيب ، يا بني . اقعد ، وسأعطيك ما تأكله ."

فأكل إميليان ، ثم علّمته الجدة العجوز ما يفعل . قالت : "إليك كبكوب الخيوط هذا ، دحرجه أمامك واتبعه حيثما ذهب . عليك أن تمضي بعيداً حتى تصل إلى البحر مباشرةً . وعندما تصل إلى هناك ، ترى مدينة كبيرة . فادخل المدينة واطلب مبيت ليلةً في أقصى بيتٍ هناك . ثم ترقب الحصول على ما تبتغيه ."

فسألها : "وكيف أعرفه عندما أراه ، يا جدتاه ؟"

"عندما ترى شيئاً يطيعه الناس أكثر مما يطيعون أباً أو أماً ، فذلك هو . فاقبض عليه واحمله إلى الملك . وحين تحمله إلى الملك ، يقول لك إنه ليس الشيء الصحيح ، فعليك أن تجيب : "إن لم يكن الشيء الصحيح فينبغي أن يُحطّم ؛ ويجب أن تضربه وتحمله إلى النهر وتحطمه تحطيماً ثم ترميه في النهر . عندئذٍ تستعيد زوجتك ، وتجف دموعي ."

ودّع إميليان الجدة ، وبدأ يدحرج كرة الخيوط أمامه . فتدحرجت وتدحرجت ، حتى وصلت البحر أخيراً . وعند البحر كانت مدينة كبيرة ، في أقصاها بيت كبير . هناك طلب إميليان مبيت ليلة ، فأُذِن له . فاضطجع ونام ، وفي الصبح سمع أباً يوقظ ابنه كي يذهب إلى الغابة ويقطع حطباً للموقد . لكن الابن أبى أن يطيع ، وقال : "الوقت باكر جداً ، وما زلنا في مُتّسع منه ." ثم سمع إميليان الأم تقول : "اذهب يا بني ، فعظام أبيك تؤلمه . أتريد أن يذهب هو بنفسه ؟ آن أوان النهوض؟"

لكن الابن تمتم بضع كلمات أخرى ، وعاد يغط في سباته . وما كاد ينام قليلاً ، حتى دوى وهدر شيء في الشارع . فهبّ الابن واقفاً ، وارتدى ثيابه مسرعاً ، وركض خارجاً إلى الشارع . وهب إميليان أيضاً واقفاً ، وركض وراءه ليعرف ما ذاك الذي يطيعه ابنٌ أكثر من إطاعة أبيه أو أمه . فكان ما رآه رجلاً يسير على قارعة الطريق وهو يحمل برباط على بطنه شيئاً يضربه بعَصَوين ، وأدرك أنه ذاك هو ما دوى وهدر ، وما أطاعه الابن . فركض إميليان وألقى نظره على ذلك الشيء ، فرأى أنه كان كبرميل قصير صغير شدّ جلدٌ على كلا طرفيه ، وسأل ماذا يُسمى ، فقيل له إنه "طبل" .

"أفارغ هو ؟"

"نعم ، هو فارغ؟"

فدهش إميليان . وطلب أن يُعطى ذلك الشيء ، فلم يُعطَه . فكف إميليان عن الطلب ، ولحق بالطبّال ، تابعاً إياه النهار كله ، حتى اذا استلقى لينام اخيراً ، خطف إميليان الطبل منه وراح يعدو به .

ظل إميليان يركض ويركض ، حتى رجع أخيراً إلى بلدته . وذهب ليرى زوجته ، ولكنها لم تكن في البيت . إذ كان الملك قد أخذها في اليوم التالي لرحيل إميليان . فتوجه إلى القصر ، وبعث إلى الملك برسالة تقول إنّ من ذهب إلى "حيث لا يدرى" قد عاد حاملاً "ما لا يعرف".

فبَلَغ الملك ، فقال إنّ على إميليان أن يرجع في الغد .

لكن إميليان قال : "قولوا للملك إنني ههنا اليوم ، وقد عدت بما أراده الملك . فليخرج إليّ ، أو أدخل إليه؟"

فخرج الملك وقال : "إلى اين ذهبت ؟"

فأخبره إميليان بما كان .

لكن الملك قال : "ليس ذلك هو المكان الصحيح . فبمَ أتيت ؟"

"فأشار إميليان إلى الطبل ، ولكن الملك لم ينظر اليه ، بل قال :

"ليس هذا هو الشيء الصحيح ."

فقال إميليان : "إن لم يكن هو الشيء الصحيح ، فيجب أن يُحطَم ، وليأخذه إبليس؟"

وغادر إميليان القصر ، حاملاً الطبل وقارعاً إياه . وإذ قرع الطبل ركض جنود الملك كلهم يتبعونه . واخذوا يحيّونه منتظرين اوامره .

أما الملك ، من وراء نافذته ، فأخذ يصيح بجنوده آمراً إياهم بألاّ يتبعوا إميليان . إلا أنهم لم يصغوا اليه ، بل تبعوا إميليان .

ولما رأى الملك ذلك ، أصدر أمراً بإرجاع زوجة إميليان إلى زوجها ،

وأرسل طالباً من إميليان إعطاءه الطبل .

فقال إميليان : "ذلك غير ممكن! فقد قيل لي أن أحطمه وأرمي حطامه في النهر ."

وهكذا نزل إميليان إلى النهر حاملاً الطبل ، والجنود يتبعونه . ولما بلغ ضفة النهر ، حطم الطبل تحطيماً ، ورمى الحطام في مجرى النهر . وعندئذٍ ولّى الجنود هاربين .

فأخذ إميليان زوجته ، واصطحبها إلى كوخهما . وبعد ذلك كف الملك عن إزعاجه ، فعاش الزوجان من ثَمّ عيشة سعيدة .

سنة 1891

القسم السادس

حكايتان مقتبستان من الافرنسية

19

مقهى سورا

(مقتبسة من قصة بقلم برناردان دي سان بيار)

كان في مدينة سورا الهندية مقهى يتلاقى فيه كثيرون من المسافرين والأجنبيين الوافدين من جميع أنحاء العالم ، ويتجاذبون أطراف الأحاديث .

وذات يوم زار ذلك المقهى لاهوتيّ فارسي متعلم . وكان ذلك رجلاً قضى حياته باحثاً في طبيعة الله وقارئاً وكاتباً كتباً في هذا الموضوع . وكان قد فكر في الله وقرأ وكتب عنه كثيراً ، حتى فقد صوابه أخيراً ، واختلطت أفكاره جداً وبات لا يعتقد حتى وجود الله . وإذ سمع الشاه بذلك ، نفاه من بلاد فارس .

فبعدما حاجّ ذلك اللاهوتي التعس طول حياته حول "العلّة الاولى" ، انتهى إلى إرباك نفسه كلياً . وبدل أن يعي أنه فقد عقله ، بدأ يعتقد أن ليس من "عقل أسمى" يسيطر على الكون .

وكان لهذا الرجل عبد أفريقي يتبعه أينما ذهب . فلما دخل اللاهوتي المقهى ، بقي العبد خارجاً ، قرب الباب ، قاعداً على حجر تحت حر الشمس ، يذبّ ما طنّ حوله من ذباب . وإذ تهالك الفارسي على أريكة داخل المقهى ، طلب فنجان أفيون . فلما شربه ، وبدأ الأفيون ينشط حركة دماغه ، خاطب عبده عبر الباب المفتوح قائلاً :

"قل لي ، ايها العبد البئس : أتعتقد أن هنالك إلهاً أم لا ؟"

قال العبد : "طبعاً ، هنالك إله!" ثم سحب في الحال من تحت حزامه تمثال خشب صغيراً ، وقال :

"هوذا الإله الذي حفظني من يوم مولدي . وكل إنسان في بلدنا يعبد الشجرة المقدسة التي من خشبها صنع هذا التمثال ."

هذا الحديث بين اللاهوتي وعبده أصغى إليه بدهشة جميع نزلاء المقهى الآخرين . وقد أذهلهم سؤال السيد ، إلا أن جواب العبد أذهلهم أكثر .

وكان بينهم بَرَهميَ ما إن سمع كلام العبد حتى التفت إليه وقال :

"يا لك من غبي شقي! أيعقل أن تؤمن بأن الإله يمكن أن يحمله المرء تحت حزامه ؟ هنالك إله واحد هو ابراهما ، وهو أعظم من العالم كله ، لأنه خلقه . إن ابراهما هو الإله الواحد القدير ، وإكراماً له بُنيت المعابد على ضفاف الغانج ، حيث كُهّانه الخُلّص ، البراهمة ، يتعبّدون له . إنهم يعرفون الإله الحقيقي ، وحدهم دون سواهم . فمع أن آلاف السنين قد مرت ، وحدثت ثورة بعد أخرى ، فقد حافظ هؤلاء الكهان على حكمهم ، لأن ابراهما ، الإله الواحد الحقيقي ، قد حماهم ."

هكذا تكلم البَرَهمي ، معتقداً أن يقنع الجميع ، لكن سمساراً يهودياً من الحضور أجابه قائلاً :

"كلا! إنّ الإله الحقيقي ليس في الهند . وما كان الله ليحمي طبقة البراهمة . فالإله الحقيقي ليس إله البراهمة ، بل هو إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب . وهو لا يحمي سوى شعبه المختار قديماً ، بني إسرائيل . فمنذ بداية العالم أحب الله أُمتنا وحدها دون سواها . ولئن كنا الآن مشتّتين في انحاء العالم فذلك لامتحاننا ، لأنه وعد بجمع شملنا يوماً في مدينة القدس . يومذاك ، إذ يُستعاد بهاء الهيكل في القدس ، وهو آية العالم القديم ، تحكم أمتنا العالم كله ."

هكذا تكلم اليهودي ، وانهمرت دموعه . وهمّ بأن يضيف شيئاً ، إلا أن مرسلاً إيطالياً قاطعه ، قائلاً له :

"إن ما تقوله غير صحيح . أنتم تنسبون العدل إلى الإله . فلا يُعقل أن يحبّ أمتكم أكثر من سواها . ولئن كان قديماً قد عاملكم معاملة خاصة ، فالآن

قد مضى ألف وتسع مئة سنة منذ أغضبته أمتكم وجعلته يدمّر هيكلكم ويشتتكم في أنحاء الأرض ، بحيث إنّ دينكم لا يكسب دخلاء ، وقد تلاشى إلاّ في مواطن متفرقة . إنّ الله لا يبدي انحيازاً نحو أمة ما ، بل يدعو جميع الراغبين في النجاة إلى أحضان الكنيسة الكاثوليكية الرومانية التي لا سبيل إلى النجاة خارجها ."

هكذا تكلم الإيطالي . ولكن واعظاً بروتستانتياً ، اتفق أن كان حاضراً ، شحب وجهه والتفت إلى المرسل الإيطالي وهتف :

"كيف يمكنك أن تقول إنّ النجاة وقف على ديانتك ؟ لن ينجو إلا الذين يتعبدون لله حسب الإنجيل ، بالروح والحق ، كما أوصتنا كلمة المسيح ."

وكان بين الحضور تركي ، موظف في دائرة الجمارك بِسُورا ، وقد قعد في المقهى يدخّن غليوناً ، فالتفت إلى كلا المسيحيين بشيء من التعالي ، وقال :

"إن إيمانكما بديانتكما باطل . فقد حل محلها منذ اثني عشر قرناً الدين الحق ، دين محمد! ولا قِبَل لكما إلا بأن تلاحظا كيف ما يزال دين محمد ، الدين الحق ، ينتشر في أوروبا وآسيا كلتيهما ، ولا سيما في بلاد الصين المتنورة . أنتما أنفسكما تقولان إنّ الله قد رفض اليهود ، وبرهاناً على ذلك تشيران إلى كونهم الآن مذلين وكون إيمانهم لا ينتشر . فاعترفا إذا بحق الإسلام ، ما دام ظافراً ومنتشراً في كل مكان . لن ينجو أحد سوى أتباع محمد ، خاتم أنبياء الله . ومن هؤلاء لن ينجو سوى أتباع عمر ، لا أتباع علي ، لأن هذا زائف بالنسبة إلى الإيمان ."

على هذا أراد اللاهوتي الفارسي أن يرد ، إذ كان على مذهب علي ؛ ولكن آنذاك كان قد نشب نزاع حامٍ بين الغرباء الحاضرين المنتمين إلى أديان وملل شتى . فقد كان في الحضور مسيحيون أثيوبيون ، ولاميون من التيبت ، وإسماعيليون ، وعباد للنار . وخاضوا جميعاً جدالاً في طبيعة الله والطريقة

الواجبة للتعبّد له ، مشدداً كل منهم على أنه في بلده فقط يُعرَف الإله الحقيقي ويُعبَد عبادة صحيحة .

تجادل الجميع وتصايحوا ، ما عدا صينياً من أتباع كونفوشيوس ، ظل قاعداً في ركن من المقهى صامتاً ، يرتشف الشاي ويصغي إلى ما يقوله الآخرون دون أن ينبس ببنت شفة .

ولاحظه التركي جالساً هناك ، فناشده قائلاً :

"في وسعك ، أيها الصيني الطيب ، أن تؤيد ما أقول . إنك صامت ، ولكن إن تكلمت تدعم وجهة نظري . فإن بعض التجار من بلادكم ، ممن يقصدون إلي طلباً للمساعدة ، يقولون لي إنه رغم دخول ديانات عديدة إلى الصين تَعدّون أنتم الصينيين الإسلام أفضلها ، وتعتنقونه مختارين . فهلاّ تؤيد كلامي وتطلعنا على رأيك في الإله الحق ونبيّه ."

فالتفت الباقون إلى الصيني وقالوا : "نعم ، نعم! فلنسمع رأيك في الموضوع ."

فأغمض الصيني ، تابع كونفوشيوس ، عينيه ، وفكر حيناً . ثم عاد ففتح عينيه ، وأخرج يديه من كمّي ردائه الواسعين ، وصالبهما على صدره ، ثم مضى يقول بصوت متئد هادىء :

أيها السادة ، يبدو لي أن الكبرياء ، في الأساس ، هي ما يمنع الناس أن يتفق بعضهم مع بعض في قضايا الدين . فإن شئتم الإصغاء إلي ، أروي لكم قصة من شأنها إيضاح ذلك من طريق مثل .

لقد جئت من الصين إلى هنا على متن باخرة إنكليزية أبحرت حول العالم .

ولما أعوزنا الماء النقي ، توقفنا عند الساحل الشرقي من جزيرة سومطرا . كان النهار قد انتصف ، فإذ ترجل بعض منا قعدوا في ظل أجمة من شجر جوز الهند عند الشاطىء على مقربة من إحدى القرى المحلية .

وكنا مجموعة من الرجال ينتمون إلى جنسيات شتى .

وبينما كنا قاعدين هناك ، اقترب إلينا رجل أعمى ، علمنا في ما بعد أنه فقد بصره من جرّاء التحديق إلى الشمس طويلاً وتكراراً ، ساعياً لأن يكتشف ماهيتها لعله يقبض على نورها .

وقد كافح ذلك الرجل طويلاً لإنجاز مسعاه ، ولكن كانت النتيجة الوحيدة أن بهاء الشمس آذى عينيه فبات أعمى .

عندئذٍ قال لنفسه : "ليس نور الشمس سائلاً . فلو كان سائلاً ، لأمكن سكبه من إناء لإناء ، ولحرّكته الريح كما تُحرّك الماء . وليس هو ناراً . فلو كان ناراً لأطفأه الماء . وما النور بروح ، لأنّ العين تراه . ولا هو مادّة ، لأنّه لا يمكن أن يُنقل . وعليه ، فبما أنّ نور الشمس ليس سائلاً ، ولا ناراً ، ولا روحاً ، ولا مادة ، فهو إذاً لا شيء!"

هكذا جادل الرجل وحاجّ . ومن جراء إدامة النظر إلى الشمس والمداومة على التفكير فيها ، فقد بصره وبصيرته كليهما . ولما عمي كلياً ، اقتنع تماماً بأن الشمس غير موجودة .

وكان في صحبة ذلك الأعمى عبد اقعده في ظل شجرة جوز هند ، ثم التقط جوزة عن الارض وشرع يصنع منها سراجاً للّيل . فضفر فتيلة من ألياف الجوزة ، ثم عصر من الجوزة زيتاً في قشرتها وغمس الفتيلة فيها .

وبينما قعد العبد يصنع السراج ، تنهد الأعمى وقال له :

"يا عبداه ، أما كنتُ مصيباً لما قلت لك إنّ الشمس غير موجودة ؟ ألا ترى الظلام كم هو دامس ؟ ومع ذلك يقول الناس إنّ ثمة شمساً . فإن كان ذلك كذلك ، فما هي ؟"

فقال العبد : "لست أدري ما الشمس . فليس هذا من شأني . ولكنني أعرف ما النور . فها أنا قد صنعت سراجاً أستعين به على خدمتك وعلى وجدان ما أبتغيه في الكوخ ."

ثم التقط العبد قشرة جوزة الهند ، وقال : "هذه شمسي!"

وسمع ذلك رجل أعرج يستعين بعكّازين ، كان قاعداً على مقربة من الأعمى وعبده ، فضحك وخاطب الأعمى قائلاً :

"واضح أنك أعمى منذ ولادتك ، إذ لا تعرف ما الشمس . فسأقول لك أنا ما هي . إنّ الشمس كرة من نار ، تطلع كل صباح من البحر وتغيب كل مساء

بين جبال جزيرتنا . ونحن جميعاً نراها ، ولو كان لك بصرك ، لرأيتها أنت أيضاً ."

وكان صياد سمك يصغي إلى الحديث ، فقال :

"بيّنٌ أنك لم تخرج يوماً من هذه الجزيرة . فلو لم تكن أعرج ، ولو كنت خرجت إلى عُرض البحر في قارب صيد ، لتعلمتَ أن الشمس لا تغيب بين جبال جزيرتنا هذه ، ولكنها كما تطلع كل صباح من المحيط كذلك تعود فتغيب كلّ ليلة في البحر . وما أقوله لك هو حقّ ، لأني أراها كلّ يوم بعينيّ هاتين ."

عندئذٍ قاطعه هنديّ كان مسافراً معنا ، فقال :

"يذهلني أنّ رجلاً عاقلاً مثلك ينطق بهذا الهُراء . فكيف يُعقل أنّ كرةً من نار تهبط في الماء ولا تنطفىء ؟ ليست الشمس كرة نار البتّة ، بل هي الإله المسمّى ديفا الراكب أبداً في عربةٍ حول الجبل الذهبيّ ميرو . وكلّما هاجمت الحيّتان الشرّيرتان راغو وكيتو ديفا وابتلعتاه ، تغرق الأرض في الظلام . ولكنّ كهّاننا يصلّون طالبين إطلاق سراح الإله ديفا ، فيُطلق . إنّ الجهّال وحدهم ، أمثالكما ، ممّن لم يغادروا جزيرتهم قطّ ، يتصوّرون أنّ الشمس تشرق لأجل بلادهم فقط ."

عندئذٍ تكلّم ربّان سفينة مصريّة كان حاضراً ، قال :

"كلاّ! أنت أيضاً مخطىء . فليست الشمس إلهاً ، وهي لا تدور فقط حول الهند وجبلها الذهبيّ . وأنا قد أبحرت كثيراً في البحر الأسود ، وعلى طول شواطىء بلاد العرب ، وقد ذهبت إلى مدغشقر والفيليبين .

"إنّ الشمس تضيء الأرض كلّها ، لا الهند وحدها . وهي لا تدور حول جبل واحد ، بل تشرق في أقصى الشرق ، ما وراء جزر اليابان ، وتغيب في أقاصي الغرب ، ما وراء الجزر الإنكليزية . لهذا السبب يدعو اليابانيون بلادهم "نيبون" أي "مولد الشمس" . إنني أعرف هذا جيداً ، لأنني شاهدت الكثير ، وسمعت من جدّي أكثر ، وهو قد أبحر إلى أقاصي البحر ."

وكاد يستأنف كلامه ، لولا أن قاطعه بحّار إنكليزيّ من سفينتنا قائلاً :

"ليس في العالم بلد يعرف أهله عن حركات الشمس بمقدار ما يعرفه الإنكليز . فالشمس ، كما يعلم كلّ إنسان في إنكلترا ، لا تطلع من أي مكان ولا تغيب في أي مكان . فهي تدور دائماً حول الأرض . وفي وسعنا نحن أن

نتيقّن بهذا لأننا آتون توّاً من جولة حول الأرض ، ولم نصطدم بالشمس في أي مكان . فأينما ذهبنا ، كانت الشمس تبرز في الصباح وتختفي في المساء ، كحالها هنا تماماً ".

ثمّ تناول الإنكليزيّ عصاً ، فرسم دوائر على الرمل ، وحاول أن يشرح حركة الشمس في السماوات ومدارها حول العالم . لكنه أخفق في شرح ذلك بوضوح ، فأشار إلى ربّان السفينة وقال :

"هذا الرجل يعرف عن الموضوع أكثر ممّا أعرف . ففي وسعه أن يشرح الأمر جيداً ".

وكان الربّان ، وهو ذكيّ ، قد أصغى صامتاً إلى الحديث حتى طُلب إليه أن يتكلّم . فالتفت إليه الجميع ، ومضى يقول :

"أنتم جميعاً تُضلّلون بعضكم بعضاً ، وكلكم على ضلال . إن الشمس لا تدور حول الأرض ، بل الأرض تدور حول الشمس ، وهي تغزل في دورانها وتَعرّض لنور الشمس في غضون كلّ أربع وعشرين ساعة ، ليس فقط اليابان والفيليبين وسومطرا ، حيث نحن الآن ، بل أيضاً أفريقيا وأوروبا وأميركا ، وبلداناً كثيرة أخرى . ولا تشرق الشمس على جبل واحد ، أو على جزيرة واحدة ، أو على بحر واحد ، ولا أيضاً على الأرض وحدها ، بل أيضاً على كواكب أخرى فضلاً عن أرضنا . فلو نظرتم فقط إلى السماوات فوقكم ، بدلاً من النظر إلى الأرض تحت أقدامكم ، لفهمتم جميعاً هذا الأمر ، وما عدتم بعد تفترضون أن الشمس تشرق لأجلكم فقط ، ولا لأجل بلدكم وحده ".

هكذا تكلم الربان الحكيم ، وكان قد سافر كثيراً إلى أنحاء العالم ، وأكثر من التحديق إلى السماوات في الأعالي .

ثمّ أردف الصيني ، تابع كونفوشيوس ، يقول :

"هكذا الحال في مسائل الدين : فالكبرياء هي ما يدفع إلى الضلال والخلاف بين الناس . وكما نحن من الشمس ، فكذلك نحن من الله . فكل إنسان يبتغي أن يتخذ له إلهاً خاصاً به ، أو على الأقل إلهاً خاصاً ببلد آبائه . وكل أمّة ترغب في أن تحصر داخل معابدها ذاك الذي لا يمكن أن يسعه العالم كلّه .

"أيمكن أن يُقارَن أي معبدٍ بما بناه الله نفسه ليوحّد جميع البشر في إيمان واحد ودين واحد ؟

"إن جميع المعابد البشرية مبنيّةٌ على طراز هذا المعبد الذي هو عالم الله الخاصّ . فلكلّ معبد مراحِضُه وقبابه ومصابيحه ، وصوره أو تماثيله ، ونقوشه وكتبه الشرعية ، وقرابينه ومذابحه وكهنته . ولكن في أي معبد مرحضةٌ كالمحيط ، أو قبّةٌ كالسماوات ، أو مصابيح كالشمس والقمر والنجوم ، أو تماثيل تُقارَن بالبشر الأحياء المتحابين المتعاونين ؟ وأين نجد اية سجلاّت لصلاح الله يسهل فهمها مثل البركات التي نشرها الله في طول الكون وعرضه لأجل سعادة الإنسان ؟ وأين نجد أي كتاب شريعة واضح لكل إنسان مثل ذاك المكتوب في قلبه ؟ وأية تضحيات مثل أفعال نكران الذات التي يسديها الرجل والنساء المُحِبّون بعضهم إلى بعض ؟ وأي مذبح تمكن مقارنته بقلب الإنسان الطيب الذي عليه يقبل الله نفسه الأضاحي او القرابين ؟

"وكلّما ارتقى إدراك الإنسان لله ، تحسنت معرفته له . وكلّما عرفه أفضل ، ازداد إليه قرباً ، مقتدياً بصلاحه ورحمته ومحبته للبشر .

"إذاً على الذي يرى نور الشمس كله مالئاً العالم أن يكفّ عن لوم صاحب الخرافات ، أو عن احتقاره ، ولو رأى هذا في تمثاله الخاص شعاعاً من ذلك النور نفسه ؛ وألاّ يحتقر حتى غير المؤمن الذي هو أعمى ولا يقدر أن يرى الشمس البتّة ."

هكذا تكلم الصيني ، تابع كونفوشيوس . فصمت جميع من كانوا في المقهى ، وكفّوا عن المجادلة في موضوعهم : ديانة مَن هي الفضلى .

سنة 1893

20

غالٍ جداً!

(مقتبسة بتصرّف من قصّة بقلم غي دي موباسان)

قرب حدود فرنسا وإيطاليا ، على ساحل المتوسط ، مملكة صغيرة جداً اسمها موناكو . ويمكن لأية مدينة صغيرة في الريف أن تباهي هذه المملكة بعدد سكانها ، إذ ليس فيها إلاّ سبعة آلاف نسمة يشملهم الإحصاء جميعاً . ولو وزّعت جميع أراضي المملكة على سكانها ، لما حصل الواحد منهم على فدّان واحد . إلاّ أن لهذه المملكة الدمية ملكاً حقيقياً ، وله قصر وحشم وخدم ، ومطران وقادة وجيش .

ما كان جيشاً كبيراً ، إذ يبلغ عديده ستين رجلاً فقط ، غير أنه جيش رغم ذلك . وفي هذه المملكة ضرائب أيضاً ، شأنها شأن سائر الممالك ، منها ضريبة على التبغ ، وعلى الخمرة والمسكر ، وضريبة رؤوس . ولئن كان أهل هذه المملكة يشربون ويدخّنون كأهل مختلف البلدان ، فعدد هؤلاء قليل جداً بحيث إن الملك كان من شأنه أن يلقى كبير عناء في إطعام خدامه وموظفيه وإعالة نفسه لو لم يعثر على مصدر للدّخل جديد وفريد . فهذا الدخل الخاص يأتي من بيت للمقامرة ، حيث يلعب الناس الروليت . وسواء ربح اللاعبون أو خسروا ، فإن المدير يحصل دائماً على نسبة مئوية لقاء حركة اللعب ، ومن أرباحه يؤدي إلى الملك قسطاً وافياً . أما سبب تأديته مبالغ ضخمة فعائد إلى كون ذلك البيت هو مؤسسة الميسر الوحيدة الباقية من نظائرها في أوروبا . وكان بعض الملوك الألمان الصغار يرعون بيوتاً للميسر من هذا النوع ، إلا أنهم منعوا ذلك منذ بضع سنين . وقد كان سبب إقفال تلك البيوت ما جرّته من ضرر

بالغ . فكان أحدهم يأتي ويجرب حظه ، ثم يراهن على كل ما يملكه فيخسره ، ومن ثم يعمد إلى المقامرة بمال لا يخصه فيخسر ذلك أيضاً ، وبعدئذٍ يدفعه اليأس إلى الانتحار بإغراق نفسه أو بإطلاق النار على نفسه . وهكذا منع الألمان حكامهم أن يكسبوا المال من هذا السبيل . إلاّ أن أحداً لم يعمد إلى وقف ملك موناكو ، فظل يحتكر هذا الشغل .

وعليه ، فمتى شاء امرؤ أن يقامر ، كان يقصد إلى موناكو . وسواء ربح اللاعبون أو خسروا ، فالملك يربح من ذلك دائماً . وعلى ما يقول المثل : "القصور المنيفة لا تبنى بالأعمال الشريفة" ، فقد كان ملك موناكو يعلم أن ذلك الشغل غير شريف ، ولكن ماذا يمكنه ان يفعل ؟ كان ينبغي أن يسترزق ليعيش ، وكسبُ دخل من المسكر والدخان غير لائق أيضاً . ومن جرّاء ذلك تيسر له أن يعيش ويملك ويجرف المال جرفاً ، ويرعى بلاطه بأبّهة الملك الحقيقيّ كلها .

وهكذا كان له تتويجه واستقبالاته ومكافآته وأحكامه وإعفاءاته ، كما كان له مراجعاته ومجالسه ومحاكمه وقوانينه ، مثله مثل سائر الملوك ، إنما على قياس أصغر فحسب .

وحدث منذ بضع سنين أن ارتكِبت جريمة في أرباض هذه المملكة الدمية . وكان أهلها مسالمين ، وما سبق أن وقع شيء من ذلك قبلاً . فاجتمع القضاة بكثير من الأبهة والمهابة ، ونظروا في القضية بأعدل طريقة ممكنة . وقد حضر ، فضلاً عن القضاة ، مدّعون ومُحلّفون ومحامون . فجرى نقاش ومداولة ، حتى حُكم على المجرم بقطع رأسه عملاً بالقانون . وسار كل شيء حسناً حتى هذا الحد ، ثم سلّم الملك خلاصة الحكم . فقرأ الملك الحكم ووقّعه قائلاً : "إن كان ينبغي إعدام الرجل ، فليُعدَم ."

إنما كان في القضية عقدة واحدة ، ألا وهي أنهم لم يكونوا يملكون

مقصلة لقطع الرؤوس ولا جلاّداً لتنفيذ الحكم . فنظر الوزراء في المسألة ، وقرّروا أن يبعثوا إلى الحكومة الافرنسية بطلب لإعارتهم آلةً وخبيراً لقطع رأس المجرم ، على أن يُعلِمهم الافرنسيون بكلفة ذلك . فأُرسِلت رسالة في الموضوع ، وبعد أسبوع جاء الجواب : إن توفير آلة وخبير أمر ممكن ، وكلفته ستة عشر ألف افرنك . وبَلّغ الملك الجواب . ففكر في الأمر ملياً ، واستغلى الكلفة ، وقال : "إن هذا البئِس لا يستحق ستة عشر ألف افرنك! أليس من سبيل لتنفيذ الإعدام بثمنٍ أرخص ؟ عجباً ، إن هذا المبلغ يساوي أكثر من افرنكين على الرأس بالنسبة إلى عدد السكان كلهم . فلن يتحمل الشعب ذلك ، وقد يثير الأمر شغباً أو ثورة!"

فعقِد مجلس تشاوُر للتفكير في ما يمكن القيام به ، وتقرر إرسال طلب مماثل إلى ملك إيطاليا . فالحكومة الافرنسية جمهورية ، وليس لديها احترام وافٍ للملوك ، ولكن ملك إيطاليا عاهل أخ ، فلعله يَحمِل على طلب ثمن أرخص . فكُتبت رسالة ثانية ، ثم رجع الجواب سريعاً .

ذلك ان الحكومة الإيطالية عبّرت عن سرورها بتوفير آلة وخبير معاً ، بكلفة إجمالية قدرها اثنا عشر ألف افرنك ، بما فيها نفقات السفر . وقد كان هذا السعر أرخص ، إلاّ انه بدا غالياً جداً ، رغم ذلك . فالوغد لا يستحق هذا المبلغ فعلاً ؛ وما زال ذلك يعني زيادة افرنكين على الرأس فوق الضريبة المفروضة على السكان أجمعين . ومن ثم عُقد اجتماع آخر للتشاور . وجرى التفكّر والتدبّر للاهتداء إلى سبيل لتنفيذ الإعدام بكلفة أدنى . ألعل واحداً من أفراد الجيش يَكلَف تنفيذ المهمة بطريقة محلية ولو قاسية ؟ فاستدعي قائد الجيش وسئل : "ألا تستطيع أن تعثر لنا على عسكري يقطع رأس هذا الرجل ؟ ففي الحرب لا يجد العسكر حَرَجاً في قتل الناس . بل إنهم على هذا قد تدرّبوا فعلاً!" وهكذا كلّم القائد جنوده في الأمر ليرى هل بينهم من يتولى المهمة . غير أن أحداً منهم لم يقبل تنفيذ المهمة ، بل قالوا : "كلاّ! لسنا

نعرف كيف نفعل هذا . فليس هو أمراً تعلّمناه ."

إذاً ، ما العمل ؟ ومرة أخرى تفكّر الوزراء وتدبّروا . إذ عقدوا جلسة ، وألفوا لجنة عليا ثم لجنة صغرى . وأخيراً قرّروا أن يستبدلوا بحكم الإعدام حكماً بالحبس مدى الحياة . فمن شأن ذلك أن يمكّن الملك من إبداء الرحمة ، وهو أمر أقل كلفة .

ثم وافق الملك ، وحُسِمت المسألة . إنما كانت العقدة الوحيدة الآن عدم وجود سجن موافق لحبس رجل مدى حياته . كان في المملكة سجن صغير يُحتَجز فيه المتهمون وقتياً ، ولكن لم يكن فيها سجن قويّ مناسب للاستعمال الدائم . إلاّ أن المسؤولين وُفّقوا إلى العثور على مكان يفي بالغرض ، فحبسوا الشاب فيه وأقاموا عليه حارساً . وكان على الحارس أن يراقب السجين ، وأيضاً أن يأتي إليه بالطعام من مطبخ القصر .

بقي السجين هنالك شهراً بعد شهر ، حتى انقضى عام . ولكن بعد انقضاء السنة ، راجع الملك حساب دخله ومصروفه ذات يوم ، فلاحظ بند إنفاق جديداً يخص حبس المجرم . وما كان المبلغ المنفق يسيراً . فهناك أجرة الحارس الخاص ، وأيضاً نفقة طعام السجين ؛ وقد بلغ ذلك ست مئة افرنك في سنة واحدة . والأسوأ أن الرجل كان ما يزال شاباً جيّد الصحة ، فربما عاش خمسين سنة أخرى . فإذا حسبت الكلفة الإجمالية ، تبين أن المسألة جديّة ، والكلفة باهظة . عندئذٍ استدعى الملك وزراءه وقال لهم :

"ينبغي أن تجدوا طريقة أرخص للتعامل مع هذا الوغد . فالخطة الحالية باهظة الكلفة ."

فاجتمع الوزراء وتفكّروا وتدبّروا ، إلى أن قال واحد منهم : "يا سادة ، ارى أن علينا طرد المجرم ."

فبادر آخر قائلاً : "ولكن الرجل يهرب حينئذٍ؟

أجاب المتكلم الأول : "حسناً ، ليهرب ، فنستريح منه!"

ثم بلّغوا الملك نتيجة مداولتهم ، فوافق . فطردوا الحارس ، وانتظروا ما يكون . وكان كل ما جرى أن المجرم خرج في وقت الغداء ، وإذ لم يجد حارسه توجّه بنفسه إلى مطبخ الملك ليُحضِر غداءه . فأخذ ما قُدّم له ، وعاد إلى السجن ، وأغلق وراءه الباب ، وقبع في الداخل . وفي اليوم التالي جرى مثل ذلك أيضاً ، إذ ذهب لإحضار غدائه في حينه ؛ أما الهرب فلم يبْدِ أدنى اهتمام به! تُرى ، ما العمل ؟ من جديد نظر الوزراء في الأمر . وقالوا :

"ينبغي لنا أن نُعلِمه بالأمر صراحة ، حتى يفهم أننا لا نريد إبقاءه محبوساً ."

فطلب وزير العدل أن يُؤتى به . ولما مثل أمامه ، قال له :

"لماذا لا تهرب ؟ ليس من حارس فيمنعك . في وسعك أن تذهب حيثما تشاء ، ولن يسوء ذلك الملك!"

لكنّ الرجل أجاب : "أرى أن الملك لن يستاء . ولكن لا مكان لي فأذهب إليه . فماذا أفعل ؟ لقد دمّرتم شخصيتي بحكمكم ، وسوف يُوليني الناس اقفيتهم . ثم إنني تنكّبتُ عن طريق العمل . لقد أسأتم معاملتي . وليس في هذا إنصاف . كان أولى من البدء أن تعدموني لمّا حكمتم عليّ بالموت ، غير أنكم توانيتم عن ذلك . وهذا أمر لم أشكّ منه . ثم حكمتم عليّ بالسجن المؤبّد وعيّنتم حارساً يأتيني بالطعام . لكنكم بعد مدة عزلتموه ، فكان عليّ إحضار طعامي بنفسي . ومن هذا أيضاً لم أشكُ . ولكنكم الآن تريدون مني أن أهرب فعلاً! فلا يمكنني أن أقبل هذا . لكم أن تفعلوا ما شئتم ، إلاّ أنني لن أهرب!"

إذاً ، ما العمل ؟ مرّة أخرى انعقد المجلس . فأيّ نهج ينهجون ؟ إن الرجل لن يذهب . فتفكروا وتدبّروا ، وإذا الطريقة الوحيدة للتخلص منه هي إعطاؤه معاش تقاعد . ثم أعلموا الملك قائلين : "ليس من سبيل آخر . فعلينا

التخلص منه بأية طريقة ." وهكذا قرّ الرأي على منحه ست مئة افرنك في السنة . فاستدعَوه وبلّغوه ، فقال :

"طيب! لا مانع عندي ، ما دمتم تتولّون دفع معاشي بانتظام . بهذا الشرط أوافق على الرحيل ."

وهكذا سُوّيت المسألة . فقبض ثلث معاشه السنوي مقدماً ، وغادر أراضي الملك . وقد سافر بالقطار نصف ساعة فقط ، فهاجر واستقر عبر الحدود رأساً ، حيث اشترى قطعة أرض ، وبدأ يزرع ليبيع ، وبات يعيش راضياً مستريحاً . وكان يذهب في الموعد لقبض تقاعُده . فإذا أخذ ماله ، يقصد طاولات القمار ، ويراهن بافرنكين أو ثلاثة ، فيربح أحياناً ويخسر أحياناً ، ثم يعود إلى بيته ، عائشاً في سلام ودعة .

أوليس من الخير أنه لم يرتكب جريمته في بلد لا يضنّ مسؤولوه بالنفقة المترتبة على قطع رأس المجرم ، أو على إبقائه سجيناً طول عمره ؟

سنة 1897

القسم السابع

قصص تهدف إلى معونة المضطهدين

21

أسرحدون، ملك أشور

غزا الملك الأشوري ، أسرحدون ، مملكة الملك لايلي فقهرها ، وخرّب المدن واحرقها ، وساق جميع سكانها أسرى سباهم إلى بلده ، حيث قتل المحاربين ، وقطع رؤوس بعض القوّاد وخوزق الآخرين أو سلخ جلودهم ، وحبس الملك لايلي نفسه في قفص .

وبينما الملك أسرحدون مضطجع ذات ليلة في سريره يفكر كيف ينبغي له أن يُعدِم لايلي حياته ، إذ سمع خشخشة قرب السرير ، ففتح عينيه وإذا به يرى شيخاً شائب اللحية طويلها ، ذا عينين رقيقتين .

وبادر الشيخ الملك قائلاً : "اتنوي إعدام الملك لايلي ؟"

فأجاب الملك : "نعم ، ولكنني لا أستطيع أن أقرر كيف!"

قال الشيخ : "ولكنك أنت لايلي!"

أجاب الملك : "هذا غير صحيح . فلايلي هو لايلي ؛ وأنا أسرحدون" .

قال الشيخ : "أنت ولايلي واحد . لكنك فقط تظن أنك لست لايلي ، وأن لايلي ليس أنت ."

قال الملك : "ماذا تعني بهذا ؟ هأنذا هنا مضطجع على سرير ليّن وحولي عبيد وإماء مطيعون ، وغداً سأقيم وليمة مع أصدقائي كما فعلت اليوم . أما الملك لايلي فقابع كالعصفور في قفص ، وغداً سيُعدَم بالخازوق ، حيث يندلق لسانه ويظل يتعذب حتى يموت ، وستنهش جسده الكلاب ."

فقال الشيخ : "لن تستطيع إعدامه حياته!"

أجاب الملك : "وماذا تقول في أولئك المحاربين الأربعة عشر ألفاً الذين قتلتهم وبنيت من جثثهم تلاً ؟ أنا حي ، أما هم فزالوا . ألا يبرهن هذا أنني أستطيع أن أعدم الناس حياتهم ؟"

"وما يدريك أنهم زالوا من الوجود ؟"

"لأنني ما عدت أراهم . ثم إنهم أصلاً عذّبوا ، أما أنا فما . لقد لقوا سوء المصير ، أما أنا فما زلت بخير ."

"ذلك أيضاً يبدو لك أنت فقط . إنك عذبت نفسك وما عذبتهم هم ."

فقال الملك : "لست أفهم ما تقول ."

"أتودّ أن تفهم ؟"

"نعم ، أود ."

فقال له الشيخ : "إذاً تعال إلى هنا ." مشيراً إلى مرحضة كبيرة ملآنة ماء . فقام الملك واقترب من المرحضة .

"اخلع ثيابك وانزل في الماء ."

وفعل أسرحدون كما أمره الشيخ .

فملأ الشيخ دورقاً من الماء ، وقال للملك : "حالما أبدأ بسكب هذا الماء عليك ، فغطّس رأسك!"

وأمال الشيخ الدورق فوق رأس الملك ، فحنى الملك رأسه حتى غمره الماء ."

وما إن غمر الماء أسرحدون حتى شعر بأنه لم يعد هو أسرحدون ، بل صار شخصاً آخر . وإذ شعر بأنه ذلك الشخص الآخر ، رأى نفسه مستلقياً على سرير فاخر بقرب امرأة جميلة لم يسبق له أن رآها ، ولكنه علم أنها زوجته . فاعتدلت المرأة وقالت له :

"يا زوجي العزيز لايلي! لقد أتعبك عمل أمس ، ونمت أطول من المعتاد ، وأنا حرصت على راحتك فلم أوقظك . لكن الآن ينتظرك الأمراء في القاعة الكبيرة ، فارتد ثيابك واخرج لمقابلتهم ."

وإذ فهم أسرحدون من هذا الكلام أنه كان لايلي ، ولم يشعر قط بأية مفاجأة حيال ذلك ، بل عجب فقط من كونه لم يتنبه إلى الأمر من قبل ، نهض ولبس ثيابه ، ودخل القاعة الكبير ، حيث كان الأمراء ينتظرونه .

حيّا الأمراء لايلي مليكهم ، حانين رؤوسهم إلى الأرض ، ثم قاموا ، وإذ أومأ إليهم قعدوا قبالته . وبدأ الأكبر سناً بينهم يتكلم فقال إنه لم يعد ممكناً بعد تحمل إهانات الملك الشرير أسرحدون ، وإن عليهم أن يشنّوا عليه حرباً . ولكن لايلي لم يوافق ، بل أصدر أوامره بإرسال سفارة إلى الملك أسرحدون للاحتجاج لديه ، ثم طرد الأمراء من مجلسه . وبعد حين عيّن من بين الوجهاء سفراء ، وأوصاهم مشدّداً بما ينبغي أن يقولوه للملك أسرحدون .

وبعدما أنهى أسرحدون هذا العمل ، وهو يظن نفسه لايلي ، خرج لاصطياد حُمر الوحش . ووُفّق في رحلة الصيد ، إذ قتل بنفسه حمارين وحشيين . ثم رجع إلى قصره ، وأقام وليمة مع أصحابه ، وشهد رقص بعض جواريه . وفي الغد ذهب إلى محكمة بلاطه ، حيث كان ينتظره مقدّمو العرائض والمدعون والسجناء المجلوبون للمحاكمة ، وهناك فصل في الدعاوي المرفوعة إليه كالعادة . ولمّا فرغ من هذا العمل ، انطلق من جديد إلى تسليته الأثيرة ، ألا وهي الصيد . وهذه المرّة أيضاً وُفّق إلى قتل لبؤة هرمة وأسر شبليها . وبعد الصيد أولم من جديد لأصحابه ، وتسلّى بالغناء والرقص ، ثم بات ليلته قرب زوجته المحبوبة .

وهكذا ، إذ وزّع وقته بين الشؤون الملكية ولذّات الملوك ، قضى أياماً وأسابيع ينتظر عودة سفرائه الذين سبق أن أرسلهم إلى الملك أسرحدون الذي

كان هو إياه في ما مضى . ولم يرجع السفراء إلا بعد انقضاء شهر ، وقد عادوا مجدوعي الأنوف ومصلومي الآذان .

وكان الملك أسرحدون قد أوصاهم بأن يقولوا للايلي إن ما صُنِع بهم ، هم السفراء ، سوف يُصنَع بالملك لايلي نفسه ، إلا إذا أرسل في الحال جزية من الفضة والذهب وخشب السرو ، وجاء هو نفسه يعلن خضوعه للملك أسرحدون .

فجمع لايلي ، أي أسرحدون سابقاً ، أمراءه من جديد وتشاور معهم في العمل الواجب ، فأجمعوا جميعاً على أنه يجب شن الحرب على أسرحدون ، دون انتظاره ريثما يهاجمهم . ووافق الملك ؛ ثم شغل منصبه قائداً أعلى لجيشه ، وباشر حملته .

دامت الحملة سبعة أيام ، وكان الملك كل يوم يمتطي جواده ويطوف بين المقاتلين يبث الشجاعة فيهم . وثامن يوم واجه جيشه جيش أسرحدون في وادٍ عريض يجري فيه نهر . فحارب جيش لايلي ببسالة ، ولكن لايلي ، أي أسرحدون سابقاً ، رأى جيش العدو ينحدر من الجبال عاجّاً كالنمل ، مندفعاً في جميع أنحاء الوادي وكاسحاً جيشه ؛ فانطلق بمركبته إلى قلب المعركة ومضى يحصد رؤوس الأعداء ويطوّحها . غير أن محاربي لايلي كانوا يُعَدّون بالمئات ، فيما كان جيش أسرحدون يُعَدّ بالآلاف . ورأى لايلي نفسه جريحاً يساق أسيراً . وقد ارتحل تسعة أيام مع سائر الأسرى ، مقيّداً يحرسه رجال أسرحدون . ثم وصل إلى نينوى في اليوم العاشر ، حيث حُبس في قفص . ولم تكن معاناة لايلي من جرّاء الجوع والإصابة لتذكر حيال مكابدته الخزي والغيظ المكظوم . وقد شعر بعجزه الشديد عن الانتقام من عدوّه لكل ما قاساه . إنما كان كل ما استطاعه حرمان أعدائه لذة رؤية عذابه ؛ فقد عقد عزمه ثابتاً على أن يحتمل بمنتهى الشجاعة ، ودون أدنى دمدمة ، كل ما شاؤوا إنزاله به . وقبع في قفصه عشرين يوماً ، ينتظر إعدامه . وقد شاهد أقرباءه وأصدقاءه يُساقون

إلى الموت ، ومنهم من قُطعت أيديهم وأرجلهم ، ومن سُلخوا أحياء ، إلا أنه لم يَبدِ قلقاً ولا رثاء ولا وجلاً . وشاهد زوجته التي أحبها مقيدة يجرها خَصِيّان أسودان ، فعلم أنها تُساق أمَة إلى أسرحدون . وهذا أيضاً احتمله بلا أدنى دمدمة . ولكن أحد الحرس المقامين على حراسته قال : "إني أرثي لحالك يا لايلي ؛ لقد كنت ملكاً ، ولكن أين أنت الآن ؟" فإذ سمع لايلي هذه الكلمات ، تذكّر كل ما خسره . فتشبث بقضبان قفصه وراح يخبط رأسه بها لعله يقتل نفسه . لكن قوته خانته ، فلم يستطع ، فأنّ يائساً ، وهوى على أرضية قفصه .

أخيراً فتح باب قفصه جلاّدان ، وشدا وثاق يديه خلف ظهره ، ثم جرّاه إلى ساحة الإعدام المضرجة بالدماء . وشاهد خازوقاً حاداً يتقطر منه الدم ، وكانت أشلاء أحد أصحابه قد نُزعت عنه تواً ، فأدرك حالاً أن ذلك قد أُجري لإعداد الخازوق لإعدامه هو . ثم عرّى الجلادان لايلي ، فأذهله ضمور جسمه الذي كان قوياً وجميلاً في ما مضى . وأمسك الجلادان بذلك الجسم من فخذيه الهزيلتين ، ورفعاه ، وهمّا بأن يفلتاه فوق الخازوق الرهيب .

عندئذٍ ومضت في رأسه فكرة الموت المحقّق ، ونسي تصميمه على البقاء هادئاً حتى النهاية ، ثم طفق ينتحب ويلتمس الرحمة . ولكن لم يصغ إليه أحد .

ففكر برأسه : "لكن هذا غير معقول! يقيناً أنني نائم ، وهذه أضغاث أحلام ." وبذل جهداً للاستيقاظ ، فاستيقظ فعلاً ليجد أنه ليس أسرحدون ولا لايلي ، بل حيوان من نوع ما . وقد أذهله أنه كان حيواناً ، كما أذهله أيضاً ألا يكون قد تنبه إلى ذلك من قبل .

ألفى نفسه يرعى في وادٍ ، منتزعاً العشب الطري بأسنانه ، وذاباً عنه الذّبان بذنبه الطويل . وقد كانت تسرح وتمرح حوله جحشة طويلة القوائم ، رمادية داكنة ، مخططة الظهر ، ما لبثت أن رفست بقائمتيها الخلفيتين ، ثمّ راحت تعدو بأقصى سرعتها صوب أسرحدّون ، وإذ وكزته تحت معدته بخطمها

الأملس الصغير ، شرعت تبحث عن الحلمة حتى وجدتها ، فهدأت وجعلت ترتضع . فأدرك أسرحدون أنه كان أتاناً ، هي أم تلك الجحشة ، الأمر الذي لم يفاجئه ولا أحزنه أيضاً ، بل آتاه بالأحرى سروراً . ذلك أنه اختبر شعور رضى بالحياة المتزامنة فيه وفي صغيرته .

ولكن فجأة طار شيء قريباً ، فأحدث صفيراً حاداً وأصابه في جنبه ، واخترق برأسه المسنون جلده ولحمه . وإذ سرى ألم حارق في بدن أسرحدون - وهو في الوقت عينه الأتان المرضع - سحب الضرع من بين أسنان الجحشة ، وأمال أذنيه إلى الوراء ، وأخذ يعدو إلى السرب الذي كان قد ضل عنه . وجارته الجحشة راكضة إلى جانبه . ولم يكادا يلتحقان بالسرب الذي كان قد انطلق ، حتى أصاب الجحشة في رقبتها سهم آخر شديد الانطلاق ، فاخترق جلدها وارتزّ في لحمها مهتزاً . فراحت الجحشة تنشج وتبكي بكاء يَرثى له ، ثم خرّت على ركبها . ولم يستطع أسرحدون أن يتخلى عنها ، بل بقي واقفاً فوقها . ثم نهضت ، وترنّحت على سيقانها الطويلة الهزيلة ، ثم هوت من جديد . وإذا بمخلوق ذي رجلين اثنتين ، أي إنسان ، يهرع نحوها ويحزّ نحرها .

إذ ذاك فكر أسرحدون برأسه : "هذا أمر غير معقول . إنه ما زال حلماً!" ثم بذل جهداً أخيراً للاستيقاظ ، وهو يقول لنفسه : "يقيناً لست أنا لايلي ، ولا الجحشة ، بل أنا أسرحدون!"

ثم زعق زعقة حادة ، وفي الوقت عينه رفع رأسه خارج المرحضة . . . وإذا الشيخ واقف بقربه ، يسكب على رأسه آخر نقاط الدورق .

فقال أسرحدون : "آه ، ما أرهب ما عانيت! وكم عانيت طويلاً!"

أجابه الشيخ : "طويلاً ؟ إنك ما زدت على أن غطّست رأسك في الماء ورفعته ثانية . انظر! هوذا الماء لم يفرغ كله من الدورق . فهل فهمت الآن ؟"

لم يُجِر أسرحدون جواباً ، بل اكتفى بأن نظر إلى الشيخ مذعوراً .

فاردف الشيخ يقول :

"هل فهمت الآن أن لايلي هو انت ، وأن المحاربين الذين قتلتهم كانوا هم انت أيضاً ؟ وليس المحاربون وحدهم ، بل أيضاً الحيوانات التي قتلتها وأنت تصطاد ، ثم أكلتها في ولائمك ، كانت هي أنت أيضاً . كنت تظن ان الحياة مقيمة فيك وحدك ، ولكنني أمطتُ عن وجهك حجاب الوهم ، وجعلتك ترى انك بالإساءة إلى الآخرين أسأت إلى نفسك . فالحياة واحدة في الجميع ، وما حياتك سوى جزء من هذه الحياة الواحدة المشتركة . وبجزء الحياة ذاك الذي يخصك فقط تستطيع أن تجعل الحياة إما أحسن وإما أسوأ ، فتزيدها أو تنقصها . وأنت تستطيع فقط أن تحسّن الحياة في ذاتك بتقويض الحواجز التي تفصل حياتك عن حياة الآخرين ، وباعتبار الآخرين كاعتبارك لنفسك ، وبمحبتهم . وإذ تفعل ذلك تزيد حصتك من الحياة . وإنك لَتؤذي حياتك إذ تفكر فيها كما لو كانت هي الحياة الوحيدة ، وتحاول أن تزيد رفاهتها على حساب الحيوات الأخرى . فبفعلك هذا إنما تُضائلها فحسب . فأن تبيد الحياة التي في الآخرين أمر خارج نطاق طاقتك . وحياة أولئك الذين قتلتهم زالت من أمام عينيك ، إلا انها ما بادت . وقد حسبتَ انك تقصّر حياتهم وتطوّل حياتك ، غير أن ذلك ليس في قدرتك . فالحياة لا تعرف زماناً ولا مكاناً . إذ تتساوى حياة لحظة واحدة وحياة ألف سنة : حياتك وحياة جميع الكائنات المرئية وغير المرئية في العالم . فإهلاك الحياة ، أو تحويلها ، أمر مستحيل ؛ لأن الحياة هي الشيء الوحيد الموجود . أما كل ما عدا ذلك ، فيبدو لنا فقط انه موجود ."

وحالما قال الشيخ ذلك اختفى .

وفي الغد أصدر الملك أسرحدون اوامره بإطلاق لايلي وجميع الأسرى في سبيل الحرية ، وبالكف عن الإعدامات .

وفي اليوم الثالث دعا ابنه أشوربانيبال ، وسلمه شؤون المملكة . أما هو فمضى إلى الصحراء كي يفكر ملياً في كل ما تعلمه . وبعد ذلك راح يطوف في المدن والقرى جوّالاً يبشّر الناس أن الحياة كلها واحدة ، وأن الناس حين يرغبون في إيذاء الآخرين فإنما يؤذون أنفسهم .

سنة 1903

22

الموت والعمل والمرض في أسطورة

(حكاية خرافية مقتبسة من هنود أميركا الجنوبية)

يُحكى أن الله في البداءة صنع البشر بحيث لا يحتاجون لأن يعملوا . فلم يكونوا يحتاجون إلى بيوت ، ولا إلى ثياب ، ولا إلى طعام ، وعاشوا جميعاً حتى بلغوا المئة ، ولم يعرفوا ما هو المرض .

ولمّا نظر الله ، بعد مدة ما ، ليرى كيف كان الناس يعيشون ، رأى أنهم بدلاً من أن يكونوا سعداء في حياتهم قد تخاصموا بعضهم مع بعض ، وإذ عُني كل منهم بنفسه بلغت الأمور حداً جعل الناس يلعنون الحياة ولا يتمتعون بها أدنى تمتع .

عندئذٍ قال الله لنفسه : "منشأ ذلك أنهم يعيشون منفصلين ، كلّ لأجل نفسه ." ولكي يغير الله هذه الحالة القائمة ، رتب الأمور على نحو جعل من المستحيل على الناس أن يعيشوا بغير أن يعملوا . وتجنّباً للمعاناة من جرّاء البرد والجوع ، أُجبروا آنذاك على بناء مساكن ، وعلى نقب الأرض وغرس الشجر وزرع الحبوب ، وجني الثمر والغلة .

وقال الله لنفسه : "من شأن العمل أن يقرّبهم ويوحدهم . فإنهم لا يستطيعون ، مستقلاً أحدهم عن الآخر ، أن يصنعوا أدواتهم ، ويحتطبوا وينقلوا حطبهم ، ويبنوا بيوتهم ، ويزرعوا ويحصدوا غلالهم ، ويغزلوا ويحوكوا ويصنعوا ثيابهم .

"ومن شأن ذلك أن يجعلهم يفهمون أنهم كلما تعاونوا على العمل صادقين

زاد رزقهم وتحسنت معيشتهم ، الأمر الذي لا بد أن يوحدهم ."

ثم كرّ الزمان ، ومن جديد جاء الله ليرى كيف كان الناس يعيشون ، وهل باتوا سعداء الآن .

غير أنه تعالى وجدهم عائشين أسوأ من سابق عهدهم . فقد كانوا يشتغلون معاً (الأمر الذي لم يتمالكوا أنفسهم عنه) ، ولكن ليس جميعهم معاً ، إذ قد تفرّقوا جماعات صغيرة . وحاولت كل جماعة أن تخطف العمل من الجماعات الأخرى ، فعوّق بعضهم بعضاً ، مبدّدين الوقت والطاقة في صراعاتهم ، حتى ساءت أحوالهم جميعاً .

وإذ رأى الله أن ذلك أيضاً ليس حسناً ، قرّر في سبيل ترتيب الأمور ألا يعرف الإنسان ساعة وفاته بل قد يموت في أية لحظة ، وأعلم بني البشر بذلك .

وقد فكر الله قائلاً : "إذ يعلمون أن أياً منهم قد يموت في أية لحظة فلن يفسدوا ساعات الحياة التي من نصيبهم بالتشبث بمغانم قد تدوم أمداً يسيراً جداً ."

ولكن الأمور آلت إلى غير هذه الغاية . فلما رجع الله ليرى كيف كان الناس عائشين ، رأى أن حياتهم سيئة كحالها كل حين .

ذلك أن الأقوَين استغلّوا واقع كونهم قد يموتون في أي وقت فقهروا الأضعفين ، فقتلوا بعضاً وهدّدوا بعضاً بالقتل . وحدث أن الأقوين ونسلهم لم يعملوا ، وقاسَوا سأم الكسل ، في حين كان على الأضعفين أن يعملوا فوق طاقتهم ، فقاسوا من جرّاء قلة الراحة . فإذا كل فئة من الناس يخشون ويكرهون الأخرى . حتى أن حياة البشر باتت أشد بؤساً وتعساً بعد .

وإذ رأى الله ذلك كله ، قرر في سبيل الإفادة من آخر وسيلة أن يبتلي الناس بمختلف أنواع الأمراض . وقد حسب أنه إذا تعرض جميع البشر للمرض

يفهمون أن على الأصحاء أن يرافوا بالمرضى فيعاونوهم ، حتى إذا مرضوا هم أنفسهم يعاونهم الأصحاء بدورهم .

ومرة أخرى مضى الله بعيداً . ولكنه لما رجع ليرى كيف كان الناس يعيشون آنذاك بعدما باتوا عرضة للمرض ، رأى أن حياتهم أسوأ من ذي قبل . فالمرض الذي قصد الله به أن يوحدهم ، قسمهم أكثر مما مضى . ذلك أن أولئك الذين كانت لهم القوة الكافية لجعل الآخرين يعملون أرغموهم أيضاً على الاعتناء بهم في أوقات مرضهم ؛ غير أنهم هم بدورهم لم يعتنوا بالآخرين في مرضهم . وأولئك الذين أُرغِموا على العمل لأجل الآخرين والاعتناء بهم في مرضهم ، أنهكهم العمل بحيث لم يبق لديهم وقت للاعتناء بمرضاهم الأدنَين ، بل تركوهم بلا عناية . ولكي لا يزعج مرأى المرضى مباهج الأغنياء ، أقيمت بيوت يعاني فيها هؤلاء المساكين ويموتون ، بعيداً عن أولئك الذين كان من شأن عطفهم عليهم أن يُفرحهم ، وعلى أذرع أناس مأجورين يمرِّضونهم بلا شفقة ، بل باشمئزاز أيضاً . ثم إن البشر عدّوا أمراضاً كثيرة معدية ، وإذا خافوا التقاطها ، لم يكتفوا بالتفادي من المرضى ، بل عزلوا أنفسهم أيضاً عمّن انصرفوا إلى الاعتناء بهم .

عندئذٍ قال الله لنفسه : "ما دامت حتى هذه الوسيلة لن تحمل الناس على أن يفهموا أين تكمن سعادتهم ، فليتعلّموا بالمعاناة ." ثم ترك الله الناس وشأنهم .

وإذ تُرك الناس وشأنهم ، عاشوا طويلاً حتى أدركوا أنه ينبغي لهم جميعاً ويمكنهم أن يكونوا سعداء . وفي الأزمنة الأخيرة جداً فقط بدأ نفر منهم يدركون أن العمل لا ينبغي أن يكون كمثقال ذرة على بعض الناس وكاستعبادٍ قاسٍ على غيرهم ، بل ينبغي أن يكون شغلاً عاماً ومبهجاً ، موحّداً البشر أجمعين . وقد بدأوا يدركون أنه ، فيما سيف الموت مُصلَت على كلّ منّا ،

يكمن العمل الوحيد المعقول بالنسبة إلى كلّ إنسان في أن يُمضي السنين والأشهر والساعات والدقائق ، التي من نصيبه ، في الوحدة والمحبة . كما بدأوا يدركون أن المرض ، أناى من تفرقة الناس ، ينبغي على العكس أن يتيح أمامهم فرصة للاتحاد القائم على المحبة في ما بينهم أجمعين .

سنة 1903

23

ثلاثة أسئلة

خطر مرةً في بال ملك من الملوك أنه ما كان ليُخفق في اي امر يتولاه لو تسنّى له دائماً أن يعرف الوقت الصحيح لمباشرة أي عمل ، ولو عرف إلى أي أناس ينبغي أن يصغي وأيهم يتجنّب ، وفوق كل شيء ، لو عرف دائماً ما هو أهم شيء ينبغي فعله .

وإذ خطرت له هذه الخاطرة ، أمر بأن يذاع في مملكته كلها أنه يكافىء مكافأة جزيلة اي شخص يُعلّمه ما الوقت الصحيح لكل تصرف ، وأي الناس يحتاج إليهم اكثر من سواهم ، وكيف يعرف ما هو أهم شيء ينبغي فعله .

فقصد إلى الملك علماء وحكماء ، لكنهم جميعاً أجابوا عن أسئلته إجابات مختلفة .

فجواباً عن السؤال الأول ، قال بعضهم إن السبيل اليسير لمعرفة الوقت الصحيح لكل تصرف هو ان يُرسَم مقدماً جدول أعمال موزّع على الأيام والأشهر والسنين ، وان يجري التزامه بصرامة . وقالوا إن ذلك فقط هو السبيل إلى إنجاز كل أمر في حينه . لكن آخرين صرّحوا بأنه يستحيل أن يُقرّر مقدماً الوقت الصحيح لكل تصرّف ، وإنما على المرء ألاّ يدع نفسه يسترسل في التسليات الخاملة بل يُعنى دائماً بكل ما هو جارٍ ثم يفعل ما تدعو إليه الحاجة اكثر من سواه . وقال آخرون أيضاً إنه مهما كان الملك متنبهاً لما يجري ، يستحيل على رجل واحد أن يقرر الوقت الصحيح لكل تصرّف ، وإنما على الملك أن يتخذ مجلس شورى يضم رجالاً حكماء يعاونونه على تحديد الوقت المؤاتي لكل أمر .

غير أن آخرين أيضاً قالوا إن هنالك أموراً لا يمكن أن تنتظر عرضها على المجلس ، بل ينبغي للمرء أن يقرّر بشأنها هل يباشرها حالاً أو يتركها . ولكن في سبيل ذلك ينبغي للمرء أن يعرف مسبقاً ما سوف يجري . فالسحرة وحدهم يعرفون ذلك ، وعلى المرء لذلك أن يستشير المنجمين ليعرف الوقت الصحيح لكل تصرّف .

وبالمِثل كانت متنوعة الأجوبة عن السؤال الثاني . فقد قال بعضٌ إن الذين يحتاج إليهم الملك أكثر من سواهم هم مستشاروه . وقال آخرون إن أولئك هم الكهنة ؛ وغيرهم إنهم الأطباء ؛ فيما قال بعضهم إن الملك في مسيس الحاجة إلى المحاربين .

وجواباً عن السؤال الثالث ، بشأن المهنة الأهم ، أجاب بعضهم بأن أهم شيء في الحياة هو العلوم . وقال آخرون إن ذلك هو البراعة في الشؤون الحربية ؛ كما قال غيرهم إنه العبادة الدينية .

ولمّا كانت جميع الأجوبة متضاربة ، فلم يوافق الملك على أيٍّ منها ، ولم يكافىء أحداً . إلا أنه كان ما يزال راغباً في العثور على أجوبة عن أسئلته ، فقرر أن يستشير ناسكاً اشتهر بحكمته .

كان ذلك الناسك يقيم في غابة لم يغادرها قط ، ولم يكن يستقبل سوى عامّة الناس . فتنكر الملك بزيّ بسيط ، وترجّل عن جواده قبل وصوله إلى صومعة الناسك ، حيث خلّف حرّاسه ، وتابع طريقه وحده .

ولمّا وصل الملك ، كان الناسك ينقب الأرض أمام كوخه . فإذ رأى الملك ، حيّاه وظل ينقب . وكان الناسك ضعيفاً وواهناً ، فكلما ضرب معزقته في الأرض وقلب بعض التراب تثاقلت أنفاسه .

فصعد الملك إليه وقال : "لقد جئت إليك ، أيها الناسك الحكيم ، طالباً أن تجيبني عن ثلاثة أسئلة : كيف أتعلّم أن أعمل الشيء الصحيح في الوقت

المؤاتي ؟ ومن هم الذين أحتاج إليهم أكثر من سواهم ، وتالياً لمن أستمع أكثر من غيره ؟ وأية شؤون هي الأكثر أهمية والتي تستدعي اهتمامي الأول ؟"

أصغى الناسك إلى الملك ، لكنه لم يجب بشيء ، بل اكتفى بأن بصق على يده واستأنف النقب .

فقال له الملك : "إنك متعب ، فأعطني المعزقة لأشتغل عنك قليلاً ."

قال الناسك : "شكراً!" وناول الملك المعزقة . ثمَ قعد على الأرض .

ولمّا نقب الملك تلمين ، توقّف وكرر أسئلته . وأيضاً لم يجب الناسك ، بل نهض ومدّ يده طلباً للمعزقة ، وقال :

"الآن استرح هنيهة ، ودعني أعمل قليلاً ."

غير أن الملك لم يعطه المعزقة ، وظل ينقب ، حتى مضت ساعة ، ثمّ أخرى . وبدأت الشمس تزول خلف الأشجار ، فغرز الملك أخيراً المعزقة في الأرض وقال :

"لقد جئت إليك ، أيها الحكيم ، طلباً للإجابة عن أسئلتي . فإن كنت لا تستطيع أن تعطيني أي جواب ، فقل لي أعُد إلى بيتي ."

إذ ذاك قال الناسك : "هوذا شخص يركض ، فلنرَ من هو ."

فالتفت الملك ، وإذا به يرى رجلاً ملتحياً آتياً راكضاً من الغابة . كان الرجل ضاغطاً بيديه على معدته ، والدم يسيل من تحتهما . ولما وصل قرب الملك خرّ على الأرض مغشيّاً عليه وهو يئنّ أنيناً واهياً . فحل الملك والناسك ثياب الرجل ، وإذا في بطنه جرح ثخين . فغسله الملك على أفضل ما يستطيع ، وضمّده بمنديله وبمنشفة كانت عند الناسك . إلاّ أن الدم لم يكف عن النزف ، فعمد الملك مراراً وتكراراً إلى إزالة الضماد المبلّل بالدم الحارّ ، وإلى غسله وإعادة تضميد الجرح به . حتى إذا توقف نزف الدم أخيراً ، انتعش الرجل وطلب أن يشرب . فأحضر الملك ماء عذباً وسقاه . وفي تلك الأثناء كانت

الشمس قد غربت ، وبرد الطقس . فمن ثم حمل الملك الجريح ، بمعاونة الناسك ، إلى داخل الكوخ وأضجعه على السرير . وحالما اضطجع الرجل على السرير أغمض أجفانه وسكنت حركته . إلا أن الملك كان مرهقاً للغاية من المشي ومن العمل الذي عمله ، بحيث ربض على العتبة وغطغط عليه النوم أيضاً ، فنام نوماً ثقيلاً طوال تلك الليلة الصيفية القصيرة . ولمّا استيقظ صباحاً ، مضى وقت طويل قبل أن يتذكّر أين كان ومَن ذلك الملتحي الغريب الممدّد على السرير والمحملق إليه بعينين بارقتين .

قال الرجل الملتحي بصوت واهٍ : "سامحني" ، لمّا رأى الملك مستيقظاً يحدّق إليه .

فرد الملك : "لست أعرفك ، وليس عندي ما أسامحك به"

"أنت لا تعرفني ، ولكنني أنا أعرفك . أنا عدوّك ذاك الذي أقسم لينتقمن منك لأنك أعدمت أخاه واستوليت على أملاكه . فقد علمتُ أنك خرجتَ وحدك لرؤية الناسك ، وعقدتُ عزمي على قتلك وأنت عائد . غير أن النهار ولّى ، وأنت ما عدت . فخرجت من مكمني للعثور عليك ، وصادفني حُرّاسك فعرفوني وجرحوني . ثم أفلتّ منهم ، وكنت سأنزف حتى الموت لو لم تضمّد جرحي . أنا رغبت في قتلك ، وأنت أنقذت حياتي . فالآن إن سامحتني ، وإن رضيت ، أخدمك بوصفي عبدك الأوفى ، وأطلب من أبنائي أن يحذوا حذوي . فهلاّ تسامحني؟"

سُرّ الملك أن يتصالح مع عدوّه بهذه السهولة ، وأن يكسبه صديقاً له . فلم يكتف بأن سامحه ، بل قال إنه سيرسل خدامه وطبيبه الخاص للاعتناء به ، ووعده بإرجاع الأملاك إليه .

ثم غادر الملكُ الجريحَ وخرج إلى الرواق ، وتطلع باحثاً عن الناسك . فقبل رحيله ودّ مرة أخرى لو يرجو من الناسك أن يجيبه عن أسئلته . وإذا

بالناسك جاثٍ في الحقل على ركبتيه يزرع البذار في الأتلام التي نُقبت يوم أمس .

فدنا منه الملك وقال : "أرجو منك ، آخر مرة ، أن تجيب عن أسئلتي أيها الحكيم!"

أجاب الناسك ، وهو ما يزال جاثياً على ساقيه النحيلتين : "ها قد حصلت على الأجوبة!" رافعاً عينيه نحو الملك الواقف أمامه .

فسأل الملك : "وكيف حصلت على الأجوبة ؟ ماذا تعني ؟"

فردّ الناسك قائلاً :

"أما ترى ؟ لو لم تشفق على ضعفي يوم أمس ، ولم تنقب لي هذه الأتلام ، بل مضيت في سبيلك ، لهاجمك ذلك الرجل وندمت على عدم بقائك عندي . وعليه ، فالوقت الأهم كان حينما نقبت الأتلام ؛ وأنا كنت الرجل الأهم ؛ وإحسانك إلي كان العمل الأهم . وفي ما بعد ، حين ركض ذلك الرجل إلينا ، كان الوقت الأهم حينما اعتنيتَ به . فلو لم تضمد جرحه ، لمات بغير أن يتصالح معك . وهكذا كان هو الرجل الأهم ، وما فعلته به كان عملك الأهم . فتذكر إذاً أن هنالك فقط وقتاً واحداً مهماً ، ألا وهو الآن! إنه الوقت الأهم لأنه الوقت الوحيد الذي تكون لنا فيه قوة ما . أما الرجل الذي تحتاج إليه أكثر من سواه فهو ذاك الذي تكون معه ، لأن لا أحد يعلم هل تكون له معاملات مع أي شخص آخر غيره . وأما الشأن الأهم فهو أن تصنع له الخير ، لأنه من أجل هذا السبب فقط أُرسِل الإنسان إلى هذه الحياة!"

سنة 1903